

مكتبة

أدب  
سوپري  
حديث

رېتشارد هارقل

ترجمة: عماد منصور

# الأجراس



الحروقة

# الأجراس

## ريتشارد هارقل

انضم ل مكتبة .. اصنع الكود

تليجرام



سور الأزيكية

عنوان الكتاب: الأجراس The Bells  
المؤلف: ريتشارد هارفل Richard Harvell  
ترجمة: عماد منصور  
مراجعة لغوية: محمود شرف  
إخراج داخلي: رشا عبدالله

المحرسة

للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة  
ت. ف- 002 02 28432157



mahrousaeg



almahrosacenter



almahrosacenter



www.mahrousaeg.com



info@mahrousaeg.com



mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران

مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ٢٠٢٣ / ١٦٢٥٤

الترقيم الدولي: 978-977-313-984-1

جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية

محفوظة لمركز المحرسة

2023

للمؤسسة التماثلية السويسرية

prohelvetia

"The translation of this work was supported by a grant from the Swiss Arts Council Pro Helvetia."

Copyright © 2010, 2011 by Richard Harvell

All rights reserved including the right of reproduction in whole or in part in any form.  
This edition published by arrangement with Crown, an imprint of Random House, a division of Penguin Random House LLC

رواية

مكتبة

[t.me/soramnqraa](https://t.me/soramnqraa)

**الأجراس**

**ريتشارد هارقل**

**ترجمة**

**عماد منصور**



**بطاقة فهرسة  
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية**

**هارفل، ريتشارد**

**الأجراس: رواية/ ريتشارد هارفل؛ ترجمة: عماد منصور. ط1  
القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2023**

**543 ص؛ 21.5×14.5 سم**

**تدمك 1-984-313-977-978**

**1 - القصص السويسرية**

**أ-منصور، عماد (مترجم)**

**ب- العنوان**

**849.43**

**رقم الإيداع 2023/16254**

إلى دومينيك



## تنويه إلى القارئ

ترعرعتُ ابنًا لرجلٍ لا يمكن بأيِّ حال أن يكون أبي. ورغم أنه لم يوجد أيُّ شك بأن بذرتي قد أتت من رجل آخر، إلا أن موسى فروبن - (السويسري *Lo Svizzero*)- كان يدعوني "ابني" وأدعوه "أبي". في المرّات النادرة التي حاول فيها أحدهم السؤال عن إيضاح، كان يضحك فحسب كما لو أن السائل إنسان أبله. "بالطبع إنه ليس ابني!" يجيبه. "لا تكن سخيفًا".

لكن متى حدثتُ واستجمعتُ شجاعتي لسؤاله عن تفاصيل أكثر عن ماضينا، كان ينظر إليّ فحسب بحزن. "أرجوك، نيكولاي"، يقول بعد وهلة، كما لو كنّا عقدنا ميثاقًا ونسيته أنا. بمرور الوقت، أدركتُ أنني لن أعرف أبدًا أسرار ميلادي؛ ذلك أن أبي كان الإنسان الوحيد الذي يعرف تلك الأسرار، وكان عازمًا على حملها معه إلى قبره.

ما عدا ذلك، لم يكن لأيِّ طفلٍ أن يتمنّى أكثر ممّا لديّ. رافقته من فينيسيا إلى نابولي، وأخيرًا، هنا، إلى لندن. لم أترك جانبه إلا نادرًا حتّى



التحقّت بأكسفورد. وحتّى بعد ذلك، عندما بدأت حياتي العملية، البعيدة عن مجاله، لم يكن افتراقنا عن بعضنا البعض يزيد لأكثر من شهرين قط. كنتُ أسمعُه يغني في أكبر الأوبرات في أوروبا. أجلس بجواره في عربته فيما حشود المعجبين تهرع على طول الطريق، وترجوه أن يُحييها بابتسامة. خلال كل هذا، أبدًا لم أعرف شيئًا عن موسى فروبن البائس؛ لم أعرف سوى (السويسري *Lo Svizzero*) الشهير، الذي كان بمقدوره إصابة النساء بإغماءات بمجرد تلويحة من يديه، الذي كان بمقدوره استدراج جمهور بصوته فحسب.

لَكَ أن تتخيّل بالتالي مدى اندهاشي عندما اكتشفتُ هذه الكومة من الأوراق، بعد أسبوعٍ من وفاة أبي في الربيع الفائت، ووجدتُ فيها كل ما كنتُ أتوقّى إلى معرفته: عن ميلاد أبي وميلادي؛ عن أصل اسمي؛ عن أمي؛ وعن الجريمة التي طالما أبقت أبي صامتًا.

رغم أنه فيما يبدو كان يقصدني أنا كقارئ لهذه الأوراق؛ إلا أنني لا أصدق حتمًا أنه لم يرغب في أن تقع أعينٌ أخرى عليها أيضًا. كان أبي مُغنيًا، تذكّر، مارسَ غناءه بجوار النوافذ المفتوحة، حتّى يحظى أيُّ رجل أو امرأة تعبر الشارع بالفرصة لسماع ملاكٍ يُغني.

نيكولاي فروبن

لندن، 6 أكتوبر، 1806

## الفصل الأول



# مكتبة (1)

t.me/soramnqraa

في البدء كانت الأجراس -ثلاثة منها- مصبوبةً من مجارف ومعارق ومعاول مُلتوية، وقدورٍ مُتكسرة، ونصال محارث كايية، وموقد صَدِي واحد، مصهورةً في بعضها البعض، وعملة ذهبية واحدة في كل منها. كانت أجراسًا خشنة وسوداء باستثناء على طول حوافها الفضية، حيث ضَرَبَتْ مطارق أمِّي مليون ضربةً. كانت أمِّي ضئيلة بما يكفي لترقص تحتها في برج الأجراس. وفي تمايلها، تتواثب قدمها من الألواح الخشبية المصقولة، ليقابل الجرس المطرقة، ويُجلجل من تاجه إلى أطراف نعل أمِّي المُدَبَّب.

كانت أعلى أجراس الأرض صوتًا، كل أبناء وادي أوري قالوا بهذا، ورغم أنني أعرف الآن أجراسًا أقوى منها، إلا أن موضعها على وادي أوري جعلها صادحةً بحق. كان بالإمكان سماعها صداها من مياه بحيرة لوتسرن وحتى ثلوج معبر جوتارد. كانت صلصلتها تُحْيِي التجار القادمين من إيطاليا، وتُجِرّ الجنود السويسريون على الضغط

براحتهم على آذانهم فيما يسرون في أرتالٍ مُحْتَشِدَةٍ على طريق أوري. عندما تبدأ في القرع، ترفض جحافل الثيران التَّعَرُّك، وحتى أكثر الرجال بدانةً يفقد الرغبة في الأكل من الرجفة في أمعائهم. سرعان ما أصيبت الأبقار التي ترعى في المروج بالضَّمَم، وصارَ الشباب من رعاة القطعان ذوي آذانٍ كابية كالعجائز رغم اختبائهم في أكواخهم صباحًا وظهيرةً وليلاً عندما تقرر أمِّي أجراسها.

وُلِدْتُ في برج الأجراس ذاك، فوق الكنيسة الصغيرة. هناك أُرِضْتُ. وعندما يصير دافئًا بما يكفي، هناك كُنَّا ننام. إذا لم تكن تؤرجح مطارقتها، كُنَّا نجتثم معًا تحت الأجراس، بالحوائط الأربعة لبرج الكنيسة مفتوحةً على العالم. كانت أمِّي تحميني من الرياح وتُمسِّد على جبيني. ورغم أنها لم تنطق بكلمة لي، ولا أنا لها، إلا أنها كانت تراقب فمي فيما أهذر بأصوات الرُّضْع. كانت تدغدغني حتى أضحك. عندما تعلَّمْتُ الحبو، كانت تُمسك بقدمي حتى لا أسقط من الحافة وألقى حتفي على الصخور الناقطة في الأسفل. تساعدني على الوقوف. أمسك بإصبع في كل قبضة، وتقودني هي في دوائر، مارِّين بالحافة مائة مرة في اليوم. من ناحية المساحة، كان بُرج أجراسنا عالمًا متناهي الصُّغر - الكثيرون ظنُّوه سجنًا لطفل. لكن من ناحية الصوت، كان أضخم بيت على الأرض. ذلك أن كل صوتٍ انبعثَ قطً كان مسجونًا في معدن هذه الأجراس، وفي اللحظة التي تطرقها فيها أمِّي، كانت تُطلق جمالها إلى العالم. بذلك كانت آذانٌ كثيرة تسمع الدويَّ الراعد بصداه يتردَّد عبر الجبال. كانوا يَمَقْتُونه؛ أو يُلْهِمُون بقدْرته؛ أو ينتشون حتى يجدوا أنفسهم يحدِّقون في الفراغ؛ أو يصرخون فيما الاهتزازات تنزع عنهم أحزانهم. لكنهم لم يجدوه جميلًا. لم يكن بمقدورهم. كان جمال ذلك الدويِّ محفوظًا لأمِّي، ولي، وحدنا.

\* \* \*

أتمنى لو كانت البداية هكذا حقًا: أمي وهذه الأجراس فحسب،  
حواء وآدم صوتي، وأفراحي، وأحزاني. لكن هذا لم يكن حقيقياً بالطبع.  
لديّ أب؛ أمي أيضاً لديها أب. والأجراس أيضاً، لديها أب. أبوها هو  
ريتشارد كيلشمار؛ الذي ترنّج ذات ليلة عام 1725 على منضدة، ثملاً  
للغاية، لحدّ أنه رأى قمرين وليس واحداً.

أغلق عيناً واعتصر الأخرى حتى امتزج القمران في مدار مُغْبِشٍ  
واحد. تطلّع من حوله: مائتا رجل يملؤون ميدان آلتدورف، في مدينة  
كانت تفتخر لكونها في القلب من الكونفدرالية السويسرية. كان  
هؤلاء الرجال يحتفلون بالحصاد، وتتويج البابا الجديد، وليلة الصيف  
الدافئة. مائتا رجل غارقون حتّى أعقابهم في الطمي الممتزج بالبول.  
مائتا رجل بأقداح خمرة الشنابس اللاذعة المسفوعة من ثمار إحصاء  
وادي أوري. مائتا رجل سكارى مثل ريتشارد كيلشمار.

"هدوء!" صرخَ في الليل، الذي بدا له دافئاً ورائقاً تماماً كالأفكار  
الدائرة في رأسه. "سأتحدّث".

"تحدّث!" صرخوا بدورهم.

صاروا هادئين. وعالياً فوقهم، التمعتُ ذرى الألب في ضوء القمر  
كأسنان وسط لثة سوداء، مُتَعَفِّنة.

"البروتستانت كلاب!" صرخَ، رافعاً قدحه، وموشكاً على التّعثرُ  
والسقوط من المنضدة. هتفوا وصبّوا اللعنات على الكلاب في زيورخ،  
تلك الكلاب الثريّة. صبّوا اللعنات على الكلاب في برن، وعلى الكلاب  
ذات البنادق وجيشها الذي بمقدوره تسلّق الجبال وغزو وادي أوري إذا  
شاء. صبّوا اللعنات على الكلاب في الأراضي الألمانية في الشمال البعيد؛  
الكلاب التي لم تُسمَع قطُّ بوادي أوري. صبّوا اللعنات على الكلاب  
لكرهها الموسيقي، لتشويهها مريم العذراء، لرغبتها في إعادة كتابة  
الكتاب المقدّس.

اخترقت هذه اللعنات، راكدةً لمائتي عام في عواصم أوروبا، قلب كيلشمار. استدرّت الدموع في عينيه- هؤلاء الرجال أمامه هم إخوته! لكن بماذا يجيبهم؟ بماذا يستطيع أن يعيدهم؟ القليل جدًا. ليس في مقدوره أن يبنى لهم قلعةً ذات مدافع. كان واحدًا من أغنى رجال وادي أوري، لكن لا يستطيع الإنفاق على جيش. لا يستطيع مواساتهم بحكمته؛ ذلك أنه لم يكن رجُلَ أدب.

ثم سمعوها جميعًا، الإجابة على تضرّعه الصامت. جلجلةٌ جعلتهم يرفعون أعينهم العمشاء نحو السماء. أحدهم تسلّق برج الكنيسة وقرعَ الجرس. كان أجمل وأمضُّ صوتًا سمعه ريتشارد كيلشمار في حياته. تردّد صداه عبر المنازل والجبال. نغزَ الدويُّ بطنَه المنتفخة. وعندما توقّفت الجلجلة، كان الصمت دافئًا ورطبًا كالدموع التي فركها كيلشمار عن عينيه.

أومًا للحشد. أجابته مائتا رأس بمائتي إيماءة.

"سأمنحكم أجراسًا"، همسَ. أجالَ قدحه عبر سماء منتصف الليل. ارتفع صوته حتى تحوّل إلى صياح. "سأبني كنيسة لإيواء تلك الأجراس، عاليًا في الجبال، حتى يصل صدى الجلجلة إلى كل إنشٍ من تراب أوري! ستكون أصدح وأجمل أجراسًا بُنيت قطًا!".

ازداد هتافهم صخبًا عن ذي قبل. رفعَ ذراعيه في انتصار. غسلت خمرة شنابس جبينه. ثم غمسَ والباقون أعينهم في قاع أقداحهم واجترعوا ما فيها لآخر قطرة، مُصدّقين على وعد كيلشمار.

فيما يحتسي القطرة الأخيرة، تعثّر كيلشمار في خطوة راجعة وسقط من على المنضدة. قضى بقية الليل مستلقيًا في الطمي، يحلُمُ بأجراسه. استيقظَ ليجد نفسه وسط دائرة من سماءٍ زرقاء مُشكّلة من عشرين وجهًا غارقًا في التبجيل.

"أرشدنا!" توَّسَّلوا إليه.

بدا تبجيلهم له وكأنه يرفعه لينهض واقفاً، وبعد ستَّ أو ثَماني  
رشفاتٍ نهمةٍ من أقماعهم، ازداد شعوره بانعدام وزنه. سرعان ما وجد  
نفسه على ظهر حصانه يقود مسيرةً طويلة: خمسين حصاناً؛ عربات  
كثيرة ممتلئة بالنساء؛ وأطفال وكلاب تندفع عبر العُشب. إلى أين  
يقودهم، لم يعرف، ذلك أنه حتَّى ذلك اليوم كان يجد الجبال عدائيةً  
وتهديدية. ولكنه الآن يقودهم صعوداً على طريق أوربي نحو إيطاليا،  
نحو البابا، نحو حقول الجليد التي تلتمع في الشمس، وعندما استولى  
عليه الإلهام، انحرف بهم عن الطريق وبدؤوا في التَّسلُّق.

عاليًا وعاليًا صعودوا، حتَّى المنحدرات والجليد تقريبًا. كيلشمار  
يقود الآن خمسمائة من أبناء أوربي، وقد تَبِعُوهُ حتَّى وصلوا إلى نتوء  
صخري ورأوا الوادي يمتدُّ أمامهم، ونهر ريوس كخيْطٍ أبيض رفيع  
يضمُّ أطراف الوادي معًا.

"هنا"، همسَ. "هنا".

"هنا"، ردُّدوا. "هنا".

ثم استداروا لينظروا إلى القرية الصغيرة تعتهم مباشرةً، مجرد  
مجموعة عشوائية من المنازل البدائية. حدَّقَ أهل القرية وأبقارهم  
العجفاء برهبةٍ في هذا الاحتشاد عند التَّلِّ الصخري.

هذه القرية الصغيرة، الجائعة، التي أكتب عنها هي قرية نيبلمات.  
في هذه القرية ولدْتُ (لتحترق حتَّى تُسَوَّى بالأرض وتُغَطِّيها أنهارات  
الجليد).

\* \* \*

اكتمَلَت كنيسة كيلشمار في عام 1727، بعد أن شُيِّدَت بَعَرَق أوربي  
وبحجارة أوربي فحسب، وبهذا ظلَّت الكنيسة في شهور الشتاء، مهما



أُحرق من أخشابٍ في الموقد، باردةٌ كالجبل التي شُيِّدت عليه. كانت كنيسة قصيرة وعريضة، بشكلٍ يشبه الحذاء. طُلبَ من الأسقف إرسال قسٍّ مناسبٍ للمنصب الذي يفرض الوحدة والوحشة. جاء ردهُ بعد أيام قليلة في صورة قسٍّ شاب، كالح الوجه على باب كيلشمار. الأب المتعلّم كارل فيكتور فوندراخ. "الرجل المطلوب"، قالت رسالة الأسقف، "لوضعه في منصب على جبل ناءٍ، بارد. لا تُعده إلينا مُجدِّدًا".

صار للكنيسة الآن سيّدٌ، واثننا عشرة أريكة بسيطة وسقفٌ يحميها من الأمطار، لكنها لا تحوي بعدُ ما وعدَهم به كيلشمار: لم تحصل على أجراسها؛ ولهذا حَزَم كيلشمار أغراضه في عَربَتِه، وقَبِل زوجته، وقال إنه سينطلق في رحلة استكشافية إلى سانت غال لبحث عن أعظم صانع أجراس في العالم الكاثوليكي. قرَّعَ في اتجاه الشمال تدفعه صيحات الوطنية، ولم يره أحدٌ في أوري مُجدِّدًا قط.

كان بناء الكنيسة قد قُضى عليه.

وهكذا، بعد عامٍ من وضع آخر لوحٍ على سقفها، لم تكن الكنيسة، المشيَّدة لإيواء أصدح وأجمل الأجراس قاطبةً، تحوي جرس بقرةٍ حتَّى في بُرجها.

\* \* \*

كان أبناء أوري شعبًا ذا عزيمة وكبرياء. ماذا يتطلَّب الأمر لصنع جرس؟ فكروا. قوالب من الفقَّار، بعض المعدن الذائب، بعض العوارض لتعليق الأجراس المنجزة عليها. وليس أكثر من ذلك. ربما لم يُرسل لهم الرُّبُّ بكيلشمار إلَّا لوضعهم على بداية الطريق فحسب.

الرُّبُّ يحتاج إلى دَهِيك، انطلق النداء. اجلب نحاسك وقصديرك.

معاول صدئة، مجارف مُتكسرة، سكاكين متآكلة، قدور مُتشققة. ألقي كل هذا في كومة سرعان ما تحوَّلت إلى برجٍ سامقٍ في ميدان

التدورف في نفس الموضع الذي قدّم فيه كيلشمار وعده قبل ثلاثة أعوام. كانت الحشود تهتف مع كل عطية جديدة. قدّم واحد من الرجال الموقد الذي كان يبقيه دافئًا ذلك الشتاء. ليباركها الرب، كانت الغمغمت عندما طرحت أرملة عجوز كل مجوهراتها. تدفقت الدموع عندما اتّحدت أفضل ثلاث عائلات لتقديم ثلاث عملات ذهبية. احتاج الأمر إلى عشر عربات تجرّها الثيران لنقل كل هذا إلى القرية. لم يكن من الممكن تجاهل أهل قرية نييلمات، رغم أنه لم يكن لديهم سوى قليل من المعدن لتقديمه. مع اعتنائهم بوعاء الصهر المؤقت طوال تسعة أيام وتسع ليالٍ، ساهموا أيضًا بأيّ ممّا تبقى من خمرة شنابس في دوارقهم عند الفجر، بالإضافة إلى مجموعة كاملة من أسنان ذئب، وقرن وعل منقور، وكسرة مغبرة من الكوارتز.

اثنا عشر رجلًا أصيبوا بندوب إلى آخر حياتهم بسبب الحروق في اليوم الذي صبّوا فيه الحساء المتوهّج في القوالب. كان الجرس الأول مستديرًا كديك رومي بدين، والثاني كبيرًا بما يكفي لإخفاء ماعز صغير تحته، فيما كان الثالث، الجرس الثالث العجائبي، بارتفاع قامة رجل واحتاج إلى ستة عشر حصانًا لرفعه إلى البرج.

احتشد أهل أوري جميعهم على التلّ أسفل الكنيسة لسماع الأجراس تُقرع للمرة الأولى. عندما هُيئ كل شيء، استدار المحتشدون بأعينهم التبجيلية إلى الأب كارل فيكتور فوندراخ. حدّق فيهم بدوره كما لو كانوا مجرد قطع من الأغنام.

"مباركة، أيّها الأب؟" همست واحدة من النساء. "هلاً باركت أجراسنا؟".

فرك صدغيه ثم خطا أمام الحشد. أحنى رأسه، وفعل الجميع مثله. "أبانا الذي في السماء"، نعى من خلال اللعاب المتراكم في حلقه. "بارك هذه الأجراس التي منحتها..."، تنشق وتطلّع من حوله، ثم ألقى

نظرة خاطفة على حذائه، الذي كان يستقرُّ في كعكة رطبة من البراز.  
"اللعة عليهم جميعًا"، غمغم. خطا متراجعا مُخترقًا الزحام. راقبوا  
شكله البشري حتى اختفى في منزله، الذي كان ذا نوافذ زجاجية، لكن  
دون ألواح بَعْدُ على سقفه.

ثم استدارَ الحشد الصامت لمراقبة سبعة من أبناء عمومة  
كيلشمار يسرون بثباتٍ وعزمٍ إلى داخل الكنيسة- أحدهم لقرع  
الجرس الأصغر، واثنان لقرع الأوسط، والبقية لقرع الجرس الأكبر  
حجمًا. حبس كثيرون في الحشد أنفاسهم فيما بدأت الأجراس الثلاثة  
العظيمة، في برج الكنيسة، في الاهتزاز.

ثم بدأت أصدح وأجمل الأجراس قاطبةً في الطنطنة.

ارتعش هواء الجبل. تدفَّق الدويُّ عبر الوادي. كان صارًا كمِفْصَل  
صدئ، وهادرًا كانهيارٍ جليدي، وحادًا كصرخة، ولطيفًا كهمسة أمٍّ.  
صرخ كل إنسان وجفل وألقى بيديه على أذنيه. تعثَّروا في خطواتهم  
مُتراجعين. تشقَّقت نوافذ الأب كارل فيكتور. ضُمَّت أسنانُ بشدةٍ حتَّى  
تشظَّت. انفجرت طبلات آذان. شعرت بقرة، وعنزتان، وامرأة، بوخزاتٍ  
مفاجئة من ألم المخاض.

عندما تلاشى الصدى من دُرى الجبال البعيدة أخيرًا، ساد الصمت.  
حدَّق الجميع في الكنيسة وكأنها ستنهَار. ثم اندفع الباب مفتوحًا  
وظهرَ منه أبناء عمومة كيلشمار هارعين، راحاتهم تُمسك بأذانهم  
المعطوبة. واجهوا الحشد وكأنهم لصوص متلبَّسون بسرقة الكنز في  
سراويلهم.

ثم بدأ الهتاف. ارتفعت الأيادي نحو السماء. اهتزَّت القبضات.  
تدفَّقَت الدموع. لقد فعلوها! قُرِعَت أصخب الأجراس قاطبةً!

كانت مملكة الرَّبِّ على السماء في أمان!

تراجع الحشد ببطء هابطاً التلّ. عندما صاح أحدهم: "اقرعوها مُجدِّدًا!!"، كان هناك تذلل جماعي، وسرعان ما بدأ الاندفاع- ركض الرجال والنساء والأطفال، والكلاب والأبقار، وانزلقوا وتدرجوا هابطين التلّ الطيني واختبؤوا خلف المنازل المتهالكة كما لو أنهم يحاولون الهروب من سيل تلجي. ثم كان هناك صمت. رؤوس كثيرة أمعنت النظر حول المنازل ونحو الكنيسة. لم يروا أبناء عمومة كيلشمار في أيّ مكان. في الواقع، لم يعد هناك إنسان في محيط مائتي ياردة من تلك الكنيسة. لم يعد هناك إنسان شجاع بما يكفي ليقرع الأجراس مُجدِّدًا. أم كان هناك؟ امتلأ الهواء بالهمسات. أشار الأطفال إلى لطخة داكنة تتحرك بخفة صاعدة التلّ، كربطة تبن، تدفعها ريح رقيقة. رجل؟ لا، ليس رجلًا. بل طفلة -فتاة صغيرة- في أسمال قذرة.

هكذا حدث أن كان لهذه القرية، من بين كتوزها، فتاة بلهاء صماء. كانت معتادة على التحديق في أهل القرية بنظرة متوهجة متوعدة، كما لو أنها تعلم بالخطايا التي يجاهدون لإخفائها؛ ولهذا كانوا يبعدونها بجرادل مياه الغسل القذرة متى اقتربت منهم. كانت هذه الطفلة الصماء تُحدّق في برج الكنيسة فيما تتسلّق التلّ، وسمعت الأجراس أيضًا، ليس بأذنيها الخاويتين، لكن كما تُسمع القداسة: بارتعاشة في الأحشاء.

راقبوها جميعًا تتسلّق التلّ، مُدركين أن الربّ قد أرسل بهذه الفتاة البلهاء إليهم، تمامًا كما أرسل إليهم بكيلشمار من قبل، وكما أرسل إليهم بالأحجار لبناء هذه الكنيسة، وبالمعدن لصبّ أجراسها. رفعت بصرها إلى برج الكنيسة وكأنها تتمنّى لو تستطيع الطيران.

"اصعدي"، همسوا. "اصعدي".

\* \* \*

لم تسمع حثهم لها. لكنها اندفعت، بفعل ذكرى دويّ الأجراس، نحو أبواب الكنيسة التي لم تطأها من قبل قط. كانت هناك شظايا من الزجاج على الأرضية -من النوافذ المتكسرة- ما جعلها تُخلف وارهها آثار أقدام دامية فيما تصعد الدّرج الضيق في ظهر الكنيسة. في الطابق الأول من برج الأجراس، كانت الجبال الثلاثة تتدلّى عبر السقف. لكنها كانت تعلم بأمر الجبال، وتعرف أن هذا السحر لا يأتي منها، أنها تُرشدّها إلى الأعلى، فصعدت السُّلم ورفعت الشبكة الحاجزة برأسها. كانت جوانب برج الكنيسة مفتوحة -بلا حاجز لمنع السقوط- ورأت أربعة مشاهد مختلفة: على اليسار، الجُرف الخاوية؛ في المقدمة، الوادي يلتفّ صاعدًا نحو إيطاليا؛ إلى اليمين، معبر سوستين المُغطّى بالثلج؛ وعندما صعدت عبر باب الشبكة، وراءها، كان جمهورها محتشدًا حول المنازل كالديدان حول اللحم المتعفن. سارت تحت أكبر الأجراس وتعمّنت في ظلاله. جسدٌ أسود وخشن. شَبَّتْ بقدميها وضربته بيدها. لم يتحرك. لم تشعر بصوت. كانت هناك مطرقتين نحاسيتين تستندان على الحائط في الزاوية. رفعت واحدة منهما وأرجحتها ضاربةً الجرس الأكبر.

في البداية، شعرت به في بطنها، كلمسة يدٍ دافئة. انقضّت أعوامٌ طويلة منذ لامسها بشر. أغلقت عينيها وشعرت بتلك اللمسة تتشعّب إلى فخذيها، وتنطلق عبر ضلوعها. تنهّدت. قرّعت الجرس مُجددًا بالمطرقة، بأقوى ما تستطيع، ومَضَّت اللمسة أبعد. التفت حول ظهرها وكتفّيها. بدت وكأنها تحملها؛ صارت تطفو في الصوت. مرّة تلو الأخرى ضربت الجرس، وازداد ذلك الصوت دفنًا.

قرّعت الجرس الأوسط. سَمِعْتَهُ في عنقها، في ذراعيها، في التقويرات وراء ركبتيها. انغمس فيها الصوت، كأيدٍ دافئة تُباعد بين أطراف

جسدها، صارت، في ذلك الجسد الضئيل، أطول وأعرض من أي وقت مضى.

سَمِعَت الجرس الصغير في فكّها، في لحم أذنيها، في تقوُّسات قدميها. طَوَّحَت بِالْمِطْرَقَةِ مُجَدِّدًا وَمُجَدِّدًا. رفعت المِطْرَقَةَ الثانية حتَّى تستخدم كلتا ذراعيها في ضرب الأجراس.

\* \* \*

في القرية، في البداية، أطلقوا التهتافات والصياحات احتفالاً بالمعجزة. تَرَجَّعَ صدى الدَّوِيِّ إِلَيْهِمْ عبر الوادي. أغلقوا أعينهم وأنصتوا إلى مَجْدِهِمْ.

قَرَعَت الأجراس. انقضت نصف ساعة. لم يستطيعوا سماع بعضهم البعض. صرَّحَ بعضهم حتَّى يُسْمَعَ؛ وجلسَ أغلبهم على جذوع الأشجار أو استندوا على المنازل وضغطوا بأياديهم على آذانهم. كانت الخنازير قد شُوِيَت بالفعل، وبراميل البيرة قد نُقِّبَت، لكن كيف لهم أن يبدؤوا احتفال النَّصر دون مباركة؟

"توقَّفِي!" صاح أحدهم.

"اصمتي!"

"يكفي!"

لَوْحُوا بقبضاتهم في اتِّجَاه الكنيسة.

"ليوقفها أحدكم!"

عند هذه الدعوة، تطلَّعَ كل واحدٍ منهم بخجلٍ إلى جاره. لم يخطُ أحدٌ إلى الأمام.

"أحضروا أباه!" صرخوا. "هذه هي وظيفة الأب."

دفعوا بإيزو فروبن العجوز، راعي الغنم الذي أنجبت زوجته هذه الفتاة المشوّهة بعد عشرين عامًا من الزواج. لم يزد عمره عن الخمسين، لكنّ عينيه كانتا غائرتين وساعدها على شكل عصيان معروقة شائخة وكأنه أبٌ لجدّ. فركّ ظهر يده بأنفه الراشحة وحدّق عاليًا في الكنيسة وكأنهم أرسلوه لقتلِ تْنين. تقدّمت امرأة، وسدّت أذنيه بالصوف، ثم لفتت سروالًا قدرًا حول رأسه، وربطته في مؤخرة الرأس كالعمامة.

هتفَ بشيءٍ ما للرجل الواقف بجواره، الذي اختفى في الزحام وعاد بعد لحظات بسوطٍ يغال.

مرّاتٍ كثيرة سَأَمع هذه القصة مُصادفةً: إيزو فروبن يناضل لصعود التلّ، إحدى يديه تمسك بالسروال لتمنعه من الانزلاق على عينيه، والأخرى على السوط. كان المجاز المُتحدّر قد غرق في الطمي بفعل آلاف الأقدام المُتحمّسة لحدّ أنه انزلق مرارًا وتكرارًا؛ يتزحلق خطوتين على ركبتيه، ثم ينتزع نفسه من الطمي للوقوف مُجدّدًا. عندما وصلَ إلى الكنيسة أخيرًا، كان مُغطّي من رأسه إلى أخمصه بالطين. نثر السوط لطخاتٍ فيما يتأرجح في يده. حتى مع الصوف في أذنيه والسروال حول جبينه، قبضت الأجراس على رأسه وهزّته مع كل قرعة جديدة.

ازداد الصوت صخبًا بطبيعة الحال مع دخوله إلى الكنيسة وصعوده الدّرج، الذي بدا وأنه يرتعش من تحته. ألصق راحتيه بأذنيه المسدودتين، لكن بلا جدوى. لعن الرب للمرة الألف لإرساله هذه الطفلة إليه.

في الطابق الأول من برج الكنيسة، لاحظَ أن الجبال ساكنة، ومع ذلك قُرِعَت الأجراس. رأى بُقعًا سوداء أمام عينيه. وفيما يبدأ العام في الدوران من حوله، أدرك بغتةً: لم تكن هذه أجراس الرّب على

الإطلاق! لقد خُدعوا جميعهم. كانت أجراس الشيطان! خدعهم الشيطان جميعًا. لقد شُيِّدوا له كنيسة. صَبُّوا له أجراسًا!

استدارَ ليهرع هابطًا الدُّرَج، لكن حينها لمَحَ من فوقه، في الشقوق بين ألواح السقف، رقصة أقدام شيطانية، صغيرة.

ما زال هناك أثرٌ من الشجاعة في ذلك الجسد الذاوي، الهزيل. قبَضَ على السوط وكأنه سيفه. ارتقى السُّلَم إلى برج الكنيسة وفتح الشبكة الحاجزة بما يكفي فحسب لإلقاء نظرة.

كانت تتقاذف وتُدوِّم. تتمايل وتتطاول. تؤرجح المطرقة وتتدلى هي في الهواء فيما تخبِط بها. بدت الأجراس وكأنها تدقُّ من داخلها، كما لو أن الأجراس التي تضربها ما هي إلَّا قلبها الأسود ذاته. كانت تتبختر على الحافة، يدٌ غير منظورة ترشدها لتعود إلى الأمان. تفرع أكبر الأجراس: صوتٌ كأظافر تكشط أذنيه.

كانت اللدَّة المتوهَّجة في عينيها آخر دليل يحتاجه إيزو فروبن: أن ابنته مسَّها الشيطان. فتحَ الباب الشبكي عن آخره وزحف عبره بصعوبة. كان الرجل العجوز محاربًا. جلدَ الطفلة-الشيطان حتَّى استلقت على أرضية برج الكنيسة بلا حراك. سرعان ما تحوَّل دويُّ الأجراس إلى مجرد رنين خافت في الهواء. تفجَّرت الهتافات من القرية بعيدًا من تحته. تأوَّهت ابنته.

أسقطَ سوطه بجوارها ثم هبطَ من البرج. مرَّ عبر المدينة المُحتفلة بلا توقُّف، ولم يره أحد في يوري مُجدِّدًا، وهكذا، بعد كيلشمار، صارَ الضحية الثانية، لكن ليست الأخيرة، من ضحايا الأجراس.

\* \* \*

في الكنيسة، لم تتحرَّك الفتاة إلَّا بعد حلول الظلام. رفعت رأسها للتأكد أن أباهَا قد غادرَ، ثم جلست مُعتدلةً. كانت ملابسها دامية.



لذَعَتْهَا الحروق في ظهرها. كانت أذناها الميتين مصمتين على العريضة التي في القرية في الأسفل. تناولت مطارقها وفتحت الباب الشبكي. غداً، قالت لنفسها فيما ترفع بصرها ناظرةً إلى الأجراس. غداً سأقرعكم مُجدِّداً.

في اليوم التالي قرعت الأجراس، وكذلك فعلت في اليوم الذي يليه، وفي كل صباح وظهيرة ومساءً، حتى موتها.

كان اسم هذه الطفلة آديلهاید فروبن، وأنا، موسى فروبن، ابنها.

## (2)

كان لدى أمي شَعْرٌ عبارة عن عَشْ قذر، وعُقْدٌ من عضلات حديدية في ذراعيها، ولي وحدي، ابتسامةً دافئة كشمس أغسطس. بحلول ميلادي كانت تعيش منذ بضعة أعوام في كوخ صغير على جبال الألب مُحاذيًا للكنيسة. لا، هذا غير صحيح. كانت أمي تعيش في برج الكنيسة، ولا تأتي إلى الكوخ إلا عندما يصير البرج -مُعْرُضًا لطقس الجبال القارص- في غاية الباردة، أو عندما يمتلئ بالثلوج، أو عندما تجوع لتأكل قشور الجبن أو العصيدة الباردة التي يتركها أهل القرية لها، أو عندما تكتسح عواصف البرق الصيفية الوادي وتضرب برج كنيستنا، وكثيرًا ما كانت تفعل، وحينها كانت الأجراس تُقرع كما لو على يد الأشباح. رغم أنها كانت قذرة، ولم تستحم قط طوال حياتها، إلا أنها كانت تفركني من رأسي إلى أخمص قدمي في ماء النبع البارد. كانت تُطعمني من ملعقة خشبية حتّى تمتلئ بطني. لم أعرف حينها شيئًا عن لعب وضحك الأطفال الآخرين، وكيف يتظاهرون

بأنهم ملوك وجنود، وكيف يرقصون وينشدون الأغاني معًا. لم أرغب في شيء من الحياة أكثر مما لديّ. لم أرغب سوى أن أجلس هناك فحسب، ساقاي ذاتا الأربعة أعوام تتدليّان على حافة برج الكنيسة؛ أتطلع إلى الجبال، وأنصت إلى جمال الأجراس.

ولهذا لم تُدهشني مراقبة أهل القرية الدائمة لي. صبيّ ذاهل فيما يبدو عن الأجراس التي تُفجّر طبول الأذان على بعد خمسين ياردة؟ صبيّ لا يتحدث أبدًا، قدماء لا تبدوان أنهما تخششان حتّى في العشب، صبيّ لا يُحدث ضجيجًا على الإطلاق؟ صبيّ يتجاهل حتّى الصيحات الغاضبة للقسّ كارل فيكتور فوندراخ؟ لم يكن هناك تفسير آخر. الصبي أصمّ. إنه أبله كأّمه.

ومع ذلك، لنقترب من هذا الصبي على يجلس على حافة عالمه، الذي يحدّق بخواء في مشهد الرّب وحده قادر على خلقه. نحن في بدايات الصيف، وجبال الألب غارقة في خضرة وافرة لحدّ أن المرء يحسد الأبقار بين العُشب، ويودّ لو ينحني بجانبها ويلتهم العشب معها حتّى تتساقط قطرات اللعاب على ذقنه. في الأعلى، تطلّ بُقَع من الجليد في التجاويف وتحت الجُرف. الدّري البعيدة، الأكثر اخضرارًا، مُترعة بنقاط متناثرة من الأغنام التي ترعى العشب وكأنها قمل على رأس شحاذ.

هذا الصبي يُنصت. الأجراس الثلاثة جميعها تقرر وراءه، ويسمع النغمات الناقرة الطّائنة، وما بينها من النغمات المُجتزأة الوافرة. وكأن كل جرس عبارة عن بُرج من الجوقات البشرية المنمنمة، مُكدّسة فوق بعضها البعض بخفّة، وكلّ منها تقرر نغمة مختلفة، تمامًا كما يلتمع ألف ظلّ من الطلاء بدرجات لونية متباينة على نحوٍ واهٍ. في عقله، كان يفرد أمامه هذه النغمات كما يفرد الأطفال الآخرين قطع ألعابهم. كان يضع النغمات المجتزأة معًا بحيث تجعله يتسم

أو يجرُّ على أسنانه. يجد فيها النغمات التي يستخدمها الصقر في صرخاته. يجد تلك التي تُشكِّل هزيم الرعد، وتلك التي تُشكِّل صفير السناجب. يسمع النغمات التي يستخدمها هو نفسه عندما يضحك. كانت الأجراس صاخبة، صاخبة للغاية، لكنها لا تؤذي أذنيه؛ ذلك أن أذنيه تشكَّلتا حول تلك الأصوات، وكل قَرعة هائلة تجعلهما أكثر طواعيةً بكثير.

كانت تلك صوت شهيق أمِّه فيما تسحب مطرقتها للخلف؛ صوت زفيرها فيما تدفعها للأمام؛ خشخشة رداثها الملهل على ساقها العارية؛ صرير الحوامل الصدئة للأجراس؛ صفير الريح الدافئة عبر الشقوق في السقف فوق رأسه؛ خوار الأبقار في المرعى؛ صياح الصقر فوق الحقول؛ اندفاع الجليد الذائب هابطاً الجُرْف.

يسمع أيضًا ويُدرك أن الماء على الجرف هو في الحقيقة مياهٌ كثيرة؛ هو الأحجار تُجرُّ وتتدحرج؛ هو قطرات تنفجر في قطرات؛ فهقهة البركة الجياشة؛ ضحك الشَّلالات. كان بمقدوره التحديق في كلِّ هذا عبر التالي: انفراج شفتي أمِّه، اندفاعة الأنفاس في أنفها، الهواء الذي يُصَفَّر ماراً بلسانها، حلقها يئنُّ، رثاها تنعب مُنفتحةً. كطفل يستكشف شيئاً بفمه ويتحسَّسه بيديه، كان يمسك بكل صوت ويتنهَّد، نعم!

ليس هذا سحراً، أوكد لكم بصفتي شاهدكم الأمين، لم يستطع السماع عبر الجبال أو من الجانب الآخر من الأرض، بل الأمر مُجرَّد انتقاء واصطفاء، وإذا كان هذا الصبي، في عُمر الرابعة، بمقدوره فعل القليل جداً - فهو لا يستطيع التحدُّث ولا الكتابة ولا القراءة - من انتقاء الأصوات، وتشريح الأصوات، فقد كان ذلك شيئاً لا يستطيع إنسان آخر فعله مثله. هذا ما منحه له أمُّه وأجراسها.

وهكذا صار الصبي يجلس في عليائه ويُشرِّح العالم. ينتقي من بين الأجراس الثلاثة، أو يسمعها ككلِّ واحد، يُشرِّح دويها، ثم يُنخِئها

جانبًا، يقبض على صوت الرياح، يسمع في الرياح ما نراه في أمواج المياه: وفرة من التيارات، فوضوية ومُرتبة في آن بفعل قانون إلهي غامض. يحبُّ الإنصات إلى الرياح تمرُّ عبر الثقوب في السقف من فوقه، أو تنكسر حول ناصية البرج، أو تُرفرفُ عبر العُشب الطويل المروج.

ورغم بهجته تجاه أيِّ صوتٍ جديد، سرعان ما يدرك أن الأصوات ليست مجرد شيءٍ جدير بحُبِّه. يتعلَّم أن الصغير عبر الشقوق يكون أضعفَ ما يمكن عندما يقترب المطر. يخشى الأقدام المتباطئة لأوائل المُصلِّين في صباحات الأحد، لأن هذا يعني أن أمه ستهرع للاختفاء في الكهوف أعلى الكنيسة حتَّى تُعاود الظهور، بعد ساعات، فقط عندما يختفي ظلُّ الأب كارل فيكتور عائداً إلى القرية. يكره صوت سُعالها؛ لأن هذا يعني أنها ستسقم قريباً - وهذا ما يحدث لها كل شتاء - وأن عينيها ستغرقان في الضباب، وأنها ستسير كالنائمين.

عندما يبلغ الخامسة سيبدأ في التطواف، أقل خجلاً وجفولاً من أمه. سيُشرِّح القرية: الرياح التي تصرُّ بين المنازل الخشبية؛ دندنة مياه الغسيل وبول الحيوانات خارجاً من الزرائب وهابطاً المنحدر؛ قعقعة وجَرش عجلات العربات على حجارة الطريق؛ نباح الكلاب؛ قوقأة الديكة، وفي الشتاء: جوار البقر وأنين الماعز، كما لو أن هناك مجنوناً محبوس في كل زريبة.

تستولي عليه أصوات الرجال: أنفاسهم، تنهّاداتهم، تأوهاتهم، سبابهم. يتزاجرون ويهتفون ويضحكون، وكل صوت منها له مليون شكل. لكن رفوف ذاكرته لا تعرف حدًّا. الآن صارت هناك كلمات ليتحدّث بها، كلمات يحملها عائداً بها إلى بُرج الكنيسة. وفيما تقرر أمه أجراسها، يهذر هو، ويصرخ بالمسبات في اتّجاه السماء، يتلفّظ

بالصلوات في قبضته حتى يبدو كمزارع القرية الذي قضم نصف لسانه.

وهناك أصواتٌ يَمَقَّتْها، وعلى الأخصُّ أصوات الأب كارل فيكتور فوندراخ: مشيته العرجاء؛ أنفاسه المُصَفَّرَة؛ حفيف وهرس شفّتيه، كعجلٍ صغيرٍ يلتهم صُرْعًا؛ الدَّويُّ عندما يفتح الكتاب المقدّس هائل الحجم بعنفٍ على المنبر؛ الطقطقة المكتومة لدوران المفتاح في صندوق الصدقات؛ التَّأوُّه عندما يتحنى ويقبض على ظهره؛ التَّنْهُدُ عندما يتطلَّع إلّا.

كم تفضحك أصواتك يا كارل فيكتور! عرفتُ في ستة أعوام ما يكفي لإدانتك بالنار الأبدية! أعرف جحوظ عينيك عندما تُغلِقُهما بقوة، أعرف قرقرة البلغم في حلقك عندما تخطب أيام الأحاد في كنيستنا. أسمع غمغماتك البغيضة عندما تنظرُ من علٍّ إلى قطيعك. وعندما تصعد إلينا التَّلُّ أحيانًا، عندما أسمعك في صفيرك الهائج تقول إنك لست صبيًّا مشاوير الرُّبِّ، عندما تنادي على أمّي، وتصفق باب كوخنا في الليل، أو حتّى عندما تعجز عن كبح جماح نفسك، في ضوء النهار- رغم أنها لا تسمعك، إلا أنني أسمعك. الهاتفات التي تنهمر من فمها الأمّي، والتي تبدو لك كهذيان أبله؛ تلك الهاتفات كانت أنقى التَّوسُّلات قاطبةً في نظري.



### (3)

كان أهل القرية يقولون إن أمي مُختلّة العقل. كانت فَرِعة، خَجَلِي، ذات مظهرٍ متوحّش؛ كانت تبكي وتضحك بلا سبب. تختبئ منهم في الكهوف؛ أحيانًا ما تمضي بلا ملابس؛ ترفع ابنها في برج الكنيسة؛ تأكل بيديها؛ لا تهتمُ بشيءٍ في الحياة سوى بطفلها وقرع أجراسها.

مرّات كثيرة راقبت أمي تتسلّق إلى عوارض برج الكنيسة حتّى تزحف على رأس الجرس الأوسط، ثم تتدلّى وتلفّ ساقها حول خصره، حاضنةً التاج بذراعٍ فيما تضرب الجرس الخامل بمطرقتها في الآخر. ذات يوم، كدّست برجًا من جذوع الأخشاب تحت الجرس الأكبر ووقفت داخله، حتّى تُزغزغ الأمواج المتداخلة كل نسيجٍ في جسدها. وفي يوم آخر، سرقت لجام حصان مجدول، ربّطت طرفًا بعارضة رأس الجرس والآخر بخصرها. تمايلت وسط الأجراس، أغلقت عينيها، وتوهّمت، أعتقد، أنها واحدة من الأجراس.



في مرةٍ أخرى، كَسَتِ الأجراس بالطمي وقرعتها. أمسكت بُشعة متوهجة بين شفتيها وضربت بها الأجراس. ضربتها بيدها. بجمجمتها. بعظمة فخذ بقرة. بكريستالة وجدتها في كهفٍ. بكتابٍ مُقدَّسٍ أخذته من منبر كارل فيكتور (ثم ألقته في الطمي عندما لم يعجبها الرنين المكتوم). أحياناً ما كانت تجلس في زاوية بعيدة وتقرع الأجراس بسحب جبل الأجراس بإيقاع ثابت بيدٍ واحدة. لكنها دائماً ما تعود، في النهاية، إلى رقصها: تتقاذز وتؤرجح المطارق وتغلق عينيها فيما تمضي الاهتزازات عبر جسدها.

فيما تقرع أمي أجراسها، كانت تُوالف أنسجة جسدها كما يوالف عازف الكمان أوتاره. في عُنفها، تقرع بخفوت نغمةً مجتزأة من الجرس الأوسط. في فُخْذِها، بأخرى مجتزأة. في أسفل قدميها، أسمع الضربة الناقرة لأصغر الأجراس. كل نغمة، تصدح في لحمها، كانت في ذاتها الصدى الأوهى للتناغم الأكبر. لا أستطيع تذكُّر وجه أمي، لكنني أتذكُّر هذا المشهد الطبيعي لأصواته. ورغم أنني لا أحمل تشابهاً يمكنني تذكُّرها به، إلا أنني عندما أغلق عيني وأسمع جسدها يصدح بتلك الأجراس، يصبح الأمر كما لو أنني أحمل بورتريهاً لها بين يدي.

\* \* \*

كانوا ليسرقون طفلاً عادياً ويضعونه للعمل تحت ستار الصدقة وعمل الخير، لكنهم سمحوا لي بالبقاء مع أمي؛ لأنهم اعتقدوا أنني أصمٌ ومجنون مثلها. أحياناً ما كنتُ أراقب أطفال القرية يلعبون وأتمنى لو انضممتُ إليهم، لكنهم كانوا يرمونني بالأحجار كلما حاولتُ الاقتراب كثيراً. عشنا لثماني سنوات في برج الكنيسة والكوخ، ولم نعمل قط (سوى في قَرْع الأجراس، الذي كان مكافأةً لنا، وليس

مَهْمَةً عمل)، وأبدًا لم نَطُهُ كثيرًا، رغم أننا سرعان ما استغينا عن وجبات الصدقة الهزيلة التي يقدمها أهل القرية.

كسيتُ للأصوات، لم يكن من الصعب عليّ أن أتسلّل إلى واحد من منازل، ثم أنصت حتّى أتأكّد من خلو غرفة المؤن من البشر، ثم اختطف قطعة نقانق من أفضل الأنواع، ثم أركض مارًا بباب (خلفه يستغرق زوجٌ وزوجته في حديثٍ عن أبقار جارهم)، لأسرق رغيف خبز طازج يُبرّد بجوار الموقد، ثم أرحل بلا إحداث أيّ صوت. رغم أنني بقيتُ ضئيل الجسد، إلا أنني اكتسبت ذائقة تجاه سيقان الجمّالان، ولحم الخنزير نصف المطهو، والبيض الذي أمتصّه من قشرته. بحلول يوم ميلادي الثامن، كنتُ سرقت بيضًا من تحت الدجاج، وقدور بخنة من على المواقد، وأقراص كاملة من الجبن من السرايب. أحيانًا ما أنصت إلى الأمّهات الأخريات يحكين القصص لأطفالهن أمام الموقد، أو أراقب ابنًا شقيًا يتسلّق ذراع أبيه. ذات مرة، في المساء، مُتسلّلًا إلى واحد من منازل القرية، صادفت أمًا تُهدئ من روع ابنها العاجز عن النوم، لأن أصدقاءه أخبروه أن شبح إيزو فروبين يهيم في القرية. كان الأب يجلس مُنهكًا إلى المائدة. "إنه هو من سرق فخذ الخنزير"، قال الصبي لأمه. "والجبن من عند إيجرسييس والقدر من...".

"ششش"، همست أمه، "لا يوجد شيء اسمه أشباح". ثم غُتت بخفوتٍ في أذنه. وقفتُ مأخوذًا بغنائها، وبدفء موقدها، ناسيًا لوهلة أن هؤلاء الناس قد يرونني في أيّ لحظة. خطت جيئةً وذهابًا وازدعةً رأس ابنها المتدلي على عنقها. ثم بغتةً، لمحت عينيّ اللامعتين. "آآج!" نعتت كما لو أنها رأت فأرًا. انتفض الأب الهمام من على مقعده الخشبي الطويل. طارت فردة حذاء بجوار رأسي؛ وأصابني الثانية ظهري فيما أنطلق مُسرعًا خارجًا من الباب. تعثرتُ وسقطتُ في الطين. فيما ينطلق الأب في إثري ملوِّحًا بلجام كسوط، أسرعْتُ للدخول في الظلال. لبضع دقائق، بكيث وراء زريبة، لكن سرعان ما

استولى عليّ الجوع. انسللتُ إلى داخل الزريبة، ومُقعياً على رُكبتَيَّ، جعلتُ حليب عنزة يتفجّر في فمي. سرقْتُ جرّةً فخاريّة وملاّتها بالحليب، وحَمَلْتُهَا إلى أُمِّي.

دائماً ما كُنّا نحتفل في بُرج الكنيسة، ونلقي بالعظام والقذور والبصاق إلى الوهدة في الأسفل، حيث تتراكم تلك الأشياء كمُخلفات معركةٍ دامية. نأكل بأيدينا ومُزّق اللحم بأسناننا، وغسح راحتيّ في الأسمال التي نرتديها. كنا نتمتّع بحرية البائسين الباذخة.

لكن كل هذا انتهى في اليوم الذي أدرك فيه الأب كارل فيكتور فوندراخ أنني لستُ عاجزاً كما أبدو.

\* \* \*

كُنّا في أواخر الربيع، وشمس آخر النهار قد انبثقت لتوّها بعد أيامٍ من المطر. حوافر الأبقار مغروزة في الحقول الطينية. الماء ينحت الخنادق في الطين الطري، ثم يتسرّب إلى الأرض، كرمال تتساقط عبر أصابع مُرتخية. السيول تُقعقع في الوهاد. ومن بعيد، تتناهى إلى سمعي خشخشة نهر ريوس يتدفّق عبر الوادي.

ثم سمعتُ صوتاً غريباً، بدا كالرعد، لكن أنعم قليلاً، وأبدًا لم أسمع ضجيجاً كهذا من قبل. في نفس الوقت، سمعتُ صرخةً. رفعتُ بصري إلى أُمِّي، كانت تطوّح بمطارقها. نحيّتُ الأجراس جانباً، المياه الجارية، الأبقار، أُمِّي، ولبضع ثوانٍ لم أسمع شيئاً. ثم مُجدّداً... صرخة.

كان هذا الصوت بشرياً، لكن ليس من نسيج صوتٍ أعرفه من القرية: خليطاً من الجوع والغضب والبهجة والاحتياج؛ كان ذلك صوت الأم.

أغلقْتُ عَيْنِي ووضعتَه في ذاكرتي. ارتفعَ أربع أو خمس مرَّات، ارتعشَ إلى أعلى نغمة، ثم اختنقَ فيما الهواء ينفد من رئة الصارخ. أفرغتني الصرخة، لكن مع ذلك هبطتُ سُلَّم برج الكنيسة، مُتجمِّداً مع كل صرخة جديدة، ثم هارِعاً عندما تنتهي، مُطارِداً صداها. انطلقتُ من الباب الجانبي للكنيسة، تسلَّقتُ سوراً، وانزلتُ عبر الحقل الطيني إلى الغابة تحت الكنيسة.

لا يوجد شيء أعلى نبيلَما سوى المراعي والصخور والجليد. تحت القرية، تنزلُ الجبال إلى الغابات والوهاد، وليس هناك سوى قُسحات قليلة متناثرة حتَّى موضع التقاء غابة أشجار الصنوبر مع الوادي. ركضتُ بأسرع ما أستطيع على طول ممسِّي يودِّي إلى تلك الغابة المتحدِّرة، قافِزاً من فوق الصخور الكبيرة، وتاركاً الميلان يدفعني. في فسحةٍ كانت الحرائق قد التهمتْها الصيف الفائت انتهاء المسار بغتةً.

ما يزال بمقدوري تصوُّر وجهها. العضلات والأوتار منتفخة في خديها، في عنقها، في ذراعيها، وفي يديها اللتين تتشبَّتان بالأرض أمامها. جلدها متورِّد بلون الدم.

كان الطين يحاول التهامها. فكَّاه ناشبان في أمعائها ودوامات من الدماء تتسرَّب إلى خيوط فستانها. لا يُرى حولها سوى أحجار سائبة وتراب. سلَّة من الثوم البرِّي كانت مُبعثرة على الأرض أمامها، كبتلات أزهار في حفل زفاف.

كان الصراخ قد توقَّف. اتَّخذتُ بضع خطوات ناحيتها على الأرض الرخوة وغرقت قدمي في تيارات الطمي والأحجار.

كانت هناك مَخمضة من عُصاة صفراء ودماء في حلقها. سمعتُ همهمة العضلات المشدودة، والضربات المُهتاجة لقلبها. استدارت ناحيتي بهاتين العينين الخاويتين، وأردتُ إيقاف أُلها. أردتُ أن أحملها كما كانت أُمي تحملني. اتَّخذتُ خطوةً أخرى، متفادياً صخرة بحجم

جذعي. ثم قفزت عائداً إلى الأرض الصلبة. كان هذا الطين المتوحش يُريدني أيضاً.

ثم ركضت. تأخر الوقت حينها. كانت الأجراس صامتة ولا أحد في الحقول. ما زلت أشعر بأنفاسها، وبالتغير الواهي، الراجي، في ضربات قلبها عندما رأنتني؛ ولذلك أسرعْتُ في ركضي، ماراً بالمنازل الأولى الهادئة، بالأطفال الذين يلعبون على المجاز الصخري، بمنزل كارل فيكتور، الذي كان بابه العالي السندياني مغلقاً. بعد بضع خطوات أخرى، كان بضعة رجال جالسين على منضدة خشبية ذات ألواح مخشوشنة. كانت وجوههم متوردة من الشرب، بظهورهم القوية بارتفاع حائط فوق رأسي.

"يقول إيفو إن لها عينين كالجواهر"، قال واحد من الرجال.

"رجاء"، همست. لم ينكسر حائط الظهور.

"حتى وإن كانتا ماستين، فسيكون عليه استئناسها على عادتنا"، قال آخر. ضحك الجميع. "نساء المدينة حمقاوات".

"أسرعوا"، قلت بصوت أعلى. "إنها تموت".

"لا بأس بالحمافة". قال ذلك الرجل الذي يعلوني، وفيما أضع يدي على ظهره شعرت بهزيم ضحكاته.

سمعتها تصرخ مُجدداً، هذه المرة من داخل رأسي، من مكتبة الأصوات التي لا أستطيع التخلّص منها أبداً. سمعتُ الجيَّشان في حلقها، سمعها تنشب أظافرها في التراب أمامها. هل أوشكت أن تُدفن؟ أمسكتُ بقميصه. أراححت يدي بعيداً.

"أرجوكم!" صحتُ عالياً.

كان خط الظهور عاليًا كالجرّف.

صرختُ.

كان ذلك صوتًا حتى أنا لم أسمعهُ وهو يقترب، كان مثل بابٍ  
فُتِحَ في موضعٍ كان حائطًا ذات يوم، كان كما لو أن أرواحًا كثيرة -روح  
أمي، وروح تلك المرأة المدفونة، وروح الأب كارل فيكتور- قد خرجت  
مُتطائرةً من فمي.

استمرت الصرخة فقط للحظة التي تستغرقها حصة للسقوط من  
برج الكنيسة والارتطام بطمي الحقل. لكن خلالها، كان حائط الظهور  
قد استدار؛ وجوهٌ فائقة، عيونٌ جافة حدقت إليّ من عل، تجمّد  
الأطفال الذين كان يلعبون بالقرب، احدودبت الأمهات على الرُّضّع في  
أذرعهن أمام عتبات بيوتهن.

وقف الأب كارل فيكتور فوندراخ عند بابه المفتوح.

"هناك امرأةٌ مَوتَ"، قلتُ للوجه. "لا بُدَّ أن نذهب إليها".

مع هذا الأمر، نهَضَ الرجال، وأسقطوا المقاعد الخشبية الطويلة.

هرعْتُ هابطًا المجاز عبر الغابة، وجيشٌ من الأقدام يتبعني.

"انهيار أرضي!" سمعتُ أحدهم يصرخ، ثم تجاوزني.

داسوا على الأرض الرخوة، انزلقوا، دحرجوا الجلاميد، ناضلوا عبر  
الانهيار الأرضي وكأنهم يسبحون لإنقاذ امرأةٍ من مُتحدراتٍ نهريّة  
جارية. سريعًا ما أخذوا يمسحون الدماء والتراب والدموع من أعينهم،  
فيما يسحبونها من الانهيار الأرضي، برفقٍ شديد، كقابلية تسحب مولودًا  
من بطن أمه. وضعوها على المجاز أسفل التل حيث اختبأت وراء  
شجيرة.

"هل هي ميّنة؟".

"إنها دافنة".

"هذا لا يعني شيئًا".

لَطَّخت الدماء والأترية فستانها. كان وجهها مُرتخياً ومُبيضاً، بعروقي  
بُنية حيث كانت أصابع الرجال قد أمسكت عنقها ورأسها.  
عرجَ رجل عجوز هابطاً المجاز.  
"أبعدوه. لا ينبغي لأبٍ رؤية هذا".

حاول رجلان إمساكه لكنه انطلق في طريقه. هوى عليها، مُمسكاً  
بوجهها في كلتا يديه.  
"أرجوك يا إلهي!".

كان الرجال شاحبين، وسمعتُ شفقةً كالكلابات، تُهدئ من  
خطواتهم، وأنفاسهم الهائجة، وقلوبهم المتسارعة.  
خطوتُ من وراء الشجيرة ووقفت بجوار الرجل فيما يعانق ابنته  
وينتحب.

همستُ في أذنه: "إنها حيّة".  
رفع نظره إليّ، ابتلع ريقه. "كيف تعرف؟".  
"أنصت". أشرتُ إلى شفقتها. كانت أنفاسها موجات خافتة لكن  
ثابتة.

استمرّ في النظر إليّ لوهلة، ثم دفعتني مجموعة من النساء جانباً.  
تسلّقتُ عائداً إلى الأجمة واختبأتُ مُجدداً.  
فيما ينخرونها ويصفعونها ويقرصونها، فيما عيناها تُرْفرف مُنفتحةً  
وتبتسم بضعفٍ لأبيها، ازدادت أصواتهم صخباً. ضحكوا حتّى دَمعت  
أعينهم. صاحت النساء بالأوامر. وراء الشجيرة، كنتُ محجوباً عن  
الجميع، باستثناء واحد.

كان الأب كارل فيكتور على بُعد ثلاث خطوات فعسب أعلى المجاز.  
لم يَبْدُ أنه لاحظَ المرأة المصابة. تجاهل توّسلاتهم من أجل صلاةٍ.

حدَّق وكأنه يرغب في إحراقي بتحيقته. كان يُدمدم مع كل نفسٍ يُطلقه.

"بمقدورك أن تسمع"، همس من تحت أنفاسه.

تراجعتُ، وصعدت التَّل لأهرب.

"بمقدورك أن تتكلَّم".





## (4)

في بُرج الكنيسة رأت أمي الرعب في عيني، لكن عندما حاولت تهدئتي بين ذارعِيها، دفعْتُها بعيدًا. هزَزْتُ رأسي. أخذتُ يدها وحاولت سحبها لهبوط السُّلَم. أشرتُ إلى جبل بعيد؛ في موضع ما هناك قد يمكننا الاختباء.

في حُزن عينيها، رأيتُ أنها أدركت شيئًا مما أعنيه، رغبتني في الهروب منه ومن هذه القرية. لكنها هزَّت رأسها. لا يمكنني الرحيل، بدَّت أنها تقول.

وهكذا نِمنا تلك الليلة في برج الكنيسة، مُتكوِّمين تحت الدثار فيما الليل يقترب حاملاً معه هَبَّاتٍ دافئة من الوادي. كانت أمي تضم مطارقها إلى صدرها. لم أستطع النوم؛ لم يكن لدينا سوى أذنيّ لحمايتنا في الليل. أرهفتُ سمعي لخطوة تقترب، ليذ على السُّلَم تحتنا. لكن بعد منتصف الليل اشتدَّت الرياح وأضاء البرق الوادي

بوميضه. بدأ المطر في التساقط. بللنا عبر الحوائط المفتوحة. تشبَّثت بي أمي، وعندما ومضَ البرق، لمحتُ الرعب في عينيها. مرّتين على الأقل ضربت الصواعق الكنيسة ذلك الصيف. أدركتُ أنها كانت تفكّر: ينبغي أن نكون في كوخنا متكوّمين الآن. فيما تمضي العاصفة من فوقنا، شدّت الأجراس بتحذير خافت. رفعت أمي بصرها؛ ذلك أنها سمعته في أحشائها. اهربا، قالت الأجراس.

أخذتني بين ذراعيها وهرعنا نازلين السُّلم. قعقع البرق، وتردّد صده في الوادي. أنصتُ لأصوات أقدام تمشي في الطين بتناقل، لكن في السيل المُنهمر سمعتُ لطخات ألف حذاء، انطباق ألف شَفّة. في هزيم الرعد سمعتُ مليون كارل فيكتور يطلقون لعناتهم. حملتني عبر الحقل إلى كوخنا وأغلقت رتاج الباب.

جاء كارل فيكتور في ذروة العاصفة، طارقًا على بابنا. حشرتني أمي في زاوية، ورغم محاولتي شدّها بجواري، إلّا أنها انسلّت مُبتعدة ووقفت بين الباب المُتهالك وبينني. لم يستمرّ الأمر سوى لثلاث طرقات. انقصفَ الخشب وظهرت يدٌ بيضاء عبر الفجوة وعبثت بالرتاج.

"اللعنة عليكما!" صاح القسّ. كان يتمايل؛ ذلك أنه أذى أصابع قدميه فيما يركل الباب. التمعّ حذاءه الطويل وثوبه الكهنوتي فيما البرق يومض عليهما.

اندفعت أمي إليه. لكن في ومضة البرق التالية رأى قدومها؛ وبدون أجراسها لا تستطيع مُعاركته. طوّحت بمطرقتها بيدٍ ونشبت الأخرى في وجهه. ضغطتُ بيديّ على أذنيّ فيما تُسقطها صفعة واحدة منه على أرضنا الطينية. انكمشتُ خوفًا وصرختُ مع كل مرة يركلها فيها بحذائه الطويل. ثم ضرب البرق كنيسةنا بقعقة ودوّت الأجراس. غطّى كارل فيكتور أذنيه من الألم، لكنّ الدوّي لم يفعل سوى أن زاد

من غضبه. ركلها مرارًا وتكرارًا حتَّى توقَّفت عن الارتجاف من الألم،  
وحينها فقط توقَّفت. ظلَّت هامدة.

مع انقضاء العاصفة، تباطأ المطر. ما زالت الأجراس تُهمهم  
بخفوت. كانت أمي تطلق أنفاسًا لاهثة. الأب فيكتور يقف ساكنًا،  
مُنصتًا، ينتظر ضربة البرق التالية حتَّى يستطيع رؤيتي. تكوَّمتُ  
في الزاوية، مُلتصِّقًا بالخشب، لكن حينها فرَّت جهشةٌ من حلقي  
وانفجرت في الظلام. خطا كارل فيكتور ناحيتي وأخذَ في ركل الحائط  
حتَّى وجدني، ثم ازدادت ركلاته سرعة وقوَّة، مُركِّزًا على أحشائي، لحدِّ  
أنني تأكدتُ أنني لن أتنفَّس مُجددًا. قبض عليَّ من عنقي ورفعني  
قريبًا من وجهه.

"أنت أيُّها الوغد المُخادع"، قال. فاحت منه رائحة البصل النيئ  
المنتنة. صرختُ ومددتُ يدي نحو أمي، التي كانت تستلقي بلا  
حراك على الأرض، تنثُّ فيما تطلق أنفاسها. في ومضة برقي بعيدة رأيتُ  
وجهها الغارق في الدماء. جرَّني كارل فيكتور من قميصي حتَّى عمَّرقُ،  
انتزعَ حزامه، ولقَّه حول عنقي كالطوق. "جرِّب أن تهرب"، هسهسَ  
في أذني كما لو أنه يرغب في قضمها. "انطلق وجرب". وفيما يرتفع  
الفجر الرمادي، هبطنا إلى الغابة. مرَّق فرع شجرة صنوبر وأخذَ في  
جلدي به كلما تمايلتُ جانبًا أبعد من اللازم، أو كلما سرتُ أسرع أو  
أبطأ من اللازم، أو كلما طفحَ غضبه عليه فحسب. غَشَّت الدموع  
عينَيَّ. سقطتُ وتعثَّرتُ واختنقتُ في طوقي.

قادني إلى طريق أوري، الممتلئ بأثار الحوافر، وغرقت قدماي  
الحافيتان في الطين حتَّى ركبتيَّ تقريبًا. أطلقَ كارل فيكتور سبابًا. تطلَّع  
عبر الطريق أمامه وخلفه، لكن في الصباح الباكر لم يرَ أيَّة أحصنة  
أو عربات قد يطلب منها ركوبةً. جذب قميصي بشدَّة، لكن ذلك  
لم يفعل سوى أن مرَّقَه. أمسكَ بذراعي النحيل وجذبه بشدَّة حتَّى

شعرتُ أنني على وشك الانفلاق نصفين، لكن الوغد لم يُفلتني. ثم بغتةً كانت هناك فرقة، ثم انسحاب للهواء، وتعرّنا، أنا أمامه. انضغط وجهي على الطين البارد، ثم رُفِعَ بالحزام الذي يُطوّقه. جرّني عبر الطريق كشوال من الشوفان، بيده تحت ذراعي، عندما تعرّ، طرحني تحته، ولوهلة اسودَّ العالم بالطين. عندما رفَعني لهثتُ طلباً للهواء وخربشتُ في أنشوطتي.

شقنا طريقنا بجهدٍ على هذا الحال لما بدا أنه ساعات، قبل أن نصل إلى الأرض الصلبة عند جسرٍ خشبي يقطع نهر ريوس، حيث أسقطني على ألواح الجسر المرشوشة بالطين. استلقيتُ لاهثاً، مستنداً بظهري على حاجز الجسر، وأزّ هو بأنفاسه وسعل وبصق قطرات من الطين في وجهي. انساب الفيض في نهر ريوس تحت الجسر بغضب أمطار الربيع والجليد الذائب، وحاولتُ الهروب إلى أصواته: حدّقتُ في تيّارٍ إثر تيّار، سمعتُ رعد المياه المُزبدة، سمعتُ الصخور تتدحرج في القاع. لكنّ أذنيّ أجبرتاني على العودة. شحذَ كارل فيكتور يديه معاً كحبل مشدود يُوشك على الانقطاع. ضربت قدماه الأرض. جرّت أسنانه على شفّتيه. دمدمَ بكلماتٍ.

رفعتُ بصري عبر الطين والدموع. نظرتُ إلى وجهه، الذي امتلأ بندوب من أثر أظافر أمّي. تدفّقت الدماء من شفّته العضوضة. كان رداؤه مُبتلاً بشدّة، لحدّ أنه التصق بساقيه.

جذبَ شعره بيديه كما لو كان لانتزاعه، وغمغمَ مُجدّداً في الرياح.

تمنّيتُ بشدّة لو كان باستطاعتي سماع ما يدور في رأس كارل فيكتور في تلك اللحظة. ماذا كان ينوي بالضبط؟ أنا ذكي بما يكفي لأدرك أنه يُخطّط لشيءٍ في عقله: أن يأخذني ربما إلى لوتسرن ليضعني في دار أيتام؛ أن يبيعني إلى مُزارع في مقاطعة شفيت. لكن هذا الطين - هذا الوحل الذي يصل إلى الركبتين، الذي يتجشأ ويتنشّق ويطرطش - قد

صنع جزيرةً من ذلك الجسر. كانت العودة بي إلى فيلبمات مستحيلة؛ ذلك أنني سأُنشر أسرارهُ المُخزية هناك. فيما الاستمرار في جرِّي لمائة قدمٍ أخرى قد يقتلنا معًا.

تحوّلت دمدمته المُتبرّمة إلى زعيق، وركّل حاجز الجسر كما فعل مع أمي، مرارًا وتكرارًا، لكنه كان متينًا ولم ينكسر تحت ضربات حذاءه. تطلّع إليّ بعينين حمراوين، وعندما تحدّث، بصق الدماء في وجهي.

"يُفترض أن تكون أصمّ!"

في تلك اللحظة، كنتُ على استعداد لبذل وعيدٍ ألاّ أتحدّث مُجددًا أبدًا. كنتُ على استعداد لعضّ لساني وقطعه، فقط لو سمّح لي بالعودة إلى أمي. أبدًا لن أغادر برج الكنيسة، حتّى لو ضربته الصواعق.

انحنى فوقِي، وجهه قريب جدًّا، لحدّ أن تنشقّه، وشفّتيه المُحمرّتين أصبحت صادحة كالنهار. رفعني بالحزام، وعصرني على الحاجز بخصره. ثم قبضَ على رأسي بكلتا يديه.

"إذا لم يشأ الربُّ أن يجعلك أصمّ، فسأجعلك أنا."

انغرست إصبعان في أذنيّ كالسامير. عويْتُ وتخبّطْتُ، لكنهما زادتا من انضغاطهما، مُخترقتين أذنيّ حتّى بدّتا أنهما ستلتقيان داخل رأسي. أدركتُ أخيرًا الألم الذي يشعر به الآخرون عندما يسمعون أجراس أمي. كان وجهه كل ما رأيته. تحوّلت تقطيبه من الأبيض إلى الأحمر. زادَ من ضغط أصابعه، وصرختُ.

حاولتُ يداي الصغيرتان إزاحة يديه، لكنني لم أستطع تحريكهما.

"أبتاه!" صرخت.

أسقطني كما لو كنتُ جمرَةً تحترق.

ارميتُ على الأرض وأمسكت برأسي، منتظرًا الهجمة التالية، لكنها لم تأتِ. وقفَ مُتجمِّدًا فحسب، عيناه هائجتان وذاهلتان. لم أقصد بذلك اتِّهامًا. في نبيليات الجميع ينادونه "أبتاه". لم أقصد أكثر من ذلك.

"لستُ أباك"، همسَ. لكنني لم أسمع الكلمات. سمعتُ ارتعاش صوته، ثقاقل رثتيه، رجفة يديه وفكِّيه. وسمعتُ كيف أن تلك الكلمة الواحدة، التي أحرقتَه كالنار، كانت حقيقية.

"أب؟" أعرف هذه الكلمة: الآباء يحملون أبناءهم عندما يتألمون، يجلدونهم عندما يتشاقون. يتركونهم يمشون بجوارهم فيما يقودون الأبقار صاعدين المِرعى. أعرفها جيدًا، لكن أبدًا لم أتخيَّل أنني قد أستخدمها يومًا.

"لستُ أباك"، قال مُجدِّدًا.

رفعني أبي عاليًا. حَمَلَنِي فوقه كما لو لتقديم قُرْبان للسماء. "ستكون أبكم"، قال.

ثم بهممةٍ، رماني من فوق الجسر إلى نهر ريوس الهادر.

## (5)

هل راقبَ التيارات الجارية تبتلعني؟ أم استدار لإخفاء عينيه عن خطيبته؟ كل ما أعرفه أنه لم يجروا على التأكد أن ابنه قد مات حقًا. لم يمشِ بمحاذاة النهر بما يكفي لرؤيتي أتجرّد من أسمالي وأنشوطتي، لرؤيتي أتخبّط وألهث، فيما يسحبني تيّارٌ للأسفل ويدفعني آخر لأعلى. لم يُراقب فيما قواي تتداعى، فيما أبيض الأمواج يتحوّل إلى الأسود، وأوشك على الغرق. لم يُراقب جُثتي تهبط مع امتلاء رئتي بالماء. لم يشعر بالندم ويحاول إنقاذي.

\* \* \*

لكنّ عينيه لم تكن العينين الوحيدتين على طريق أوري ذلك الصباح. عندما استيقظتُ، سمعت أصواتهم قبل أن أفتح عينيّ. "لا، تراجّع. لن ألمسه مُجددًا".



كان الصوت الأول رفيعًا ومكتومًا، وكأنه يتحدث عبر شفتين مشدودتين، فيما كان الصوت الثاني عميقًا ودافئًا: "لا داعي للقلق، لقد استحمّ لتوّه".

"يا له من شيءٍ ضاؤٍ"، قال الأول. "مجرد عظام. لا بُدَّ أنه مصاب بمرض ما. استمع إليه وهو يسعل".

"لقد شربَ نصف النهر. والجلد والعظام، هذا طبيعي؛ لا شيء يمكن أكله في الجبال. لا شيء سوى العُشب والتراب".

انغرزت أحجار حادة في ظهري العاري. كانت الشمس دافئة، لكن الضّفة النّديّة باردة كالثلج. سعلتُ مُجدّدًا، مُخرجًا ماءً وقدرًا كبيرًا من شيء آخر، ثم فتحت عينيّ ورأيتُ رجلين يظهران من فوقيّ. تطلّعتُ إلى أحدهما ثم الآخر، ثم الأول مُجدّدًا، وكان أول ما فُكّرْتُ به أن الرّب لم يخلق قط رجلين أكثر اختلافًا عن بعضهما من هذين.

أحدهما كان عملاقًا وسيّمًا، بهالة من الشعر الجميل، ولحية رمادية كثيفة، وابتسامة لا تنزاح عن وجهه. فيما الآخر أصغر حجمًا، وشاحب. كان يمزج شفّتيه، ويعتصر يديه المُشحّمتين. كلاهما يرتدي غلالة أسود، مضمومة على جسديهما بأحزمة جلدية. كانت غلالة العملاق مُشَبّعة بالماء؛ ذلك أنه كان أنقذني من النهر ثم ضربَ على صدري حتّى أفقت.

"إنه موسى يسبح في النيل"، قال العملاق، ابتسامته دافئة كالشمس. مدّ لي يَدًا هائلة الحجم. "تعال وكن ملكنا".

انكمشتُ خوفًا من اليد، مُرتعبًا من أيّ لمسة سوى لمسة أمي. على أيّ حال، سرعان ما أزاح الرجل الصغير يد الرجل الكبير. "قلْتُ لك ألا تلمسه"، غمغم.

"إنه مجرد صبي"، قال العملاق، ثم انحنى ووضع كلتا يديه حول أضلاعي، بإبهاميه يضغطان على قلبي. كانت يدها دافئتين وناعمتين، ومع ذلك تؤثرت كل عضلة في جسدي. أوقفني وكأنه راعي ماعز يفحص طفلاً. كنتُ عاريًا بالكامل، وقد جرّدتني النهر من كل شيء. "ما اسمك؟".

لم أجب. في الحقيقة، لا أستطع الإجابة؛ دائماً ما كان أهل القرية يدعونني فحسب "صبي فروبين ذاك" أو "الطفل الأبله". بقيتُ متخسباً على أمل أن يُفلتني من يديه حتّى أستطيع الهروب والبحث عن أمي. هزّ كتفيه. "حسنًا، موسى اسم جميل مناسب للصبيان الذي يسبحون في الأنهار. اسمي نيكولاي. هذا الذئب العابس اسمه ريموس. نحن رهبان".

تطلّعتُ إلى الأول ثم إلى الثاني، محاولاً استخلاص معنى من هذه الكلمة. (رهبان)؟ لم أجد شيئاً مشتركاً بين الاثنين سوى الغلالة التي يرتديانها.

"حسنًا"، قال ريموس ذلك، بنفاد صبر، ووجه قد انقبض كما لو أنه اشتَم رائحة كريهة. "إنه حيّ. دعه يمضي في طريقه".

"لا!" هتف العملاق. "هل أنت قاسي القلب هكذا؟" أرجحني لأعلى بحيثُ أجلس على ساعده، بخدّي مواجهًا الصوف الندي لغلاته حتّى شعرتُ بالحكاك من أذني إلى خصري. اندفعت ضربات قلبه إلى أذني.

"أتممت واجبك. أنقذت حياتك"، قال ريموس.

تراجع جسد نيكولاي مصدومًا. "ريموس، أحدهم ألقاه في ذلك النهر!".

"ليس بالضرورة. ربما سقط فحسب".

"هل سقطت في المياه؟" سألتني العملاق. لم أجب، لم أسمع ما قاله حتى؛ ذلك أنني كنت مأخوذةً بضربات قلبه، الأبطأ والأعمق كثيرًا من ضربات قلب أمي. قلبٌ ثور.

"أجبنِي"، ألح نيكولاي. "بمقدورك إخباري. مَنْ ألقاك في النهر؟".

أغلقت عيني. كان قلبي يتباطأ، ليتوافق مع الإيقاع الموزون لقلب العملاق. ارتخت عضلاتي، وبلا إرادةٍ مني، ملتُ إلى حضنه.

"لا يهم"، قال ريموس. "ربما يكذب علينا في كل الأحوال. انتبه لكيس نقودك".

"ريموس!".

"لا بدُ أن تتركه هنا"، أشار ريموس إلى الضفة المعشوشبة.

"هنا؟ عاريًا على العشب؟ كيف أمكنك قول هذا؟ ماذا لو أن أولئك الرهبان الذين وجدوني على عتبة بابهم تركوني هناك؟ أين كنت لتوجد الآن؟".

"اقرأ في صومعتي. في سلام".

"بالضبط. لكنك بدلًا من ذلك ترى العالم".

"لا أريد أن أرى العالم. أخبرتك بذلك من قبل. أرغب في العودة إلى الدير. نحن متأخرون لشهرين".

"يومٌ آخر لن يصنع فرقًا".

"أنزله".

أدار نيكولاي ظهره إلى ريموس. حملني لبضع خطوات على طول الضفة. فتحت عيني وتطلعتُ إلى وجهه. كان ينظر للأسفل بالطف تحذيفة رأيتهَا في حياتي. كانت أنفاسه كسحابة دافئة تنساب على جُرفي. "ريموس مُحقٌّ"، همس لي. "دائمًا ما يكون على حقٍّ؛ ولهذا

لا يحبُّه أحد. لكنني لن أتركك هنا فحسب. أشرِّ إلى طريق منزلك، وسأساعدك لتجدَ أباك".

جفلت بعنفٍ شديدٍ لحدِّ أن نيكولاي أوشكَ على إسقاطي. تطلَّعتُ من حولي في رعب، خائفاً من أنني قد أرى كارل فيكتور رابضاً في العشب.

"يا إلهي"، قال نيكولاي. "هذا هو الأمر إذن! أليس كذلك؟ كان أباك! ريموس"، صاح نيكولاي، عائداً بسرعة إلى الراهب الضئيل، المتجهِّم. "أبوه هو مَنْ ألقاه في النهر!".

"لا يمكنكِ الجزم".

"حاولَ قتل ابنه الذي من صُلبه. هذا يعني أن الصبي يتيم. مثلي تماماً".

غطى ريموس وجهه بيديه. "نيكولاي، لم تعدَ يتيمًا، منذ أربعين عامًا. أنت راهب، والرهبان لا يقبلون الأطفال".

تفكَّر نيكولاي في هذا. انتصب شعر لحيته فيما يبتسم. "يمكنه أن يصير راهبًا مبتدئًا".

"شتاوداخ لن يقبله".

"سأتحدث معه"، أوما نيكولاي بثقة. "سأجعله يدرك ما هو جوهر المشكلة. حاولَ أبوه قتله".

"نيكولاي"، قال ريموس بهدوء، كما لو لشرح مسألة حسابية بسيطة، "لا يمكنك أخذ هذا الطفل".

"ريموس، كان يطفو هابطاً قاع النهر. يغرق. كان من الممكن أن يغرق بالفعل".

"وها أنت قد أنقذتَه. لكن أن نأخذه معنا فهذه مسؤولية لا يمكنك تحمُّلها".

بدَّل نيكولاي وضعي بحيث وصرت أُنظِّع إلى هالة شعره المُجَعَّد، والسماء وراءه. ربَّيت على خدِّي بإصبع سميك كحبال الأجراس. "هل ترغب في المجيء معنا؟" قال.

كيف لي أن أدرك ما يعرضه عليّ؟ ذلك أن كل ما أعرفه أن العالم ينتهي عند تلك الدُّرى البعيدة، وأن كل قرية لها كارل فيكتور خاصَّتها. إذا كان أخبرني أحدهم أنه لا يوجد سوى ألف رجل في العالم الواسع، سأفكر قائلاً، يا إلهي! كثير جداً! لكنني رأيتُ في ذلك الوجه الذي يعلوني نظرة أمل. قل نعم، قالت عيناه. أخبرني أنك في حاجة إليّ. لن أخذلك.

كنتُ أرغب في العودة إلى البيت إلى أمي.

"نيكولاي، أنصت إليّ، لقد نذرتُ نذرًا..."

"سأنذر آخر".

"ليس هكذا تمضي الأمور. هذه النذور أبد..."

"أنذر..."

"نيكولاي، لا تفعل. يمكنك أخذه حتَّى نجد مكانًا آمنًا ونتركه فيه، لكن لا..."

تطلَّع نيكولاي إلى عينيّ. يا له من حُنوٍ. لكن أين أمي؟ هل ما زالت تستلقي على أرضية كوخنا؟

"أنذر"، قال، "أنه مهما حدث، سأحميك دومًا".

تأوَّه ريموس. أوشك على قول المزيد، لكن نيكولاي لم يستطع سماعه؛ لأنه بغتةً، كما لو أنها شعرتُ باشتياقي، بدأت أجراس

نبيلمات في القَرع. انكمش نيكولاي ورِيموس فيما الدَّويُّ يَرُجُّهما حتَّى لُبَّ قَلْبِيهما. أحنى رِيموس كَتْفِيه وغرز إصْبَعًا قَدْرًا في كل أذن. غطَّى نيكولاي أحد جانِبَي رَأْسِي بِراحَةٍ ضَخْمَةٍ وضغطَ أذني الأخرى على صدره، لكنني جاهدتُ حتَّى أفلتني وأنزلني أرضًا. خطوتُ نازلًا إلى ضفة نهر رِيموس ورفعت نظري إلى الجبال. كانت أُمِّي حيَّة!

تجاهَلْتُ الرجلَ المُحسنَ الذي كان أنقذني من النهر. حاول رِيموس جذبَه بعيدًا، لكن نيكولاي وقفَ فحسب وغطَّى أذنيه وراقبني: الصبي الصغير الذي لم يتأدَّ كما هو واضح بذلك الصوت الذي زلزل الأرض تحت أقدامهم.

كانت أُمِّي بخير بما يكفي لتنهض عن الأرضية الطينية وتصعد إلى أجراسها! عَزَفَتْها باهتياجٍ شديد، لحدِّ أنه بدا كما لو أنها تعزف على الجبال ذاتها بمطارقها.

انقضت ربع ساعة، ثم تكرر الدَّويُّ. حشا رِيموس أذنيه بقصاصات صوفية وأخرج كتابًا. لم يفعل نيكولاي سوى أن راقبني -بأصابعه تسدُّ أذنيه- كما لو كنتُ بهيمَةً متوحِّشة لم يرها في حياته من قبل. قَرَعَت أُمِّي أجراسها أطول كثيرًا مما يُسمَح لها به. انقضت أعوامٌ منذ ضُرِبَت على تجاوزها ذلك الحدِّ. الآن، أعرف، أن أهل نبيلمات يجثمون وراء أبوابهم، بالمفاتيح في أيديهم، جاهزين لصعود الكنيسة فور أن يكون ذلك آمنًا.

وما زالت هي تعزف الأجراس. تضربها باهتياجٍ لم أسمعَه من قبل قطُّ. بالكاد كان هناك توقُّف بين كل ضربةٍ وأخرى. ثم سمعتُ تغييرًا مفاجئًا: كانت قد شرخت حافةَ الجرس الأصغر. لكنها لم تتوقَّف.

سمعتها تناديه. فيما يجاهد في عودته صاعدًا المجاز الصخري، غارقًا في الطين والعرق والخزي، سيسمع الدَّويُّ كحُكمٍ يتردد صداه عبر العالم. وسيمقتها عند كل قَرع، كما مَقَّتْها عندما أغوته، سيمقتها

لفضح خطيئته مع طفلة، ولأنها جعلته قاتلاً. مع كل قَرْع، لا بُدَّ أنه أقسم على إسكاتنا للأبد.

سَخِرَتْ منه على طول المجاز الطيني بوعدٍ أنها ستذيع ذنبه حتى يوقفها. كُنْتُ متيقِّناً أنها لاحظت اقترابه، لكنه لم تُبطئْ أو تُخَفِّفْ من القَرْع. جَرَّتْ الدموع عبر وجهي وصرختُ منادياً أمي. "أنا هنا!" صحت. "أنا حي!" لكن حتَّى نيكولاى لم يستطع سماعي. ضَرَبَتْ تلك الأجراس أعلى وأعلى، مُتَحَدِّيةً أبى ليصعد إلى بُرجها ويوقفها. في هذه العاصفة، قعقعت الأرض وحطَّم النهر أمواجه حول أقدامنا، وأغلقتُ عَيْنَيَّ وتوهَّمْتُ وسط كل هذا، وأمِّي تطرق أجراسها، مناداة أبى.

\*\*\*

بعد ذلك بعشرين عامًا، عندما عدْتُ إلى الوادي لأول مرَّة بعدها، كانت أسطورة القسِّ الذي أنقذ أذان نيلمات ما تُزال تُحكى في كل حانة. ظنُّوني غريبًا وأخبروني عن القسِّ الخيِّر والساحرة الشريرة التي كانت تُحاصر القرية من بُرجها، التي تقرع الأجراس ليلاً ونهارًا حتَّى أوْشك أهل القرية على فقد عقولهم. أخبروني كيف صعدَ القسُّ المبارك المجاز إلى تلك الكنيسة واختفى داخلها، بعد أن منحه الربُّ شجاعةً سماوية. ومن القرية، رأوا ظله يَثْبُ عبر الباب الشبكي إلى بُرج الكنيسة. تراقصت هي من حوله، تضرب أجراسها حتَّى انفجرت أذناه وتلَفَّتْ بفعل الاصطخاب. ثم في عالمه الصامت، انقَضَ عليها، تلك الشيطانة الرشيقة، فيما تندفع بين أجراس الشيطان. أمسك بردائها، وأوشك على السقوط، وتمايل على حافة بُرج الكنيسة، متشبِّهاً بآخر جذاذة من القماش في قبضته. صرَخَ طالبًا نجدتها. وثَبَّتْ ناحيته، كما لو أنا ستحتضنه. ثم شاهدت كل عينٍ في المدينة كيف سقطا معًا. لم يُرْسَل في طلب قسٍّ جديد قط. أذِبت الأجراس وصُنِعت منها معازيق.

\*\*\*

لكن في ذلك اليوم، واقفاً بجوار ذلك النهر، فيما أصرخ لأمي أنني لم أمت، ما تخيلته كان مختلفاً تماماً. كانت تضرب أجراسها بشدة لحدّ أنني، في المركز من ذلك الضجيج، كنتُ واثقاً أن العالم قد بدأ يفقد ثباته، أن أمواج الصوت قد مرّقت كل ذرّة في جسدي والدي. وحيداً، متسامياً فوق الدويّ، سمعتُ صرخة أبي تتردّد عبر الجبال. ربما كنت هي اللحظة التي انفجرت فيها طبلتنا أذنه. لكن ذلك الطفل كان متيقناً أن أباه صرّح لأن جسده تمزّق بفعل أمواج الصوت. لم تُقرّع الأجراس مُجدّداً. هل رحلت أُمّي؟ بشكلٍ ما أدركتُ أنها رحلت. همهمّ الصدى حولي لبضعة دقائق. تماماً كما كل قطرة من مياه المحيط كانت يوماً قطرة مطر، سمعتُ حينها وكأن كل صوتٍ في العالم كان ذات مرة في أجراس أُمّي: النهر الرّثان، أزيز طيور السنونو تندفع في إثر الذباب، الأنفاس الدافئة للراهب المُحسّن الواقف بجواري. رحلت أُمّي وظلّت في كل مكان.

سعلَ نيكولاي برفق. رفعني لأتكؤم في ذراعيه. مع كل شهقة وانتحابةٍ مِنّي، كان يُحكّم ضمّته أكثر. عندما فتح ريموس فمه ليعترض، لم يفعل نيكولاي سوى أن استعرض أمامه راحة يده العملاقة. أغلق الراهب القبيح فمه وهزّ رأسه. حمّلني نيكولاي إلى الطريق، حيث يقف أكبر حصانين رأيتهما في حياتي. انسلّ ريموس في إثرنا. تطوَّح نيكولاي بكليتنا على حصان المقدّمة، ووضعني بين فخذيهِ الهائلتين. "تمسّك جيّداً"، قال. لم أر أيّ شيء بمقدوري التمسّك به، وفيما يتّخذ الحصان خُطوته الأولى المُهتزة، صرختُ في رعبٍ وحاولت الوثوب إلى أمان الأرض. جذبني نيكولاي ليمنعني. أغلقتُ عينيّ وانسابت الدموع على خديّ، وحاولتُ تصوّر وجه أُمّي، لكنني لم أستطع الاحتفاظ به في عقلي. بدلاً من ذلك، مُستلهماً العزاء، أنصتُ إلى الضربات المكتومة لركلات نيكولاي الخافتة على أضلاع الحصان، وغوص الحوافر الوحشية



في الطين، وحفيف عُرف الحصان. ثم تطلعتُ أمامي، عبر الطريق المعبش، وتساءلتُ إلى أيِّ حدٍّ وصلت أجراس أمي.

انعطفنا على الطريق عند جورتيلن، وفي تلك المدينة التي تضمُّ ثلاثمائة روح، ظننتُ أننا وصلنا إلى مركز الكون. كان الرجال يرتدون ملابس رمادية أو بيضاء وليست بُنْيَّة. أحدهم أخرج ساعةً من جيبه، وظننتُ تكتكتها هي ضربات قلب حيوان جيب منمنم ما. سيدة، مغادرةً منزلًا مُشيدًا من الحجارة، فتحت شمسية -شهمت- ما جعلني أتشبث بذراع نيكولاي العريض في رعب.

غمغمَ ريموس لنيكولاي أن صبيًا عاريًا على حجر راهب هو مشهد سيتسبب لنا في متاعب، وهكذا، من خياط، اشترى لي نيكولاي ملابس تحتانية من الكتان وسروال لركوب الخيل من الصوف. كان الكتان ناعمًا كالريش، لكن السروال لم يكن مريحًا، وكأنه حزام كارل فيكتور حول عنقي. لاحقًا، ذهبنا إلى حانة وأكلنا أطباقًا من اليخنة الساخنة واحتسينا النبيذ. بعد ثمانية أو عشرة أكواب من ذلك الشيء الحامض، وقف نيكولاي على قدمٍ واحدة على مقعده. "يا سادة"، قال للتجار والمزارعين في الحانة، "دعوني أعلمكم ما تعلمته في روما". صفقَ بيديه الضخمتين معًا، أسقط ذقنه، وبصوت جهوري مُدَوٍّ، أنشد أغنية عجيبة بلغة حسبثها رطانة بلا معنى لحدِّ أنني ابتسمتُ لأول مرة منذ أيام كثيرة. ابتهج الرجال الآخرون وصفقوا، لكن ريموس استشاط غضبًا، وبعد أغنية أخرى، جرنا لنمضي في طريقنا.

\* \* \*

نمنا في النزل على طول الطريق. كنت ألتفُّ بالدثار على الأرض، فيما ينام نيكولاي وريموس على الأسرة. عندما أتنشق في الليل، كان نيكولاي يستيقظ دائمًا وينسلُّ بجواري على الأرضية التي تصرُّ ألواحها تحته. "موسى الصغير"، يهمس في أذني، "هذا عالم مهول، يمتلئ بالأفراح، كل

فرحة تقبّع في انتظارك لتقتنصها. لا تقلق، لم تُعد مُضطراً للخوف. نيكولاي معك الآن".

في اليوم الثالث، خرجنا من مقاطعة أوري ودخلنا إلى مقاطعة شفيتس، وسرنا بمحاذاة بحيرة لوتسرن، التي أعرف أنها تمتلئ حتماً بحيوانات مخيفة. لكن حتى الوحوش المتخيلة في أعماقها كانت معروفة لي أكثر من الحضارة التي صادفتنا في طريقنا. كان العالم أكثر انشاعاً بكثير ممّا تصوّرت قط. ادّخرتُ كل صوت بالسرعة المُهتاجة لبخيلٍ وجد صندوق أموال مسكوب في الشارع: انشاءات الأمواج، صرير محبس المجذاف، مسيرة الجنود الموزونة، صفير تدربهم على بنادق المسكيت، أزيز محراث في الطمي، الرياح عبر حقول شوفان الربيع. مرّ بنا نُجارٌ وهم يتحدثون بألف لغة مختلفة، وأخبرني نيكولاي كيف كانوا قد عبروا جبال الألب إلى إيطاليا.

على طول الطريق، تزاخم متسوّلون حول أحصنتنا وتناولوا نحو نيكولاي وريموس بأصابع ناحلة، وهم يثنّون كالماعز. ألقى إليهم نيكولاي بعملات نحاسية. وتظاهر ريموس أنه لم يسمعهم يتصايحون. بدأتُ في إدراك أن هذا العالم يحوي مليون إنسان يملكون قَدْر، معظمها أقدار تعيسة. وها أنا مثال على ذلك: بلا أب، بلا أم، بلا بيت بمقدوري العودة إليه.



## (6)

في الصباحات، كان نيكولاي يوقظنا بإنشاده لُقْدَاس الصباح. كان موسوسًا في التزامه بمهامه المُقدَّسة، مُتَشَدِّدًا في إكماله لدورة المزامير الأسبوعية. لم يحمل أي كتب في رحلته سوى مُجلَّد نحيل من (قواعد القديس بينديكت)، وهو كتاب لم يكن في حاجةٍ إليه؛ ذلك أنه كان يحفظه عن ظهر قلب نتيجة القراءة اليومية لما يزيد عن أربعين عامًا تقريبًا. كنَّا أنا وريموس نطلُّ في الفراش حتى ينتهي من صلواته. ثم نتناول إفطارنا من العصيدة وألواح الجُبِن الكبيرة وبيرة المِزر.

في كل يوم، فيما نمتطي أحصنتنا، كنَّا نصمت للحظة، بقلوبنا مُثْقَلَة بمستقبلنا، لكن سرعان ما يعفينا نيكولاي من هذا العبء. يبدأ في التحدُّث حتَّى نُطفئ الشمعة في الليل وننام.

«هل زُرْتَ روما من قبل؟» سألني في واحدٍ من أيامنا الأولى معًا. نخرَ ريموس عند سماعه السؤال.

«يا لها من مكان! يومًا سنذهب إلى هناك معًا يا موسى... أنت وأنا والذئب العابس. رغم أن قلبه يتوق إلى فراشه دومًا، إلا أن ريموس يرغب في العودة إليها بالتأكيد. ترى، في روما لديهم مكاتب كاملة تمتلئ بكتب لم يقرأها أحد؛ ولهذا سمح لنا رئيس الدير بالرحيل. عاهدَ ريموس نفسه على أن يقرأ كل كتاب في العالم بأكمله، مهما كانت مادته مملة أو عديمة الفائدة».

"هذا من رجلٍ يؤمن أن المكتبات ينبغي أن تقدّم لمُرتاديها النبذ"، غمغم ريموس دون أن يرفع بصره.

"حسنًا، هذا صحيح"، قال نيكولاي. "وحينها سيسعدني التوقُّف عندها لأقرأ صفحة أو اثنتين". بسطَ ذراعيه على اتساعهما ومال قليلًا للوراء حتّى يستدقّ بالشمس قليلًا. أجفّلت ضحكته الحصان. "لكن لبضع دقائق فحسب! هناك ما يكفي من الكتب من أجلي في سانت غال، أكثر مما يكفي. روما يا موسى! روما! غبار الآلهة يتخلّف في كل ركن! يا لها من موسيقى! الأوبرا! كيف لي أن أضيع لحظة مع كتاب!"

أخبرني أننا كنّا في طريقنا عائدین إلى موطنهم، سانت غال هذه، التي سُمّيت هكذا لأن رجلًا يدعى غالوس من مكانٍ يدعى أيرلندا أصيب بالحمّى ووجدَ بالصدفة غابةً قبل أكثر من ألف سنة. ذلك المكان كان ديرًا (كلمة تکرّرت كثيرًا بين نيكولاي وريموس؛ ولهذا كنت مُتلهفًا لمعرفة معناها). حقائق أخرى انتزعتها عن ذلك المكان: كانت أقبينه ممتلئة عن آخرها بأجود أنواع النبيذ في العالم؛ الفُرُش أطرى من أيّ فراش في روما؛ تضم أعظم مكتبة في الأرض<sup>(1)</sup>، وريموس كان قرأ كل كتاب فيها (فيما قرأ نيكولاي ثلاثة فحسب)؛ تضم شيئًا بشعًا يدعى رئيس الدير، وهو رجلٌ يُسمّى كويلستن فون شتاوداخ

(1) هي ثاني أقدم مكتبة في العالم بعد مكتبة دير سانت كاترين في مصر. (المترجم)

أو كوليرك فون شتوكدوك، لست متأكدًا أيّهما. في أغلب الأحيان كان نيكولاي يشير إليه باسم شتوكدوك فحسب.

أخبرني نيكولاي أن أغلب الناس ينادون ريموس بدومينيكوس، لكن أصدقاءه (الذين لا يوجد منهم سوى واحد فقط حاليًا، لكن بمقدوري أن أكون الثاني إذا شئت) يعرفون أن اسمه الحقيقي هو ريموس وأنه تربّي وسط الذئاب العابسين. لم يراودني شك في ذلك: كان ريموس دائمًا ما يعبس في وجهي على فترات منتظمة، رغم أن معظم وجهه كان يختفي وراء كتابه فيما نمضي على الخيول؛ بدا حصانه مُدرّبًا جيدًا على اتباع حصان نيكولاي. في مناسبات كثيرًا كان نيكولاي يطلب من ريموس القراءة علينا بصوت عالٍ، وحينها تبدو الأصوات التي يتحدث بها كتعاويذ سحرية بلغة السحرة. دائمًا ما كنت أشعر بالامتنان عندما يقاطعه نيكولاي، بعد دقيقة أو اثنتين، ويقول: "ريموس، هذا يكفي. قتلنا الملل أنا وموسى".

رغم أن نيكولاي تحدّث باعتزاز شديد عن الدير، إلا أنه تألم مع انتهاء أسفارهما. في اليوم الذي تركنا فيه بحيرة لوتسرن وراءنا وبدأنا في صعود التلال، أوقف نيكولاي الأحصنة بغتةً. "ريموس"، قال، "لقد غيرت رأيي".

"لا تتوقّف بغتةً هكذا"، قال ريموس، مُنبّئًا نظره ما يزال على كتابه. "يُصيبني هذا بالغثيان".

عاد نيكولاي إلى تحديقته في الأفق الجنوبي، كما لو أنه رأى شيئًا أثار قلقه هناك. "لا بُدّ أن نقفل راجعين"، قال. "أرغب حقًا في زيارة فينيسيا".

رفعَ ريموس بصره بعدة. كان من الواضح أن اسم تلك المدينة أثار انزعاجه. "نيكولاي، تأخرنا جدًا على ذلك. تأخرنا لشهور. حسنا قرارنا بالاتجاه إلى الدير".

"لقد سلّمْتُ بسهولة. كان ينبغي أن أجعلك تعود بمفردك".

"نيكولاي، تابع طريقك". قال ريموس كما لو أنه يتحدث إلى طفل.

"ريموس، لا بُدَّ أن أزور فينيسيا قبل أن أموت". ضرب نيكولاي بقبضته على فخذه.

"مرّة أخرى". أخفضَ ريموس بصره بحذر إلى كتابه.

سحبَ نيكولاي حصاننا قريبًا جدًا من حصان ريموس بحيث تلامست ركبته مع ركبته الراهب الآخر. لم يرفع الراهب القارئ بصره، رغم أنه أبعدَ ساقه. في نفس اللحظة، مدَّ نيكولاي يده واختطف الكتاب.

تطلّع الراهبان في عيني بعضهما البعض. "وماذا لو لم نغادر الدير أبدًا لبقية حياتنا؟" سأله نيكولاي.

لم يجبه ريموس. مدَّ يده الخاوية حتّى أعاد نيكولاي الكتاب إليه. فتحه مُجدّدًا. "أمل ذلك"، قال، وعاد إلى قراءته. نخرَ حصانه وتهادى به مُتجاوزًا إيّانا.

نادى نيكولاي في إثره. "أنت في غاية الحماسة. أتحدّث عن فينيسيا يا ريموس. أجمل مدينة في العالم بأكملها. وتركتها تمرُّ بنا غير عابئين بها".

تكلمَ ريموس ونظره في كتابه. "سيحلُّ الظلام قريبًا".

"أعتقد أنني سأجد السلام هناك"، همسَ نيكولاي، لنفسه تقريبًا. عندما رفعت بصري، كنتُ موقفًا تقريبًا أن العملاق على وشك البكاء. أخفضَ بصره إليّ، وابتسمنا لبعضنا البعض. في وجهي أملتُ أنه رأى،

لكن نيكولاي، سأذهب أنا معك! بدا أنني ألهمت الرجل الضخم الشجاعة؛ ذلك أنه ركل حصانه وتحاذى مع ريموس مُجدِّداً.  
"في فينيسيا كل شيء سيكون مختلفاً".

"لا تكن أبلة". بفرقة، قلبَ ريموس صفحةً من الكتاب. "أربعون سنة كراهب ولم تتخلص من ذلك الهوس. مجرد ذريعة أخرى."  
"إذن فخذني إلى هناك؛ وحينها لن أجد أية ذرائع أخرى. سأتوقَّف عن إزعاجك".

"ستجد سبباً آخر لضجرك واستيائك. الجميع يفعل هذا".

أوقف نيكولاي حصاننا مُجدِّداً. هزَّ رأسه. "أنت، على الأقل"، غمغم، "لا عُذَرَ لديك لتكون تعيساً".

أغلق ريموس كتابه وتطلَّع من فوق كتفه إلى نيكولاي. ظننتُ أنني رأيتُ ابتسامة -ومضة انفعال- تكسر ذلك العبوس، لكنها تلاشت. "نيكولاي، لا تُماطل فيما اتفقنا عليه قبل زمن طويل".

تطلَّع نيكولاي إلى الورااء للحظةٍ أخرى، كما لو كان بمقدوره رؤية المنعطف المؤدي إلى فينيسيا، الذي كان في الحقيقة على بُعد مئات الأميال وراءنا على الجانب الآخر من جبال الألب، ثم استدار ناحية موطنه ونخسَ حصانه.

\* \* \*

"عزيزي موسى"، قال لي نيكولاي ذات صباح بديع على نحو استثنائي، بعد أن امتطينا الأحصنة. "هناك رهبان وهناك رهبان. أنا راهب. ريموس هنا راهب. ورئيس الدير كوليرك فون شتوكدوك راهب. نُشيد نفس الأناشيد، نُصلي نفس الصلوات، ونحتسي نفس النبيذ. نحن من نفس اللحم، بمقدور المرء أن يقول: "كُنَّا نعبّر من الغابة إلى المرعى ثم عائدين إليها مُجدِّداً، صاعدين ومُبتعدين ببطء



عن البحير الشاسعة التي تتلأأ وراءنا. مدّ نيكولاي يده ومسحَ بها على الشتائل على طول المجاز. "أرواحنا أيضًا يا موسى، لا بُدَّ أنها نفس الروح، أليس كذلك؟ لكن لا، فروح رئيس الدير شتوكدوك مُتَبَيِّسَة وذائبة، وروحي سميئة كخنزير". ضربَ حول بطنه. "وأحدنا حتمًا على الطريق الخاطئ، كما يقول الرجل الضئيل دائماً. لكن ما نودُّ أن نعرفه جميعًا هو مَنْ على حقٍّ وَمَنْ على خطأ؟".

نكزَ إصبعًا ضخماً في ركبتي. "إنه قلبي في مواجهة عقله يا موسى. سيقول نفس الشيء لو سألتَه، رغم أنني لن أفعل لو كنت مكانك".

لبضع دقائق لم يتحدث أيُّ منَّا، ثم أخذَ نيكولاي في الهمهمة بلحن عسكري إيطالي. مدّ يده إلى الأرض وانتزعَ فرع شجرةٍ مَيّت. أخذَ في التلويح به على أجسامات العليق النامية على طول المجاز. "تري يا موسى"، تابعَ بغتةً، "لديّ الكثير لأخسره. أحبُّ أشياء كثيرة جداً. أكثر من اللازم، يقول رئيس الدير. أكثر من اللازم. امنح قليلاً من الحب فحسب، يشير إليّ. عالج نفسك من تلك الخطيئة. هذا بالضبط ما أخشى منه، ألا ترى؟ هذا بالضبط أكبر مخاوفي، هذا ما يُقيني مُستيقظاً كل ليلة. ما أخافه هو: أن أستيقظ في الصباح التالي وأجد كل شيء كما هو، العالم هو العالم، لكن مع كل الحب الذي أحمله تجاهه وقد اختفى، ثم أدرك أن حُبِّي لم يكن في الحقيقة سوى مرض، مثل حصبةٍ في الروح". تطلَّع نيكولاي إلى صديقه يخبب بجواره. "هل يمكن أن يحدث هذا يا ريموس؟" لم يجبه ريموس، فاضطر إلى نخسه بالفرع في أضلاعه.

"نعم، من الممكن أن يحدث"، دَمَدَمَ ريموس. "قد يحدث غداً".

رفعَ نيكولاي الفرع، تردَّد للحظة، ثم لَوَّحَ به في اتجاه فخذ الحصان الآخر. اندفع الحصان إلى الأمام، شدَّ ريموس على مقبضه وبالكاد نجحَ في البقاء في سرجه ومنع كتابه من السقوط من الوحل.

وضعتُ يدي أمام فمي لإخفاء ضحكتي. عندما استعاد ريموس ثباته، استدارَ بغضبٍ إلى نيكولاي، لكن نيكولاي رفع يداً. "تحاول إيذائي فحسب يا ريموس. لا تصدّق حتى ما تقوله". لَوَحَ بالفرع في الهواء وكأنه سيف. انكمشَ ريموس.

بدأ لي ريموس حينها قبيحاً حقاً، ومَنِيْتُ لو ابتعد بحصانه عنّا. لم أفهم ما كان يعنيه نيكولاي، لكنني كنتُ أحبُّ الإنصات إليه وهو يتحدث. لا بُدَّ أن نيكولاي رأيَ أصالب بين ذراعيّ متأقفاً، لأنه وضع يداً على كتفي. "لا تدع تبرّمه يخدعك"، قال، "ليس لثيمًا كما يريدك أن تعتقد". ثم انحنى أكثر، وتحدّث بصوت واطيٍّ جدًّا، لحدّ أن الراهب القارئ لم يستطع سماعنا. "ذلك العابس يؤمن بالحب كما يؤمن أيُّ إنسان في العالم. قَدَّر ما أوْمَن أنا. كثيرًا ما سمعته يهمس بما يؤكد أنه يؤمن بالحب، تمامًا كما أهمس أنا، ومَأمًا كما ستهمس أنت يومًا ما لأحدهم، عندما تشعر بتلك الومضة، أن نصفين صارا واحدًا". انغلق كتاب ريموس بغتةً. حدّقَ بغضب في نيكولاي. "احذر مَن تخبره أسراركَ"، قال.

تورّد وجه نيكولاي، لكنه هزّ كتفه استهانةً ومَرَّقَ قَرعَه في شجرة عابرة. "لا تقلق يا ريموس"، قال. "بمقدورنا ائتمان موسى على أسرارنا".



## (7)

اتَّضَحَ أَنَّ رَئِيسَ الدَّيْرِ كَوِيلَسْتَن جَوَّجَرَ فَوْنَ شَتَاوَدَاخ لَيْسَ سِوَى رَجُلٍ ضَعِيفٍ كَانَتْ أُبْرَزَ مَلَامِحِهِ جَبِينًا عَرِيفًا، يَحْتَلُّ مَا يَزِيدُ عَنْ نِصْفِ قِمَاشَةٍ وَجْهَهُ، وَوَرَاءَهَا لَا بُدَّ يَنْبِضُ عَقْلٌ هَائِلٌ. "رَاهِبٌ مُبْتَدِئٌ قَرَوِي فِي هَذَا الدَّيْرِ؟" سَأَلَ عِنْدَمَا أَوْضَحَ لَهُ نِيكُولَايَ لِمَاذَا جَلَبَ هَذَا الطِّفْلَ إِلَى مَكْتَبِهِ. "رَاهِبٌ مُبْتَدِئٌ يَتِيمٌ؟".

أَوْمَأَ نِيكُولَايَ بِحِمَاسٍ. تَطَلَّعَ رِيْمُوسَ إِلَى أَرْضِيَّةِ خَشَبِ الْبُلُوطِ الْمَصْقُولَةِ.

نَهَضَ رَئِيسُ الدَّيْرِ مِنْ وَرَاءِ مَكْتَبِهِ الْعَرِيفِ. مِثْلَ نِيكُولَايَ وَرِيْمُوسَ، كَانَ يَرْتَدِي أَيْضًا غِلَالَةَ سُودَاءَ، لَكِنْ يَتَدَلَّى فَوْقَهَا رِدَاءٌ أَسْوَدَ بَقْلُنْسُودَةٍ، وَصَلِيبٌ ذَهَبِيٌّ يَلْتَمِعُ عَلَى صَدْرِهِ، وَفِيمَا يَقْتَرِبُ مَنِّي، حَدَّقْتُ فِي الْحَجَرِ الْأَحْمَرِ الْمُتَلَالِئِ عَلَى إصْبَعِهِ. أَوْشَكْتُ عَلَى التَّرَاجُعِ، لَكِنِّي كُنْتُ بِالْفَعْلِ لَصُقَ الْحَائِطِ. نَظَرْتُ إِلَى قَدَمَيَّ الْعَارِيَتَيْنِ، إِلَى مَلَابِسِي الْمُغْبَرَّةِ، إِلَى اللَّطَخَاتِ الَّتِي لَمْ يَغْسِلْهَا نِيكُولَايَ عَنْ وَجْهِي. تَنَشَّقُ.

"بالتأكيد لا"، قال.

"إنه هادئ"، قال نيكولاي. "إنه... إنه صغير". باعد نيكولاي ذراعيه كما لو لاستعراض حجم سمكة بائسة.

حدّق إلى رئيس الدير من علٍ. كانت أنفاسه سطحية، تندفع بشكل ميكانيكي كمنفاخ على مصهر. داخلةً، خارجةً. داخلةً، خارجةً. حتّى الآن، كنتُ متيقنًا أن بمقدوري إيجاد جذور لكل صوتٍ سمعته في هذا العالم الهائل -من فرقعات بنادق الجنود إلى امرأة تغني في نافذتها- في الأعماق اللا نهائية لأجراس أمّي. لكنني كنتُ متيقنًا أيضًا أنه في موضع ما في العالم كانت أصوات أبي، ممزّقة ومتناثرة في الفيضان، محفوظةً أيضًا. في اللحظة التي سمعت فيها هذه الأنفاس، أدركتُ من أين جاءت أصوات هذا الرجل.

كنّا سافرنا عبر أراضي الدير طوال الأيام الأربعة الفائتة من رحلتنا؛ ذلك أن دير سانت غال كان أغنى وأوسع دير في سويسرا بأكملها. لم يكن رئيسه مسؤولاً أمام أحد، كان نيكولاي قد أوضح لي فيما يمسح بيده ليشير إلى التلال الطاوية، لا ملكًا في الأعلى ولا جمهورية في الأسفل. شهقتُ عندما دلفنا عبر بوابات المدينة البروتستانتية، التي كانت تحيط بالدير كقشرة بثمرة جوز<sup>(1)</sup>. وجدتُ الشوارع عريضة ومرصوفة بأحجار ملساء مستوية، والمنازل العالية نصف الخشبية تتوهج بالأبيض. ورجال ونساء المدينة طويلي القامة، ذوي جمال وكبرياء، بأزياء من الكتان والصوف، وزركشات المولدين الرقيق. كانت أصوات الجِدِّ والعمل تنساب من كل قبو، وكل زقاق؛ صرير وانزلاق قضبة المنوال، خشخشة عملات الذهب والفضة، قعقة العربات المحمّلة بأكوام الكتان الذي بيّضته الشمس. فيما نخرق المدينة،

(1) في سانت غال، يقع الدير الكاثوليكي في المركز، تحيط به المدينة البروتستانتية، وتحيط بالاثنتين أملاك وأراضي الدير المتزامية. - (المترجم)

ازدادت المنازل ارتفاعاً وفخامةً: مباني حجرية بيضاء كالجُرُف التي  
تعلو كنيسة أُمي. مكتبة سُر من قرأ

في النهاية وصل ثلاثتنا أخيراً إلى بوابة يحرسها جنديان، خطوا  
جانباً عند مرأى الراهبين العائدين، ومررنا إلى ميدان الدير الشاسع.  
مدَّ نيكولاي يده لملامسة ريموس برفقٍ على مرفقه، إصبعان فحسب  
وإبهامه على نسيج غلاته الكهنوتية. استمرت اللمسة للحظة، فيما  
ينظر الرجلان إلى بيتهما للمرة الأولى في سنتين، ثم استدَارَ ريموس  
ليراني أراقبهما.

أبعد ذراعه مُجفلاً.

كانت مساحة الميدان تكفي عشرة آلاف روح. تحدّه ثلاثة أجنحة  
هائلة من أحجار لبنية اللون، كل منها عظيم وكأنه قصر، بنوافذ  
كثيرة جداً، كلها عالية كباب منزل كارل فيكتور. وفي وسط الميدان  
كانت حفرة هائلة يقبع فيها دزيتان من الرجال يرفعون كُتلاً مهولة  
من الحجارة. لامس نيكولاي كتفي وأشار إلى الحفرة.

"انظر يا موسى"، قال. "لقد بدؤوا لتوهم... في بضع سنين ستكون  
هذه أجمل كنيسة في أوروبا".

أومأْتُ، رغم أن التجويف المهول لم يشبه الكنيسة التي أعرفها بأيّ  
شكل. تناول نيكولاي يدي وقادني إلى الميدان الفسيح. لا بُدَّ أن كانت  
تبلغ حدّ الكمال تسكن ذلك القصر، فكُرتُ، وتمنّيتُ أن يسمحوا لي  
بالنوم هنا على العشب.

\* \* \*

لكن في حجرة رئيس الدير، فيما ينظر إليّ شزراً من عليّ، أدركتُ  
أخيراً وضعي. كان، حقاً، الكائن الأسمى، ولم أكن سوى لطخة لا بُدَّ  
من مسحها.

"دار الأيتام في رورشاخ"، قال، وأوماً بنخرة.

"لا!" قال نيكولاي، بأعلى مما يقصد بالتأكيد. انكمش ريموس. خطا الراهب الكبير للأمام وصرت الأرضية الخشبية تحت قدميه الهائلتين. جذب ريموس كُم نيكولاي لتحذيره، لكنه نفذه عنه.

"يمكنه البقاء معي"، تابع نيكولاي.

ارتفعت تحديقة رئيس الدير المستاءة من وجهي إلى وجه نيكولاي.

"في صومعتي. بمقدوره أن يكون خادمي".

تصورتُ نفسي أحمل نبض نيكولاي، ألبسه حذاءه، أدعك كتفيه عندما يكون متعبًا. مقابل بيت في هذا القصر المنيف، كنتُ مستعدًا لفعل هذا وأكثر.

"الرهبان لا يملكون خَدَمًا".

"أبتاه رئيس الدير"، قال نيكولاي، وابتسم كما لو أن رئيس الدير قد قال مزحة. "أين قلبك؟".

ألقي رئيس الدير نظرةً توبيخيةً أخرى في اتجاهي. هذا خطأك بالكامل، أدركتُ ما تريد عيناه أن تقول، الأمر بأكمله، أمك الميئة، أبوك الشرير، القذارة التي تخلفها قدمك مُتخشبُ الجلد على أرضياتي الطاهرة. شعرتُ بالأسف حقًا... لو واثنتني الشجاعة على التحدث، لطلبت صفحه وغفرانه على كل شيء، ثم سأتوسل إليه ألا يطردني؛ لأن نيكولاي هو الشخص الوحيد في العالم الآن الذي أثق به، ولا أرغب في انتزاعي منه كما انتزعْتُ من أمي.

لكنني لم أقل شيئًا من هذا بالطبع. كنت مرعوبًا بشدة على أن أقف مُنتصبًا حتى.

ثم اقترب رئيس الدير من نيكولاي. لم يكن عجوزًا، لكنه يتحرك كما لو أن كل خطوة يأخذها بسبينا عبثًا عليه. ترهّل نيكولاي للقاء تحديقته المتوهجة.

"سأقبل بعودتك إلى هذا الدير، أخ نيكولاي، لأنه ينبغي لي، رغم أنني أعرف أنك لا تشاركنا طريقنا. إنه طريق صعب. البعض مُقدّر له التطواف. تَمَيَّتُ أنك ستطوّف أبعد. تَمَيَّتُ، في هاتين السنتين، ألا تعود. لكن ها أنت قد عدت. سترى، في الفترة التي رحلت فيها، أننا أحرزنا تقدّمًا في هذا الدير." أومأ عبر النافذ إلى العُمال في الحفرة، ثم اقترب أكثر من نيكولاي، مُحدّقًا فيه. أمال نيكولاي رأسه كما لو سماع سرّ. "أنصحك بالبحث عن هذا التّقْدُم، أخ نيكولاي"، قال رئيس الدير. "ابحث عنه في وجوه إخوتك، في أعمالهم، في المواعظ التي نلقوها، في الأناشيد التي ننشدها. ابحث عنه في الكنيسة الجديدة التي بنيناها. ولا تنظر فحسب أخ نيكولاي، لكن تفكّر. هل لديك أي شيء تُسهم به في هذا الجمال؟ من أجل تنويع إرادة الرّب؟ أم هل ستمنع تحقّقها؟ هل ستقف في الطريق الذي قدّره الرّب لهذا الدير؟".

فتح نيكولاي فمه ليتحدّث، وأغلقه، ثم نظَرَ إلى ريموس علّه يجد إشارة، على أيّ من هذه الأسئلة الكثيرة يُفترض أن يجيب. هزّ رئيس الدير رأسه ونخر. استدار مُبتعدًا ولوّح بيده فيما يخطو عائدًا إلى مكتبه. "يمكنك البقاء هنا، إذا شئت"، قال. "يمكنك الرحيل... اختر هذا، وسأمنحك ذهبًا لتأخذه معك". ثم استدار رئيس الدير مُجدّدًا. رفع إصبعًا في وجه نيكولاي. "لكن إذا اخترت البقاء، فلا تُعرفلنا. واعلم أنني أراقب وأنتظر حتّى أجدد سببًا يكفي لطردك من هذا الدير، ولإرسال خطابات إلى كل دير في محيط خمسمائة ميل حتّى لا تتلقّى قطرة واحدة من نبيذ الأديرة".



بدت الغرفة وكأنها تدور قليلاً. أدركتُ أنني نسيْتُ أن أتَنَفَّسَ. أخذتُ عدة أنفاس متأنية فيما ظَلَّت عينا رئيس الدير مُثَبَّتَتَيْنِ على وجه نيكولاي. أجال نيكولاي نظره من العينين الباردتين إلى إصبع رئيس الدير المرفوعة، ثم إلى العينين مُجَدِّدًا. بدا الراهب العملاق في غاية الاستكانة واللطف. لوهلة، أوشكتُ على الاقتناع أنه سيأخذ رئيس الدير الضئيل بين ذراعيه ويحتضنه. هل بمقدوره إذابة تلك التحديقة الباردة؟ ألقى نيكولاي بنظرة خاطفة إلى ريموس، كما لو لمنح الراهب الكُتْبَيَّ فرصةً لحلِّ سوء التفاهم البسيط هذا بين الإخوة. لكن ريموس لم يَقُلْ شيئاً. لهذا ابتلع نيكولاي ريقه وومضت نظرة من عدم اليقين عبر وجهه.

"أب.. بتاه رئيس الدير"، شرع في القول.

لكن رئيس الدير رفع يده وقال ببطء، وخفوت، "خُذ هذا الصبي إلى دار الأيتام في رورشاخ، أو ارحل".

\* \* \*

تقدَّمنا ريموس في طابور واحد عائدين إلى ميدان الدير.

"كان من الممكن أن يسوء الأمر أكثر"، قال بعدما أغلق الحارس الباب الهائل وراءنا. حرصتُ على البقاء قريباً قِذْرَ الإمكان من ساقِي نيكولاي العملاقتين حتَّى لا ينتزعني أحد. "لم يذكر أننا تأخَّرنا في العودة، أو أننا أنفقنا كل أمواله واقترضا المزيد باسمه، أو أنك أغضبت كل راهب في روما بحكمتك ذات الطابع الاسكتلندي، أو أنني فقدت...".

"أخبرتكَ من قبل"، قال ريموس، "الأب رئيس الدير زائد عن الحاجة<sup>(١)</sup>. هذا يعني أنه 'أب أب'".

(١) الكنيسة الرائدة عن الحاجة هي كنيسة مغلفة ولم تُعد مُستخدمة للعبادة المسيحية؛

"يحبُّ هذا".

"يحبُّ أن تبدو أحمق".

نخر نيكولاي. "سرى هذا بطريقة أو بأخرى".

حدَّق الراهبان في الحفرة -التي كانت ترتفع منها الكنيسة الجديدة، المثالية- وكأنها منبع كل متاعنا. "حسنًا إذن يا سقراط، ماذا سنفعل؟" سأل نيكولاي. استدرت ناحية الراهب العابس، مُدرِّكًا أن هذا الرجل المُنفّر كان ثاني أفضل صديق لي في العالم.

"ماذا سنفعل؟" كرّر رموس.

"لديك فكرة حتمًا".

"نيكولاي، دار أيتام".

"دار الأيتام"، صحَّح نيكولاي، "كانت فكرة شتوكودوك. لن أرسل موسى إلى إصلاحية". ابتسم وغمز لي، لكنني لم أستطع إجبار نفسي على الابتسام بدوري.

"نيكولاي، إنه الحلُّ الوحيد".

"علينا أن ننتظر فحسب إذن"، قال نيكولاي. هزَّ كتفيه وربَّت على رأسي. "امنح الرَّبَّ فرصة ليجد حلًّا آخر".

\* \* \*

كانت صومعة نيكولاي، في الطابق الثاني من مهجع الراهبان، مكسوَّة بألواح من خشب البلوط. كان هناك مكتب، ومقعدان، وأريكة مُنجدَّة بمخمل بني، وعدة مناضد واطئة، موضوعة حول حواف سجادة من الصوف دُفَّات، فور أن خطوتُ عليها، قدميَّ العاريتين كأحجار مصفوفة حول نار. في أحد طرفي الغرفة كان فراش هائل وخزانة ملابس، وفي

---

لأسباب ذات علاقة بهجرة السكان أو دمج الأبرشيات أو تغيير الأنماط الاجتماعية. (المترجم)

الطرف الآخر، مدفأة. حملني نيكولاي حتّى أستطيع رؤية وجهي في المرأة التي تعلقو المدفأة الرخامية- الأصفى من أصفى البرك. عندما أمسكني مُتلبّساً بالانبهار بالشمعدانين الفضيّين على رفّ المدفأة، تناول واحداً وأعطاه لي. "إنه لك"، قال. "يكفيني واحد". شكرته، لكن عندما استدار، وضعته بخجل على إحدى المناضد.

أخرج نيكولاي ببطء الكنوز التي جناها أثناء سفرياته ووضعها أمامي لأتفحصها: صدفة لؤلؤية، محفظة جلدية مُكدّسة بتذاكر من أوبرات كثيرة شاهدها، ناي خشبي أخبرني أنه سيتعلّم العزف عليه ذات يوم، خصلة من شعرٍ أصفر تجعل عنقه يحمرُّ عندما تلتمع أطرافه الذهبية في الشمس.

فردّ لوحةً مائية وسألني إن لم تكن أجمل لوحة رأيتها في حياتي. شهقْتُ عند رؤية صورة لقنال فينيسيا الكبير. لم أكن أدرك أن أيّ مكان على الأرض بمقدوره أن يكون زاهي الألوان هكذا. أسندتها نيكولاي على منضدته. حدّقنا فيها لبضع ثوانٍ، ثم استدار ناحيتي، ووجهه قد اكتسب الوقار بغتةً. "موسى"، قال. "من المهم للغاية أن لا يراك أحدٌ سوى ريموس. لن يكون هذا للأبد، لكن علينا أن نمنح الربّ وقتاً ليخبرنا بما علينا فعله. إذا سمعتَ طرقاً على الباب، فعليك أن تخبئ هناك". أشار إلى خزانة الملابس ثم جعلني أتدرب على الاستلقاء بسكون تام داخلها.

تلك الليلة، نمتُ على الأريكة. تعالى شخير نيكولاي طوال الليل. في الصباح، سمعتُ طرقاً على الباب في الرابعة إلا ربع، وزمجر نيكولاي ليوقظ نفسه كما لو لطرّد نوم الشيطان الذي يُلصقه بالفراش. في الرابعة كان في الكنيسة الخشبية المؤقتة لصلوات الصباح. سمعتُ صوته يرتفع عن بقية الأصوات. هكذا استمرّ الأمر لبضعة أيام. سمعتُ أنه وحده أبداً لم يتأخّر من قبل عن أناشيد الصباح هذه،

أن صوته الرُّنَّان أَبَدًا لم يرتعش. فيما أَسْتَلْقِي على الأريكة أنصتُ للمدينة النائمة خارج النافذة، سمعتُ صوت نيكولاي الطافح كما لو كانت الأناشيد خَلْقًا متجددًا دومًا من بنات عقله، وليس مجرد إلقاء لأعمالٍ عمرها قرون.

الصلاة الافتتاحية، ثم القدّاس دون جوقة مرتّلين، ثم صلاة الترانيم، ثم القدّاس كامل المراسيم، ثم صلاة الساعة العاشرة- كان كل هذا يستمرُّ حتى العاشرة والنصف في الصباح. ثم يتناولون وجبة الظهيرة، التي يجلب نيكولاي لي منها ما يعتبره سَقَطًا، لكن بالنسبة لي كانت أعظم وليمة يمكن تخيلها: ألواح سميكة من لحم الأبقار أو الجِملان الغُضّة، لحم خنزير مُدخّن، نقانق دامية، جبن، عنب، مشمش، تفاح، لوز. كان يخفي هذه الكنوز في جيوبه ويضعها على حجري لأتھمها. فيما أتناول طعامي، كنا نحتسي رشقات من جرّة نبيذ، التي كان يسمح لكل راهب باثنتين منها في اليوم، لكن نيكولاي كان يأخذ أكثر من ذلك. "مقاس خصري"، ضاربًا على بطنه، "يحتاج إلى هذا. قاعدة الجرّتين ثلاثم قوام أناس مثل شتوكدوك". في الثالثة، يغادر نيكولاي من أجل صلاة المساء، ومُجددًا يرتفع إنشاده فوق المدينة. ثم يظهر ثانية أمام الباب قبل الساعة بالضبط، متورّد الوجه من العشاء والنبيذ، ويترك لي وليمة أخرى لأتعامل معها وحدي بينما يشدو هو بصلاة التضرّعات، التي تصل، تحت تأثير شُبعه، إلى أعلى نشوة لأيّ طقسٍ ديني.

في الثامنة يأوي الرهبان إلى صوامعهم، وهو ما يعني عودة نيكولاي، مع ريموس غالبًا، أو بمفرده لكن بلسان ثرثار يتحدّث أو يغنّي حتّى يحل الظلام. أحيانًا ما يطرق راهب آخر على الباب، تواقًا ليعرف مع مَنْ يتحدّث نيكولاي. إذا كان احتسى نصيبه فحسب، يصيح بأنه راهب يشعر بالوحدة ويحبُّ أن يتحدّث مع الجُدران أحيانًا، لكن

عندما يحتسي أكثر من ذلك، يزار في اتجاه الباب، "انصرف! النبي موسى يتحدث معي على انفراد! ارحل، يا أحمق!".

كنت أفكر في أمي كل يوم، وأبكي كثيرًا، لحد أنني لطخت أريكة نيكولاي بدموعي المالحه، لكنني لم أجزع لاحتباسي، لأنه لم يكن يختلف كثيرًا عن حياتي السابقة في برج الكنيسة. ولهذا لم أشعر بالخطر الذي يترتب بي فيما أنصت إلى المدينة البعيدة، إلى الرهبان يتحادثون في معتزلهم في الأسفل، أو إلى العمال ينحتون في كتل الحجارة في جدران الكنيسة الجديدة. ظهر صوت جديد أيضًا، كان بمثابة لغز لأذني. خطوت إلى النافذة المفتوحة، وكأنتي كلب يتبع رائح لحم. عندما سَكَنَ الهواء، حجب كل صوت آخر وحاولت اقتناص الصوت الجديد، لكنه كان واهيًا جدًا على أن أمسك به كبقية الأصوات الأخرى. تراخت قبضتي على جزء منه، واختفت الأجزاء الأخرى أيضًا. ومع الوقت بُيِّتَ جدائل من هذا الصوت الجديد فوق بعضها البعض، كتجمُّع لزهور الخشاش على سفح تلٍّ يُشاهد من على البعد؛ برعم كل زهرة غير مرئي، لكنها في المجموع، تضيء مُنحدر التلِّ بالأحمر.

كنتُ أسمع كل ظهيرة. ربما كان هذا الصوت هو الربُّ الذي يتحدث عنه نيكولاي؟ ليس ربُّ كارل فيكتور المرعب، بل ربًّا للجمال والفرحة. ربُّ سيجد طريقةً من أجلي لأبقى في هذه المكان البديع، المتَّسم بالكمال.

ثم في واحدٍ في صباحات الأحد، في يومي السادس في غرفة نيكولاي، أصبح الصوت أعلى بغتةً، وبدلاً من مجيئه من السماء، بدا أنه يأتي من كل اتجاه: من الجدران، من الأروقة، من ثقب المفتاح. كان الربُّ يقترب، ولا يمكن أن أخطئه. وهكذا، بعد ستة أيام من وصولنا إلى الدير، خالفْتُ تحذير نيكولاي. غادرتُ صومعته.

## (8)

أصقْتُ أذني بثقب المفتاح حتى تأكدْتُ أن الرواق خالي. ثم فتحت الباب. أغلقت عيني وأرهفت سمعي لالتقاط وقع أقدام أو أنفاس رئيس الدير الناشزة. ارتعشت ساقي فيمَا اتَّخذ خطوةً إلى الأرضية الخشبية المصقولة للرواق الشاسع.

كان الصوت أعلى هنا. يتألف من أصواتٍ بشرية؛ صرْتُ الآن متأكداً. كانوا يغنون. حاولتُ عدَّهم. في لحظة كانوا اثنين، ثم ثمانية، ثم سمعتُ أخيراً... اثني عشر؟ ثم صوتين فحسب مجدداً. لوهلة، بقي صوتٌ واحد، واستولي عليَّ الشُّكُّ إن كنتُ سمعتُ أيَّة أصوات أخرى. هبطتُ عبر بئر الدَّرج الواسعة. مقارنةً بحجرة نيكولاي، كانت هذه المساحات الجديدة مهولة. لم أصدر ضجيجاً، ولم تكن هاك أيُّ أصوات بشرية أخرى في الدير، باستثناء هذه الأصوات. كان العُمَّال قد توقَّفوا عن عملهم. ولا راهب يخطو في المعتزل. لم أسمع سوى 'الرياح. كان الأمر كما لو كل البشر في العالم قد اختفوا.

تسلَّلتُ إلى المعتزل. كان العشب الرطب باردًا على قدميَّ العاريتين.  
وراء حفرة الكنيسة الجديدة امتدَّ ميدان الدير الخاوي. توقَّفت.  
انطلق صوتٌ واحد من جديد، بمفرده، وبعدها بلحظات، نطقَ صوتٌ  
آخر بنفس العبارة، ثم صوت آخر وآخر، كلهم نفس الصوت تقريبًا،  
ليس تمامًا: بعضها أسرع أو أبطأ، أو تغني بنغماتٍ مختلفة. أصابني  
الدوار من محاولتي تبيُّنها. لا بُدَّ أنها الملائكة تغني حتمًا.

اعتصرتُ عينيَّ بشدَّة حتى ألتاني. التفافات من الضوء الرمادي  
كانت ترقص مع الأصوات السحرية. وبغتةً أدركتُ كل شيء. إدراكًا  
انبثق داخلي. في قعقعة أجراس أُمِّي، سمعتُ هذا الجمال من قبل-  
في ومضات من التناغم العشوائي. وهؤلاء الرجال والصبيان الذين  
يغنُّون، كان تعلموا حقًا معنى الإعجاز السحري. كان بمقدورهم العمل  
على محيط الأصوات ذلك، الجارف واللا نهائي، وصبُّه وتحويله إلى  
شيء بديع. وأدركت، أنني، أيضًا، بمقدوري أن أعرف هذا السحر. ربما  
أعرفه بالفعل.

تجاوزتُ حافة حفرة الكنيسة الجديدة وسرتُ عبر نفقٍ مصنوع  
من ألواح يؤدي عبر ميدان الدير إلى الكنيسة الخشبية المؤقتة.  
تتبعُ الأصوات حتَّى وصلت إلى باب عالٍ من خشب البلوط. أزحته  
بصعوبة بكل قوَّتي لينفتح.

كان يُفترض أن أرى الكنيسة البسيطة ممثلة بالرهبان والعامة،  
يفصل بين المجموعتين حاجز خشبي. كان يُفترض أن أرى جوقة سانت  
غال تغني أمام المذبح. كان يفترض أن أجفل بما يكفي للهروب. لكن  
انفتاح الباب أطلق فيضًا من الصوت، ولوهلة لم أدرك شيئًا سوى  
هذه الموسيقى. صرتُ عبدًا للأذني.

آلمتني لحظات من التنافر بين الأصوات. لكن عندما اصطفت  
الأصوات في أثلاث، دقَّات عنقي وظهري. أغلقتُ عينيَّ واستمعتُ

للموسيقى. شعرتُ بطنين غنائهم في فكيّ وأصداغي. شعرتُ به في صدري الضئيل، وعندما أطلقت زفيري، تنهّدتُ، وهكذا تداخل الرنين الواهي لصوتي مع الموسيقى. كانت تنهيدتي شرارة. انبثق صوتي إلى الحياة. تأوّهتُ، محاولاً إيجاد النغمات التي تُطابق رنين جسدي الضئيل مع هذا الجمال.

لم أكن أعرف الكلمات، ولم أدرك حتّى أن ما يغنّونه كان كلماتٍ؛ لهذا أطلقتُ الأصوات كيفما اتفق من شفتيّ. في لحظة شعرتُ بنشوة التناغم، وفي أخرى، بوخزة باردة في ظهري، فيما ضجيجي يتقارع مع أغنيّتهم. غنيّتُ كجرو يركض مع كلاب كبيرة -باهتياج، بنشوة، بحماقة- حتّى أدركتُ بغتةً أن الغناء قد توقّف. كنت تائهاً وسط صمتٍ مصدوم.

صفّعت يد رأسي بقوة، لحدّ أن النجوم ومضت أمام عينيّ. سقطتُ على ركبتيّ. انفتح الباب الكبير مُجدّداً، ورفعنتي اليد من عنقي، وألقنتني خارج الكنيسة إلى التراب في الخارج.

\* \* \*

ركضتُ. صعدتُ الدّرج مسعوراً. بدا كل باب أمرّ به في ركضي مُماثلاً للذي قبله، وجربّتُ خمسة أبواب قبل أن أجد الباب الذي أبحث عنه. اختبأتُ في خزانة الملابس ووضعتُ واحدة من غلالات نيكولاي الصوفية السوداء فوقي. شعرتُ بحرارة مريحة، وسرعان ما انقطعت أنفاسي وبدأت في التّعرق. لكنني ظلمتُ هناك حتّى دخل زوجان من الأقدام إلى الغرفة. تعرّفتُ في أحدهما على وقع أقدام نيكولاي المتثاقلة. وفي الأخرى- أعرف تلك الأنفاس. منفاخ على مصهر. انغلق الباب بقوة.

"أبتاه رئيس الدير..." شرع نيكولاي في القول.



"ينبغي لي أن أطرّدك من الدير"، زمجرَ رئيس الدير كويلستين.  
"تخفي طفلاً في صومعتك!".

"ليس لديه مكان ليرحل إليه"، توسّل نيكولاي. همسَ وكأنه  
يرغب في ألا يُسمَعَ. "فقط لو قبلته كراهب...".

"هل تسمعي؟" هتف رئيس الدير. "الطرّد! ماذا ستفعل حينها؟  
تُعْني مقابل الطعام؟".

"أبتاه رئيس الدير، أرجوك".

"أين هو؟".

كان هناك صمت في الغرفة. ببطء شديد، للغاية، انحنيت حتّى  
أستطيع النظر عبر الشقّ بين بابيّ الخزانة. حدّق رئيس الدير باهتمام  
إلى نيكولاي العملاق، وبدا وكأنه طفل غاضب.

هزّ نيكولاي كتفيه العملاقتين استهانةً. "ربما هرب".

استمرّت تحديقة رئيس الدير.

"أبتاه رئيس الدير، أرجوك. لا تعاقب هذا الصبي على ما فعلته".  
وضع نيكولاي يده على كتف رئيس الدير.

دون أن يزحزح عينيه، أمسك رئيس الدير بمعصم نيكولاي. أزاخه  
من على كتفه. قطّب نيكولاي وجهه فيما رئيس الدير ينشب أظافره  
في لحمه. تحدّث رئيس الدير ببطء، مُشكّلاً كل كلمة بعناية. "ربما  
تظن أن عمل الخير وفير كالهواء". طوّح بذراع نيكولاي بعيداً.

فرّك نيكولاي معصمه. "صبي واحد لن يسبب أي ضرر".

بدا رئيس الدير وكأنه لم يسمعه.

ضمّ نيكولاي راحتيه معاً. "أبتاه رئيس الدير"، قال. "أرجوك،  
أتوسّل إليك".

ذلك الوجه! هل وُجدَ -قط- وجه كبير هكذا، وبريء هكذا في آن؟  
مُحسنٌ هكذا؟ بدا وكأنه يقول لرئيس الدير، لكننا إخوة، أنا وأنت!  
"تتوسَّل إليّ؟" قال رئيس الدير، مُندهشًا من مجرد الفكرة. تطلَّعَ  
في أرجاء الغرفة. "تتوسَّل إليّ من أجل ماذا؟ نيكولاى، منحتُك بالفعل  
كل ما يمكن منحه. منحتك غرفةً سيسعد أميرٌ بالعيش فيها. منحتُك  
الطعام. منحتُك نبيذًا أكثر ممَّا يمكن لأي رجل أن يحتسى. أشيّد لك  
أعظم كنيسة في الكونفدرالية. وأنت؟ ماذا منحتني؟ ماذا منحتَ لهذا  
الدير؟ تصلّي. تأكل. تغنّي. تشرب. تنام. ولا شيء آخر".

تحدّث نيكولاى بضعف، "يقول القديس بيندكت..."

"القديس بيندكت؟" نخرَ رئيس الدير. رفعَ إبهامًا في اتجاه صدره.  
"تقتبس من القديس بيندكت لي أنا؟ انطلق وكنْ ناسكًا زاهدًا مثل  
القديس بيندكت يا نيكولاى. هناك كهوفٌ تكفيك أنت ودومينيكوس.  
وفيما تعيش، بعيدًا، مثل قديسي الماضي، سنتسمرُّ نحنُ في المجاهدة  
لنصبح قديسي المستقبل".

عَشِيَ الصمت الحجرةَ فيما رئيس الدير يأخذ نفسًا مُهدّئًا طويلًا  
ويخفض صوته. "هنا يا نيكولاى، لدينا أفواه لإطعامها. لدينا أرواح  
لإنقاذها. الفلاحون في أراضِيّ سيسألون يومًا عن معنى الجَمال،  
سيطلبون أن يروا ويسمعوا ويتذوّقوا مجد الربِّ لمرةٍ واحدة في حياتهم  
هنا على الأرض فيما تُضَيّع أنت كل يومٍ من حياتك في هذا الدير.  
ترى، بمقدوري التسامح مع الرهبان عديمي النفع يا نيكولاى، إذا  
اضطرت لذلك. إذا كان دومينيكوس يرغب في قراءة وترجمة الكتب  
التي لا يهتمُّ بها أحدٌ غيره، فلا بأس. إذا كنتَ مجرد راهب عديم  
النفع فسأتركك فحسب هنا في هذا الصومعة حتى تموت، وحينها  
سأشغلها براهب قد يكون مفيدًا للربِّ".

"أبتاه رئيس الدير، لا تقصد ما..."

"بل أقصد". أوماً رئيس الدير ببرود فيما يتقدم خطوةً أخرى. "وإذا خدعتني مجدداً أبداً يا نيكولاي، إذا أظهرت لي ادنى علامة أنك أي شيء بخلاف الراهب المهجور، عديم النفع الذي بمقدوري التسامح به، فسأعمل جاهداً ألا يسمح لك كل دير في أوروبا بالدخول عبر بوابته".

تدلى فك نيكولاي مفتوحاً. أبدى إيماءة خافتة. "نعم، يا أبتاه رئيس الدير"، همس.

مسح رئيس الدير مرفقه بمنديل من جيبه. التقط عدة أنفاس ثم مسّ جبينه العملاق وكأنه يقول إنه راضٍ عن نتيجة النقاش. تطلع في أرجاء الغرفة. سقطت عيناه على لوحة فينيسيا مُستندةً على المنضدة. دون تفحصها، رفعها، أحدث تجعيدة في منتصفها بأظافره، ثم مزّقها إلى نصفين. لم يفعل نيكولاي سوى أن انكمش خوفاً من صوت المزّق. وضع رئيس الدير القصاصات على المنضدة مجدداً ونظر إلى نيكولاي. "والآن، أحضر لي ذلك الصبي"، قال.

عم الصمت. ثم تحدث نيكولاي بهمسٍ خفيض: "لا أستطيع".

تمنّيت حينها لو تلاشتُ إلى صوت.

"إذن فسأحضره بنفسي".

اقترب وقع أقدام من خزانة الملابس. انفتح الباب، وشعرت بالغلالة ترتفع من فوقي. أبقى عينيّ مُغلقتين، لكنني سمعتُ أنفاسه فوقي. أمسكت بي أصابع من شعري وصرختُ من الألم، لكنه جذب بقوة أكبر حتى صرْتُ على قدميّ بجوار فراش نيكولاي.

كان نيكولاي يقف في منتصف الغرفة. مُطأطأً وكأنه يحمل شوالاً من البطاطس على كتفيه. "أنا آسف جداً"، قال لي.

"غفرت لك"، قال رئيس الدير. "الآن على الأقل".

"أبتاه رئيس الدير"، قال نيكولاي. خطا للأمام ومدَّ يَدًا وكأنه سيمسكُ بي. "دعني أجد مكانًا له، سأجد مُزارعًا. ربما أستطيع...".

غرَرَ رئيس الدير إصبعًا في وجه نيكولاي لإيقافه. "ستؤدي طقوسك الدينية". وخَزَّ بإصبعه مجددًا. "ستفكر في الخطايا التي ارتكبتها في حقِّ هذا الدير. ستنسى الصبي. وسأخذه بنفسه إلى واحدة من ملاجئنا للأيتام وسأرعاه فيه، تمامًا كما أُرعى مئات الألوف من الأرواح الأخرى التي تقع ضمن مسؤوليتي. لن ينال عقوبة ولا ميزة للضرر الذي تسبَّب فيه اليوم".

أطبقَ رئيس الدير على عنقي بإصبعين مُتخَشِّبتَين وسحبني إلى خارج الغرفة. بدأتُ في البكاء.

جرَّني عبر الدَّرَج، رافعًا إِيَّاي بما يكفي بكُمَاشته بحيث كانت قدماي بالكاد تلمسان كل سُلْمَة. "إذا قاطعتُ قُدَّاسي مُجددًا"، همس في أذني، "سأقطع لسانك وأطعمه لل...".

"توقَّف!"

استدارَ. كان نيكولاي يقف أعلى الدَّرَج. كان شوال البطاطس قد اختفى. عيناه مغرورتان بالدموع.

"لا يمكنك فعل هذا"، قال.

"هل تدرك ما تقوله؟" سأله رئيس الدير.

"أبتاه رئيس الدير، نَذَرْتُ نَذْرًا بحماية هذا الطفل".

لوهلة، كان رئيس الدير عاجزًا عن الكلام. سمعتُ أنفاسه تعلّق في حلقه. شعرتُ بيده المُطَبِّقَة على عنقي ترتعش من الغضب، وكذلك صوته عندما تحدّث أخيرًا. "لديكَ نَذْرٌ واحد، أيُّها الأخ نيكولاي، وهو هذا الدير. إذن، فلاكن واضحًا: أمامك خيار. بمقدورك العودة إلى نَذْرِكَ الأول والأبدي، وحينها آخذ الطفل هذا إلى حيث أشاء. أو

تحنث بذلك النَّذر، وحينها يمكنك أن ترحل أنت وهذا الطفل من الدير معًا، على الفور. أفضل الخيار الثاني".

احمرَّ وجه نيكولاي، كما يحدث عندما يَسْكَر. "أبتاه، أتوسَّل غفرانك، اخترتُ...".

لم يكشف عن اختياره قطُّ، لأنه في تلك اللحظة سمعنا شخصًا رابعًا يصعد الدَّرَج مُتَعَثِّرًا. "الحمد لله"، قال هذا الصوت الجديد. "أبتاه رئيس الدير، لقد وجدته".

## (9)

"أولرتش فون جوتيجن"، لهت الرجل مُصفرُّ الجلد ومدَّ يَدًا مُتعرِّقة ناحيتي. "أنا رئيس الجوقة في الدير". انكمشت خوفًا من اليد وكأنها تنوي أيضًا جرِّي عبر الدَّرَج. تعرَّفت على هذا الرجل من الكنيسة. كان هو مَنْ يقف أمام المنشدين الذين حاولت الانضمام إليهم.

"نعم، لقد وجدته"، قال رئيس الدير. دفعني درجةً أخرى للأسفل بحيث صرت واقفًا بين الرَّجُلَيْن. "والآن سيرحل إلى رورشاخ. لن يزعجنا مُجددًا".

"لا!" قال قائد الجوقة. قبض على ذراعي.

شدَّ رئيس الدير من قبضة أصابعه على عنقي. "ماذا تعني؟" سأله.

تطلّع أولرتش من رئيس الدير إلى نيكولاي ثم إلى رئيس الدير مُجدِّدًا. حاولت إفلات ذراعي، لكن قبضة قائد الجوقة كانت مُتصلبة. "من أجل الجوقة، بالطبع".

"الجوقة؟".

"نعم".

في الصمت الذي تلا ذلك، تخلّيت عن التلوي وتمعنّت في هذا المدعو أولرتش فون جوتيجن. كان جلده الأصفر مشدودًا وشفافًا، كجلد دجاجة غُمست لثوانٍ في ماء مغلي. شعره الأبيض، أيضًا، وكأنه ريش نُتِفَ بالغلي، كان مُلتصقًا وراء أذنيه وعلى قمة رأسه فحسب في ذؤابات صغيرة.

لكن منظره لم يدهشني كثيرًا بقدر ما أدهشني صوته. رغم أنه كان يلهث من أجل الهواء، إلّا أن أنفاسه كانت مُجرّد همس، كنسيم يعبر من تحت باب. قلبه أيضًا كان يضرب بهدوء شديد على أن أسمع، ورغم أنني اعتصرتُ أذنيّ للبحث عن أيّ علامات يمكنني معرفته بها -فَرَكْتُ في يديه أو التواء في ساقيه أو طقطقة في ركبتيه- إلّا أنني لم أسمع شيئًا.

"نريد أن نسمعه يغني"، قال أولرتش. سحبني ناحيته وعَضَّ شفتيه في حماس.

"سمعناه يغني، ولم نَنَل سوى الإزعاج".

"نغمات قليلة، أبتاه رئيس الدير. مُجرّد ومضة، ربما، من شيء خارق للعادة".

"اسمعه"، قاطعهما نيكولاي.

استدارَ رئيس الدير وأولرتش إلى الراهب الضخم، الذي كان ما يزال يقف أعلى الدُرَج.

"لا شأن لك بهذا"، قال رئيس الدير. لكنه استدارَ إلى قائد الجوقة وغمغم، "حسنًا، سنسمع الصبي".

\* \* \*

هبطَ أربعتنا الدُرج وانعطفنا عبر سلسلة من الأروقة غير المألوفة. لم يُفْلِت أولرتش ذراعي حتى دلفنا إلى غرفة كبيرة بهرايا على طول حائط واحد. كانت هناك خشبة مسرح صغيرة تقطع الجانب الآخر من الغرفة. وفي منتصف الغرفة ينتصب جهازٌ بدا لي كنعشٍ بثلاثة صفوف من المفاتيح عند أحد طرفيه. خَشِيتُ أنهم ينوون دفني حيًّا. وضع أولرتش مقعدًا مرتفعًا بجوار هذا التابوت ورفعني عليه. لاحظَ عينيَّ المرتعبتين تُحدّقان في الصندوق الخشبي وقال بألطف ما يسمح به صوته العُصافي، «لكنك لم تَرَ بيانو قيثاري من قبل؟» ضغط على واحد من المفاتيح، وملاً رنينٌ جميل، صافٍ، الغرفة. «يمكنك غناء هذه النغمة، أليس كذلك يا بُني؟».

فيما الرجال الثلاثة يراقبونني بتلُهف، شعرتُ بالمقعد العالي وكأنه سيهوي من تحتي. لعقَ أولرتش شفثيه وضربَ المفتاح ثانيةً. «هذه النغمة؟» جفَّ حلقي وتناقلَ لساني بالخوف.

«غنْ»، قال رئيس الدير. صفَّعَ ظَهْر يده. «لا وقت لديّ للألعاب». ضُربَ المفتاح مُجدِّدًا. غنَّي أولرتش النغمة، كان صوته رائقًا وباردًا. «هيا يا موسى»، قال نيكولاي. أوماً وابتسم، ورفع حاجبيه الكثَّين لأعلى ما يستطيع. «يريدان فحسب سماعك تغنِّي».

تطلَّع رئيس الدير إلى ابتسامة نيكولاي وقال بفتور: «يا صبي، غنْ الآن وإلا لن ترى نيكولاي مُجدِّدًا أبدًا».

ضربَ أولرتش المفتاح مجدِّدًا، مُنحنياً بخفَّة.



«هذه النعمة فحسب»، حثني نيكولاي، وكأنه لم يسمع كلمات رئيس الدير. «مرة واحدة فقط».

أشك أن ملاكًا حثي كان بمقدوره حينها مدهنتي لأغني. لم أرَ في رنة وتر البيانو القيثاري إلا نبحة كلبٍ مطلوبٍ مني أن أقُلدها. كنت على استعداد للجلوس هناك حتى ينزلوني من المقعد.

«لقد نال فرصته»، قال رئيس الدير. قبضَ عليّ من ذراعيّ وكان على وشك جذبني من مقعدي، لكن أولرتش قاطعه.

«بمفردنا»، قال، ثم وضع يده الشاحبة على يد رئيس الدير. «اتركونا بمفردنا. حينها سيغني».

«وكيف له أن يغني وأنتما بمفردكما فيما يرفض الغناء ومستقبله كله على المحك؟».

«لا بدُّ أن أتحدّث معه».

أبعد رئيس الدير ذراعيه. «تحدّث إذن!».

«بمفردنا».

«بمفردكما!» زمجرَ رئيس الدير. «لا وقت لديّ لهذا. أمامك عشر دقائق. ثم سيكون على العربة إلى رورشاخ».

غادرَ رئيس الدير فيما راقبه نيكولاي فحسب، لكنه لم يتحرّك ليتبعه.

«رجاءً، أخ نيكولاي». أوماً أولرتش ناحية الباب.

بدا الراهب الضخم مصدومًا من فكرة مغادرتي. «ليس خائفًا مني».

أوماً موافقًا. صليْتُ ألا يتركني حاميّ بمفردي مع هذا الرجل.

لكن أولرتش خطأ ناحية نيكولاي وبدأ في دفعه للخارج. "لا بُدَّ أن أتحدّث معه بمفردي"، همس بجديّة. "أرجوك".

تحدّث أولرتش بخفوت وحزم. "تركنا بمفردنا هو أفضل شيء يمكنك فعله من أجله. قف خارج الباب إذا أحببت".

تطأع نيكولاي إلّا. لا بدّ أنه لاحظ عينيّ المتّسعتين، وفمي المفتوح. أحكمت يديّ إلى قبضتين. "موسى"، قال. "لن يؤذيك. أعدك. افعل ما يقوله لك". لكنه بدا شاحبًا ومضطربًا فيما يستدير ويخطو إلى خارج الباب.

ثم صرّ بمفردي مع هذا الرجل الأصفر ذي الأصوات القليلة للغاية. وقف قريبًا منّي بشدّة لحدّ أنه يفترض بي أن أسمع المزيد: صوت سحق عندما يدير عنقه، لسانه وراء أسنانه، قدماه ترحفان على الأرض الخشبية، بللّ في حلقه فيما يُخرج أنفاسه. لكن كل ما سمعته كان اندفاعه هواء رقيقة من فمه. تمعّن في وجهي، ثم انحنى تجاهي.

"لقد سمعتك"، همس، وكأنه يخشى أن يسمعه نيكولاي. "ربما سمع الآخرون صوتك. إنه غير مكتمل. ليس مُدرّبًا بعد. لكنهم حمقى. لقد سمعتك. سمعت رثيتك. سمعتك هنا". مدّ يده، وبإصبع باردة، لامس برفق خطّ حلقى. "لم تستطع منع نفسك، أليس كذلك؟ كنت ستنفجر لو بقيت صامتًا ثانية واحدة أخرى؟".

كانت رائحة قائد الجوقة تشبه الثّبن المتعفن. أنفه في مستوى أنفي. كدّث أغمّنى أن يعود رئيس الدير ويرسلني بعيدًا.

"أعتقد أنك سمعتني أيضًا. لا أستطيع أن أغني مثلك يا موسى. لدينا ملكات مختلفة. لكننا نُكَمِّل بعضنا البعض". شابك أولرتش أصابعه أمام وجهي.

أغلقْتُ عَيْنَيَّ، مرعوبًا من النظر إليه عن قُرب هكذا، متمنيًا أن  
يختفي.

"لن يستطيع رئيس الدير أن يأخذك مِنِّي يا موسى. لقد سمعتكَ  
وسمعتَنِي. شاء الرَّبُّ أن نلتقي".

لامسَ حلقي مُجدِّدًا، بيده كُلُّها هذه المرة، وكأنه يريد خنقي.  
لكن لمسته الباردة كانت رقيقة. ابتعلت ريقِي بصعوبة.

"بإمكاني فتح صوتكَ يا موسى. سأفعل. يمكننا الرحيل عن هذا  
الدير إذا شئت. يمكننا العودة إلى المكان الذي جئتَ منه. لكن يا  
موسى، أنصت إليّ: سيمنحك رئيس الدير، المُستعدُّ لإرسالكَ إلى إصلاحية  
قذرة، أعظمَ رفاهية يمكن لصبي في مثل عمرك أن يحلم بها، فقط لو  
قلتُ ذلك. يحتاجون لأناسٍ مثلي ومثلك يا موسى".

فيما يهمس في أذني، شعرتُ بدفء وجهه على جلدي. "يحتاجون  
إلينا لأنهم يحتاجون إلى دَهَبِهِمْ وكنائسهم الجميلة ومكباتهم. هل  
تريد أن ترى نيكولاي مُجدِّدًا؟ هل تريد أن تبقى هنا؟ أم تريد  
الرحيل؟ لا يهم بالنسبة لي. سأشارك معكَ في حظيرة خيول، إذا كان  
ذلك اختياركَ. لكن إذا أردتَ البقاء، فعليك أن تغني".

ثم بدأ أولرتش فون جوتيغن في الهمس باللحن الذي كنت سمعته  
في الكنيسة ذلك الصباح. لم يكن صوته دافئًا مثل الأصوات التي  
حاولتُ مرافقتها، لكنه كان ينتقل بخفَّة ودقَّة من نغمةٍ إلى أخرى.  
عندما يغني نيكولاي، كان جسده بالكامل يرجِّع صدى الصوت. على  
النقيض، كان أولرتش فون جوتيغن مثل آلة كمان رديئة التكوين؛  
تهتزُّ أوتارُه بشكل متقن، لكن جسده يرنُّ بضعفٍ وكأنه برميل من  
النييذ.

هل كان هذا ما يعنيه نيكولاي؟ هل كان هذا صنعة الرب؟ كنتُ  
أحلم بشيءٍ مُختلف، شيءٍ أقلَّ بشاعةً من هذا الرجل عديم الصوت

واستجداءاته. لكن ربما لم يكن الرُّبُّ، خطرَ لي، بارعًا وكاملًا كما يزعم رئيس الدير، وربما كان هذا الرجل كل ما يستطيع الرُّبُّ تقديمه إليَّ. وهكذا غُيِّت.

اخترتُ صوتًا أذكِّره من الكنيسة. في البداية كانت نغماتي خافتة وغير واضحة، لكنني شعرتُ بالصوت ينتشر إلى الخارج من حلقي، كما ينتشر رنين جرسٍ بسرعة في أرجاء المعدن. انتقل الصوت من فكيَّ، إلى التجويف تحت أذنيَّ. شعرتُ به في عنقه، ونازلًا حتَّى صرَّتي. لم أشدُّ بكلمات، لكن بأصوات فحسب.

تراجعَ صوت أولرتش الضعيف فيما يزداد صوتي علوًّا. كان ما يزال يمسك بعنقي، ثم بدأت يده في التحسُّس لأسفل. ربَّت عليَّ من ذقني إلى صدري، كأداة طيبب باردة، وفي تلك اللحظة شعرتُ أنه على حقٍّ؛ بدت يده وأنها تفتحنِي. جعلت لَمسُها أصواتي أكثر امتلاءً، كأجراس أُمِّي المُجلجلة. انضمت يده الأخرى إلى الأولى. احتضن وجهي، صدري. وصلت اليَدان إلى ما حول عنقي وقبضت عليه بشدَّة، وكأنه يريد للصوت أن ينساب إلى ذراعيه الناحلين، المصفرَّين، إلى صدره الخاوي. أفلتت جهشةً من فمه، رغم أنه لم تكن هناك دموع في عينيه. ثم خطا متراجعًا، ولوهلة، شَبَّ على أصابع قدميه، وأغلق عينيه، وأمال رأسه بشدَّة، وكأنه ضُربَ بصاعقة ألم مفاجئة. توقَّفتُ عن الغناء.

تعثَّر للوراء وانحنى على البيانو القيثاري وكأن ساقيه قد عجزتا عن تحمُّله. كانت عيناه مُثَبَّتَتَيْن على وجهي. رأيتُ الخوف في عينيه. "يا إلهي"، قال. "أنا ملعون".



## (10)

وهكذا بدأت حياتي الغنائية. استلقيت لليلة واحدة أخيرة على أريكة نيكولاي، وتحدثت مطوّلًا في صباحٍ يمتلئ بحظّي الطيب. «لن يكون عليك مشاركة غرفة مع راهب عجوز، يُشخّر في نومه»، قال، وابتسم ابتسامةً في غاية الحزن، لقد أنسي ظننت أنني سأبتعد عنه لأكثر من طابقين. «سيكون لديك أصدقاء من عمرك لتلعب معهم. ستضحك وتركض. في الليل، ستهمسون بالأسرار لبعضكم البعض».

حتّى بعد أن بدأ نيكولاي في شخيره، استلقيت مستيقظًا. كان أمله قد أصابني بالعدوى. أبدًا لم أتمنّ المزيد عندما كنتُ أعيش مع أمي، لكنني الآن أدرك أنه قد يكون لي أصدقاء. هل سنمرح؟ هل سنلعب معًا كما كان يلعب الأطفال في القرية؟ هل سأبادرهم بالحديث؟

في الصباح التالي، حزمَ نيكولاي صرّةً تحوي تفّاحتين، وبعض المكسّرات ومسبحة، ووضعها في يدي. فتح بابَه وأشارَ لي بأن أسبقه في

الخروج. ترددت لوهلة، ثم مددت يدي نحو راحته العملاق. تطلعت إلى وجهه. "شكرًا نيكولاي"، قلت.

اندفعت الدموع إلى عينيه وأخذني بين ذراعيه.

حملني عبر الدّرج إلى الأسفل ثم عبر رواقٍ إلى حيث ينتظر أولرتش خارج غرفة التدريبات. عندما أمره أولرتش بمغادرتنا، احتضنني نيكولاي بقوة أكبر، ثم أخذ نفسًا عميقًا وأنزلني. عضّ شفته، أومأ، وحاول أن يتنسم، ثم استدار وابتعد مُسرّعًا، ولم يلتفت للخلف أبدًا. لم يجدوا وقتًا لي جلبوا لي ملابس جديدة، وهكذا كنت ما أزال أرتدي الملابس المتواضعة التي كان نيكولاي قد اشتراها لي قبل عدة أسابيع في أوري. ما زلتُ لا أملك حذاءً. عندما فتح أولرتش الباب، استدار اثنا عشر زوجًا من الأعين في طور البلوغ ناحيتي.

أخبر أولرتش هؤلاء الصبيان بالقليل الذي يعرفه عني: أنني من قرية جبلية بدائية؛ أنني أتمتع بصوتٍ غير مُدرب، استثنائي، لحدّ أنه قد يكون أجمل صوت عرفته جوقتهم قط. قال كل هذا وكأنني فنيّة من النبذ الفاخر على وشك أن تُخزّن في قبو الدير.

"إنه أخوكم الآن"، قال أولرتش لهم، "ما دمتم أنتم وهو في هذه الجوقة، ساعدوه على فهم هذا العالم، الغريب عليه تمامًا".

أومأ الصبيان لسيدهم. راقبت هذا الرجل الذي كان أثار اشمزازي، والآن أشعر بامتنان حقيقي. أبدًا لم أكن سعيد هكذا منذ فقدتُ أمي.

بعد ذلك، أمر أولرتش صبيًا يدعى فيدر بقيادتنا في تمرينات الإحماء. دفعني برفق ناحية الصبيان، ثم غادر الغرفة. احتشد الصبيان حول فيدر. "مرحبًا"، قال. بدا في مثل عمري، لكن أطول قليلًا. ابتسم.

أومأت وابتسمت بدوري، أدفأ وأنقى ابتسامة عرفها العالم قط.  
فكرتُ في قول شيء ما، لكن فمي لم يستجب لي. كنتُ خائفاً بشدة أن  
أبدو أحمق في أعين أصدقائي الجدد.

خطا فيدر ناحيتي، مُبتسماً ما يزال، حتّى وقف قبالي يعلوني  
في الطول. كنتُ أصل إلى كتفيه فحسب. ثم اختفت الابتسامة من  
وجهه بغتةً، لحدّ أنني انكمشتُ من المفاجأة. تضاحك الصبيان وراءه.  
"ربما تغني معنا... إذا استطعت"، قال. كانت عيناه باردتين  
كصوته. "لكنك لستَ واحداً منّا". تطلّع إليّ من عليّ وكأنه يبحث  
عن إشارة أنني فهمت، ولم أخيب أمله. انسابت الدموع في عينيّ.  
جاهدتُ لكي لا أطرف، لكنني فعلت، وحينها تساقطت قطرتان على  
خدّي. قرقر الصبيان وصاحوا فيه حتّى يُسقطني أرضاً، لكنه لم يفعل.  
فيما تتدفّق دموعي بلا قيد، تشمّم الهواء وقال، "هل يوجد أحدٌ في  
عائلتك رائحته كالماغز؟".

وهكذا تلاشى حلمي القصير بأصدقاءٍ في مثل عمري فور أن راودني  
تقريباً. لكنني لم أشكُ إلى نيكولاي أو إلى أيّ أحدٍ آخر؛ ذلك أنه ماذا  
كنتُ أتوقّع، كيتيمٍ، غير هذا؟ في الظهيرة تبعثُ زُمرة الصبيان إلى  
قاعة الطعام. أخذتُ طبق الطعام، وفي اليد الأخرى أضخم وأكثر  
تفاحة حُمرةً رأيتهَا في حياتي. لكن حينها ظهر فيدر ورائي، شدّ على  
ذراعي وقادني إلى مقعد يواجه الحائط. "هذا مقعدك"، همس في أذني.  
"وهذا الطعام هدية مني. هدية منّي. ذلك الفلاح الذي يقوم بغرف  
الطعام- ابن عمّه يعمل في ضيعتنا". أشار فيدر إلى الحائط الخاوي.  
"ستنظر إلى ذلك الحائط. إذا جرؤتَ واستدرتَ لتتطلّع إلينا، سأنزع  
هديتي منك. إذا نطقت بكلمة لأصدقائي، سأنزع هديّتي. مفهوم؟"،  
قرص ذراعي بشدة، لحدّ أنني أوشتُ على إسقاط طبقتي. "وهذه"،  
قال، مُنزعاً التفاحة من اليد الأخرى، "ليست لأمثالك".



كان فراشي ناعماً ودافئاً كحُضْنِ أُمِّي، وكنتُ لأنام أعمق نومٍ عليه فقط لو كان سُمَحَ لي. خمسة صبيان آخريّن تشاركوا معي غرفتي، ورغم أن فيدر لم يكن واحداً منهم، إلّا أن أوامره أبلغت لهم. "ماذا تفعل؟" سألتني توماس البدين عندما وجدني أستلقي على فراشي تلك الليلة الأولى. "الكلاب تنام على الأرض". ركلني في قصبة ساقي ومُجدِّداً على مؤخرتي فيما أسقط من على الفراش. لم يتذمَّر أحدٌ عندما تسلَّلت يدي لاختطاف دثارٍ. تكوَّمتُ تحت فراشي، واستغرقتُ في النوم على صوت الصبيان يتمازحون بشأن الكلاب ذات الرائحة الكريهة.

في اليوم التالي مباشرةً هرعَ نيكولاي إلى غرفة التدريبات حاملاً حذاءً وملابس جديدة من أجلى. احمرَّ وجهي وضحك الصبيان ضحكات مكتومة فيما يعرِّيني من ملابسٍ في الزاوية. لكن في النهاية، بدا لي أنني صرْتُ أبدو مثلهم. رغم ذلك، سرعان ما أدركتُ أنه كانت هناك إشارات أخرى على تفوّقهم، لكنها كانت خافتة جداً على أن أقرأها. أبناء المسؤولين، وكبار النشاجين، أو ورثة مالكي أراضي هؤلاء، كان لهم آباء وأعمام وأبناء عمومة بأسماء تجعل الآخرين يلحسون شفاههم. وضعهم آباؤهم هنا في الجوقة فحسب لبضع سنوات، على أمل أن يُهينهم تكرار الاتصال مع الرّبِّ -والكثير جدّاً من الذهب- لمصائرهم كأرستقراطيين أصحاب أراضٍ. وهكذا كان جهادهم مُستمراً لتسلُّق سُلَّم، كنت أنا واقفاً في أول درجةٍ فيه. انتصرَ بِلْتازار على مصطلح توماس "الكلب" بمصطلح "الخنزير". تظاهر جيرارد المغرور بأنه لا يراني، لكنه هرَسَ عَقَبَه في قدمي فيما يمرُّ بي، رأيي يوهانس، الأشقر ذو الوجه الملائكي، أبدي إعجابي بالمسبحة التي أهداني إيّاها نيكولاي. تأكَّدَ من احتشاد الآخرين حوله قبل أن ينتزعها من يدي، ويمرِّق الخيط ويبعث الحَبَّات على الأرض. كان هوبرت (طفل مهزول ومُصفرُّ بعينين غائرتين، يقال إنه لا يستطيع الغناء، لكنه أغنى صبي

في العصابة) ذا تَوَقَّ شيطاني للسخرية. "انظروا، إنها لعبة الراهب العملاق"، قال ذات ليلة فيما أدلف إلى الغرفة المكتظة. ثم لي: "أراهن أنك كنت تحبُّ النوم في غرفته". احمرَّ وجهي رغم أنني لم أدرك حينها التلميح. صرْتُ أخشى المرور بنيكولاي عندما أكون بصحبة الصبيان. "لماذا يبتسم لك دائماً؟" يسألني فيدر دائماً، ببراءة شديدة. "ربما يتوجَّب عليك الليلة، مُتأخراً في الليل، زيارته في غرفته".

وعندما بدأتُ في الغناء بتبَّتل واستمتاع، همس فيدر للصبيان، "انظروا، يريد أن يكون مُغَنِّياً إذن! بالطبع! لكن ماذا غير ذلك متاح لأمثاله؟" ثم استدَارَ إليَّ. "قلتَ مَنْ كان والداك؟ هل كانا يحتفظان بخنازير؟" للمرة الأولى في حياتي شعرتُ بالخجل من أمِّي. أدركتُ أن راعي خنازير كان لينظر إليها بتعالٍ. خشيتُ أن فيدر بشكلٍ ما كان يعرف أكثر ممَّا يقوله؛ تلك الابتسامة الوحشية قالت لي ذلك. خطأ ناحيتي، ورغم أنني تراجعْتُ، وضعَ ذراعاً حول عنقي وجذبني بشدَّة تزايدت مع كل كلمة. "لا تقلق يا بني"، جازَ. "بعد خمسة أعوام، عندما يخشوشن صوتك الناعم هذا، ولا يعود ذلك الراهب القميء راغباً فيكَ وكأنك لعبته، سيظلُّ هناك ما يكفيك من خنازير لترعاها".

كُنَّا نستيقظ في السادسة، بعد الرهبان بكثير. بعد الإفطار نتمرَّن حتَّى وقت القدَّاس، ثم ندرس نطق النصوص اللاتينية، ونتدربُ على الحروف، ونؤدِّي التمارين حتَّى الغداء. بعد استراحة الظهر، يُجلِّسنا أولرتش على الأرض حول البيانو القيثاري ويعطينا أوراقاً وأعقاب أقلام رصاص. يضرب على المفاتيح، ويحدِّق الصبيان فيه بانشداهِ يشرح الفرق بين المقامين الموسيقيَّين: الهيوفريجيا والأيووني، أو يخطو جيئةً وذهاباً مُعَنِّفاً مَجْمَع ترينت<sup>(1)</sup>. في كل يوم تقريباً كان ينغز إصبعاً

(1) مجمع ترنت بين عامي 1545 و1563 في ترنت في إيطاليا، المجمع المكوني التاسع عشر للكنيسة الكاثوليكية. كان انعقاده مدفوعاً بالإصلاح البروتستانتي، وأصدر مراسيم بشأن الموسيقى المعقدة والفن الديني، انتهت إلى أشكال عديدة من فنون عصر النهضة (المترجم)

واحدةً في المفاتيح. "هكذا هم الرهبان"، كان يقول. "لألف عام على نفس الشيء: نغمة أحادية تقريبًا، بفواصل من التبجّح تظهر عَرَضًا على يد العبّاقرة". ثم يضرب بعض التوليفات الموسيقية. "الوضع مختلف تمامًا الآن. ما يجب أن تتعلّموه هو الغناء: أصوات متعدد. جهازة ثقيلة، تباينات. حتّى لو لم تستطيعوا تعلّم سماعها هنا"، نقرّ على رأسه، "ومعظمنا لا يفعل، فلا بُدّ أن تستوعبوها على الأقل، وإلاّ ستظلّون أدوات بلا عقل، غبيّة كهذا البيانو القيثاري". ثم يعزف بعض المقطوعات لفيالْفُدي، ويطلب منّا تدوينها، وهو ما كان بمقدوري فعله بنفس السهولة التي يرسم بها الأطفال الآخرون منزلًا بنافذتين وباب. كان الصبيان الآخرون يسترقون النظر من فوق كتفي وينسخون ما أكتبه بالضبط. عندما ينفد صبر أولرتش، كان يعتقنا حتى موعد تدرّبنا مع المُعَتِّين البالغين بمصاحبة الآلات، وهو تدرّب كان يستمر حتّى العشاء. طوال كل تلك السنوات، لم أتعلّم الرياضيات أو اللغة الفرنسية، وما أعرفه عن الإنجيل وعن الرّبّ تعلّمته من العِظات اليومية فحسب.

في الأشهر الستة الأولى بعد التحاقى بجوقته، بعد أن يملك نهاري، كان أولرتش يتركني بمفردي من العشاء حتّى الإفطار. لكن مع تعلّمي كيفية السيطرة على صوتي، ازداد اهتمامًا في انتباهه لي. عندما نصطفُ أمام مرآيا تدرّبنا، كنْتُ أنا دائمًا مَنْ يراه في مرآته، خلفي مباشرة، عيناه مُغلقتان، وكأنه يحاول اقتناص رائحة شّعري. وسرعان ما نَدَرَ أن تمرّ أمسيةٌ لا يتلكّأ فيها خارج باب قاعة الطعام. كان يضع يدًا صلبة على كتفي. "موسى"، يقول، "هناك شيء واحد أخير أتمنى أن أريك إياه"، ثم يقودني إلى غرفة التدريبات، ويده لا تشرّد أبدًا عن كتفي. كنْتُ أمقت البقاء معه وحيدًا؛ رائحته العفنة، صوته البارد، افتقاده للأصوات البشرية. أحيانًا ما أقول لنفسى إنه من الأفضل أن

أقضي الوقت مع جثة؛ ذلك أنها لن تمُدَّ يدها وتحاول لمسي على الأقل.

رغم ذلك، تمامًا كما كنتُ تعلّمتُ السَّمع في برج الكنيسة، كان هناك، وحيدًا مع أولرتش في المحترف، أن تعلّمت التَّمكُّن من سوطي. كان بمقدور ماعز أن يتعلّم الغناء لو نال اهتمام ذلك الرجل! ولمن يقول إنني عبقرى ظهرَ من العدم، وأن موهبتي لا تحتاج وقتًا لتنضج- أقول لهم، تمرّن، تمرّن! لا يوجد طريق آخر نحو العظّمة.

في هذه الساعات الطويلة مع أولرتش، تعلّمتُ الاتزان السَّلس، التشكيل الموسيقي المضبوط، النطق الدقيق لِلأَنيّة. كان يلامسني دومًا. يده الباردة كالثلج تنساب على ظهري أو تُمسّد صدري، وأحيانًا ما تصل إلى ما وراء ركبتيّ أو إلى أعلى: إلى أصداعي. كانت لمسة تشبه التي يستخدمها المرء في مداعبة بتلات زهرة. اكتشفت يد أولرتش تلك الأجزاء منّي التي ما تزال خاملة، وصلّ إلى الحدود المتخشّبة العنيدة في جلجلتي. وهكذا تراءت لي لمسته كالسحر؛ ذلك أن الصوت الذي خرج أولًا من حلقي فحسب انتشر في ثوانٍ إلى فكّي، وبيديه الصفراويّين على صدري وظهري، سرعان ما صدحت الأغنيات عبر جسدي وكأنني جرس. بحثت البدان عميقًا. اكتشفتا مزيدًا من الأغنيات المحتجبة في الفخذين المشدودتين، في القبضتين المضمومتين، في قوسيّ قدميّ المرتخين. كان جسدًا ضئيلاً، لكنه جعله ضخماً بالأغنيات.

\* \* \*

في المرّة الأولى التي جاءَ فيها ليلاً، دلفَ إلى غرفتي باضطراب، وتعثّر في فراش، وغرّزَ ركبتيه ومرفقيه في بطون الصبيان النائمين. زحفتُ من تحت فراشي واختلستُ النظر عبر الغرفة- كخلدٍ يُطلُّ من جحره. هزّ أولرتش توماس. "أين موسى؟" سأل الصبي، الذي تخيلت عيناه

المُتَسَعِّتان قَاتِلًا. "هناك شيء... لا بُدَّ أن...". رفعَ توماس إصبعًا مُرتَعِشةً وأشار إلى عَيْنَيِ المَتَوَهِّجَتَيْنِ.

طرحني أولرتش على كتفه وحملني من الغرفة. كانت الأروقة مظلمة؛ والدير نائم. أُلصِقني بالعائط، أنفاسه الدافئة ذات رائحة التبن المُتَعَفَّن تهبُّ على وجهي. أنفه يحتكُّ بأنفي. "لقد نسيته!، همس، وكنت لأظنُّ حينها أنه سكران، لكن الجميع كان يعرف أن النبيذ لم يلامس شفثيه قط." اختفى مُجَدِّدًا!.

وضعتني على الأرض، تناوَلَ مِعصمي وجِرتني عبر الأروقة، خطواتنا صامتة كخطوات الأشباح.

كانت غرفة التدريبات مُظلمة، لكنه رفعني مُجَدِّدًا ووجدت المقعد العالي تحت قدمي. أنصتُ إليه، ولم أسمع صوتًا. صليتُ فحسب أن يختفي. عندما تحدَّث مُجَدِّدًا شعرتُ برجفة.

"هناك مُلْحَنون صمُّ"، همسَ في الظلام، "يسمعون الموسيقى في رؤوسهم. جميلةٌ في الصَّمَم كما هي في الحياة، يزعمون!".

مددتُ يَدًا لتحديد موقع الصوت. وقبل أن أتمكن من فرد مِرْفقي، احتكَّت يدي بوجهه. شهقَ على وقع لمستي، وانسحبت في رعب. لكنه أمسك بذراعي وقبض على مِعصمي بشدَّة، لحد أنني تأوَّهت. "أنا على استعداد للتخلِّي عن أذنيِّ مقابل ذلك!" هتف. "اقطعهما بحيث لا أسمعك تغني مُجَدِّدًا، فقط لو استطعتُ سماع غِنائك هنا!". نقر على رأسي بقوة بإصبعه، وأوشكتُ على السقوط، لكنه جذبني ناحيته من مِعصمي حتَّى صرْتُ ملتصقًا به. مُجَدِّدًا، شعرتُ بأنفاسه على خَدِّي. همسَ في أذني. "أستلقي مستيقظًا يا موسى. كل ليلة منذ مجيئك. كما لو أنك خارج نافذتي، لكن هناك رياح تهبُّ. أعتمر ذاتي لأسمعك، لكن لا أستطيع."

ضغطَ بجبينه على جبيني، بخذه البارد مقابل أنفاسي الدافئة.  
"كان من الأفضل لو لم تجئي"، همسَ.

أفلتَ ذراعي ودفعني للخلف بحيث أستطيع الانتصاب في جلستي.  
تراجعت خطواته. عبَّت أصابعه على البيانو القيثاري. عزفَ نغمةً.

"غنْ"، قال. غنيتُ تلك النغمة الواحدة. جعلها الرعب ضئيلة.

"لا!" صاح. "غنْ!"، خبطَ بإصبعه على المفتاح بقوة.

أخذتُ نفسًا، وفيما أطلقه مُجددًا سمعتُ أنفاسي في صدري.  
لم أفتحه عنوةً، لكن كما كان أولرتش قد علَّمني، شعرتُ بشهيق  
يتدفقُ إلى تلك الأماكن المغلقة، بحيث انفتحت هي أيضًا. تراجعَ  
خوفي. ومع زفيري التالي ظهرت النغمة، ليست عالية هذه المرة، لكن  
رائقة. غنيتُ، مائلًا الغرفة بصوتي، حتى نضبت نفسي. حلَّ الصمت.  
"ستغني قانون الإيمان اليوم"، قال وعزف لحن السوبرانو المصاح  
من الحركة الثالثة. غنيتُ.

صارت يدها بغتةً عليّ مُجددًا: اليد التي تُلطف الزهرة. على  
صدري، تحت ذراعي، أسفل ظهري، حتَّى صارت كل هذه الأجزاء  
تهتزُّ مع الأغنية. ثم اندفعت يدها على ظهري وضغطت بصدري على  
أذنه.

"غنْ!" أمرني. شعرتُ بالأغنية تفيض داخلي. هزئتُ ركبتيّ.

"نعم!" قال لاهئًا. شعرتُ أنه على حق، أن صوتي لم يرنْ مُشرقًا  
هكذا قَطُّ. فيما أقف وأغني لدقائق طويلة، أبقى رأسه على صدري،  
كطفلٍ على صدر أمه.

مكتبة

t.me/soramnqraa



## (11)

علينا أن نلوم القديس بولس على وجود مُرْتَل القُدَّاس. بدون تحريره (فلتدع النساء تظل صامتة في الكنيسة *Mulier taceat in ecclesia*)، لم يكن العالم ليحتاج لهؤلاء الصبيان الأشقياء. ذلك أن القديس بولس، في أمره للنساء أن يصمتن في كنائسه، لا يستطيع إسكات الصوت الأنثوي. لشهور قبل ولادتنا، تتوالف أذاننا على أصوات أمهاتنا (في حالتني كانت هذه الأصوات هي أجراس أمي)، وبالتالي، في سعيها نحو الجمال المطلق، احتاجت الكنيسة إلى بديل. في جوقة سانت غال، كنتُ أفضل بديل عرفوه قط.

بغته صار رئيس الدير يُقدّرني كما يقدر الجوهرة التي في خاتمته، أو الحجارة البيضاء النقية لبرجني كنيسته الجديدة، التي بدأت في الارتفاع مثل سُلَمَيْن غير مُكتمَلَيْن نحو السماء. عندما يسمعني أغني، أو يتوقّف قليلاً لمشاهدة تدريباتنا، كان يتسم بنهم وكأنها وليمة يجري تحضيرها ليأكلها. كان تكتمي ميزة. أتحدّث مع نيكولاي فقط،



الذي كنت أختبئ في غرفته كلما استطعت الهروب من أولرتش والجوقة، لكن حتى حينها لم أكن أقدم ما يزيد قليلاً عن المهمات. عندما يسألني نيكولاي عمَّن كان أبي، كنت أهرُّ كتفِي بلا مبالاة. وعندما يسألني عن اسمي الحقيقي، أجيبه، "موسى".

في صلوات الساعات الاعتيادية، ومعظم القدَّاسات، كان غناء رهبان الجوقة أمثال نيكولاي كافياً لرفع قطيع شتاوداخ نحو السماء. لكن في الأيام المُقدَّسة، أو للاحتفال بوصول المُتَحجِّرات المُقدَّسة، أو للقدَّاسات في ذكرى وصية بميراث كريم، كان رئيس الدير يستدعي جوقة أولرتش لنستغرق نحن في سبب وجودنا الطقوسي. في المُجمل، كنَّا نغني عشرين قدَّاساً كل عام كجوقة موحدة، فيما يرسل بأجزاء من مجموعتنا في مناسبات عديدة آخرين لتشريف الأبرشيات الأصغر في أراضي الدير الشاسعة. كان ذوق أولرتش الراقي ينتقي من ذخيرة مؤلفاتنا الموسيقية، التي تضم قدَّاسات أثريَّة من كافالي، تشاربنتير، مونتيفيردي، فيثالدي، ودوفاي. في تدريباتنا المُختلَّسة في منتصف الليل، كان الرجل المثير للاشمئزاز يسحب مقطوعات موسيقية مُهرَّبة من لايبستج، وسراً كنتُ أنا ألوِّثُ الدير بأغاني باخ البروتستانتية.

تماماً كما كان أثرياء سانت غال من الكاثوليكين يتوقون إلى القطن من أمريكا، والشاي من الهند، والقهوة من تركيا، فلم تكن جنازة ولا موكب أو عيد في الأبرشيات يمرُّ دون مصاحبة موسيقية ما من جوقة سانت غال. في ذاكرتي، كانت هذه الأماكن مجرد بقعة من الموسلين ذي الزخرفة المُتكلفة في الكنائس الصغيرة شديدة الرطوبة، صمَّتْ مكوَّن من شخير النوم وأزيز الأنفاس.

كلُّها، أعني، باستثناء مكان واحد.

\* \* \*

عادةً ما كُنَّا نَسافر في عربات تجرُّها الثيران إلى حفلاتنا؛ ذلك أن غالبية كاثوليكيي سانت غال كان يعيشون خارج أسوار المدينة. في أمسية بعينها، رغم ذلك، خرجنا في مسيرة من طابور واحد من بوابة الدير الغربية مُتجهين إلى المدينة البروتستانتية. قاد أولرتش الطريق، يتبعه عازفا الكمان ذوا الوجه الرمادي، والشعر الرمادي؛ ثم هاينرش عازف البيانو القيثاري بدين العنق، أندرياس مؤدي (الباص) الجمهوري، مؤدِّيّا تينور بالغان تمامًا ومؤدِّيّا كونترالتو على وشك البلوغ؛ فيدر السوبرانو؛ أويلي، مُرتِّل قُدّاس سابق كانت عملية بلوغه القاسية قد أحالته إلى حامل حقائب ومقلِّب صفحات؛ وأخيرًا أنا، متباطئًا في أحيان كثيرة لألتقط كل صوت يتسرَّب من نوافذ المدينة المفتوحة.

غابت مؤخرة أويلي عن نظري مرّاتٍ كثيرة فيما نعبّر المدينة، لكن لم يكن من الصعب اللحاق به. أغلقتُ عينيَّ ووالفت أذنيَّ على عقبيّنه يجترّان الشارع. بعد عشر دقائق من المشي، وجدْتُ الآخرين ينتظرون عند منزلٍ يشبه القصر، مُشيّد من الحجر الرمادي. كان هذا منزل آل دوفت، أخبرنا أولرتش، بيت (دوفت وأبناؤه للمنسوجات). "بيت كاثوليكي"، قال، "رغم أننا داخل أسوار المدينة (البروتستانتية)". ثم همس فيدر بصوتٍ عالٍ بعض الشيء أن عائلته لا يمكن أبدًا أن تعيش وسط الفئران. "ليكن هذا درسًا لك"، أجابه أولرتش بقسوة. "هؤلاء الذين يضعون الجهد والعمل قبل الدين يستفيدون من قوة صبرهم. حقًا، إن آل دوفت هم أغنى أبناء المقاطعة، كاثوليك كانوا أو إصلاحيين. الليلة علينا أن نوّدي بأفضل ما في وسعنا".

دلفنا عبر باب جانبي، وكأننا طهاة مُعجّئات. كان ممر القبو المؤدي إلى الكنيسة الصغيرة رطبًا وحالك الظلمة. تَبَعْتُ ذيل معطف أويلي لبضعة خطوات، لكنني توقَّفتُ بعدها. سمعتُ قعقعة قدور معدنية بوضوح على يساري، لكن عندما استدرتُ لأنظر إليها، لم أرَ سوى حجارة الحائط الرمادية. اتَّخذْتُ خطوةً للأمام؛ تلاشت القعقعة،

لكن الآن تحدثت امرأة. بعد خطوتين أخريين للأمام سمعتُ ثرثرة: مجموعة من الرجال، دزينة على الأقل.

تباطأتُ في مشيتي. انساب الصوت وكأنني مررت بثلاث نوافذ مفتوحة، على ثلاث غرف مختلفة، لكن الحائط كان مجرد حجارة مُصمتة. تمعنتُ فيه عن قرب. لم أجد أي ثقب، وحينها ارتجفت، مستنتجاً أن الأشباح تعيش في هذا الممر حتماً. رغم ذلك، بمقدوري الآن إدراك أن الأمر لم يكن معجزة أو شيطنة على الإطلاق، كان مجرد ظاهرة (phénomène). قرأتُ بعد ذلك أن الحجر الجيري يتألف من أصداف قديمة، ولا بُدَّ أن أصداف آل دوفت جاءت من الكهوف بالتحديد؛ لأنها، مثل أصداف قوقعاتنا، تحبس كل الأصوات المنبعثة من ذلك المنزل العملاق، وتحملها بعيداً. تماماً كأزيز شفتي عازف بوق، ينتقل من الميسم إلى مخرج البوق عبر انحناءات والتفافات النحاس، كانت أصوات منزل آل دوفت تراكم، ثم تنتقل من صدفةٍ إلى أخرى، وتنطلق خارجةً عبر جدران غرفة أخرى تماماً.

فيما أتابع طريقي عبر ذلك الدهليز الكابي في إثر رفقائي، سمعتُ زجاجاً يتشظى على الأرض، يداً تخبط بقوة على مكتب، رجلاً يغني أغنية غريبة، طفلاً يبكي، وامرأة تحاول تهدئته. (إذا سألتني كيف تيقنت من الجنس من سماع الهسيس فحسبُ فلا بُدَّ أن تُحرّم من دخول قاعات الحفلات. منعك الربُّ أذنين لتُنصت بهما). وراء تلك الأصوات القابلة للتحديد، تُرْفرفُ داخليةً وخارجةً، سمعتُ عددًا هائلاً من الخشخشات والدقّات، وكأن جيشاً أخرمس يُنقّب عن الفضة داخل الجدران.

استغرق الأمر مني دقائق طويلة لاجتياز ذلك الممر القصير. توقفتُ عند كل صوت وحاولت بلا جدوى التلصص عبر ثقب في الحجارة. عندما وصلتُ إلى النهاية أخيراً، حيث يتشعب الممر يساراً

وَمِثْلًا، كُنْتُ وَحِيدًا. أَنْصْتُ إِلَى عَقَبَيْ أَوَّلِي، حَدَدْتُ اتِّجَاهَهُمَا، سَرْتُ  
خَطَوَتَيْنِ إِلَى الْيَسَارِ، أَدْرَكْتُ أَنَّنِي كُنْتُ مَخْطُئًا، عَدْتُ إِلَى مَوْضِعِ  
التَّشْعُبِ، سَمِعْتُ الْعَقَبَيْنِ يَجْتَازَانِ الْأَرْضَ إِلَى الْيَسَارِ وَإِلَى الْيَمِينِ فِي نَفْسِ  
الْوَقْتِ، ثُمَّ سَمِعْتُهُمَا فَوْقَ رَأْسِي.  
لَقَدْ نُهْتُ.

أَنَا إِنْسَانٌ عَدِيمُ النِّفْعِ دُونَ أَذْنِي. كَانَتْ حَوَاسِي الْأُخْرَى مُعْطَلَةً  
نَتِيجَةً قِلَّةَ اسْتِعْمَالِهَا. مَعَ كُلِّ خُطْوَةٍ فِي أَيِّ اتِّجَاهٍ، كَانَتْ جُدرانُ مَنْزِلِ  
دُوفَتِ تَنْطِقُ بِأَصْوَاتٍ جَدِيدَةٍ أَحْاولُ اسْتِكْشَافَ مَا هِيَئُهَا، لَكِنْ بِلَا  
طَائِلٍ. رَغْمَ أَنَّ الرَّدْهَاتِ الطَّوِيلَةَ وَالزَّوَايَا الْقَائِمَةَ لِمَنْزِلِ دُوفَتِ رُبَّمَا  
بَدَتْ لِلْآخِرِينَ بِسَيْطَةٍ كَحَقْلٍ مَفْتُوحٍ، إِلَّا أَنَّهُا بَدَتْ لِي كَمَتَاهَةٍ.

أَخِيرًا، اخْتَرْتُ وَاحِدًا مِنَ الاتِّجَاهَاتِ وَسَرْتُ إِلَى نِهَآيَةِ الْمَمَرِ. عَلَى  
يَسَارِي كَانَ بَابٌ، وَعَلَى يَمِينِي يَسْتَمِرُّ الْمَمَرُ حَتَّى يُظْلَمَ. كُنْتُ عَلَى  
وَشْكِ اخْتِيَارِ الْبَابِ عِنْدَمَا سَمِعْتُ صَوْتًا وَدُودًا يَنَادِي مِنْ بَيْنِ الظَّلَالِ.  
"اقْتَرِبْ"، قَالَ الصَّوْتُ. "اقْتَرِبِ الْآنَ. أَنَا صَدِيقُكَ. لَا تَخْجَلْ".

خَطَوْتُ ببطءٍ عِبرَ الْمَمَرِ الْمَظْلَمِ نَحْوَ الصَّوْتِ. انْفَتَحَ بَابٌ عَلَى مَا  
يُشَبِّهُ مَخْزَنًا مُعْتَمًا كَانَتْ فِيهِ مَنَاتٌ مِنَ الْجِرَارِ الزَّجَاجِيَةِ تَمَلَأُ صَفُوفًا  
مِنَ الْأَرْفَافِ الْخَشَبِيَّةِ.

"لَا بَأْسَ"، قَالَ الصَّوْتُ الْخَيْرِ. "لَنْ أُؤْذِيكَ. أُرِيدُ أَنْ أَسَاعِدَكَ".

شَاعِرًا بِالْإِطْمِئْنَانِ، خَطَوْتُ إِلَى الْغُرْفَةِ.

كَانَ تَرْكِيزِي مُنْصَبًّا عَلَى الْأَصْوَاتِ، لِحَدِّ أَنَّنِي لَمْ أَلْمَحِ الْعَيْنَ الْمُحَدِّقَةَ  
إِلَّا بَعْدَ خُطَوَاتٍ كَثِيرَةٍ دَاخِلَ الْغُرْفَةِ. تَجَمَّدْتُ مَكَانِي، ثُمَّ رَأَيْتُ عَيْنًا  
أُخْرَى، ثُمَّ اثْنَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ، ثُمَّ أَلْفَ رَأْسٍ مَقْطُوعَةٍ تَحْمَلِقُ فِيَّ. رَأَيْتُ  
رُؤُوسَ دَجَاجَاتٍ، رُؤُوسَ دُزِينَاتٍ مِنَ الطَّيُورِ الْبَرِيَّةِ، رَأْسَ خَنْزِيرٍ، رَأْسَ  
مَاعِزٍ بِقُرُونٍ مُنَمَّمةٍ. فِي أَحْوَاضٍ زَجَاجِيَةٍ خَضْرَاءَ عَلَى طُولِ الرِّفِّ

العلوي كانت تطفو رؤوس حيوانات برّية: أيل، ذئب، رأس عملاقة لدب، ثلاث قطط ضخمة، ورؤوس أصغر حجمًا لسناجب كثيرة. أُعِين ضبابية، فاعرة كانت تحدّق عبر السائل الشفاف. أهرب! بدا أنها تقول. سيأخذون رأسك أيضًا.

لكن فورَ أن استدرتُ لأفرّ، تحدّث الصوت الهادئ مُجدّدًا. "لا بأس"، قال الصوت، "لا تَخَفْ".

لكنني أدركت حينها أن التطمين في صوته لم يكن موجّهًا لي على الإطلاق؛ ذلك أن هذه (الإنسانة) كانت توليني ظهرها. رأيتُ حذاءً أسود وجوارب بيضاء، والظهر الأخضر لفستان مخمليّ بتقوُسين أبيضين على كتفيه، مع ضفيريّتين شقراوين. كنتُ أنظر إلى فتاة، نوعٌ من المخلوقات كنتُ رأيته كثيرًا في الكنيسة، لكن باستثناء شقيقتين معروفتيّن كانتا تشبهان الفئران أكثر من النساء، لم أقترّب هكذا من فتاة قط.

كانت تنحني على قفص خشبي كبير، تغطس بكتفيتها وترفع ساقًا لتوازن نفسها، مانحةً إيّاي فرصة لرؤية جواربها البيضاء من كاحلها النحيل إلى انحناءة مؤخرتها الهزيلة. باهتمام مبالغت، أدركتُ أن لغزًا يكمن في تلك البقعة الناعمة حيث تلتقي خيوط جواربها الدقيقة. غطّستُ أكثر في القفص، وارتفع فستانها أكثر، كمِظلةٌ تنفتح، ساقاها تتلويّان ناحية السقف. ثقتُ إلى لمسهما. هل كانتا دافئتين أم باردتين؟ خشنّتين أم ناعمّتين؟

"أمسكت بك!" قالت لاهثة. ركلت قدمها بانتصار.

هبطت الساقان. عاد الفستان إلى موضعه. خرجت كتفٌ بتقوُسين أبيض مُنْسَخ، ثم أخرى بتقوُسين مفقود، ثم الضفيريّتان الذهبيتان بحفّات تبن تتعلّق بهما، وجهٌ أحمر مُلطّخ بالتراب، ذراعان عاريان، وأخيرًا يَدان قذرتان وثعبان.

كان بطول ساقِي ويلتَمع بأسود زيتِي في وميض المصباح. طَوَّحَت الفتاة بضفيرة من على وجهها، جذبت الثعبان المتلَوِّي نحو شفيتها، قَبَلَتْه، ثم قالت، "لا بأس، جان-چاك. أنت حرّ".

يمكنني تذكُّر كل تفصيلة في ذلك المشهد: مَشَّها، كل بقعة تراب على وجهها، الابتسامة المُحِبَّة، المزهوَّة التي منحنتها للثعبان. ربما ما أراه الآن في عين عقلي ليس سوى ذكرى لذكرى بعيدة أخرى، كساعة قديمة أَصْلَحَت مرَّات كثيرة بحيث لم يتبقَّ فيه ترمُّ أصلي واحد. كثيراً ما استدعيتُ المشهد إلى عقلي: تلك الفتاة ذات الشعر المُشَعَّث، اليدان القذرتان، وثعبان عشب مرعوب محمول أمام فمها. بشفتيها على بعد نفْس من الثعبان، رَأَتْني.

في رعشة المصباح، راقبتُ شعورها بالإحراج يرتفع إلى خديها. حاولت إخفاء الثعبان وراء ظهرها، لكن تَلَوَّيه كان كثيراً جداً على يد بمفردها، فهرب منها على الأرض. تردَّدت لوهلة وتفكَّرت، ثم هَوَّت على ركبتيها ومِرْفَقَيْها، يداها مُسْكَان بجان-چاك فيما ضفירתاها تتدليان كأذانٍ طويلة على الأرض. رَفَعَت بصرها إليّ.

"مَنْ أنت؟" قالت. "ماذا تفعل هنا؟".

أَخِذْتُ على الفور بالثقة في صوتها، بالنطق الواضح في كلماتها. بلا أثرٍ للهِجَةِ قروية. أدركتُ على الفور أن هذه الفتاة كانت من طبقةٍ أعلى حتَّى من صبيان الجوقة الذين يسخرون مِنِّي. لا يهمُّ كم تقف قريبة مِنِّي الآن؛ ذلك أنه حتماً لا يوجد مَنْ هو أبعد عَنِّي الآن في العالم بأكمله.

أحكمت قبضتها على جان-چاك ورفعت ركبتيها عن الأرض ثم نهضت واقفةً، مُمَسِّكةً بالثعبان أمامها وكأنها قسٌّ يقبض على كأسٍ مملوءةٍ بالنبيذ. كانت أطول مِنِّي بمقدار رأسها، ولها وجه عجيب، وكأنه لوحة قماشية لعرض المشاعر: الفضول في تضامٍّ جبينها، الحذر

في تناول عينيها، الحرج في ثنية ذقنها، لمسة من البهجة في اتساع  
فمها. تمعّنت في رداء الجوقة الذي ارتديه.

"هل أنت راهب؟" أوحّت نبرتها بأنها تفضّل الثعابين على الرهبان.  
مُجدِّدًا، لم أقل شيئًا.

"عندما أكبر"، قال، مقتربةً مني ببطء شديد ومُتحدّثةً بسرعة مع  
ذلك، "لن يعود هناك رهبان، لكن فلاسفة (philosophes) فحسب،  
وهو ما يمكن للنساء أن تكونه، حتّى وإن كانت النساء لا يستطعن  
إدارة المصانع". عندما انتهت من حديثها، كان جان-چاك، قريبًا من  
وجهي. قد توقّف عن التلوّي وأخذ في التحديق باسترخاء في الظلام.  
تطلّعت الفتاة إلى عينيّ، تراجعتُ خطوةً. تقدّمت.

حفحف فستانها فيما تتحرّك. صرّ حذاؤها الأسود المتيبّس. نقرت  
بأسنانها مرّتين. "إذا أخبرت أيّ إنسان بما رأيته، سأسحق وجهك"،  
قالت.

ثم خَطّط بجواري مباشرةً.

استدرتُ لمراقبتها وهي ترحل، وحينها فحسب أدركت أنها تعرج.  
كانت قدمها اليمنى مُستديرة للداخل وركبتها لا تنحني. ألقت  
بنظرة خاطفةٍ للوراء فيما تغادر الغرفة وأمسكت بي مُتلبّسًا بالنظر  
إلى ساقها. انضمت ومضة ألمٍ إلى المعركة على وجهها. "من الموضع أن  
تُحدّق"، قالت.

ثم رحّلت. راقبتُ مدخل الباب، ثم أغلقت عينيّ حتى أستطيع  
استرجاع أصواتها، المُخزّنة الآن في ذاكرتي. حفيف فستانها، الصوت  
الرقيق مُغوي الثعابين وقد أيقظ حواسّي الأخرى. هل هذه هي  
رائحة صابونها وليمونها ما زالت عالقةً في هواء الغرفة؟

عدتُ إلى الدهليز الرئيسي واستندتُ على الحائط حتى سمعتُ  
أويلي يجرُ قدميه على الأرض، ذلك أنهم أرسلوا به للبحث عني.

\*\*\*

كُنَّا هناك لغناء صلوات مساء الأحد. غَنَيْنَا (قال الربُّ *Dixit Dominus*) لقيفالدي، مقطوعةٌ تعرض البراعة والتناغم والتقوى كما ينبغي لخلق تأثيرٍ على العباقرة والبلهاء الأثرياء، وبالتالي إلهامهم للنظر مُجدِّدًا في الوصايا الأخيرة بطُرق أكثر كرمًا لمصلحة الدير. كانت الكنيسة الملحقة بمنزل آل دوفت كتلة رطبة من الحجر الجيري ممتلئة بوفرةٍ من الأيقونات ونحو ثلاثين من المصلِّين. وقفنا -فيدر وأنا- كَتِفًا بكتفٍ في مقدمة الجوقة. في تلك الليلة لم يُخَفِ إبرةٌ في قبضته وينخزها في ذراعي، أو يهمس بأن رئيس الدير طردَ نيكولاي بسبب جرائمه المخزية. كان الأمران مزحةً معتادة عندما نتدرَّب. الآن، في الكنيسة الصغيرة، ممتلئةً بأفضل دماء سانت غال، كان يتسم كملاك، ولم يُبدِ أيَّ علامةٍ على أنه يزدريني.

فيما نوشك على أن نبدأ، انفتحت الأبواب في مؤخرة الكنيسة وخطا داخلًا سيد المنزل. فيليبالد دوفت. لم يكن رئيس إمبراطورية (دوفت وأبناؤه للمنسوجات) نحيلاً فحسب، بل كان قصيراً كذلك، وبين الرجال البدينين الآخرين في الكنيسة، كان له مظهرٌ صيانيٌّ. لم يتوقَّف لرسم الصليب بيده، لكن غمسَ إصبعه فحسب في جُرن الماء المقدس ورسم دائرةً في الهواء، ناثرًا الماء المقدس على الأرض. كانت يده اليسرى تمسك الآن باليد النظيفة لطفلة الوحيدة، أماليا دوفت، مُقبلة-الثعابين. سارت عارجةً بجواره.

جلسا بجوار امرأةٍ في الصف الأول كان لها ذلك المزيج المُنفَّر من خدَّين غائرين، وكتفين نحيلتين وفخذين عريضتين؛ ممَّا جعلها تبدو كهَرَمٍ لحيم، مرتخٍ، يستقرُّ على المقعد الكنسي. جلَّست أماليا بينهما.



تصوّرتُ مخطئًا أن المرأة ذات شكل الإجاصة هي أمُّ أماليا وزوجة فيليبالد؛ واكتشفتُ لاحقًا أنها شقيقة دوفت العزباء، كارولين دوفت، المصدر الرئيسي للتقوى في المنزل، وصاحبة فكرة هذا الطقس الكنسي الخاص.

أثناء أول حركتَيْن في المقطوعة الموسيقية، راقبتُ هؤلاء الثلاثة. كان فريق مؤدِّيَي التينور والألتو يتعاركون مع بعضهم البعض ومع آلات الكمان والبيانو القيثاري للسيطرة على الكنيسة، مُستخدمين درجاتٍ مبالغ فيها من الصوت وتوسيع محسوس بالكاد لنغماتهم كأسلحة. لكن الجمهور لم يفهم هذه الحرب؛ لم يفعل الصغب سوى أن أحمَد انتباههم. ابتسم بعضهم بلا معنى. آخرون حملوا نظرة حمقاء من الرضا الزائف على وجوههم. سقط كثيرٌ من المُصلِّين فريسةً للنوم. كان دوفت يحدِّقُ في حدائه. بجواره، توجَّح أماليا قدمها بفتورٍ، ولا تبذل جهدًا لإخفاء الملل على وجهها. وبدا أن كارولين دوفت لن تكون أسعد لو أن فيفالدي نفسه قامَ من موته وتناول كمانه وعزف عليه. أغلقت عينيها وتمايلت على إيقاعٍ ما لا علاقة له بالموسيقى الحاضرة. تساءلتُ، "هل هي صمّاء؟".

الحركة الثالثة من مقطوعة (*Dixit Dominus*) هي دقيقتان من أجمل تنويعات كتبها فيفالدي ليُغنيها مؤدِّيَا سوبرانو. كانت ملائمةً إلى حدِّ الكمال لصوت فيدر وصوتي، وهما صوتان لم يكونا متألِّقين ومكتملَيْن بعد، لكنهما خفيفان وسريعان. أحببت مراقبة ردِّ فعل الجمهور عندما بدأ فيدر في غناء (عصا سلطانك *Virgam virtutis tuae*)، وبعدها بثوانٍ، كرَّرتُ العبارة. تطلَّب الأمر هذه اللحظة فحسب لإخراج الجمهور من سباته.

غنيًا عبارةً أخرى معًا في تناغمٍ قبل أن يُفرِّقنا فيفالدي. ثم صرنا مثل عصفورَيْن راقصَيْن: نرتقي في تناغم. نتباعد متفرِّقَيْن، لكن بعدها

نَعَزِمُ على الاتحاد، ثم نرتقي مُجدِّداً. كان صوت فيدر رشيْقاً للغاية،  
لحدِّ أنه كان يبدو أحياناً وكأنه سيفرُّ مبتعداً عن صوتي. لكن لوهلة  
كُنَّا إخوةً، وأوشكْتُ على مدِّ ذراعي واحتضانه فيما نُعْنِي.

مالَ الحاضرون في الكنيسة للأمام في جلستهم وارتفعوا قليلاً عن  
مقاعدهم؛ صرَّت الأرائك الكنسية من تحتهم. لكن دوفت لم يفعل  
سوى أن مدَّ قدمًا لتَقْضِ لطفة غبار عن الأخرى ثم ثنَّاب، وكأنه  
لم يسمع الموسيقى. لكن أماليا كانت تُنصت. حدَّقْتُ إلَيَّ، وفي بطنها  
كان رنينٌ صغير.

انتهت الحركة الموسيقية، وللمرة الأولى منذ دخولنا الكنيسة، كان  
هناك صمتٌ مطلق. لا اعتدال في جلسة ولا سعال. لا همسٌ ولا تقريع.  
أناسٌ كثيرون تنفَّسوا بصفيرٍ رقيق فيما يطلقون زفيرهم، وفكوكهم  
تتدلى مرتخيةً.

استمرَّت الموسيقى. احتوت الحركتان التاليتان على اشتباكٍ بين  
مؤدِّيَي التينور والباص، وآلات الكمان والبيانو القيثاري، كل الآلات وقد  
جَدَّت إلهامها. ثم البوق وقرار الأرغن، وقد أُعيدت كتابتهما بشكل  
مُرهِق ليلأهما البيانو القيثاري وآلات الكمان. بدأت الحركة الثامنة  
القصيرة بآلات الكمان المتناقلة التي استخدمها فيقالدي بشكلٍ مُتَقَنٍ  
لتهيئة الآذان. هدأت الحركة الجمهورَ، وُمنحت آلتا الكمان الرماديتان  
في فرقتنا الفرصة للاشتراك في الموسيقى. ثم بدأت غناء السوبرانو  
منفردًا، (السيل De Torrente).

كنتُ صبيًّا ضئيلاً، بالكاد بنصف طول الرُّجُل الذي أنا عليه الآن.  
وقفت الجوقة خلفي مُنصاعةً لقيادتي. لم يكن صوتي عاليًا، لكنه ملأ  
كل ركنٍ في تلك القاعة. ارتجف ذقني فيما أمدُّ كل مقطعٍ ليستمِرَّ  
لعشرين نغمةً أو أكثر. بالنسبة للجمهور بدا ذلك عفويًّا وهيئًا -أبدًا  
لم تتشجَّع عيناى، لم ترتفع كتفاى- لكن بالنسبة لي، تطلَّب الأمر أعظم

تركيز ممكن. اتجهت ذراعاي للأسفل وللأمام قليلاً، وشعرتُ بأغيتي في كل إصبع ممدودة. هُصِرَت رتاي، ورغم أن صوتي كان مكتملاً بمقدار العُشر فقط ممّا سيكون عليه يوماً ما، إلا أنه كان رائقاً مثل هواء الجبال حول كنيسة أمي. في كنيسة آل دوفت، تخضبت عيناى. كانت أماليا، في الصف الأول، قد تغضن جبينها؛ أصابعها البيضاء قابضة على المقعد الخشبي. تغلغلت أغيتي في كل نسيج فيها.

عندما انتهيت، كان هناك صمت. كان فيدر تمثالاً مُتخسباً بجواري. فغرّ أولرتش فاه. رأني، مُجدّداً، للمرة الأولى. ودوفت ما يزال يتأمل حذاءه.

جلست أماليا في سكون، مُنتشية وذاهلة، وكأن ثعبانها قد أنبت أجنحة بهيئة وشرع في الطيران أمام عينيها.

## (12)

بعدها، جلسنا في بهو ضيق وأولمنا. كان الطعام والشراب هو الوسيلة الوحيدة لدفع أتعاب غنائنا (يتلقى رئيس الدير كويلستين أتعابه بحسب تربيته الخاصة بالطبع). بدا وكأن الجميع قد نسيني، الجميع باستثناء أولرتش، الذي كنت أضبطه من وقت آخر يُحدّق في وجهي، مُحاولًا بلا طائل أن يستحضر من صورته ذكرى صوتي. أمسكتُ بساق لحم حَمَل في يدي، وجناح دجاجة في الأخرى، وشرعتُ في انتزاع اللحم وكأنني أنوي أن أكبر إلى حجمي الكامل قبل انبلاج الصبح.

«بسست!» سمعتُ أحدهم يهمس. لم يبدو أن أحدًا غيري سمعَ الصوت. استدرتُ نحو الباب. تلصّصت عيني عبره. أبدًا لم يرغب أحد في التحدّث معي من قبل، باستثناء أولرتش ونيكولاي؛ لهذا تجاهلت الصوت واستدرتُ عائداً إلى وليمتي.

«بسست! أيُّها الراهب!» استدرتُ مجدِّداً، وهذه المرة رأيتُ رأسَ أماليا دوفت يبرز من الباب. «تعال!».

أطعْتُ الأمر، لكن بحذر، مدرِّكاً جيِّداً الآن أن وراء المفاتحات الودودة بالكلام غالباً ما تكمن مكائد قاسية. عندما وصلتُ إلى الباب، جذبتني أماليا عبره وأغلقتَه وراءنا. كانت ترتدي فستاناً أبيض وحدَّقت في وجهي بنزق.

«أنت مثير للاشمئزاز»، قالت.

فكَّرتُ، لماذا يبحثُ الناس عني فقط من أجل إهانتني؟

لكن حينها شعرتُ بوخز عصاة الحَمَل ودهن الدجاج على النصف السفلي من وجهي. نظَّفْتُه برداء الجوقة. تأوَّهتُ أماليا وقبضت على معصمي. سحبتنِي إلى آخر الرواق. في مُغتَسِلٍ، مسحت وجهي ويديَّ بفوطة ناعمة وألقتها على الأرض.

«بسرعة»، قال، جاذبةً كُمني. «يفترض أن أكون في الفراش».

ارتفعت خشخشات وتقطيرات وثرثرات آل دوفت وخفتت فيما تفودني أماليا عبر رَدَهايتِ لم يكن لي أبداً أن أجول فيها بمفردي. سرنا بما يقترب من الركض، فيما تتمايل هي من جانبٍ إلى آخر بعرجِها. أدارت بصرها إليّ.

«كثيرٌ من الناس يسقطون من الأسطح»، قالت. «سقط ماتياس فون جروب من نفس السطح الذي سقطتُ منه، لكنه هبط على كومةٍ من السِّباخ فيما هبطتُ أنا على محراثٍ. تقول كارولين إنه الرُّبُّ فعل ذلك ليبطِّن سقوطي، لكنه لم يبطِّن سقوطي، وعلى أيِّ حال لا يوجد ربُّ».

جعلتني هذه الجملة الأخيرة أراجع مصدوماً، لكنها جذبتني بشدَّة أكبر. عندما لم أقل شيئاً رغم ذلك، هزَّت رأسها. «لماذا لا تتحدَّث؟».

لأنني لا أعرف ماذا أقول، كنت سأقول، لو واثقتي الشجاعة.

هزّت كتفها بلا مبالاة وتابعت الحديث. «هذا يناسبني. أمقت الإنصات إلى الناس. ماري لا تصمت أبدًا. حاولت سدّ أذنيّ بالشمع، لكنها دائمًا ما تصرخ حتّى أسمعها. أنت، بالطبع، لا يمكنك أن تبقى هادئًا، لكنك لست مضطرًا لأن تتحدّث».

أبدًا لم يتحدّث إنسان معي بكل هذه الكلمات، باستثناء نيكولاي وأولرتش. بدا كل هذا مثيرًا للشكوك. لن أجد طريق العودة أبدًا لو تركتني، أو ربما يحدث الأسوأ وتقودني إلى عُصبة أصدقائها الأشرار. لم نكن مررنا بنافذة حتّى الآن، وازدادت الأصوات القادمة من الجدران خوفًا أكثر وأكثر. قدّرت أننا دلفنا إلى جناح غير مسكون في منزل آل دوفت.

أبطأت أخيرًا. في نهاية ممر طويل كانت هناك منضدة، وخلفها باب مزدوج مُغلق. رجل عجوز يجلس على المنضدة بعينين نصف مُغلقتين. شمعة وريشة وورقة وساعة فضيّة موضوعة بنظام على المنضدة أمامه.

«آنسة دوفت»، قال فيما تقترب. كتب شيئًا ما على ورقته. اختلست نظرة ورأيت أنه خربش اسمها.

"إذا لم تخبر أبي أننا جئنا يا بيدر"، قالت، "سأجلب لك سيجارًا".

استمرّ في الكتابة.

"سيجارين؟".

هزّ رأسه. "بيانات دقيقة".

نظرت إلى الورقة أمامه. كان فيها جدول مُنسّق يشطرها إلى عمودين.

الحدث	الوقت
سعال (جاف)	20:02 (المدة: 45)
سعال (تسليك الحلق)	20:08 (المدة: ثانيتين)
الممرضة بلات تدخل	2:14
نافذة تُفْتَح (الممرضة بلات)	2:15
نافذة تُغْلَق (الممرضة بلات)	20:18
مئانة تُفَرِّغ حسب الطلب	
اللون: مصفر؛ الحجم: 1/6 من الطبيعي	20:20
سعال (جاف)	20:22 (المدة: 31 ثانية)
الممرضة بلات تغادر	20:25
زائر (الآنسة دوفت)	20:32

فيما أقرأ هذه القائمة، سمعتُ سعالًا جافًا من خلف الباب المزدوج. نظرَ بيتر في ساعته. تأوّهت أماليا وأمسكت بمقبض الباب. "لا تقاطعوني!" أصدر أمرًا وأمال أذنيه. عندما توقّف السعال، تفحصَ ساعته. كتبَ: "سعال (جاف): 20:34 (المدة: 24 ثانية)". "سندخل"، قالت أماليا. انتزعت قصاصتين من الحرير الأسود من كومةٍ على المنضدة.

بغتةً اختفى بيتر الغامل. بدا وأن فارسًا مغوارًا قد حلّ محله فيما ينهض بسرعة ويقبض على ذراعي. "لا!"، قال في صدمة. "ليس هو!".

"لكنني أقبله"، قالت أماليا.

تطلّع إليها بيتر في اندهاش. جذبني قريبًا منه وشممت رائحة أنفاسه، الغارقة في النبيذ الحامض المُنْتِن. "لا يمكنها قبول أحد"، همس لي.

خَطَّتْ أُمَالِيَا عَلَى قَدَمِهَا السَّالِمَةَ. "سَدِّخِلْ"، كَرَّرَتْ.

جَذَبَنِي الرَّجُلُ الْعَجُوزُ إِلَيْهِ أَكْثَرَ. حَاوَلْتُ أَنْ أَمْلُصَ، لَكِنْ قَبَضَتْهُ كَانَتْ فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ. "لَا تَدْخُلْ"، هَمَسَ فِي أُذُنِي كَالْفَحِيحِ.

قَبَضَتْ أُمَالِيَا عَلَى مِعْصَمِي الْآخَرِ. "لَا تَنْصِتْ إِلَيْهِ. سَيَبْتَهِجُ أَبِي".

"سَيَبْتَهِجُ!" قَالَ بِيْتَرُ. "سَيَبْتَهِجُ بِتَدْمِيرِكَ لِعَمَلِيَةِ التَّجْرِيْبِ؟ كَيْفَ سَتَسْتَعِيدُ السَّيِّدَةَ دُوْفَتْ صَحْتَهَا يَوْمًا مَا إِذْنُ؟ أَخْبِرْنِي، أَنْسَةَ دُوْفَتْ!".

فِيْمَا الْاِثْنَانِ يَعْتَصِرَانِ ذِرَاعِيَّ، تَطَلَّعْتُ إِلَى وَجْهِهِ الْعَابِسِ ثُمَّ إِلَى وَجْهِهَا الْغَاضِبِ.

"ارْكَلْهُ"، هَمَسَتْ.

وَهَكَذَا فَعَلْتُ. رَكَلْتُهُ فِي كَاخِلِهِ، فَصَرَخَ عَاوِيَا وَأَفَلَتْ مِعْصَمِي. تَوَائِبَ وَأَخَذَ فِي دَعِكِ قَدَمِهِ. أَغْرَقَنِي النَّدَمُ، وَوَدْتُ لَوْ سَاعَدْتَهُ فِي دَعِكِ كَاخِلِهِ، لَكِنْ أُمَالِيَا كَانَتْ قَدْ دَفَعَتْ الْبَابَ لِفَتْحِهِ وَدَفَعْتَنِي عِوَضًا.

"سَأَجْلِبُ السَّيِّدَ دُوْفَتْ!" صَرَخَ بِيْتَرُ. لَكِنْ أُمَالِيَا أَغْلَقَتْ الْبَابَ، وَصَرْنَا بِمُفْرَدِنَا فِي الْغُرْفَةِ الْمَظْلَمَةِ.

لَيْسَ بِمُفْرَدِنَا تَمَامًا: أَحَدُهُمَا كَانَ مَعْنَا. كَانَتْ امْرَأَةٌ، سَرْعَانِ مَا تَبَيَّنْتُ. كَانَتْ تَسْعَلُ قَبْلَ دُخُولِنَا، وَالْآنَ تَلْتَقِطُ أَنْفَاسَهَا فِي شَهَقَاتِ جَشَّةٍ وَافِرَةٍ، حَتَّى بَدَأَ الْهَوَاءُ فِي التَّسَرُّبِ مِنْ رَثْيِهَا، وَكَأَنَّ جَسَدَهَا مَثْقُوبٌ. كَانَتْ هُنَاكَ شَمْعَةٌ هَزِيلَةٌ تَسْتَقِرُّ عَلَى مَنْضَدَةٍ، لَكِنْ عَيْنَايَ لَمْ تَسْتَطِيعَا رُؤْيَا أَيِّ شَيْءٍ خَارِجَ هَالَتِهَا. كَانَتْ أَصْوَاتُ مَنْزِلِ آلِ دُوْفَتْ صَامِتَةً هُنَا. لَمْ أَسْمَعْ قَعَقَعَاتٍ وَلَا هَمْسَاتِ الْجُدْرَانِ، وَلَا الْمَدِينَةَ وَلَا رِيَّاحَ اللَّيْلِ فِي الْخَارِجِ.

جَفَلْتُ فِيْمَا تَرَبَّطَ أُمَالِيَا قِصَاصَةً مِنَ الْحَرِيرِ عَلَى وَجْهِهِ. كَانَتْ لَهَا رَائِحَةُ الْفَحْمِ.



"لا بأس"، قالت. "علينا أن نرتديها حتى لا نصاب بالمرض. تمرّض عندما تتشارك الأنفاس مع أناس مرضى. أمّي مريضة".

إذن فتلك المرأة في الجانب الآخر من الغرفة هي السيدة دوفت. أرعبني هذا، وابتهجت عندما أخذت أماليا يدي في يدها. كانت أنعم من أيّ يدٍ لمستها في حياتي.

تكيفت عيناى مع الغرفة المظلمة. رأيت فراشا عملاقا. كان مُثَقلاً بدُثُر ووسائد لم يكن لي، دون أصوات تنفّس، أن أتيقن إن كان شخص واحد أو خمسة أشخاص يستلقون تحتها. بالشمعة وراءنا، ألقينا أنا وأماليا بظلّ هائل على الحائط. شددتُ على يدها بقوة.

"أمّي!" همست أماليا. "أمّي، استيقظي!" شرّعت في إرشادي عبر الفراش. قاومتُ، لكنها كانت أقوى وأكثر تصميمًا.

ظهر شقٌّ في الدُثُر على الفراش. انسلتُ يدٌ معروقة إلى الخارج. كانت الأصابع نحيلة وبيضاء. أخذت أماليا اليد في يدها بحيث صارت حلقة وصل بيننا.

"أماليا"، قال همسٌ مبجوح. "ماذا تفعلين هنا؟ الوقت متأخر". من تجويفٍ مظلم في الدُثُر، تبيّنتُ بريق عينيها.

"أحضرتُ لك أحدًا لرؤيته يا أمّي. مُغنٌّ". جذبتني أماليا لتُقرّبني خطوة. راقبتها، غير واثقٍ مما يتوجّب فعله. اعتصرتُ يدي وأومات. "حسنًا"، همست. "غنّ".

كنتُ تدرّبتُ في جوقة كنيسة. نغني الموسيقى المقدّسة في أماكن مقدّسة. رغم أنه كان من الممكن استئجارنا لأداء صلوات خاصة، إلا أننا لم نفتح أفواهنا قطّ بالغناء ما لم يكن هناك مذبح قريب بما يكفي لوضع الكتاب المقدس عليه. لم أكن موسيقيًا ولا رجل طبٍّ يعرف أناشيدَ تعالج المرضى.

لذلك لم أغنّ.

"أرجوك"، قالت أмалиا. اعتصمت يدي وضغطت بها على قلبها الخافق. "ليس لدينا الكثير من الوقت. أبي قادم".

بدا هذا سببًا منطقيًا للهروب، وليس سببًا للغناء. شعرتُ بغتةً بالرعب من هذه الفتاة التي تُقبل الثعابين وتقول إن الربّ غير موجود. حاولتُ الإفلات من قبضة يدها. أوْشكتُ على التَّحرُّر - كانت تمسك إصبعي السبابة فحسب في قبضتها - عندما تحرَّكت الدُّر. رأيتُ وجه السيدة دوفت في الضوء.

ربما بدا ذلك بعيد الاحتمال، لكنني رأيتُ أمي. لوهلة كنت متيقنًا أنها هي مَنْ كانت تختبئ تحت تلك الأغطية، وأوشكت على الصراخ مُبتهجًا. لكنني تذكَّرتُ أن وجه أمي كان قذرًا، بينما هذا الوجه، وجه السيدة دوفت، نظيف وشاحب. جلد أمي قاسٍ، كجلدٍ مدبوغ، وجلد السيدة دوفت كالموسلين الممطوط الهش. شعر أمي أشعث وفائر، وشعر السيدة دوفت مغسول بعناية ومربوط وراء رأسها. أمي قوية. السيدة دوفت ضعيفة. لكن في هاتين العينين الغائرتين، في الشَّفة السفلى المشدودة التي ترتعش بالجهد، كان هناك صدى للدفع الذي لا أجده سوى في ذكرياتي عن برج الكنيسة. في تلك اللحظة، كنتُ على استعداد لأبذل للربّ وعدًا بإغلاق فمي للأبد فقط لو استطاعت أمي سماعي أغني ولو لمرة واحدة.

وهكذا غنَّيتُ للسيدة دوفت. غنَّيتُ لحن (المجد Gloria) من سباعية (قُدَّاس التتويج الباباوي Missa Papae Marcelli) لباليسترينا، المقطوعة التي كانت أغوتني من غرفة نيكولاى قبل عامين تقريبًا من الآن. أبدًا لم أغنّ من قبل في حجرة صغيرة كهذه؛ الأثاث والدُّر والستائر غرقت في اتِّساع صوتي. تماوَّجت أنفاسي مُخترقةً قناع الفحم، ومَدغِدغةً أنفي. أنصتُ لذلك الارتداد الخافت لصوتي في هذين الجسدين. في

شكل السيدة دوفت العَظْمي لم أسمع سوى أوهى الهمسات. لكن أماليا، التي ما تزال تعتصر يدي، كانت تتمتع بموهبة هؤلاء الذين بمقدورهم السَّمْع دون آذان. افترقت شفتاها قليلاً. انغلقت عيناها. شدت كنفها للوراء. مثل كأس كريستالي بإصبع مبتلة تمسّد على حافته، تصاعد الرنين الخافت فيها شيئاً فشيئاً. اهتز صوتي في عضلات عنقها وأعلى ظهرها. أهكذا كانت أمي لتسمع صوتي؟

فيما تُؤالِف أماليا نفسها على غنائي، ضبطتُ درجة نغماتي عليها، وصرْتُ وكأنني أمسك بعنقها بيديّ الدافئتين. شعرتُ، للمرة الأولى، بذلك التوق لمعرفة صوتي فيها، كما يقع الرُّسَام في حبٍّ مَنْ يرسمه بسبب طاقة فرشاته ذاتها.

كُتِبَ لحن (Gloria) من أجل الجوقة الكنسية، وفي غياب أصواتٍ أخرى، كرّرتُ نفسي، وغصتُ إلى أعذب نغمات الكونترالتو، واخترعتُ انتقالات لم توجد. في اللحظات التي أصمتُ فيها، لم نسمع سوى أنفاسنا؛ أنفاس أماليا خفيفة ومتحرّرة، وأنفاسي متعطّشة للهواء، وأنفاس السيدة دوفت تنبعث في ألم.

لم أتوقّف إلا عندما سمعنا وقع خطوات تقترب من الباب.

## (13)

"لا أحد يتحرك!" صاح فيليبالد دوفت فيما يهرع داخلًا الغرفة، وهو يربط باهتياج واحدًا من أقنعة الفحم حول رأسه. توقّف، بدا خائب الأمل بعض الشيء عندما اكتشف أن المعتدي على منزله لا يزيد طوله عن أربع أقدام. قرّصت أُماليا مرفقي، وشاكرًا انسلت وراءها. تحوّل وجه دوفت بالتدريج من البنفسجي إلى الأحمر، وعبّ الهواء في شهقاتٍ عبر القناع. تطلّع بغضبٍ إليّ واقفًا وراء ابنته، ثم خطا إلى جانب زوجته، بحذرٍ شديد، لحدّ أنك تظنّ أنه يخشى إيذاء الهواء من حولها.

لامسَ خدّها بظّهر يده. "هل أنتِ على ما يرام يا عزيزتي؟".

"أنا بخير، فيليبالد".

بعد أن اطمأنّ عليها، استدار ناحيتي. ضيّقَ عينيه. "هل تدرك ماذا فعلت؟".

هزرتُ رأسي. تَمَيَّيْتُ أَلَّا يَضْرِبَنِي.

"لقد تَدَخَّلْتُ في طريقِ العِلْم"، قال. وتطلَّعتُ حولي في الغرفة، محاولًا إيجاد هذا (العِلْم) رابضًا في الظلال.

كان هناك مزيدٌ من وقع الخطوات تفرك الأرض قادمةً عبر الردهة. راقبنا بيتر المتكاسل يدلف عبر الباب بصعوبة، وجهه لا يقلُّ حُمْرَةً عن وجه دوفت.

"توقَّف!" صاح دوفت.

توقَّف بيتر قبل عبور عتبة الباب، متفاديًا بالكاد التداخل مع طريق (العِلْم) هو أيضًا.

"أبي"، قالت أماليا، "لم نفعل أيَّ شيء...".

"لم تفعلوا أيَّ شيء؟" هتَفَ دوفت. ثم ألقى بنظرةٍ سريعةٍ على زوجته وأخفض صوته. "ليس بمقدوركِ أَلَّا تفعلِي أيَّ شيء! في اللحظة الذي تأخذين فيها أنفاسك هنا فإنك تفعلين شيئًا ما! شيئًا غير معروف. لا سبيل إلى معرفته ربما!" لَوَّحَ بيديه، ثم تجمَّدَ وصالب بينهما بخنوعٍ على صدره، وكأنه قَرَعَ بغتَةً من العواقب الغامضة لتلويحته.

تطلَّعتُ أماليا بكبرياءٍ إلى ما وراء أبيها. حتى من وراء القناع، كان بمقدوري رؤية بروز شفتها السفلى وقد تغصَّنت للخارج في عبوسٍ حَرُون.

"أماليا، أنصتي إليّ"، قال دوفت بوهن. تناول يد زوجته. ما زالت ابنته ترفض تحديقته. ومَصَّتِ الشمعة في عينيه، ورأيت باندهاش أنها تمْتَلَأَن بالدموع. "أحاول أن أفهم هذا يا أماليا".

"فيليبالد"، قال صوتٌ باعثٌ على الاطمئنان، "إنها تحاول فحسب...".

"سيدي"، صاح بيتر من الردهة، "ماذا بشأن البيانات؟".

تطلّع فيليباند إلى الباب. أوماً. "حسنًا، بيتر"، قال من فوق الرأس. "البيانات لها الأولوية حتمًا".

"الصبي كان يغني"، قالت السيدة دوفت. انفجرت في نوبة سعال. نظرَ دوفت إليها في رعب.

ورائي، سمعتُ بيتر يغمغم، "... ثمانية... تسعة... عشرة"، ثم خربشة ريشة كتابة على رقٍّ عندما توقفت عن السعال.

"غناء!" قال فيليباند منقطع الأنفاس، بعد أن سُجِّلَت نوبة السعال بأمان. تطلّع إليّ. كنت أعرف من فيدر والصبيان أن الغناء قد يكون شيئًا رقيقًا أو مخزيًا حتّى. لكن للمرة الأولى في حياتي، خطرَ لي أن الغناء، كالحديث، قد يكون خطيرًا. "أبدًا لم نعرف الغناء. ماذا لو أفرغت قلبها؟" نظرَ دوفت إليّ بغضب.

"لم يفزعني"، قال السيدة دوفت بأعلى ما تستطيع. "كان غناؤه بديعًا".

أردتُ أن أتسلّق الفراش وأدعها تحتويني في ذراعيها.

«أكتب الآن إزعاج (غناء: صدمة قلبية محتملة)»، جاء التقرير من الردهة.

أطلقت أماليا زفيرًا بصوتٍ عالٍ عبر أنفها.

«هل تكرّم أحدكم وأغلق الباب؟» قالت السيدة دوفت.

تكرّمت أماليا بسرعة. وددتُ لو أتبعها؛ ذلك أنها تركتني مكشوفًا. لكن فيليباند لم يهاجمني؛ خطا إلى زوجته. «عزيزتي، علينا أن نستبعد الحوادث العارضة. وحينها نستطيع أن نجد السبب، ومن ثمّ العلاج».

«قلّت ذلك من قبل»، قالت بضجر. «مرّات كثيرة جدًّا».

«لكن شيئًا ما يربكننا دائمًا»، قال. «فور أن نكون مستعدين لبدء التحليل الحقيقي».

«ربما هذا مصري. ربما لا يفترض لي أن أشفى».

«لكن العلم، يا عزيزي».

"ربما". قالتها بياس شديد، لحدّ أن كلمة واحدة مَحَتْ كل أمل من وجه دوفت. هَزَّ رأسه، لكنني لم أكن متأكدًا إن كان يعني بذلك مناقضتها أو مغالبة دموعه. تعجّبت أنه الآن في غاية التداعي، بينما قبل ساعات، كان غنائي قد أُنْزِرَ على الكنيسة بأكملها ولم يمسه بأي شكل. تلكأت أماليا بالقرب من الباب وحدّقت في الأرض.

مسح دوفت عينيه بظهر يده، وحاول أن يتكلّم. "هذه المرة"، قال، "سأتأكد ألا يزعج عزلتك أحدًا".

"لا مزيد من العزلة!" هذه المرة، كان صوت المرأة السقيمة أقوى عشر مرّات من صوت زوجها. حتّى أماليا رفعت بصرها في اندهاش، لكن حينها بدأت نوبة جديدة من السعال. أحتينا رؤوسنا في صمت تبجيلي حتّى توقّف السعال. في اللحظة التي استعادت فيها السيدة دوفت أنفاسها مجددًا، تحدّثت. "عندما سمعتُ هذا الصبي يغني، تذكّرتُ أن هذا العالم كان جميلًا ذات يوم".

أوشكتُ على أن أبدأ في الغناء مُجددًا على الفور.

"سيكون جميلًا ثانيّة يا عزيزي، عندما تُشَفِّين".

هَزَّتْ رأسها.

تحركت أماليا بغتة من سكونها. عَرَجَتْ نحو الفراش وأمسكت بيدي. "لكن ربما يشفيها هذا!" قالت.

بدا دوفت مرتبكا. "ما الذي سيشفيها؟".

"هو، بغنائه". هزّت ذراعي المرتخي.

اشتعلَ الأمل، ذلك الوحش ذو الألف حياة، في عيني دوفت. تطلّع إليّ بفضولٍ جديد. "فكرة شائقة. لم أفكر في التجريب باستخدام الصوت. سيكون هذا مسار أبحاثنا القادم إذن. لكن ينبغي أن نبداً ببساطة أكبر. غداً سنقرع جرساً إيقاعياً واحداً".

"لا أريد أن أسمع أجراساً يا فيليبالد".

"لا يتعلّق الأمر بما تريدينه يا عزيزي، بل بالخواص الصوتية".

"فيليبالد". كان صوتها مرهقاً.

خطا دوفت جيئةً وذهاباً بخطوات منتظمة قصيرة. "إنها مجردُ بداية"، قال. "لجمع البيانات فحسب. ثم سنضيف جرساً ثانياً، ونجربُ بحدة الصوت ودرجته، وهكذا".

أسقطت أماليا يدي. نخرت بخفوت، ثم في يأس، أغلقت عينيها وغطت أذنيها بيديها.

"هل يفترض أن أضيع حياتي مع الأجراس في حين يمكن لصبيّ الغناء بهذا الشكل؟"، كان صوت السيدة دوفت قوياً مُجدّداً، لحدّ أنه أوقفَ خطوات دوفت. "دعه يأتي ويُعني لي. أجر كل التجارب التي تريدها، لكنه دعه يُعني".

تجهّم دوفت. "لكن..."، تفكّر في كلماتها لوهلة، ثم هزّ رأسه. "يستحيل احتواء الصبي يا عزيزتي. الجرس جرس؛ شيء ثابت. الصبيان تتبدّل؛ ولهذا فصوته لن يكون نفسه بين كل لحظة وأخرى. يقول فولتير...".

"أريد أن أسمع الموسيقى يا فيليبالد".



شرعَ دوفت في الخطو المنتظم مُجدِّدًا، ببطء أكثر من ذي قبل، وكأنه يخشى أن يُسقطه اهتزازٌ مفاجئٌ للمنزل. "ربما بمقدور بيتر تعلُّم العزف على البوق". تطلَّع ناحية الباب المغلق.

"أنا أحضر يا فيليبالد!"

جفلتُ عند الكلمة. كانت أسوأ كلمة في العالم. تجمَّد دوفت. أدار وجهه ببطء إلى زوجته. تناولت أماليا يدي. اعتصرتَّها، وبشكل ما أدركتُ أنها تريدني أن أعتصر يدها بدوري. فعلتُ.

"أرجوك دعه يأتي"، قالت السيدة دوفت. "سيجعلني هذا سعيدة".

رفع فيليبالد قناعه ومسح أنفه بظهر يده. "ربما... وقت منظم... مُدَد معيَّنة".

"إنه صبي هادئ جدًا. أهدأ من بيتر بكثير".

"سيكون علينا البدء ببطء".

"بالطبع".

"في حالة حدوث آثار سلبية".

"وسأكون أنا النَّسَّاجة"، قالت أماليا، وبدأ الضوء في هاتين العينين الزرقاوين في التوهُّج مُجدِّدًا. "يمكنني فعل ذلك أفضل من بيتر".

تطلَّع فيليبالد إلى ابنته. "أنتِ؟".

أومأت أماليا. تطلَّعت إليّ، لكن ليس بحميمية- كان تحدِّيًا، وكأنها تقول، أترى ما فعلته أنت وصوتك؟ هل أنت مستعد؟

تطلَّعتُ من حولي ورأيت أن الجميع الآن يحدِّق إليّ. كيف حدث هذا؟ بالطبع كنت أرغب في الغناء لهذه المرأة السقيمة، العطوف. ومع ذلك فهناك هذا الرجل القاسي والمرتعش، هذه المنزل الفخم،

هذه الفتاة التي أفقدتني إحساسي عندما أمسكت بيدي... لا، لا أنتمي إلى هنا.

"سو الأمر إذن"، قال دوفت. "سأرى رئيس الدير غداً".

قبل جبين زوجته عبر القناع. ثم دفعني وأماليا نحو الباب.

"انتظر"، قالت السيدة دوفت. استدرنا.

"ما اسمك؟" قالت لي. كانت أُمي لتملك هذا الصوت الرقيق أيضاً لو كانت تتكلم.

"لا يستطيع التكلّم"، قالت أماليا.

لكن كان بمقدوري التكلّم. "موسى"، قلتُ، بصوتٍ كالْفأر. اتَّسَعَتْ عينا أماليا. "ليلة طيبة، سيدة دوفت".



## (14)

"موسى"، كان كل ما قاله رئيس الدير عندما ظهر عند باب غرفة التدريبات أواخر الصباح التالي. بصق اسمي وكأنه شيء كرهه ملتصق بلسانه، وظلَّ الاشمئزاز على وجهه حتَّى بعدما لفظه. استدار أولرتش والصبيان إليَّ. أعتقد أنني حتَّى لمحتُ نظرة شفقة على وجوههم. تهادت قدماي بصمت عبر الأرضية وانسللتُ عبر الباب دون أن أدير ظهري إلى رئيس الدير.

كنتُ على يقين أنهم أخبروه بغنائي في غرفة نوم السيدة دوفت. أغلق الباب ونظَّلَ إليَّ مُنحنيًا لأسفل. اختلجت أنفه.

"الموسيقى"، قال، ومع كل جملة كانت عيناه الباردتان تقتربان أكثر من وجهي، "ليست عَقَّارًا شافيًا. ليست شراب طيب. أشيْد كنيسة وليس مستشفى! ذلك الرجل أحمق".

انتفضّ مُعتدلاً واستدارَ للنظر عبر نافذةٍ إلى الجُدران البيضاء البكر لكنيسة. أجفله بريقها.

رفع إصبعًا ووضعها في وجهي. "لو لم يكن هناك سوى قلة قليلة من الحجّارين الملاحين في هذه المدينة، كان المسألة لتنتهي تمامًا. لكنه يقول إنهم بحوزته- نصف دزينة بمقدوره إقراضهم لي. لماذا يساوي صوتك الكثير جدًا له؟".

اضيقّت عيناه فيما يطرح هذا السؤال، وشعرتُ أنه يحاول قراءة الإجابة في التقاطيع الناعمة لوجهي.

مرّ بنا راهبٌ مُبتدئ في الرواق. انحنى لرئيس الدير وحاول أن يمضي في طريقه، لكن الرئيس رفع يداً أمامه. "اجلب لي الراهب نيكولاي"، قال. وانطلق الراهب المُبتدئ مُسرّعاً. عادت تحديقة رئيس الدير المُستنكرة إليّ، وظلّت عندي حتى سمعنا وقع خطوات نيكولاي المُتثاقلة تُسرّع عبر الرواق.

"أبتاه رئيس الدير"، قال، بتعبيرٍ جَزَع. انحنى مع خطواته الأخيرة. "هل توجد مشكلة؟".

رفعَ رئيس الدير جبينه الطويل لنيكولاي، وكأنه يقول، بوجود أمثالك في هذا الدير، هل تحتاج إلى السؤال حتّى؟

لكنه بدلاً من ذلك قال، ببطء شديد، وكأنه يُصدر أمرًا لخادم فلاح: "مساء كل خميس سيُغني هذا الصبي صلوات المساء في منزل آل دوفت. تأكد من نظافته وارتدائه ما يليق بتمثيل الدير لدى أرقى عائلة في هذه المدينة".

"بالطبع"، قال نيكولاي. ابتسم إليّ وشعّت شعري. "في منزل آل دوفت! يا له من شرف!". ابتسمتُ له بخفوت. "أبتاه رئيس الدير"، وضع نيكولاي يداً على ذراع رئيس الدير، "سأخذه إلى هناك بنفسي".

تراجعَ رئيس الدير وكأن نيكولاي قد أحرقه. "لن تفعل!".

"ليس بعيدًا، مجرد... "لَوْحَ نيكولاي بيده وكأنها سمكة تسمح في اتجاه النافذة. هزَّ كتفيه استهانةً. "مقدوري إيجادها".

كانت تحديقة رئيس الدير قاسية. أشار بإصبع نحو الإنشاءات في الميدان. "أنا على استعداد لمنح هذه الكنيسة إلى الإصلاحيين (البروتستانت) في أقرب فرصة، على أن أجعلك تسير مُستعرضًا نفسك في هذه المدينة في المساء. وكأنك تجلس في بهوهم!" ارتجف رئيس الدير.

كان من الواضح أن نيكولاي أصيب بخيبة أمل كبيرة، لكنه وضع يداً على كتفي. "إذن فسأرسم خريطةً لموسى".

تطلع رئيس الدير إليّ مجددًا. "لا، أنت على حق. إنه في حاجة إلى مُرافق". أخذَ في لعق شفتيه وكأنه تناول قرصًا سكريًا حامضًا. أومأ. "الأخ دومينيكوس سيأخذه".

\* \* \*

في تلك الليلة أبلغَ نيكولاي رموس بالأخبار فيما نحن جالسون في صومعة نيكولاي.

«سأفعل ماذا؟» أمسك العابس بنصفَي كتابه المفتوح وكأنه يريد تمزيقه. خطا نيكولاي جيئةً وذهابًا أمامه. جلسْتُ أنا على الفراش.

«اصحبه حتّى يجتاز بأمان أخطارَ العالم»، قال نيكولاي، فيما يدها تُفرقان كُرمات غابية وهمية. أشارَ. «إلى منزل آل دوفت».

«لماذا أنا؟»

«أنت الوحيد الذي يتمتّع بالشجاعة».

«ماذا يظنني ستاوداخ؟ بغل؟».

غمَزَ نيكولاي لي. «لا أتصوّر أنه يُقدّرُكَ عاليًا هكذا».

«لن أفعل هذا. لديّ أشياء أخرى لأفعلها». تراجع ريموس في مقعده. ضغطَ بكتابه على صدره.

بدا نيكولاي مُتشكِّكًا. "أشياء أخرى؟" أجابَ ريموس تحديقته بالصمت. "أوه، ريموس، افعلها من أجل موسى".

"من أجل موسى؟" قال ريموس باستهزاء. "ماذا سيستفيد موسى من هذا؟".

تطلّع كلانا إلى نيكولاي. رغم أنني كنتُ أتوق للعودة إلى ذلك المنزل الغامض، الباذخ، إلّا أنني كنت مرعوبًا. أنا أيضًا كنت أودُّ لو أعرف لماذا ينبغي أن أذهب. لوّح نيكولاي بيده في اتجاه النافذة. "سيرى العالم".

"العالم الواقع بين هنا ومنزل آل دوفت؟".

وقفَ نيكولاي أمام النافذة ونظرَ من خلالها وكأنه يتفحّص في الطريق المؤدي إلى المنزل. هزّ كتفيه استهانةً. "جزءٌ منه، نعم".  
"جزء صغير جدًا".

أجالَ نيكولاي يده في الهواء، مُبدّدًا ضباب ارتباك ريموس. "ريموس، لا بُدَّ أن يبدأ من مكانٍ ما. لا تريده أن يَكْبُرَ ليصبح راهبًا مثلك بالتأكيد؟".

كان نيكولاي أقربَ من لعب دور الأب في حياتي طوال هذه السنين، وفاجأتني كلماته. كانت المرة الأولى التي أفكّر فيها في أيّ مستقبل بخلاف الحياة في الدير كراهب. مثل ريموس. مثل نيكولاي.

تطلّع ريموس إليّ بتجهّم. "ولماذا أهتمُّ بما قد يصير إليه؟" لكنه عندما قالها، نظرَ إلى الأرض في خجلٍ مُقنَّع بشكل بائس، ورأينا جميعًا أنه، أيضًا، كان مُتورطًا في حياتي.

ابتسم نيكولاي. "موسى"، قال، "ألا ترى؟ ريموس خائف".

تنشق ريموس.

"ترى، هناك نساء في ذلك المنزل". غمز نيكولاي. "لا تقلق، سأحدث معه. هذا خوف لا بُدَّ له أن يتجاوزه".

\* \* \*

وبالفعل، في الثلاثاء التالي، بعد أن أحضرني نيكولاي من التدريبات وغسل وجهي ومشط شعري، وقف ريموس هناك، مرتدياً قُبعة وعباءة، ويحمل حقيبة ممتلئة بالكتب وكأننا سنسافر لأيام طويلة، وكان نفاد الكتب يعادل نفاد الهواء. في اليوم الأول، أمسك بخريطة في يده، وعند كل ناصية شارع كان يديرها مراراً وتكراراً وكأنه يحاول فك شفرتها. "هذه الشوارع اللعينة"، يغمغم. "يبدو أنها تمضي في دوائر. لماذا لا يجعلونها تبدو كما هي على الخريطة؟ كنت أتبعه بخطوة وراءه وأنصت بانتباه. في الأسابيع التالية، عقدنا ميثاقاً. أمسك بكتاب أمام عينيه ويسير. عندما أسمع سكين الجزأ، أدفعه إلى اليمين؛ وإلى اليسار عندما أسمع مطرقة الحداد. عندما أسمع الباعة يصيحون في السوق، أقوده إلى التل المنبسط.

دلفنا إلى منزل آل دوفت من نفس الدهليز الذي ضللني في المرة الأولى. تخيل منزلاً تُقشّر حوائطه ويُعادُ طلاؤها كل يوم، تُعلق لوحاته وتُنزَع مراراً وتكراراً، تضاف أو تزال سلاله وأبوابه حسب المزاج. هكذا كان الحال معي في هذه المنازل ذي الأصوات المتبدلة دوماً. من بقعة في الجدار حيث أسمع يوماً يداً تضرب منضدة، أسمع في الأسبوع التالي قعقة قدور، ومن بقعة أخرى حيث أسمع يوماً الهمس الخافت لخادمة، أسمع في الأسبوع التالي الصوت الأجش لكارولين دوفت.



في كل أسبوع كنتُ أقاد إلى البهو، حيث كانت أماليا تجلس دائماً على مكتبٍ بجوار أبيها؛ ذلك أن زيارتي كانت تتزامن دائماً مع دروسها في الفلسفة، المادة الوحيدة التي لم يَعهد بها أبوها إلى الممرضة الفرنسية البضة ماري. يا له من ارتياحٍ ذلك الذي كان يجتاح وجه صديقتي الشابة عندما أظهر! في ثوانٍ، تتلاشى الفلسفة ويحمرُّ هذان الخدان. تنهض عن عملها وتُحيي راموس، الذي يمدُّ كتبه إليها كدرعٍ واقٍ. يأخذ مقعدًا بعيدًا عن كارولين قدر الإمكان. ثم تومئ أماليا إليّ، كمُضيفة وقورة حقيقية، وتقودني عبر رواق. فور أن نبتعد عن مجال سمع أبيها وكارولين، تتناول يدي وتُبطن من خطوتها حتّى تطيل المسافة إلى غرفة أمّها؛ ذلك أنها تكون المرة الوحيدة طوال الأسبوع بأكمله التي يكون كلانا بمفرده، مع شابٍّ آخر من عمره له أن يدعوه صديقًا. كانت تتولّى معظم الحديث، مُقلّدةً تقريعات كارولين القاسية، "هذا لا يحدث، أماليا دوفت، في هذا المنزل"، أو حاكبةً لي كيف ستهرب- إلى سفينة قراصنة أو قبيلة من الإسكيمو، أو تتخفّى كصبي وتدرس الفلسفة في جامعة (collège) في باريس. أحيانًا ما كانت تُوقفني في طريقنا؛ ذلك أنه حتّى خطواتنا المتباطئة كانت سريعة جدًا على عقلها المتفجّر. ذات أسبوع، أرثني جمجمةً قالت إنها لإنسان (لكنها بدت كجمجمةٍ لواحد من الخنازير التي يحتفظ بها أبوها). في الأسبوع التالي عرّضت عليّ لوحةً رسّمتها لملكٍ أفريقي. في زيارةٍ أخرى، ترجمت مشهدًا داميًا من ملحمة إغريقية كان أبوها قد قرأها عليها بالفرنسية.

شيئًا فشيئًا بدأتُ في إدراك أن السقطة التي شوّهت جسدها قلّصت من حريتها أيضًا. مثلًا، ذات أمسية دافئة، بعد أن انتهيتُ من الغناء، أشارت أماليا بخجلٍ على أبيها أنها تودُّ رؤية تقدّم العمل في الكنيسة: ستمشي مع ريموس ومعني إلى الدير وتعود قبل الظلام. "أعرف الطريق"، قالت.

كان أبوها منغمسًا في الأعمال وغمغم فحسب، "حسنًا عزيزتي، هذا جميل".

لكن كارولين لم تتجاهل الأمر. أمسكت بنا عند الباب. "أماليا!" هتفت. "ماذا تظنين؟"

أخبرتها أماليا أنها ترغب في رؤية الكنيسة.

"الأحد"، قالت كارولين، متناولة يد أماليا ومُعيدة إيّاها إلى داخل المنزل. "الأحد بمقدورك الذهاب معي".

"لكنني لا أريد الذهاب معكِ!" أجبتها أماليا بسرعة، وانتزعت يدها.

"أماليا"، عاتبها كارولين هامسةً، "هل نسيت ماذا حدث لك في آخر مرة خرجت فيها بمفردك؟" نظرت إلى ركبة أماليا وكأن الإصابة تنهّج عبر نسيج فستانها. "هل تريدين ندبةً أخرى؟".

استدارت أماليا وقد احمرّ وجهها بهوانٍ غاضب.

قادت كارولين ابنةً شقيقها بعيدًا. "غداً"، قالت فيما تختفيان في غرفةٍ أخرى، "ستأخذكِ ماري في العربة. لا تريدين أن يحدّق الجميع في عَرَجِك، أليس كذلك؟".

\* \* \*

في لقائنا الثاني، قادتني أماليا عبر الأروقة وهي صامتة، مُتجهمةً الوجه. تزمجر بشيءٍ ما فيما تطلق أنفاسها. تَبَعْتُهَا بعصبية وهي تعرج أمامي- حتّى توقّفت بغتةً في ممرٍّ هادئ. "لن أمضي خطوةً واحدةً أخرى"، قالت بسرعة، "حتّى تقول لي ست كلمات على الأقل".

لا بُدَّ أنني بدوّث مرتبكًا. نغزتني في صدري وتحدّثت ببطء وكأنني طفل صغير. "وهذا يعني كلمة واحدة أكثر ممّا تحدّثت إلى أمّي".

حاولتُ أن أتحدّث حينها، حاولتُ حقًا -سمعتُ في مُناشدتها نفس الوحدة التي كانت تسيطر على وجودي- لكنني لم أستطع. استغلق عليّ الكلام. حدّقتُ بخواء في الجدار خلفها، وكأن السّرّ المقدّس لخلق الصداقة كان مكتوبًا هناك، لكنه مُسجّل بلغةٍ أجنبية. انتظرتُ بالكاد ثلاثين ثانية قبل أن تُغمغم، "الصبيان أغبياء جدًّا"، وجذبتني قُدّمًا.

في زيارتي الثالثة أو الرابعة، أدركتُ أن السّرّ لا يكمن بالضرورة في الكلام لكن في الصمت. صرتُ أبتسم للقصص التي تخنلقها، وأضحك عندما تُقلّد عمّتها ساخرة. كانت تُمسك بيدي دائمًا، وكثيرًا ما تدفعني إلى الجدار فيما نمشي، وبالتالي أضطر للالتصاق بها. سرعان ما وجدنا في دفء يديّ بعضنا البعض، في احتكاك أكتافنا، بل وحتّى في العناقات العابرة- بعض الإشباع لحاجة الطفل للمسّة، وهو ما كان يفتقده كلانا: أنا لأنني يتيم، وهي، بأُمّها المريضة، وأبيها الذي لا يستطيع العناق دون تحليل حبّه بالأوزان والقياسات.

عندما نصل أخيرًا إلى باب أمّها، كان بيتر دائمًا ما يقدّم لأماليا قنّاعين من الفحم، وورقة فارغة، وريشة كتابة، ومحبرة، ويطلب منّا التّمعّن في بيانات اليوم الثمينة. كان سلوكه تجاهي قد تغيّر بالكامل منذُ بدأت العمل حسب العِلْم، وليس ضدّه. "تضرّرت من المطر؟" كان يسأل، ثم يتفحّص خدّي وكأنه يلاحظ تورّمًا. "لم تتناول أي بطاطس، أليس كذلك؟"، كان يقول عن النبتة العجيبة. "تصيبك بالجُذام، أمل أن تدرك ذلك". ثم يصرّ على أن أصعد على ميزان، ويسجّل وزني في دفاتره. في النهاية، دائمًا ما يتمعّن في حلقي قبل إبداء الإيماء الأخيرة أن بمقدورنا المُضَيّ عبر الباب.

في الداخل، بمصباح السقف مُضاء، وشموع كثيرة موضوعة في أرجاء الغرفة، كان بمقدوري رؤية أن وجه السيدة دوفت كان جميلًا ذات يومٍ كوجه أُمّي، قبل أن يتراخى الجلد على العظم وتغور العيان.

كانت ابتسامتها ما تزال دافئة رغم ذلك، وصوتها، باستثناء نوبات السعال الشديدة، كان يُهدّئني تمامًا لحدّ أن غرفتها صارت المكان الوحيد في العالم، بعد برج الكنيسة وصومعة نيكولاي، الذي أشعر فيه بالأمان حقًا.

تضع أماليا الريشة والورقة على منضدة (تخلق البيانات لاحقًا) وتجلس بجوار أمّها. أحيانًا ما كانت تميل على الفراش برأسها على حجر أمّها بحيث تستطيع السيدة دوفت تمسيد شعرها. لوهلة، على الأقل، تكونان كما أتخيّل دائمًا لأمّ وطفلها أن يكونا، وليستا حياتين وحيدتين دمرهما المرض وباعدَ بينهما العلم.

في غرفة النوم تلك غنّيتُ بعضًا من أسوأ أداءات حياتي وبعضًا من أفضلها. ذلك أن الموسيقى التي تُغنّيها في الكنائس، رغم جمالها في كثيرٍ من الأحيان، لم تُكتب لسوبرانو في العاشرة من عمره يغني منفردًا في غرفة نوم. لأن أولرتش لم يكن مهتمًا بمساعدتي على التحضير لهذه الحفلات الخاصة التي لن يسمعها بنفسه، كنتُ أنشدُ أغنياتٍ مُتسلّحًا فحسب بالموهبة الساذجة التي كانت أمّي تطوّح بها مطارقتها. كثيرًا ما تعرّثُ، مُدركًا بالغريزة فحسب كيف أبدّل المقام أو أنتقل من نشيدٍ جريجوريّ هادئٍ إلى مقطوعة مُبهجة لفيفالدي. يا له من فسوق ذلك التي ارتكبتها في غرفة النوم تلك! كنتُ أمزّق الابتهالات ثم أعيد ترميمها، أقطع المزامير إلى نصفين، أخلط اللاتينية بالألمانية، وأشوّه اللغتين، وكل هذا خارج الكنيسة أو كنيسة المنزل، كل هذا في غرفة نوم صغيرة، معتمة.

في سنواتي اللاحقة، أدركتُ أنه في غرفة السيدة دوفت كان أن اكتسبتُ الأدوات الضرورية التي افتقدتها في تدريبي في سانت غال. ذلك أنه في نابولي المشمسة، حيث يتدرّب الصبيان أمثالي في الكونسرفتوار النابوليوني العظيم، حيث يتعلّمون إنشاد ألحان الآريا

في سان كارلو أو تياترو دو كالي، فإنهم لا يتعلّمون فقط إتقان التنفّس ووضعية الوقوف والنّغم -كان أولرتش أعظم مُعلّم بينهم جميعًا في هذه الناحية- لكن أيضًا اختراع الموهبة. بعد عشرين عامًا، في سان كارلو الصاخبة، سأستطيل بلحن آريا من سِتّ جُمَلٍ فقط إلى خمسة وعشرين دقيقة؛ ثم بعد عشر دقائق من التصفيق، أفعّلها ثانيةً بلا تكرار. لكن في غرفة نوم السيدة دوفت، كنتُ فحسبُ أبدأ بالشعور كيف تُكّتب الأغاني، وكيف يمكن بالتالي محوها، وتحسينها، وإنارتها وإظلامها، ومديدها وتخفيفها- أو قلبها بحيث تسخر من نفسها. باستخدام نفس النغمة، جعلتُ السيدة دوفت تبكي حينًا، وتبتسم حينًا آخر. إذا تقنّ للغناء عاليًا، بتكرارات وتسجيلات سريعة، فلا بأس. إذا كنتُ في مزاج قاتم، أبدأ بأناشيد نيكولاي من صلوات المساء والاستطالة بها حتى تغرورق عيون السيدة دوفت وأماليا، تلك العيون التي تحلم الاثنتان وراءها بعالمٍ مثالي.

عندما أغنّي بهدوء كانتا تصمتان، باستثناء صفير أنفاس السيدة دوفت. ثم مع ارتفاع صوتي، أسمع أعلى نغماتي في المصباح فوق رأسي، وفور أن يبدأ ذلك الزجاج بالرنين، أنحّي أصوات فمي، باحثًا عن نغمة مميزة مختلفة بعض الشيء. كان كل شيء يعتمد على الأغنية، أو على الطقس، أو على المزاج المتقلب لتلك الفتاة الصغيرة. أحيانًا ما كان صوتها ينضمُّ لصوتي كقوس كمان ينسحب برفق على وتر، وحينها أجاهد لدفعه قُدّمًا، ناحيًا أغنيتي بحسب شكلها البشري. لم تكن واعية بذلك- لم تستطع سماع نفسها؛ ذلك أن صوتي كان أعلى من الرنين الخافت لجسدها. لم تشعر بالأمر سوى كدفع. كان تحتضن نفسها عندما يصدح صوتي. تتعلّم معي، تُدرّب كل نسيجٍ -من خديها المستديرين وحتى تقوُّس قدميها- على سماع الدرجات المختلفة لأغنيتي. وفي أيّام نادرة، عندما تكون السيدة دوفت في أعلى درجات وعيها، كنتُ أسمع في الأم، أيضًا، صدى بعيدًا للابنة.

## (15)

كان أولرتش حانقًا بشدّة. بالطبع، لو كان مريضًا في الفراش، فإن الدواء الوحيد الذي كان ليتمناه هو أن أغني له أغاني باخ المهرطقة، لكن هذا لم يمنعه من الاحتجاج في المرّة التالية التي جاء فيها شتاوداخ لإلقاء نظرة على تدريباتنا. "أبتاه رئيس الدير"، همس أولرتش حتّى لا يسمعه الصبيان، "إنه مهمٌ جدًّا للجوقة. لقد اخترت المقطوعات خضيًّا لصوته. لا يمكنني إنجاز شيء بدونه، حتّى ولو لظهيرة واحدة". "هذا من أجل الكنيسة"، قال رئيس الدير. "من أجل الكنيسة". أدارَ خاتم الياقوت على إصبعه.

"أرسل صبيًّا آخر إذن يا أبتاه. أيّ صبي عداه".

"ما شأن هذا الصبي؟" قال رئيس الدير عبر أسنانٍ مُطبّقة. كوّر قبضتيه وكأنه يريد اقتناصي بمخالبه. "آل دوفت لا يريدون صبيًّا

آخر. حاولت بالطبع إرسال رجل حقيقي. والآن تقول إنك لا تستطيع الاستغناء عنه. لماذا لا يمكنك تعليم الصبيان الآخرين الغناء مثله؟".  
بفمٍ فاغر، هزَّ أولرتش رأسه، تاه منه ما ينبغي قوله. "أبتاه رئيس الدير"، غمغم أخيراً، بتوسُّلٍ كالأطفال على وجهه، "أرجو أن تعيد التفكير".

"من أجل الكنيسة"، قال رئيس الدير بحسم. "ذلك أنها ينبغي أن تسبق الآن كل أفكارنا".

\* \* \*

وكيف لها ألا تسبق أفكارنا؟ كانت التماثل المتقن لُرجي الكنيسة يحوم مهيمنًا على ميدان الدير. في الأيام المشمسة، كان وهج الحجارة البيضاء يدفعني لحجب عيني. "نصف مليون غولدن"، هسهس ريموس ذات ليلة لنيكولاي. "هل لديك أي فكرة أي مبلغ هذا؟".

"هي محاولة لهدم كنيسة عمرها ثمانمائة عام وتشيد أخرى مثالية"، أجاب نيكولاي واحتسى رشقة نبذ. جثم على مقعده وارتفع مرفقه، لوهلة كان راقياً كأمير. "كنت لتنفق أكثر لو شيدتها أنت. ربما يُجبر شتاوداخ هؤلاء البنّائين على العمل مقابل أمان أرواحهم فحسب. في العادة يطلبون من الأوغاد أمثالك أن يدفعوا لهم الضعف".

"ليست مسألة كيف أفعلها"، قال ريموس. "أنت لا تنصت لما أقوله. لا أحد من الرهبان يُنصت".

"أتساءل لماذا؟" غمز لي نيكولاي. كتمتُ ضحكةً.

"كل غولدن جاء من جيب مُزارع أو نَسّاج"، تابع ريموس. "بعضهم لم يتبقَّ له شيء ليأكل به بعد دفع ضرائبه. ماذا سيمنحهم في المقابل؟".

كان نيكولاي في حاجة للتفكير لوهلة فقط. "الجَمال"، قال بإيماءة، وكأنها إجابة لا جدال فيها.

"الجَمال؟" قال ريموس. تطلّع إليّ. "الجَمال؟".

استدار كلانا إلى نيكولاي. لم أمسك قطُ بغولدن واحد في حياتي. أردتُ أن أعرف، وريموس كذلك، كيف يمكن للجَمال أن يساوي نصف مليون غولدن.

أخذَ نيكولاي نَفْسًا عميقًا وأنزلَ عويناته. "ريموس"، قال. "موسى. لا تظنُّ أنني أحبُّ ذلك الرجل. لا أحبه. يثير اشمئزازي. إنه كالنبيذ الذي يُحتسَى بعد فوات أوانه بعشرة أعوام. لكنه أصابَ في شأن هذه الكنيسة. ألم تَرَوْها؟" أشارَ نيكولاي إلى خارج النافذة، حيث حتَّى في ضوء القمر الكاكي كانت الكنيسة البيضاء تسطع وكان شموغًا تحترق داخل أحجارها. "ما يُنجزه هو عمل الرب، ورغم أن شتاوداخ قد يكون أحمق في تعامله مع أقرانه من بني البشر، إلا أنه يفهم الرّبُّ كما ينبغي". كان وجه نيكولاي منبسّطًا ومبتهجًا وكأنه ملح ملاكًا يحوم فوق على الكنيسة. "الرّبُّ جميل. إنه مثالي. ويلهمنا أن نكون جميلين ومثاليين بدورنا. لسنا كذلك بالطبع؛ ولهذا بالضبط نحتاج إلى الجَمال في حياتنا: لتذكيرنا كم نستطيع أن نكون أحيانًا. لهذا ننشد. لهذا يغنّي موسى. ولهذا يشيّد شتاوداخ كنيسة مثالية من أجلنا؛ ذلك أنه إذا أدركنا الجَمال المثالي، بأعيننا وأذاننا، ولو لثانية واحدة، فسقترّب بمقدار تلك الثانية من أن نكون جميلين ومثاليين". فيما يُنهي نيكولاي كلامه وضع يده على قلبه، وأبدى إيماءةً نهائيةً للتأكيد على موعظته. وجدتُ نفسي أجيبه بإيماءة؛ ذلك أنني لم أكن أرغب في شيءٍ أكثر من أصير مثل هذه الموسيقى الجميلة التي أغنيها، مثل هذه الكنيسة المثالية التي ترتفع من أحجارٍ صمّاء.



"يا له من عفن غبي"، قال ريموس. نظر إلى كلينا بتجهّم وتناول كتابه مُجدِّداً. "نصف مليون غولدن".

\* \* \*

لكن نيكولاي أصابني بالعدوى. هل ستجعلني هذه الكنيسة نقيًا؟ راقبتها تنمو بتوقٍ عُصاي، شهرًا بعد شهر: أنجزَ البرجان، ووُضِعَت الألواح الحمراء على السقف. اكتمل تشييدها تقريبًا حينها، وتسرَّبت أخبار الافتتاح إلى الدير كوعِدٍ بمعجزة. سيأتي الآلاف ليَشهدوا الحدث العظيم، من الكونفدرالية السويسرية ومن النمسا. سيباركنا شتاوداخ بقداسٍ صباحي. ثم سنخرج في مسيرة عبر أراضي الدير، قبل العودة من أجل الإكمال الرمزي للكنيسة: نقل آثار الكنيسة المقدَّسة إلى مكانها في القبو. وبعدها، عندما يُوضع رأس أوتمار المقدَّس، شَعَر القديس إراسموس، وأضلاع القديس هياسينثو وجُذائذات أخرى كثيرة من الشعر والعَظْم في مُستقرِّها، سيَتَوَجَّع اليوم بأغنية المجد (أَيْتْها الآلهة *Te Deum*) البديعة لشاربنتييه. كان أولرتش قد أرسلَ إلى إنسبروك في طلب أربعة مؤدِّيِّ صولو معروفين لغناء الأجزاء الصعبة. كان مُقرَّرًا لي أن أَعْنِي في الجوقة.

لكن حينها قرأ شتاوداخ رسالة أولرتش إلى إنسبروك كابلمايستر واكتشفَ أن أولرتش ينوي وضع مؤدِّ ذكر ذي صوت عالي الطبقة في السوبرانو المعتدل ومؤدي موزيكو (*musico*) في السوبرانو. اقتحم شتاوداخ غرفة التدريبات ذات مساء فيما أُنْتدَرَب منفردًا مع أولرتش. كان قائد الجوقة يحتويني في عناقٍ، برأسه على صدري، ويداه تداعب التجايف وراء أذني. عندما دخل شتاوداخ، فاتحًا الباب بعنف، تراجع، وتطوَّحْتُ أنا من على مقعدي.

"لا تقصد طواشيًا؟ ليس نصف رجل!" جأَرَ شتاوداخ كالشور، ملوِّحًا برسالة أولرتش كأمرٍ بإعدام.

تنهّد أولرتش، لكن من الواضح أنه كان مُستعدّاً لهذا الجدل. "نعم، أبتاه رئيس الدير. هذا هو الموزيكو. طواشي (evirato)". أوماً أولرتش لي وكأنه يفترض بي أن أوافقه، لكن عيناى اتسعتا فيما أحاول تخيل هذا الكائن العجيب الذي وصفه لتوه.

"في كنيسي؟" تلعثم رئيس الدير. "في افتتاحها؟".

"إنهم يغنون في كنيسة سيستين الصغيرة، أبتاه رئيس الدير".

كان وجه شتاوداخ قد تحوّل إلى الأحمر الداكن. "هذه الكنيسة"، قال ببطء، "هي كنيسي وليست كنيسة سيستين، أخ أولرتش".

تطلّع أولرتش إليّ وكأنه يطلب رأيي في هذه المسألة. انكمشت خوفاً من نظرات رئيس الدير.

"بمقدوري الوعظ أمام نصف مذبج"، قال شتاوداخ، "ملوْحًا بالرسالة مُجدّداً. "إنهاء نصف السقف. نزع نصف المقاعد في الكنيسة. لكن نصف رجل لن يغني في كنيسي!".

"أصواتهم جميلة...".

"الكمال جميل"، قال رئيس الدير. حدّق بازدياء في أولرتش المحتجّ، وكان كلماته وحدها بمقدورها أن تُفني الطواشين من كل كنائس العالم. تطلّع إليّ أخيراً بجوار مقعدي وتعمّق نحيبه. "اجلب رجلاً كاملاً لغناء ذلك الجزء".

"مؤدّو الطبقة العالية لا يلائمون السوبرانو الأول في مقطوعة شاربنتيه"، قال أولرتش، محاولاً مُجدّداً. "الموسيقى عالية جداً. لا بُدّ أن يكون المغني... ملائكياً. ربما نفكر... في... امرأة ربما؟".

برزت عينا شتاوداخ. سرعان ما لوّح أولرتش بيده مُستبعداً هذا الاقتراح.

"إذن فلنحذف هذا الجزء".

انحبست أنفاسي في حلقي عند سماع هذه الكلمات. كان بمقدوري رؤية أولرتش يحاول إخفاء ردِّ فعلٍ مشايهٍ. "نحذف السوبرانو الأول؟" قال مُتلعثمًا.

"أو لنُغَنِّه بطريقة منخفضة".

كان أولرتش صامتًا. هزَّ رأسه.

مزَّق شتاوداخ رسالة أولرتش إلى جُذاذات، باصقًا كلماته مع كل تمزيقة. "لن أسمع. بدخول. طواشي إلى كنيسة!".

"أبتاه رئيس الدير، لا أرى...".

تطلَّع شتاوداخ إلَيَّ. "يمكنه غناء ذلك الجزء". قال تلك الكلمات وكأنها اتِّهام.

عند هذا، فقدَ أولرتش ثباته بالكامل. حدَّق إلَيَّ فاغراً فاه، ثم في شتاوداخ. "الصبي؟" قال باندهاش.

"تقول إنه جيد".

"نعم. إنه عظيم. لكن...".

أوما شتاوداخ. "حسن. إذن فقد حُسمَ الأمر".

"لكنه غير جاهز للغناء مع محترفين"، قال أولرتش. "إنه في العاشرة من عمره".

كان شتاوداخ حاسمًا. أشارَ إلَيَّ مجدِّدًا. "إمَّا هو، أخ أولرتش، أو لئُعيد كتابة ذلك الجزء ليُعزف بالبوق"، قال واندفع خارجًا.

\* \* \*

وهكذا تحدَّدَ ظهوري الأول على مسرح: سأغني سوبرانو (Te Deum) لشاربنتيه في افتتاح الكنيسة. هرعتُ لإخبار بيكولاي. "شاربنتيه!" قال. رفع بصره عبر سقف صومعته وكأنه هذه الأخبار

قد منحته القدرة على النظر مباشرةً إلى السماء. "ريموس! هل تتذكّر؟ في روما!".

هزّ ريموس كتفيه استهانةً، وقال إنه ليس متأكدًا. لكنه ابتسم لي، وهو ما كان نادرًا للغاية لحدّ أنه دغدغني بالخجل. "هذا شرف كبير يا موسى"، قال. "ينبغي أن تكون فخورًا جدًا".

"سيكون عظيمًا"، أضاف نيكولاي وعبّ بشعري.

حينها، للمرة الأولى في حياتي، بهذين الوجهين المُبتسمين يحدّقان إليّ، شعرتُ بذلك الخوف الموسوس يتصاعد داخلي مع إدراكي أنه إذا كان بمقدوري أن أكون عظيمًا، فقد أكون كارثةً أيضًا. قد يكون في هذا خلقي، أو فنائي.

كان تفكير أولرتش مشابهًا لحدّ كبير. لم ننشغل بشيءٍ آخر في الأشهر التالية. أستيقتظ في منتصف الليل بسوبرانو الحركة السادسة منفردةً في رأسي، يملؤني القلق كيف سيملاً صوتي تلك الكنيسة المهولة. كان أولرتش يخشى من تضرُّر حلقي الرقيق بسبب الغناء بجانب رجال بالغن، وهم رجال برّئاتٍ أكبر أربع أو ستّ مرات من رثتي. لكن أبدًا لم يوجد رجل مثل أولرتش يعرف جيدًا كيف يجعل الجسد يُجلجل بالصوت. في الأسابيع السابقة على ظهوري الأول، كانت يدها تخلط تشجيعها باستماتةٍ متزايدة، فيما يصل أعرق داخل جسدي ويعلمني كيف أغني كرجل بالغ.

من أجل الافتتاح، كان شتاوداخ على ترُقّب لثمانية عشر رئيس دير سويسري، إلى جانب أساقفة من كونستانس وبييترا. "وعدونى بجلب موسوعة (Encyclopédie) ديدرو"، قال ريموس، كان يتحدّث عند وفد جنيف.

"ماوسوعة (encyclopody)؟" سأله نيكولاي، مُشوِّهاً الكلمة الفرنسية. "هل هو نوع من الحشرات؟ أرجوك، لا تحضرها إلى هذه الغرفة".

وذات ليلة، نجح أولرتش في إرعابي أكثر. "موسى"، همس، وكأنه يخشى أن أحدهم يتنصت عند الباب. "لقد كتبْتُ إلى شتوتجارت. أريدهم أن يعرفوا بك. لا يوجد مكانٌ أفضل للموسيقى من شمال جبال الألب، سيرسلون برجل، إيطالي، لا بُدَّ أنه يعرف شيئاً عن الموسيقى وإلّا ما كان اختاروه". مدَّ يده ولامسَ خُدِّي بإصبعه. توتَّرتُ بفعل اللمسة الباردة والميتة. "موسى، هل تودُّ أن تسافر يوماً إلى تلك المدينة معي؟ هل تودُّ أن تغني أمام الدوق كارل إيوجين؟" أنهى حديثه بشفتيه ليستا بعيدتين عن شفتي. ارتجفتُ من فكرة الذهاب معه إلى أيِّ مكان.

ثم ذات نهار ظهرَ نيكولاي عند عتبة غرفة مهجعنا فيما الصبيان يتهيؤون للنوم. بدا غاضباً للغاية. "موسى، تعالَ معي"، قال بصوتٍ غليظ وجاد. "أوامر رئيس الدير. ستُحضر كل شيء لديك". لم أتحرك لبضع ثوانٍ، لكنه غمزَ لي وابتسم. "لكنني جاد بشأن إحضار كل أشياءك"، قال. "لديّ مفاجأة لك". جمعتُ حفنة ملابسٍ القليلة بين ذراعيّ. لم يكن لديّ أيُّ شيء آخر نجا من تدمير الصبيان الآخرين.

"استمتع بوقتكَ"، همسَ توماس بشكل لاذع فيما أغادر، وكان آخر صوتٍ سمعته كان ضحكات مكبوتة متناثرة. تَبَعْتُ نيكولاي صاعداً الدُّرج، ثم مررنا بطابقه وتابعنا طريقنا إلى العلَّيَّة. فتح الباب على غرفة صغيرة جدًّا بفراش تحت نافذة مربعة ولا شيء آخر سوى مرآة على الحائط.

"يقول أولرتش إن الفنان يحتاج إلى الهدوء"، قال نيكولاي، "وتمكّن من إقناع رئيس الدير. هذه غرفتك! لا يُسمح لأحدٍ بدخولها إلّا بإذنك- ولا حتّى أنا". ثم قَبّلني على جبينني وانصرف. أغلَقَ الباب.

وقفتُ هناك مذهولًا، بصرّة الملابس على ذراعيّ. حدّقتُ في الباب المُغلَق وأنصتُ للصمت. بمفردي، فكّرت، عليّ أن أعيش بمفردي؟ هل هذا ما يعنيه أن تكون فنانًا؟

أسقطتُ ملابسني على الأرض وبدأ صوت سقوطها كقصف رعد. صعدتُ إلى الفراش وضغطتُ بأنفسي على النافذة. التمعت الكنيسة الجديدة في ضوء القمر المتناثر. تطهّرتُ بفعل مظهرها. كان مثاليًا، وبمقدوري أن أكون كذلك أيضًا. تخيلتُ صوتي يُجلجل بين جدرانها العالية. رأيتُ نيكولاي وريموس يتسلمان. بل ورأيتُ الصبيان الآخرين يحدّقون إليّ بإعجاب. ثم استلقيتُ على فراشي. للمرة الأولى في حياتي، فيما أخطو إلى النوم، كانت أنفاسي هي الأنفاس الوحيدة التي أسمعها.



## (16)

ما زال ذلك الحدث، حتّى اليوم، يحمل حضورًا شرييرًا، متوعّدًا، في عقلي، رغم أنه كان منذ نصف قرنٍ. لو أن زلزالًا كان هدمَ كنيسة شتاوداخ وسوّاها بالأرض في اليوم السابق على ذلك الافتتاح، لاختلف كل شيء. لكنني لا أستطيع خداعك. إنها المثالية متجسّدة في حجارة. التناسق يحكم هندستها. البرجان، نقيان وأبيضان، يشرفان على أسقف بيوت المدينة. البناء المُستدير المُقبَّب يقبع في المنتصف بالضبط، وتحتها، شبكة بوريقات ذهبية تفصل الكنيسة إلى نصفين متماثلين، تمامًا كما ينقسم العالم: في المذبح السامق، الرعاة؛ في الجانب الآخر، القطيع. نوافذ هائلة من الزجاج مُطعمة بالأخضر الشاحب، بحيث تلتمع الشمس الساطعة عبرها وكأنها تنفذ من نبع جبلي. ثمانية عشر عمودًا أبيض تمسك بالسموات عاليًا.

في الليلة السابقة على الافتتاح، أزيلت السقالات. عُلقَت الستائر المخملية الحمراء على كراسي الاعتراف، وصُقلَت الأرضية الحجرية



حتى تلاًأت. فتح شتاوداخ باب غرفة المقدّسات المؤدّية إلى مهجع الرهبان، وتوافد الرهبان والمبتدئون ومُنشدو الجوقة كفيضانٍ أسود. وبدأتُ في إدراك أن العمارة تُصنع من الصوت كما تُصنع من الصورة. عندما ترنّم الرهبان أمام الآباء المقدّسين المرسومين على السقف المقلّوس، أجابنا القديسون بترنيماتهم أيضًا. بارك صدي أقدامنا على الحجارة كل خطوة من خطواتنا. لم تصرّ مقصورات الجوقة من خشب البلوط تحت وطأة وزن نيكولاي الهائل حتّى. وعندما لامست مفاصل أصابعنا الشبيكة الذهبية فيما غمضي بجوار صحن الكنيسة المُخصّص للعامة، جعلنا طنين المعدن نشعر بصلاية ذلك الحاجز الذي يفصلنا عنهم. وعندما غنّى نيكولاي لأول مرة في السماوات اليكّر، جعلتنا جلجلة صوته في الأركان البعيدة نشعر أن الرّبّ وكنيسته وموسيقيه كانوا حقًا أعظم مما قد ندرك.

\* \* \*

استيقظت مُتحمّسًا للتغيّرات التي ستحدث أخيرًا عندما يشدو صوتي بأجمل موسيقى في اليوم. أفضل ما هذه التغيّرات، أن صديقتي الوحيدة من نفس عمري، أماليا، ستكون هناك لسماعي أغني. عندما أوشكتُ على الانتهاء من ارتداء ملابسني، وقُرعت أجراس الدير الجديدة مُعلنة بدء القدّاس، تذكّرتُ الإنسان الوحيد الذي لن يكون هناك لسماعي اكتمالي. أحييتُ رأسي وتساقطت بضع قطرات دموع على الأرض من أجل أمّي.

أنصتُ إلى القدّاس من نافذتي، كان أولرتش قد أمرني بالبقاء في غرفتي وإراحة صوتي. فيما كل روح كاثوليكية على مدى فراسخ كثيرة تنضمّ إلى المسيرة، كنتُ أخطو وحيدًا جيئةً وذهابًا عبر أروقة الدير وأختلس النظرات إلى صوامع الرهبان. سرقْتُ طعامًا من المطبخ الخاوي. أخيرًا، في المساء، بعد أن سمعتُ الحشود تعود، دفّانين

بالطعام والشراب، جلسْتُ على فراشي وأخذتُ في مراقبه الباب. ثم سمعتُ وقع خطوات نيكولاي الخابطة تهرع صاعدة الدَّرج. اندفع إلى الغرفة. "حان الوقت!" هتَفَ. لعق أصابعه وملَّسَ شعري، وقرص خَدَّيْ، ثم رفعني وقلبني وأدارني للبحث عن أية أوساخ. ثم حملني خارجًا من الباب. توقَّفَ عند أعلى الدَّرج وتطلَّع في عينيَّ. "موسى"، قال بصوتٍ مُخَضَّب بالفرحة، "أشكر الربُّ كل يوم على أنه اختارني لإنقاذك من النهر". ثم حملني إلى الكنيسة.

مع ذلك، وجدتُ، هذه المرة، أن الاتِّساع المثالي كان أقلَّ هدوءًا مما كان عليه الليلة الفائتة. كان يغصُّ بوجوهٍ جديد ويثرُّ بثِّراتٍ حماسية، وكنتُ لأدهَسُ طويلًا قبل أن أتمكَّن من الغناء، لو لم يكن نيكولاي يحميني. لففتُ ذراعيَّ حول عنقه فيما يحملني من غرفة المُقدَّسات إلى حشد الأسود الرهباني. كان كل وجه تقريبًا مُرَّ به مجهولًا لي؛ ذلك أنني دائمًا ما كنتُ أحدقُ في الرُّكَب، والآن، متطلِّعًا من علِّ إليها فيما يحملني نيكولاي، لم أستطع تبين أيٍّ من الرهبان يقيم في الدير وأيُّهم سافر أحيانًا كثيرة ليكون هنا من أجل الافتتاح. اقشعرَّ عمودي الفقري من مشهد الوجوه المرتخية لثمانية عشر رئيس دير: صفٌّ من التيجان الأسقفية في المقصورات الكنسية. لا بُدَّ أنه كان هناك ما مجموعة خمسمائة راهب، وبينهم أيضًا ملحدٌ أردية قساوسة كثيرين. لوهلة، تخيلتُ أنني سمعتُ أجراس أمِّي تدوِّي بتحذيرٍ، وبحثتُ برعبي عن وجه أبي. لم يكن هناك.

في جانبنا من الشبيكة الذهبية كان هناك أيضًا كثيرٌ من الضيوف لا يرتدون الرُّزِّي الكنسيَّ. بينهم كان سفير أولرتش من شتوتجارت، دكتور رابوتشي. في اليوم السابق، كان مُعلِّمي قد قادني في حفلة موسيقية خاصة للرجل. كانت يد قائد الجوقة ترتعش في يدي فيما يرشدني عبر الباب، وعندما اقترب منِّي الدكتور الشاحب، بكل شَعرة على عنقي وقد انتصبت بفعل ابتسامته الضاوية، شعرتُ بأولرتش يُعدني

للوراء برفق، وكأنه لا يرغب أن يلمسني الرجل. "عليك أن تغني له"، قال أولرتش، بعصبية، "لكن لدقائق وجيزة. بخفوت. لا تُجهد صوتك". حدّق أولرتش في المقامات الموسيقية فيما يُرافقني في الغناء، وفور أن انتهيت، قبضَ على يدي واصطحبني إلى الخارج وكأنه يخشى عليّ البقاء لدقيقة واحدة أخرى مع هذا الرجل. الآن، في الكنيسة، منحني رابوتشي ابتسامة عارفة، وكأنه وأنا نتشارك سرًا. ثم اختفى في الزحام. بعد أن حملني نيكولاي بعيدًا بما يكفي إلى داخل الجوقة، أدركتُ أن هذا البحر المُزبد المُقدّس، الأسود، لم يكن سوى نصف الحشد. عبر الشبيكة الذهبية، كان النصف الآخر من صحن الكنيسة مغمورًا بالبضاعة المبهرجة لتجار النسيج في سانت غال، بشكلٍ أصابني بالغثيان. في أرديتهم الوردية والخضراء والبنفسجية، بدت صفوة أرواح سانت غال وكأنها دُمى محشوة ألبستها فتيات صغيرة أرديتها، تثرثرُ بصخب. انحنى كل عنق للوراء وأشارت كل إصبع إلى اللوحات الحيّة على السقف.

استدرتُ وصادفتُ وجه أولرتش الباهت، الذي منحني على الفور العزاء المُعتاد. جلست الجوقة الثلاثية، التي انتقيت من بين كل صوت مقبول في محيط مائة ميل، في نصف دائرة أمام المقصورات. حولها كانت الأبواق والوتريات والطبلتَيْن الهائلتين، التي ظننها في البداية براميل من النبيذ المُقدّس. في المركز من كل هذا، كان المؤدّون الثلاثة المنفردون الآخرون مستعدّين في أماكنهم. حدّق جيرين جلومسر، مؤدي الباص، بخواء عبر صحن الكنيسة، وكأن هذه الكنيسة المثالية كانت مكانًا زراه مرّاتٍ كثيرة من قبل. كان جوزيف شوك، مؤدي التينور صغير الرأس، عريض الكتفين، لطيفًا معي في التدريبات، لكن بدا أنه لا يراني الآن؛ ذلك أنه كان بدأ في التعرُّق والتحديث في يديه المرتعشتين.

لكن المؤدي المنفرد الثالث، السوبرانو المعتدل أنتونيو بوجاتي، ابتسم لي بدمائة. قبل يومين، بعد أن غُيِّتْ معه للمرة الأولى، هرعْتُ إلى صومعة نيكولاي لأخبر صديقي عن المعجزة التي شهدتها: رجل يُغْنِي بالطبقات العالية لطفل، لكن بوضوح وقوَّةٍ يضاهيان صوت أيِّ رجل سمعته من قبل. في المرة الأولى التي سمعْتُ فيها بوجاتي يغني، أصاب صوته جسدي بأكمله بخَدَرٍ، ونسيتُ أن أغني فقرقي. شعرتُ بالدموع في عينيَّ فيما أحكي لنيكولاي عن هذا الجَمال.

لكن صديقي ابتسمَ فحسب بتشكُّك. "أريد أن أرى هذا المؤدي ذا الصوت عالي الطبقة الذي أتى به أولرتش بنفسه"، قال. "ربما يكون رئيس الدير قد خُدع، لكنني بمقدوري أن أعرف الملاك فور رؤيته". عندما سألتَه عَمَّا يعني، رفض الإيضاح، لكنه وعدني بحملي إلى موقعي في يوم الافتتاح حتَّى أستطيع أن أرى الرجل عن قُرب.

والآن، في الكنيسة، بعد أن اكتملت مهمَّته، ابتسم نيكولاي فيما يركع بجواري، متظاهراً بتمسيد شعري. "موسى"، همسَ في أذني، "كنتُ على حقٍّ. المؤدي عالي الطبقة الذي جلبه شتاوداخ هو موزيكو. يمكنني رؤية ذلك".

رفعت بصري إلى بوجاتي مؤدي السوبرانو المعتدل، كان وسيماً كأني رجل رأيتَه من قبل: رقيق العظام، مُرهَفٌ في حركاته كما في غنائه. تذكَّرتُ أن شتاوداخ قد منع أي موزيكو من الغناء في كنيسته.

"نيكولاي"، همستُ، "ما هو الموزيكو؟".

"الموزيكو رجلٌ"، أجابني نيكولاي، "ليس رجلاً؛ ذلك أنهم جعلوا منه مَلاكَاً".

\* \* \*

لم أَرَ الآثار تُحْمَلُ إِلَى الْقَبْرِ. لَمْ أَمْكُنْ مِنْ رُؤْيَا شَتَا وَدَاخَ عَلَى مَنْبَرِهِ.  
لَمْ أَنْصِتْ فِيمَا يَعلَنُ لِلْحَشُودِ أَنَّ هَذِهِ الْكَنِيسَةُ هِيَ تَجْسِيدُ إِرَادَةِ  
الرَّبِّ عَلَى الْأَرْضِ، وَأَنَّا يَنْبَغِي أَنَا نَرَى فِيهَا مَا فِي مَقْدُورِنَا أَنْ نَصِيرَهُ.  
تَجَاهَلْتُ الهمسات والأنفاس القصيرة والحفيف المتطاير نحوِي مِنْ  
كُلِّ الْإِتِّجَاهَاتِ؛ ذَلِكَ أَنَّنِي كُنْتُ مَنْشَغَلًا بِالتَّحْدِيقِ فِي أَصَابِعِ بُوْجَاتِي  
الطَوِيلَةِ مُسْتَقَرَّةً عَلَى رَكْبَتَيْهِ. هَلْ لَدَيْهِ أَجْنَحَةٌ يَخْفِيهَا تَحْتَ رِذَائِهِ؟  
عِنْدَمَا بَدَأَتِ الطَّبُولُ فِي قَرْعِ الْإِفْتِتَاحِيَّةِ، ابْتَسَمَ لِي مُجَدِّدًا، وَلَمْ يَكُنْ  
هَنَّاكَ مَكَانٌ بِاسْتِطَاعَتِي أَنْ أَكُونَ فِيهِ سِوَى بِجَوَارِهِ. بَدَأَتِ الْأَبْوَاقُ  
فِي الْعَزْفِ، وَاسْتَدْفَأَ كُلُّ وَجْهِ فِي الْكَنِيسَةِ، هَمَّا فِي ذَلِكَ وَجْهِي، بِصَوْتِ  
الْمَجْدِ.

غَنَّى جُلُومُ سِرِّ الْبَاصِ. أَطْلَقَ أَصَوَاتًا بِقُوَّةٍ بَدَتْ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ  
أَنْ تَصْدُرَ عَنْ جَسَدٍ وَاحِدٍ. مَلَأَ صَوْتُ الرَّجُلِ كُلِّ رَكْنٍ فِي الْكَنِيسَةِ  
وَأَسَكَّتْ كُلَّ هَمْسَةٍ. سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُجَلْجَلُ فِي أَمْعَائِي. جَعَلَ الصَّدى  
الْمُرْتَجِعُ مِنَ الْقُبَّةِ الشَّاهِقَةِ صَوْتَهُ يَمْلِكُ الْكَنِيسَةَ بِأَكْمَلِهَا، أَعْتَقَدُ أَنَّ  
كَثِيرِينَ ظَنُّوا أَنَّ الرَّبَّ كُلِّي الْقُدْرَةِ قَدْ انْضَمَّ إِلَيْهِ فِي غَنَائِهِ.

فِي هَذِهِ الْحَرَكَاتِ الْأُولَى، الْمُسْتَرَشِدَةُ بِصَوْتِ جُلُومِ سِرِّ، مُتَخَمِّنِينَ بُولَائِمِ  
النَّهَارِ الَّتِي لَمْ تَنْقَطِعْ، وَمُسْتَدْفَتِينَ بِنَبِيذِ الْمَوَكِبِ، مَلَأْنَا جَمِيعًا الْكَنِيسَةَ  
بِأَصَوَاتِنَا حَتَّى رُنْتُ نَوَافِذَهَا. كَانَ أُولَرْتَشْ قَدْ وَجَدَ فُرْجَةً فِي جَسَدِي  
الضَّئِيلِ؛ لَمْ أَعَانِ كَثِيرًا حَتَّى أَسْمَعَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ. اخْتَلَطَ صَوْتِي  
بِأَصَوَاتِ الْمَوْدِّينَ الْمُنْفَرِدِينَ الْآخَرِينَ كَدَوَّامَاتِ مِنَ الْأَصْبَاحِ الْفَاحِرَةِ  
فِي الْمَاءِ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ صَوْتِي كَانَ بَدِيعًا كَأَنَّ صَوْتَ آخِرِ صَدَحٍ فِي تِلْكَ  
الْكَنِيسَةِ، حَتَّى وَإِنْ كَانَتْ الْقُوَّةُ الْمُحْضَةُ لَصَوْتِ بُوْجَاتِي قَدْ سَحَرْتَنَا  
جَمِيعًا. عِنْدَمَا أَتَوَقَّفُ عَنِ الْغَنَاءِ، كُنْتُ أَغْلِقُ عَيْنَيَّ وَأَسْمَعُ صَوْتَهُ  
يَرْنُ فِي صَدْرِي. عِنْدَمَا يَصْمِتُ، كُنْتُ أَفْتَحُ عَيْنَيَّ وَأَخْتَلِسُ النَّظَرَ عِبرَ  
الشَّبِيكَةِ الذَّهَبِيَّةِ، بَاحِثًا بِلَا طَائِلَ عَنْ وَجْهِ أُمَالِيَا، الْوَجْهِ الْوَحِيدِ

الذي كنتُ أتوق لرؤيته في ذلك الزحام. لكنها كانت مُحْتَجَبَةً عَنِّي  
قَدَر احتجائي عنها بالتأكيد.

مع انتهاء الحركة الخامسة، توقَّف أولرتش. كان هناك هدوء  
مفاجئ، حادٌ، في الكنيسة. أوقفت يداها المرفوعتان الموسيقى، ولوهلة،  
أَجَبَرْنَا جميعًا على التأمل في الخواء، والشعور بالتوق الذي كان لعنة  
أولرتش: رغبته في الجمال الذي تلاشى لثَوِّه، وأضحى بعيد المنال.

\* \* \*

ثم جاء دوري، كانت الحركة السادسة غنائي المنفرد. وغَنَيْتُ.  
بالسمع المثالي الذي كان موهبةً أُمِّي، بالرئتين الصغيرتين اللتين  
علَّمَتْهُمَا يدا أولرتش التَّنَفُّس، بجسدي بمقدوره أن يرنَّ بالأغاني. غَنَيْتُ  
لنيكولاي، لأماليا؛ وغَنَيْتُ لأمِّي المَيِّتة وللسيدة دوفت. ملأ صوتي  
تلك الكنيسة المثالية فيما يرفرف من نغمةٍ إلى أخرى. عندما توقفتُ  
لالتقاط أنفاسي، سمعتُ انسحاب ألف نَفْسٍ مع نَفْسِي. ثم فيما أبدأ  
مجدِّدًا، حبسوا أنفاسهم من أجلي. بدت نغماتي الأعلى طبقةً وكأنها  
ترفعني عن الأرض. بجواري، عندما أمسكتُ بنظرةٍ مختلسة، كانت  
عيننا بوجاتي مُغْلَقَتَيْنِ، بابتسامةٍ على وجهه. ترجَّع صدى جسدي  
الضئيل في القبة الهائلة ومن أعرق مُخْتَلِيَاتِ صحن الكنيسة، وهكذا،  
للمرة الأولى في حياتي، شعرتُ أنني ضخم، ضخْمٌ ككنيسة شتاوداخ.  
ثم توقَّف غنائي، ولم يستمرَّ مائة ثانية حتى. لم يتحرَّك أحد. كانت  
أعين كل راهب وكل مُغَنٍّ مَثْبَتَةً عَلَيَّ، لكنني أدركت أنهم لم يكونوا  
يحدِّقون في هذا الصبي الهزيل، بل في الصوت داخله، الذي كانوا  
يتوقون لسماعه مُجدِّدًا. عبر الشبيكة، بين زحام المُتَعَبِّدين، رأيتُ  
رأسًا يجاهد للارتفاع فوق البقية. ولمحتُ، للحظة واحدة، أماليا تقف  
بتلهُّفٍ على مقعدها، حتَّى جذبتها عَمَّتُهَا لأسفل مُجدِّدًا.

ثم تطلعت إلى أولرتش. كان وجهه منطفئاً. عيناه مُتسعَتَيْن، كان توقّف عن التنفس، وكأن سكيناً قد غرّز في صدره.

\* \* \*

أولمنا مُجدّداً طوال ذلك المساء وحتى الليل. كنتُ أمضي من مائدة إلى مائدة وأملاً فمي وجيوي بطعام يسيل له لعاب الملوك والأمراء. لا بُد أنني استهلكْتُ وزن جسمي من لحم الحَمَل المشوي ذلك، ولم أعرف أين اختفى، فهذا الجسد الصغير لم يَكْبُر بعد.

كانت أقبية نبيذ الدير مفتوحة للرهبان المقيمين والزائرين على السواء. حلّ منتصف الليل عليّ في نافذة عِلِّيَّتِي أنصتُ لجماعات من الرُهبان السكارى في المُعتزل في الأسفل، فيما يحتفلون بالدير المثالي المكتمل. من نافذة واحدة، مضاءة كخشبة مسرح، كان نيكولاي يغني الأناشيد الشعبية لحشد يهتف كلما اختتم قافيةً. كان جمهوره يرقص في دائرة حتى تداعى في كومة من السكارى. وراء أبنية الدير، كان ميدان الدير هادئاً، بعد أن أرسلَ شعب الكنيسة من العامة إلى بيوتهم بلا طعام أو نبيذ. في المُستراح البعيد في المُعتزل، سمعتُ صوت أولرتش يهمس بالتماسٍ مُلحٍّ للتنعيم الأنفي الهادئ لطبيب شتوتجارت. فُبالتهم، كان ريموس يغمغم تحت الواجهة البيضاء للكنيسة الجديدة، حيث يبدو أنه منغمس في جدال مع رجل فرنسي، لكن عندما أمعنتُ النظر في الظلّ، لم أرَ أحداً بجواره، مجرد كتاب يقبض عليه أمام عينيه. من الظلال الأخرى، سمعتُ همساتٍ مُغوية. في ليلة كهذه، بإخوة زائرين كثيرين لن يروا بعضهم البعض مُجدّداً أبداً، وبالنبيذ الذي يُخمد الوعي، انطلق رهبانٌ كثيرون لتذوّق رحيق العالم.

سمعتُ صلاةً مهتاجةً على ألسنةٍ متداخلة. سمعتُ رجلاً يُغني  
أدائي المنفرد بصريير هامس. سمعتُ برميل نبيل يتدحرج عبر المعتزل.  
سمعتُ أقدامًا تضرب الجدران.

أتذكر أفكاري جيدًا: كم أنا محظوظ. أريد أن أكون راهبًا.

للمرة الأولى منذ جنّت الدير، شعرتُ أنني أنتمي إليه. كأحجار  
كنيسة شتاوداخ، كنتُ ذات مرة خشبًا ورخيصًا، لكنني الآن تشكّلتُ  
إلى شيءٍ ناعم وبديع ومقدس.

كم كنتُ مخطئًا.





## (17)

عندما جاءَ إليّ، كان المُعْتَزَل هادئًا. احتواني بين ذراعيه، ولوهلة ظننتُ أنه حضر ليحتويني فحسب. لم تعجبني لمسته؛ لذلك تصنَّعتُ النوم. لم أسمع سوى أنفاسه الخفيفة (حتّى مع أذني ملتصقةً بكتفه، لم أستطع سماع قلبه). شعرتُ بتحديثه فوقِي. ثم سقطَ شيءٌ دافئ ورطب على وجهي. سمعتُ نشجةً.

وبعزمٍ مبالغت، طوَّحتني إلى الهواء. حملني خارجَ غرفتي ونزل بي الدَّرَج، الذي كان مُضاءً في كل طابق بضوء القمر الخافت عبر النوافذ الكبيرة المُطلَّة على المُعْتَزَل. استلقيتُ في ذراعيه وكأني نائم، وسمعتُ الشخير الذي كان يعني أننا غمرُ بصومعة نيكولاي. على بسطة الدَّرَج الأولى، توقَّف، وكان تردُّده مفاجئًا لي لحدِّ أنني فتحتُ عينيَّ وتطلَّعتُ إليه. في ضوء القمر الكاوي، بدا وجهه الشاحب وقد انسحبت منه الدماء. تلالأت عيناه بالدموع.

«أولرتش»، قلتُ. «أفلتني».

«لا أستطيع»، همس.

تلويث في قبضته. «أفلتني»، كررت. لكنه هز رأسه.

«صوتك»، همس. «علينا أن نحفظ صوتك».

الجِفظ كان ما يفعله دوفت مع السحالي ورؤوس الدببة. هل كان يعني انتزاع صوتي وعرضه في جرّة؟ أم تركيبه على حائط؟ جاهدت للتحرّر، لكنه أحكم قبضته.

«أنا آسف»، همس. «أنا آسف».

اقرب وجهه الملتاع من وجهي لحدّ أنني ظننت أنه سيُقبلني. صرخت.

لكن يده امتدت بمجرد أن صرخت، غطى فمي وأحكم قبضته على أنفي. لم أستطع التنفّس إلّا عبر الصراخ فيما يتحرّك بسرعة هابطاً الدّرج وعلى طول الأروقة الخاوية، مارّين براهب سكران يفتش الأرض.

لكن فور أن أوشكت على الإغماء، أزال يديه. تنشّقت الهواء لاهثاً. همس، «ابق هادئاً. لا يوجد أحد في هذا الجزء من الدير لسمعك. ستحتاج إلى قوّتك». تلويث وجاهدت للإفلات، لكنه شدني إليه أكثر، وكأنني رضيع عليه أن يكتم صوته قبل أن يسرقه.

وصل بي إلى حجرة التدريبات، المضاءة بسطوع في هذه الساعة بمصابيح وشموع مُرتبة في أنحاء الغرفة. كان البيانو القيثاري ينتصب وحيداً في المنتصف، وكأنه مذبج. كان مُغطّى بكثانٍ أبيض. فيما يقف دكتور رابوتشي، تعلوه وجهه تلك الابتسامة المميّزة المثيرة للقشعريرة، بجانب البيانو القيثاري. صبّ النبيذ في قدح زجاجي وأمسكه أمامه، وكأنه كأس مقدّس.

اتَّخَذَ خَطَوَتَيْنِ إِلَى الْأَمَامِ نَحْوِي فِيمَا أَجَاهِدُ لِلْمَرَّةِ الْأُخِيرَةِ لِلْإِفْلَاتِ  
مِنْ قَبْضَةِ أُولَرْتَشِ الْمُسْتَمِيتَةِ. جَرَّبْتُ الرِّكْلَ، لَكِنْ قَدَمَايَ تَطَوَّحَتَا فِي  
هَوَاءٍ خَاوٍ.

"لَا تَخَفْ"، قَالَ الطَّيِّيبُ. تَحَدَّثْتُ بِلُكْنَةٍ إِيْطَالِيَّةٍ. "لَنْ أُؤْذِيكَ".

اقْتَرَبَ أَكْثَرُ، لَكِنْ عِنْدَمَا تَلَوَّيْتُ مَجْدِّدًا تَوَقَّفَ. هَزَّ رَأْسَهُ وَابْتَسَمَ،  
وَكَأَنَّنِي أَحْمَقُ لِأَنَّنِي لَا أَثْقُ بِهِ. ارْتَفَعَ حَاجِبَاهُ الرِّفْعَانِ، مُتَصَنِّعًا  
الْحَنُوءَ. "هَلْ تَعْرِفُ أَيْنَ تَقَعُ شَتوتْجَارْتُ يَا مُوسَى؟".

عَلَى ظَهْرِ يَدَيْهِ الْبِيضَاوَيْنِ، كَانَتْ كِتْلَةٌ مِنَ الْعُرُوقِ تَطَابِقُ لَوْنَ  
النَّبِيذِ.

"لَيْسَتْ بَعِيدَةٌ مِنْ هُنَا... سَفَرُ لِبَضْعَةِ أَيَّامٍ فَحَسَبَ. أَمَلْتُ أَنْ تَأْتِيَ  
إِلَى هُنَاكَ يَوْمًا وَتَزُورَنِي. هَذَا الْدِيرُ جَمِيلٌ، لَكِنَّهُ لَا يُقَارَنُ بِشَتوتْجَارْتِ.  
هَلْ قَابَلْتِ دَوْقًا مِنْ قَبْلُ؟ الدَّوْقُ كَارْلُ إِيُوجِينُ هُوَ رَبُّ عَمَلِي. إِذَا  
أَخْبَرْتَهُ عَنْ صَوْتِكَ، سَيَدْعُكَ تَنَامُ فِي قَصْرِهِ. أَلَا تَحِبُّ أَنْ تَنَامَ فِي قَصْرِ؟".  
لَمْ أَكُنْ أَحِبُّ، لَكِنَّنِي لَمْ أَتَحَدَّثْ.

"الدَّوْقُ يَرَعَى الْمَوْسِيقَى الْجَمِيلَةَ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ إِنْسَانٍ فِي أَوْرُوبَا يَا  
مُوسَى. أَكْثَرَ مِنْ رَئِيسِ دِيرِكُمْ حَتَّى؛ وَلِهَذَا اسْتَقْدَمَنِي إِلَى شَتوتْجَارْتِ،  
مِنْ إِيْطَالِيَا نَفْسُهَا. أَنَا طَبِيبٌ، طَبِيبٌ لِلْمَوْسِيقَى".

ثُمَّ خَطَا لِلْأَمَامِ. تَمَلَّصْتُ، لَكِنْ قَبْضَةُ أُولَرْتَشِ كَانَتْ كَالْحَدِيدِ.

"لَدَيْكَ صَوْتُ بَدِيعٍ جَدًّا يَا مُوسَى. صَوْتُ مِنْ أَجْمَلِ الْأَصْوَاتِ الَّتِي  
سَمِعْتُهَا فِي حَيَاتِي. عَلَّمَكَ أُولَرْتَشُ جَيِّدًا. لَكِنَّنِي بِمَقْدُورِي أَنْ أَجْعَلَكَ  
أَفْضَلَ. هَلْ تَرِيدُ أَنْ تَغْنِيَ أَفْضَلَ يَا مُوسَى؟".

صَوْتِي مِلْكِي! كُنْتُ لِأَصْرُخَ لَوْ لَمْ أَكُنْ مَرْعُوبًا. مِلْكِي! كَانَ عَلَى بَعْدِ  
خَطْوَةٍ وَاحِدَةٍ الْآنَ. خَشِيتُ أَنْ يُسَلِّمَنِي أُولَرْتَشُ إِلَيْهِ.

لكن أولرتش لم يُفلتني. أحكم قبضته. رفع رابوتشي القدح. بيده الأخرى قرصَ ذقني.

"افتح فمك يا موسى. اشرب بعض النبيذ".

كانت أصابعه باردة جدًا. هزرت رأسي، ثم أفلتني.

أطلق سبَابًا.

همسَ أولرتش بأنه يجب أن أشرب النبيذ، سيجعلني هذا راغبًا في النوم. تلوَّيتُ بكل ما لديّ من قوة.

"ضعه على الأرض إذن"، قال رابوتشي. رفضتُ وقاومتُ حتَّى جلس أولرتش متباعد الساقين فوقِي وثَّبت ذراعيَّ على الأرض. ركعَ دكتور رابوتشي بجواري. "افتح فمك"، أمرني بحدّة.

عندما رفضتُ مُجدّدًا، هازأ رأسي من جانب لآخر، مُطَبِّقًا على فكِّي بقوة، أطلَقَ سبَابًا مُجدّدًا. أقحم أصابعه المُعرَّقة في فكِّي حتَّى انفتحت فُرجةٌ، صبَّ فيها بعض النبيذ. اختنقت. فاضَ وانسابَ عبر عنقي. أطبقَ على فمي وضغط على حلقي حتَّى ابتلعته.

"يكفي هذا"، قال لأولرتش. أفلتني الرجل. سعلتُ وبصقت.

مع ذلك كانت حسابات رابوتشي خاطئة. كان معظم النبيذ المُطعَّم بالأفيون قد انساب من فمي واستقرَّ في بركةٍ على الأرض. ورغم أنه سرعان ما تكوَّنت غمامة على عقلي، وفقدت القدرة على مقاومتها، إلّا أنني لم أسقط فريسةً للنوم. بمقدوري تذكُّر كل لمسة وكل صوت لما تلا ذلك وكأنه مسرحية مثُلَّتْها ألف مرة.

جرَّداني من ملابسِي، ولوهلة شعرتُ ببرودة الأرض الحجرية على جسدي العاري. أُخِذْتُ بالسقف. هَذَا من خوْفِي؛ هناك شيءٌ نعيمِي في أشكال العوارض الخشبية. ينبغي أن أغطِّي نفسي، لكن ملابسِي اختفت وأنا مُنهك جدًا على أن أبحث عنها.

رُفِعَتْ ووضعتُ في حوضٍ ممتلئٍ بماءٍ دافئ. أستلقي هناك، غاطسًا حتى صُرْتُ. أغلق عيني وأستمتع بالدفاء. يبدو الحوض وكأنه كبير كمحيطٍ دافئ. والحافة الخشبية، القاسية، وسادةٌ وثيرة تستند رأسي عليها.

تحدث أصواتٌ عن تفاصيل.

سكاكين.

إبر.

أعتقد أنني سأنام.

أرفعُ كرسيّ، أجفّف برفق، وأوضع بوجهي لأسفل على البيانو القيثاري. رأسي في اتجاه المفاتيح. عندما يتحدث هذان الرجلان، ترنُّ الأوتار بصوتيهما. أريد أن أغني أيضًا، لكن هذا مستحيل. يبدو الآن جهْدًا رهيبًا. لا أستطيع تخيل أنني نجحتُ أبدًا في فتح فمي وإخراج صوتٍ في حياتي.

في كل مرةٍ أوشك على السقوط في النوم على الملاءة الناعمة، توقظني لمسة يد باردة. يخطر لي أن هذين الرجلين، حتى وإن كان أحدهما أولرتش، لا ينبغي أن يلمساني. ليس بهذه الطريقة. هذه ليست اللمسة التي طالما عرفتُها جيدًا: يدا أولرتش تستثيران صوتي.

أفكر، نادِ نيكولاي. أفكر، نيكولاي سيجعلهما يكفّان أيديهما عني. لكنه ليس هنا. الأيدي الباردة ترفعني وتضع المناشف تحت خصرتي بحيث تبرز مؤخرتي العارية في الهواء. يُاعدان بين ساقَيَّ حتى أظن أنهما ستنفسخان. هذه الأيدي تؤذيني، لكنني لا أستطيع تشكيل الكلمات. أتأوه. يربطان كاحليَّ حتى لا أستطيع إغلاق ساقَيَّ. أشعرُ بهما يلمسانني في موضعٍ لم يجرؤ أولرتش قط على التفكير في لمسي فيه.

يداي حرتان، أضهما في قبضتين. أبدأ في النحيب.  
سأسقم.

هناك رائحة في الهواء، وكأنه شيء في غاية... البرودة؟ الحموضة؟  
لا أستطيع أن أحدد. شيء بارد ورطب يمسد على فمذي، بين ساقي.  
يفرك خِصِيَّيَّ ويصينني بالغثيان. لا أريد أن ألمس هنا! أوتار البيانو  
القيثاري ترن من تحتي، لكن لا يوجد منطق في صوتها. أحتاج إلى  
صوتي، أتوق لأقول. لا تأخذه. إنه الشيء الوحيد الذي يجعلني نقيًا.  
لكن كل ما يفلت مني، "لا، لا!!-!!"، وكأنني أنوح.

ربّثت يدي على رأسي. صوت أولرتش في أذني، "لا بأس يا موسى. عُد  
إلى النوم".

النوم! نعم، أريد أن أنام، لكن اليد تلمسني مُجدِّدًا! أولرتش!  
حاولت أن أصرخ. لا تأخذ صوتي! لكنني لم أستطع سوى النطق باسمه؛  
البقية تأوهات.

"لا تخف"، يقول. "أنا هنا".

أشعر بغثيان وتثاقل. لا أستطيع التحرك، لكن لا بُدَّ أن أتحرّك، وإلا  
اختفى صوتي.

"تُبَّته!" يهتف رابوتشي. "ضع ثقلك عليه!".

لا أستطيع النهوض. أحدهم يستند عليّ. صدري ينسحق. لا  
أستطيع التنفّس.

"تُبَّته جيدًا! لا بُدَّ أن يكون في غاية السكون".

أشعر بدفقة ألم بين ساقي. أتأوه وأتلوَّى وأبكي، والبيانو القيثاري  
يبكي معي.

"عليك أن تَتُبَّته!".

أصرخ.

"من أجل الربِّ يا رابوتشي، ماذا...".

"ثبته!".

شيءٌ يوجد داخلي. يدٌ تنخس وتبحث عن صوتي! أسعلُ مُخرجًا  
النبیذ وجُذاذات لحم الحمل. أصابع أولرتش تُمسد خدي. يسحقني.  
أقاوم، ورغم ذلك لا أستطيع التحرك.

"الآن عليه أن يظل ساكنًا وإلا سيموت ممّا نفعله!" يهتف رابوتشي،  
وتدندن الأوتار الخفيفة للبيانو القيثاري.

هناك شدٌّ داخل جسدي ووخزةٌ ألم حادةٌ للغاية لدرجة أنني  
أشعر بها في أصابع أقدامي.

لم يعد هناك هواء لأتنفّسه. "لم يكن لديّ اختيار"، همس أولرتش،  
بخفوت شديد لحدّ أنني أشك أنه رابوتشي نفسه قد سمع. "صوتك"،  
يغمغم. "صوتك". نخزة لاذعة، مزقٌ بين ساقي، لكن بغتة يبدو كل  
شيء وكأنه ينزاح. أنا مكدود. أستغرق في النوم، وفكرتي الأخيرة، فيما  
رابوتشي ينخر وأولرتش ينتحب بهدوء، هي أنني سأستردُّ يومًا ما  
مُجددًا، ما انتزعه هذا الرجلان البشعان.





## الفصل الثاني



## (1)

استيقظتُ في فراشي. كان الدير المنهك هادئًا. النافورة تُبقي في المعتزل.

هل كان ذلك حلمًا؟

تقلبْتُ تحت أغطية الفراش وشعرتُ بمزقٍ بين ساقِي، كخطاطيف مُثَبَّتة بإحكام في أمعائي. تغبَّشت رؤيتي بالدموع. استلقيت هادئًا حتَّى تراجعَ الألم، ثم أزحتُ الغطاء. ما زلتُ عاريًا. عضوي الذكري الطفولي ينتصب عاليًا. كان أرجوانيًا، ووراءه، كانت خصيتاي قرمزيَّتان وبدأتا أكبر من حجمهما بمرتين. خربشات بالأحمر والأزرق تمتدُّ على داخل فخدَيَّ. لكن لم أستطع رؤية شيء ناقص. لم يؤخذ شيء.

بحذر، مددتُ إصبعًا ولامستُ خصيتي اليمنى. كان الجلد رقيقًا، لكن فيما عدا ذلك كان كل شيء مُخدَّرًا.

"علينا أن نحفظ صوتك"، قالها أولرتش حينها. تخيلت نفسي داخل واحدة من جرار دوفت الزجاجية، أغني ولا أحد يسمعني. سمعتُ طرقًا على الباب. غطيْتُ جسدي العاري.

لم ينتظر نيكولاي ردًا. احتلَّ نصف مساحة غرفتي في العلبة.

"علينا أن نبني كنيسة جديدة كل أسبوع"، قال. كانت عيناه دامتَيْن وبدا أنه كَبُرَّ خمسة أعوام. "ليبارك الربُّ شتوكدوك وافتتاحاته". ابتسم ابتسامة عريضة، لكن ابتسامته تلاشت ببطء. تمعَّن فيّ. "ما الأمر؟ هل أنت مريض؟".

أومات.

"لا عجب. تحتاج إلى إجازة. سأخبر أولرتش أن يتركك بمفردك هذا الصباح".

أومات.

خطا ناحيتي. تجهَّم وانحنى للتفُّرس في وجهي. "أوه، موسى. تبدو أسوأ حالاً من راهب دير اينسيديلن الذي كان ينام في النافورة. تحتاج بعض الطعام؟".

هزرتُ رأسي.

"هل توجد مشكلة؟".

هزرتُ رأسي. كنتُ أرغب في إخبار نيكولاي، لكنني الآن ممتزُّ أنني لا أستطيع إيجاد الكلمات.

اعتدل. "حسنًا، عليك أن تستريح، وسأعود لاحقًا"، قال. "وسأجلب بعض شرائح اللحم الغارقة في العصارة".

عندما لم أرِدْ له الابتسامة، منحني نظرةً أخيرة، مُتشكِّكة، وغادر الغرفة. عندما أُغلق الباب، التففتُ بحيثُ تدلَّت قدماي على حافة

الفراش. مع كل حركة تتهاج أنفاسي، والخطاطيف في حقوي مُزَّق أعْمَق. نهضتُ، محدودبًا كرجل عجوز. جرّت الدموع على خديّ. سرّت متثاقلاً على الأرض وأقفلت الباب بالرتاج، شيء لم أفعله من قبل قط. وقفتُ عاريًا أمام مرآتي.

غَنِيْتُ النغمات الثلاث الأولى من السوبرانو المنفرد من اليوم الفائت. كان غنائي ضعيفًا ومضطربًا، لكنه كان صوتي. لم يُتزع مني. نشيخُ خانق قطع الأغنية.

بشكلٍ ما جررتُ نفسي عائداً إلى فراشي واستغرقتُ في النوم.

\*\*\*

سمعتُ خطاباتٍ قويّة، وصرخات في نومي. أحدهم كان يطاردني عبر أروقة الدير؛ كانت الأبواب جميعها موصدة؛ وبهذا لم أستطع الاختباء. ثم كان هناك تحطّم مُشَطّ، واستيقظت لأرى بابي يسقط إلى الداخل، مشقوقاً من المنتصف. اندفع نيكولاي إلى الداخل. ورائه كان ريموس، بعينين قلقتين، ضيقَتَيْن، ووراءه، الطبيب رابوتشي، يحمل مصباحاً أمام وجهه المُصْفَر، المُتْجَهِّم. اندفعَ الطبيب بين صديقيّ وخطا ناحيتي. انكمشتُ من الخوف فيما يضع راحةً باردةً على جبيني ثم يغمس إصبعين في عيني.

"سيكون بخير"، قال لنيكولاي، الذي كان يقف وكأنه مستعدُّ لأخذي بين ذراعيه في أي لحظة. دفعه رابوتشي للخلف. "لا بُدَّ أن تتركه بمفرده. إنها مجرد حمّى".

كان جفناي في غاية الثقل لحدّ أنني تركتهما ينغلقان.

"لكنه لم يَفِقْ"، استجده نيكولاي، بصوته يرتعش. "ظننتُ أنه...".

"إنه شاب وقوي. دعه ينام"، أجبه الدكتور رابوتشي بصرامة. "أسأهر عليه".

"سأسهر عليه أنا"، قال نيكولاي.

"أنا طبيب".

فتحتُ عينيَّ. بدت الغرفة وكأنها تتمايل. كان ريموس يقف صامتًا على عتبة الباب المُحطَّم، مُتجاهلاً الكتاب في ذراعيه. راقب الرجلين يتجادلان بشأني، الشُّكُّ على وجهه. أردتُ أن أخبر نيكولاي -وريموس حتَّى- ألا يتركاني بمفردي مع هذا الطبيب، لكن في ضبابيَّتي لم أستطع تشكيل الكلمات. كنتُ خائفًا بشدَّة، وراقبتُ حُماتي يخطوان فوق الجذاذات الخشبية، بوجهيهما يتوسَّلان إليَّ أن أناديهما ليعودا.

عندما صرنا وحدنا، انحنى دكتور رابوتشي مقترَّبًا منِّي. ابتسم عندما رأي أنني مستيقظ. وضع إصبعًا على شفثيه النحيلتين. "عليك ألا تخبر مخلوقًا بما حدث ليلة أمس"، قال. "إذا أخبرت أحدًا، لم يسمحوا لك بالبقاء هنا. سيجبرونك على مغادرة الدير، وستكون وحيدًا. لا تثق بأحد سوى بصديقك أولرتش".

لم أستوعب هذا التحذير بالكامل، لكنني أدركت بالغريزة أنه كان على حق.

"هل تستوعب ما فعلته يا موسى؟".

لم أجاوب. في ضوء المصباح الخافت رأيت أن نفس الأوردة القرمزية في يده تتشابك في وجهه الشاحب.

"لقد جعلتُ منك موزيكو".

أنا، موزيكو؟ تلك اليد تلتفُّ وتحفر داخل جعلتني مثل بوجاتي؟ الموزيكو رجلٌ، قالها نيكولاي، ليس رجلًا. ذلك أنهم جعلوا منه مَلاكًا.

"موسى!" كان الدكتور رابوتشي ما يزال يتحدَّث لي. حاولت التركيز عبر الحمى. "ستلاحظ بعض التغيَّرات في جسدك في الأسابيع القليل القادمة"، قال. "لا تجزع".

اعتدل رابوتشي ونفخَ في المصباح لإطفائه. تسرّب الضوء الخافت من الرواق إلى الغرفة.

"يومًا ما"، قالَ من الظلام، "سيكون لديك واحد من أعظم الأصوات في أوروبا. لا تنسني يا موسى. لا تنسَ مَنْ جعلك ما تكونه". أغلقتُ عينيّ.

وأبدًا لم أنس. بعد سنوات كثيرة، عندما انتهت بي مسيرتي أخيرًا إلى مدينة كارل إيوجين، أخفيتُ خنجرًا في عباءتي وأخبرتُ راعي الحفل الموسيقي أنني أودُّ مقابلة رابوتشي، (طبيب الموسيقى) الأشهر في شتوتجارت. لكن الرجل احتقنَ فحسب وهزَّ رأسه. "أرجوك يا سيدي"، قال، "لا نتحدث عنه". في النهاية أنهكتُ عامل مسرح عجوزًا بالنيذ حتّى أخبرني ما حدث حقًا: كان رابوتشي قد عاد حقًا إلى شتوتجارت بعد إخصائي، لكن بعد سنتين في بلاط كارل إيوجين، قضاها في إخصاء الصبيان حتّى يتمتّع الدوق بعزبة الطواشين الموزيكو الوحيدة في شمال الألب، شُنقَ رابوتشي لمغازلته واحدة من الدوقات.





## (2)

مع تلاشي الألم والحُمى، تلاشت خصيتاي أيضًا. بعد أسبوع صارتا حبَّئِن صلبتَيْن. وبعد بضعة أيام، استيقظت وأجريت فحصتي المعتاد تحت الأغطية... ثم اعتدلت بسرعة. صرْتُ خاويًا.

كانت عملية بسيطة، وما زالت تُجرى كل عام على يد الجراحين والحلَّافين على السواء لآلاف من الصبيان في الأراضي الإيطالية. كان دكتور رابوتشي قد قطعَ التَّشْعْب المزدوج لشرَيَّاني المنوي الداخلي. ومحرومتَيْن ممَّا يحتاجانه للحياة، ماتت خصيتاي، وذابتا في دمائي. لم ألاحظ أيَّ تغيُّرٍ آخر، سواءً في جسدي أو في عقلي. كان صوتي جميلًا ومُشرقًا كما كان عند الافتتاح، وهكذا، فيما أغنِّي، كل ما كنتُ ألاحظه هو الغياب المفاجئ لهاتين الكُرَتَيْن الصغيرَتَيْن بين ساقَيَّ.

لم يتبدَّل شعوري. لم تَنَمْ لي أجنحة. لم أزدد طولًا وعرضًا مثل الموزيكو بوجاتي. مع ذلك أدركتُ أن عملية رابوتشي لم تفشل... أخبرتني نظرات أولرتش المُشْفِقة بذلك. لا تقصد طواشيًا؟ ليس نصفًا

رجل! كان شتاوداخ قد قال عندما طلب أولرتش طواشيًا للغناء في كنيسة. لم أستطع فهم ماذا أنا، ولا إلى ماذا سأصير، لكنني أدركت أنه شيء عليّ إخفاؤه. كنت لا أستحم إلا في منتصف الليل، بمنشفة قريبة من يدي. أوصد الباب عندما أبدل ملابسني. أبدًا لم أسأل نيكولاي عن فائدة الأعضاء التي فقدتها. أبقىْتُ سِرِّيَ لنفسي، على أمل أن أنسى فحسب تلك الليلة الشنيعة وأثارها. لسنوات طويلة تراءى لي أن مقدوري ذلك.

\* \* \*

بعد قرابة عامين من إنجاز الكنيسة، ساءت حالة السيدة دوفت بشكل ملحوظ. بدا لي أن عظامها تنمو. صار جلدها مشدودًا، وازداد ذقنها ومحجرًا عينيها بروزًا. صار كل نفس وكأنه يخرج بمساعدة من يد خفية تعصر الهواء لإخراجه من رئتيها. كان صوتها همسًا، وذلك الدفء الذي طالما نشرته صار يكلفها الآن الكثير من الألم.

عَرَّق السيد دوفت، المعروف بنشاطه، في الكآبة والوجوم. تعاملت أماليا -التي أحبت تلك الأم السقيمة أكثر مما تحب أغلب الفتيات أمهاتهن القادرات على الرقص والثرثرة بالهراء طوال اليوم- مع قلق والدها بالفكاهة ومرافقته دائمًا. "لكن لماذا فعل الإسكندر كل شيء طلبه منه أرسطو؟" تقول. أو، "يقول موسى إنه يود رؤية الرؤوس"، ثم تنغزني حتى أومئ، حتى لو كانت تلك الجرار تُرعبني في الحقيقة. كان السيد دوفت يُستثار فقط عندما يتحدث عن الثروات التي جناها بسهولة، أو عندما يناقش خططه للتوسُّع شرقًا، عبر مراسلاته مع وجيه يعمل في النسيج من فيينا، ينوي أن يغزو معه العالم الذي يرتدي القماش المنسوج.

ذات ليلة مع وصولي أنا وريموس إلى البهو، كان دوفت يُحدِّق إلى خارج النافذة، بوجهٍ رمادي (وهو ما كان غريبًا على رجلٍ لونه

المعتاد يشبه اللحم غير المطهو). فيما أماليا تُحدِّق بخواء في كتاب أمام عينيها ولم تحاول إيقاظه من غفوته، بل لم تُحِينَا حتَّى.

اندفعت كارولين إلى الغرفة بغتةً، وكأنها كانت تحوم خارج الباب، تنتظر حتَّى ندخل. "ليس الليلة!" قالت بعفوية، وكأنها تتحدَّث إلى طفلين شقيَّين. "السيدة في حال سيئة للغاية. يخشى الطبيب أنها قد تَمُوت". تقافزت السيدة الثقيلة من قدم إلى قدم، كراقصة خرقاء لكن مُتهجعة. في عيناها كان بمقدوري رؤية أنها بدأت بالفعل في تخيُّل السيدة دوفت الجديدة: أكثر نقاءً، أكثر خصوبةً من القديمة. هَشَّتْنَا للخروج من الباب بوضع رفرفات من معصمها. تراجعتُ، لكنني اصطدمت برِمُوس. في العادة كان يندفع خارجًا من المنزل ككلب صيدٍ من قفصه، لكن عندما رفعت نظري، رأيتُ غضبًا عنيذًا على وجهه.

"أُبتِها الحفيرة"، غمغم، عاليًا بما يكفي فحسب لسمع الجميع.

"معذرةٌ؟" تساءلت كارولين دوفت. لكن رِمُوس كان قد استدار بتحديثه لإبداء الإعجاب بالجدار الفارغ. تطلَّعت إلَيَّ المرأة المُتزمِّمة بازدراء، وكأنها تنتظر منِّي تقديم اعتذار.

حدَّقت أماليا في رِمُوس بإعجاب.

تحركَ دوفت بغتةً. بدا وكأنه يراني للمرة الأولى. "تعالَ الأسبوع القادم"، قال بضعف. "ستكون حالتها أفضل حينها. بلا شك".

أومأتُ.

حدَّق إليَّ الرجل بإمعان، وكأنه لا يوجد سوانا في الغرفة. "موسى، نحتاج مزيدًا من الوقت فحسب".

وضعَ رِمُوس يَدًا على كتفي. بدأنا في التراجع نحو الباب.

"أصيب فولتير بالجُدْرِيّ ذات مرة"، قال دوفت بغتةً. نهض وأتخذ خطوات بطيئة ومدّ يده، وتبعني بهدوء. "كاد أن يقتله الجدري. هل تعرف ماذا فعل؟ احتسى سِتْنِ لترًا من الليمونادة. كانت سببًا في شفائه". تطلّع دوفت إلى السقف وفرك شفتيه. خشيت أنه سيبدأ في البكاء. ازداد صوته ضعفًا، مُتصدّعًا من حين لآخر. "جعلتها تجرّب ذلك أيضًا. لكنها لم تكن مصابة بالجدري، والأمر لا ينجح إلّا إذا كنت مُصابًا بالجُدْرِي. فقط لو كانت مصابةً به. حينها سنعرف على الأقل كيف نعالجه. لكن هذا هو الوضع. ألا ترى؟ كل مريض له علاج يناسبه وحده. لكن الأمراض والعلاجات مُختلطة ببعضها تمامًا". حرك الهواء عاليًا أمام صدره يديه. "أمراض لا نهائية. علاجات لا نهائية. جميعها مُختلطة ببعض. حتى لو اجتمع أكثر من أرسطو معًا، سيحتاج الأمر إلى الأبد". أنهى حديثه وقد اقترب مني بشدة، لحدّ أنني سمعت أصابع قدميه تنعصر في حذائه، الذي كاد يلامسني. أومأت إليه موافقًا. "لماذا يفعل الرَّبُّ هذا؟" همس لي. "لماذا؟ لماذا يقدم لنا أحجية يستعصي حلّها؟".

تمنيت لو كان نيكولاي هنا؛ كان حتمًا سيجد إجابة. أبدًا لم يفقد حسّه بجمال العام، مهما أظلمت أحجية الرَّبِّ الكبرى. لكن نيكولاي لم يكن معنا، ولهذا وضع ريموس يدًا على ذراع دوفت، وكأنه يقول، نعم، أنت على الحقّ. الحياة ليست مُنصفّة. ثم جذبني ريموس للخلف، ومضينا عبر الرواق. راقبت ظلّ دوفت، بلا حراك، واقفًا على العتبة، وكأنه ينوي انتظاري هناك حتّى أعود.

\* \* \*

لم تعد أماليا تلك الفتاة الصغيرة التي كانت تُمسك بيدي في الأروقة المظلمة. ازدادت طولًا؛ صار بمقدور الناظر أن يلحظ المرأة القادمة في وجهها. لكن بالنسبة لي كانت حنونًا كما هي دومًا، ذلك

أنه رغم حفلات الحداثق وتناول الغداء مع أفضل فتيات سانت غال الكاثوليكيات الأخريات، إلا أنني كنتُ الصديق الحقيقي الوحيد لها في تلك السنوات. كنّا ما زلنا نتسكّع في الأروقة كل خميس تسمح لنا صحّة أمّها بزيارتها. قالت لي ذات يوم بحزن، "موسى، أنت محظوظ جداً أنك لست فتاة. أمقتهن. كل فتاة قابلتها". عضّت شفتها السفلى وجذبت خيطاً مفكوكاً في كُمّي. "لا أريد أن أراهنّ أبداً، لكن كارولين تجبرني على ذلك. في أمس ذهبتُ حتى رورشاخ، فقط من أجل أن يتناولن عليّ". أبرزت شفتها السفلى وقلّدت صوتاً صاراً، "أشعر بالأسف من أجلك يا أماليا. لا بُدّ أنه من المريع أن تكوني عرجاء. ومع ذلك ها أنتِ واقفة؟ لو كنتُ مكانك لاختبأتُ في غرفتي طوال اليوم". احمرّت خدّاها؛ كانت ما تزال تشعر بالهانة من الذكرى. "إنه خطأ الصبيان. ليس الأمر أنه يوجد القليل منهم، لكن هؤلاء الفتيات يتصرّفن وكأن هناك ألفٌ مثلاً، وثلاثة شُبّان فقط جديرون بنا في العالم. لا يمكننا الزواج بعدُ حتّى، لكن كل ما يفكرن فيه هو الزواج".

أخذنا بضعت خطوات وحكّت ذراعها بذراعي بذهنٍ شارد.

تطلّعتُ إليها. غامرتُ بالقول: "هل ستتزوّجين؟".

ضحكّت أماليا من وجهي الجادّ. "بالطبع سأتزوج يا أحمق. هل تظنّ أنني سأعيش للأبد مع تلك العجوز الشمطاء؟ سأتزوّج". أوامات، وحدّقت حاملةً إلى آخر الرواق. "لكنه سيكون غني. وأبله. سيمضي وهو يمتطي حصانه ويصطاد أو يفعل أيّاً ما يفعله الرجال البالغون"، قالت. "سيفعل كل شيءٍ أقوله".

\*\*\*

كانت نحلم بالهروب من سجنها. ذات يوم سحبت ورقةً مطويّة. فردتها لتكشف عن رسمٍ مُتقن للدير. "لقد نسختُه"، قالت بفخر. "كل نافذة، كل باب. سيكون خريطتي، عندما أزورك".

"متى ستزوريني؟" سألتها.

"أوه"، قالت، "في الأسبوع القادم على الأغلب. قبل انقضاء الشهر بالتأكيد. ارسم X على غرفتك حتى أتمكن من إيجادك".

"لكنهم لن يسمحوا لك بالدخول".

"أنا من آل دوفت"، قالت بكبرياء.

درست مهاجع الرهبان، وجدت النوافذ الصغيرة في السقف، وعددتها بعناية من نهاية السقف.

"هذه نافذتي"، قلت، وبقلمها الرصاص رسمت علامة X.

في الأسبوع التالي سألتها لماذا لم تأت. "كنتُ منشغلة"، أجابت. "في الأسبوع القادم سأتدبر الأمر. انتظري في المساء".

وهذا ما فعلته... كل مساء لأشهر كثيرة، لكنها أبدًا لم تأت.

\* \* \*

حلّ وقت في الصيف التالي كان للهواء الرائق، الجاف، الوثير، تأثيرٌ جيّد على حالة السيدة دوفت، وغنّيتُ لها كل أسبوع. ثم جاء الخريف بأمطاره، وحينها ساءت حالتها مُجدّدًا. لشهرين لم أغنُ لها على الإطلاق. صرْتُ مُجدّدًا صبيّ جوقة فحسب، رغم أنني كنتُ أفضل الحفلات السرية مع هاتين المرأتين من آل دوفت على أيّ مسرح في أوروبا.

ثم ذات صباح، ظهر واحد من الجنود الذين يحرسون بوابة الدير في غرفة التدريبات أمامنا.

"على موسى صبي الجوقة أن يحضر معي"، قال لأولرتش. "رئيس الدير يأمر بذلك".

ارتعبتُ. لكن أولرتش صرفني لأذهب مع الجندي، وبدلاً من رئيس الدير، وجدتُ كارولين دوفت تنتظرني عند البوابة.

"تعال"، قالت، واستدارت على عقبيها. سرْتُ وراء مخروط المرأة ذاك عبر السوق المزدحم، الذي كان يفتح لها كانشقاق البحر. لم تَقُل شيئاً حتى غادرنا الشوارع المكتظة.

"يقول الطبيب إنها ستموت"، قالت، وكأنها تتحدّث عن فرس عجوز حانَ أجلها. "طلَبْتُ حضورك، ولم يمانع (السيد دوفت). اعترضْتُ، لكنه فقدَ عقله". زادت من سرعة مشيها، واضطرتُّ للركض تقريباً. "واحد من آل دوفت بدون عقله لا يُعدُّ واحداً من آل دوفت. ظَلْتُ تلك المرأة في الفراش لسبع سنوات. لم تفعل سوى تعطيل تقدُّمنا واستنزاف ثروتنا. والآن تريد حفلةً موسيقية". توقَّفت بغتةً واصطدم رأسي بمؤخرتها الناعمة. تطلَّعت إليّ باستهانة. تنشَّقت. "أعتقد أنك تريد أتعابك".

لم تكن لديّ أي فكرة أن المغنّين قد يتلقون أجراً على غنائهم. "وستحصل عليها، أنا متأكدة. رئيس دير مُبارك واحد، وأرواح كثيرة تُثقل عليه. لا أعرف كيف يتحمَّل هذا، لا أعرف!".

كنتُ معتاداً للغاية على إرشاد ريموس عبر الشوارع لحدّ أنني عندما سمعتُ ضربات ساطور الجزّار، وضعتُ يدي على خاصرة كارولين الواسعة ودفعتها.

عَوَت وصفعت أذني براحتها. "أنت أيُّها الطفل المُقرَّز!".

فركتُ أذني فيما ننعطف حول الناصية. دلَّكتُ هي خاصرتها وكان لَمَسِي قد أحرقها. "من المؤسف أن هذه المدينة تَمَلُّى بأتباع المذهب البروتستانتى. حتّى الأطفال الآن يتحرّشون بالنساء. كيف



يمكن لفيليبالد أن يجد زوجةً هنا؟ سيكون عليه أن يذهب بعيدًا. إلى إنسبروك. أو سالزبرج. لا بُدَّ أن أكتب خطابًا الليلة."

استدارت لتَهْزُ إصبعًا أمام وجهي.

"أنت صبي جوقة. ينبغي أن تكون أفضلهم جميعًا، وانظر إلى نفسك. في سنتين ستتطَّلع إلى أماليا من رأسها إلى قدميها، حتَّى مع تشوُّهها. وربما تردُّ لك الابتسامة، بمعرفتي لها". هزَّتْ كارولين رأسها في امتعاض. "طفل واحد! وفتاة!"

\* \* \*

وصلنا إلى منزل آل دوفت، ودلفتُ للمرة الأولى عبر الأبواب الرئيسية إلى بهو الاستقبال الذي يشبه القصور. كان عبارة عن قاعة بارتفاع طابقين، بدَرَج مزدوج عريض، وحوائط هائلة مُجصَّصة، حتمًا تخفي أكوامًا من الحجر الجيري المُرجَّع للصدى، لأن بهو الاستقبال هذا بدا وكأنه مسرح في منزل آل دوفت؛ قنوات صوتية لا تُحصَى تتلاقى في هذه البهو. وبُخَّتْ المُرِّيَّة ماري ضحيةً ما بالفرنسية. صرَّ خنزيرٌ صغير. انغمست ممسحة في دلو. شقَّ ساطورٌ عظمت. ثرثرت خادمتان في حجرة غسل الصحون. أُنْتُ الريح على طول السقف.

صعدت كارولين دوفت حتى مُنتصف الدَّرَج، تاركةً إيَّاي مذهولًا في مكاني، غارقًا في الأصوات من حولي. استدارت وقالت بعصبية: "أغلق فمك. تبدو كالأبله. ألم تَرَ ثراءً كهذا من قبل؟".

أعتقد أنها كانت تعني السجاجيد السمكية، وأثاث خشب البلوط، والبورترتيهات الرديئة لآل دوفت على الجدار. بالنسبة لصبي جوقة من كنيسة سانت غال، كان كل هذا لا شيء.

تبعتها عبر أروقةٍ ملتوية، حتَّى ظهرَ بيتر المطيع، قابلاً في موضعه.

"موسى!" نهض كحارس يُحيي جنرالاً، ثم أدرك أنه نسي تسجيل وصولي، راجعَ ساعته، ودوّن اسمي قبل العودة إلى وضع الانتباه. قدّم لي قناعاً من الفحم.

"إذن لم يستسلم العلم بعد!" قال. "كنت أعرف أنك ستعود مُجدّداً. في الوقت المناسب بالكاد أيضاً. يقول الطبيب إن كل ما في مقدورنا فعله هو الصلاة، لكننا للأسف لا نصلي هنا في منزل آل دوفت".

"بالتأكيد نصلي!" قاطعته كارولين.

"أعني"، قال الكاتب المخلص، وكأنه يلاحظ الإجابة البشعة للمرة الأولى، "العلم هو طريقتنا في الصلاة".

"لو كانت هناك صلوات أكثر وعِلْمٌ أقل في هذا المنزل"، قالت كارولين، "لم نكن لنواجه كل هذه المتاعب".

"نعم يا سيدتي"، قال بيتر. بدا منزعجاً بشكل بشع، ولهذا خربش هوامشه، وكان لديه مبلغ هام جداً عليه حسابه.

"حسنًا، ادخل"، قالت لي. "لا تنتظري؛ لن أخطر بصحتي الفيّضة".

منحني بيتر نظرة خاطفة أخيرة، غارقة في الأمل، وكأنها هتاف للعلم. أو للموسيقى. أو لكليهما.

\* \* \*

كانت أماليا جالسةً على أحد جانبي فراش أمها، والسيد دوفت على الجانب الآخر. كانت عيناه ممتلئتين بالدموع، لكنه مسحهما على الفور، ناهضاً من مقعده فيما أدلف. خطا ناحيتي مُسرّعاً وشعثٌ شعري. بعدها، ظلّت يده على رأسي وكأنه نسي أين وضعها. وقفنا في هذا الوضع لدقيقة فيما يحدّق بعينيه اللامعتين في الباب ورائي. أماليا تجلس في مقعدها ولا تنظر إلى أيّنا.

"لقد أخفقنا يا موسى"، قال دوفت أخيراً. "حاولنا، لكننا أخفقنا. لم نَنل ما يكفي من الفُرص، هذه هي المشكلة. ليس مُنصفًا، كيف تمضي الأمور. المرض ينال كل الفرص التي يريدها، ولا ننال نحن سوى القليل جدًا. لو كان الأمر معكوسًا لكُنَّا عثرنا على الحلّ بطريقةٍ أو بأخرى. رغم ذلك، أشكرك على محاولتك. أنجزتَ شيئًا نبيلًا".

تطلَّعت أماليا إلى جسدِ أمِّها الخامد في الفراش. لم تستطع أنفاس المرأة السقيمة أن تجعل الغطاء يرتفع وينخفض حتى.

تابعَ دوفت. "طلَّبتَ حضورك باكراً، لكن انتهى الأمر الآن. يقول الطبيب إنه لم تُعد هناك فائدة من الأمل. أحضرناك إلى هنا من أجل لا شيء. يمكنكُ..." اختنقت كلماته بغتةً. غطَّى فمه، ورأيت أن استغناؤه عن خدماتي كان العلامة على استسلامه، للمرة الأولى ربما في سبع سنوات بعد ما لم يعد الأمل يُوهمه بأفعالٍ لا طائل منها.

أنصتُ لأنفاس السيدة دوفت: هادئة وقصيرة. ثم تطلَّعتُ إلى صديقتي مجدِّداً. بدت أماليا المنطلقة التي أعرفها خاوية وهشة، وأدركتُ أنه عندما ترحل هذه المرأة في نهاية المطاف، ستكتمل وحدة الفتاة. لن تجد أحداً بعد الآن ليُمسك بيدها ويُسد شعرها، لن تجد صديقاً تتباهى به وتَحلُم معه؛ ذلك أن وظيفتي في منزل آل دوفت ستتلاشى مع تلاشي أمِّها.

أنا، أيضاً، بدأت في البكاء، من أجل الأم والابنة... لكن أيضاً من أجل نفسي. أوماً دوفت، بالدموع في عينيه ليُجاري دموعي، مُتبصِّراً وكأنه صارَ مُهيئاً أخيراً للاعتراف بوجود الحزن في العالم. قادني إلى الباب.

"غنُ أرجوك"، قالت أماليا، ذاهلةً، دون أن ترفع بصرها.

"عزيزتي"، قال دوفت، "لا فائدة من ذلك. إنها ليست مستيقظة".

"أرجوك"، قالت. تصدّع صوتها، لكنها لم تبكِ. لم أكن قد رأيت الدموع قط على ذلك الوجه.

وهكذا، بالتعارض مع الحسّ العلمي، بدأت في الغناء. من تلك المكتبة الموسيقية الصغيرة في رأسي، اخترت أجزاءً من (قُدّاس للقديس أنتوني) لدوفاي، مقطوعة كُتِبَت عندما كانت الموسيقى ما تزال نقيّة ورائقة، وكأنها نبع جبلي غير عميق مقارنةً بالمحيطات الموسيقية السحيقة لزماننا. كانت السيدة دوفت قد سمعتها مرّات كثيرة، وأعرف أنها أحبّت (المجد لله في الأعالي).

غُيِّت. حدّق دوفت في جسد زوجته النائم. غطّت أُماليا وجهه بيديها وأطلقت أخيراً كل الدموع التي حبّستها داخل روحها طوال سنين الزيارات العصبية هذه. غُيِّتُ بصوتٍ أعلى. بدأ المصباح فوق رأسي في الرنين. لم يُصدر جسد دوفت أيّ صوت. السيدة دوفت، أيضًا، لم تستقبل صوتي. لكن أُماليا بكت بنشيجٍ أقوى، انفتح جسدها لصوتي، وصار يرنُّ بخفوتٍ كالْمصباح فوقنا، صوتٌ لم تستطع سماعه، لكنني أملتُ أنها شعرت بذراعيّ الدافنتين وكأنهما تلتقّان حول عنقها.

وضّعت رأسها على حافة فراش أمّها وانتحبت.

ثم بغتةً، رفرقَ جفنا السيدة دوفت. نظرتُ، وكما في اليوم الأول الذي غُيِّتُ فيه لها، رأيتُ مجددًا صدى أُمي في هاتين العينين.

مدّت يداً ناحلة، مرتعشة، لتلمس رأس ابنتها الباكي. جفلت أُماليا، اعتدلت، وحاولت إيقاف دموعها، لكنها كانت غزيرة، وقد انتظرت وقتًا طويلًا جدًّا لتتساقط. ولم تستطع هي هذه المرة كبّحها. تناوَلت يد أمّها وبكت فيها، مُمسكةً بالعظم والجلد على خدّها المبتل. لم تستطع السيدة دوفت احتضانها؛ حتّى جفناها كانا ثَقِيلَيْن.

تابعُ الغناء. كان صوتي قويًا، قويًا بما يكفي لاحتضان أُماليا فيما تبكي، قويًا بما يكفي لمحاربة الموت. غُيِّتُ بصوتٍ أعلى. كانت

ذراعاي بلا وزن برنينهما؛ بدت قدماي وكأنها ترتفعان عن الأرض،  
حتى صرْتُ مثل جرس يتدلى من السماء. لم يرنَّ صوتي في المصباح  
فحسب، لكنه كان يرنُّ أعلى في أماليا الآن، ويطنطن في ألواح الأرضية،  
في السقف، وفي حواف النوافذ وراء الفراش.

التَهَمَّت جُدران ذلك المنزل صوتي ورَجَّعت صداه. امتلأت كل  
واحدة من المليون مليون صَدْفَة الصغيرة تلك بصوتي وتناقلته في  
سلسلةٍ من الأغْنِيَّات، حتى اندمج المنزل بأكمله في الغناء. ثم تهادى  
صوتي أكثر: إلى الأرض تحت المنزل وفي الخارج إلى السماء، وسرعان ما  
أدركتُ أنني أجعل العالم بأكمله يهتزُّ، تمامًا كما كانت أمِّي تُجلجل  
العالم بأجراسها. كان الاهتزاز ساكنًا، لم يسمعه أحد سواي، لكن كل  
إنسان في آل دوفت كان بمقدوره الشعور به كدفءٍ يجعلهم يتسمون.

غَنِيْتُ أعلى وأعلى، ونفَضَ صوتي الغبار والقذارة التي تُثقل علينا.  
طردَ الحزن والمرض. طردَ الخوف والكمد. هزَّ الخنوع وحوَّله إلى  
شجاعة. نهَضَ المرضى من فُرُشهم. زعزعَ صوتي اليأس في أعينهم. نفَضَ  
الوَهْنَ من أجسادهم، والمرض من رثاتهم. نِلْنَا مُجَدِّدًا ما كنَّا فقدناه.

### (3)

لم تَمُت السيدة دوفت في ذلك اليوم، لكنها كانت المرة الأخيرة التي سمعت فيها صوتي. بعدها بأسبوع، غَنَّينا (ترتيلة جنازية Trauermusik) في جنازتها.

أبدًا لم أدع مُجددًا إلى منزل آل دوفت. انتهت صداقتي مع أماليا، أو هكذا بدا لي في الأسابيع التي أعقبت الجنازة. رأيتها كثيرًا، رغم ذلك، لأنه مع ازدياد تأثير عمّتها على المنزل، كانت أماليا تُؤخذ إلى القدّاس كل يوم تقريبًا. عندما أجلس بين صبيان الجوقة غير المؤدّين الآخرين قُرب المذبح العالي، لم تكن تتوفّر لي فرصة للاقتراب من الشبيكة التي تفصل صحن الكنيسة إلى نصفين؛ لكن في المرات التي أغني فيها، كنت أتسلّل إلى بوابة الشبيكة قُرب جدار الكنيسة. كانت تلك البوابة موصدة دائمًا ولم تُستخدم أبدًا. كان بمقدوري الاختباء إذا التصقْتُ بالعمود الحجري المثبّته عليه مفضلاتها. عبر الزخارف

المعدنية للبوابة اقتنصت نظراتٍ إليها وهي خلف عَمَّتْها مباشرةً، بين حشد المُصلِّين الخارجين من باب الكنيسة.

لأشهر كثيرة لم أفعل سوى اختلاس النظر إليها من بين وريقات الشجر الذهبية، لكن ذات يوم أحد، لم أستطع المقاومة؛ شذوتُ باسمها بخفوتٍ. نظَّرتُ إلى يسارها، إلى يمينها، إلى ورائها. كثيرٌ من المُصلِّين الآخرين أداروا أنظارهم أيضًا -حمداً للرَّبِّ أن عَمَّتْها صمَاءٌ تقريباً- ثم مرَّرتُ خارجةً من الباب. فعلتُ نفس الشيء في القدَّاس التالي الذي غُيِّبَ فيه، ومُجدِّداً في الذي يليه. في تلك المرة الثالثة، لاحظتُ أنها تسير ببطء، تنتظر أن تسمع اسمها، وعندما همستُ به، استدارت لتنظر إليّ مباشرةً في عينيَّ عبر بوابة الشبيكة.

في المرة التالية التي غُيِّبَ فيها، بعدها بأسبوعين، لم أضطرُّ لمناداتها. سمعتُ تقول لعَمَّتْها إنها ترغب في رؤية التمثال الجسِّي للقديس غالوس، الذي يزيّن الجدار بجوار الشبيكة مباشرةً. رفعتُ كارولين بصرها إلى التمثال وكأنها تشكُّ أن هناك خدعة ما في الأمر، لكن فيما تستقرُّ عيناها على القديس راعي الكنيسة، أومأت بموافقة وخطَّت خارجةً عبر باب الكنيسة. خطَّت أُمالياً إلى المُجسَّم، ولولا الزخارف المنسوجة بكثافة للبوابة، لكان بمقدوري مدَّ يدي وملامسة كتفها. أحنَّتُ رأسها. لوهلة شككتُ أنها أدركت أنني هناك.

تجهَّم وجهها التَّقِيَّ. "ستقع في المتاعب"، قالت.

"وكذلك أنتِ".

"لكنني لا أبالي"، قالت بكبرياء. "لا أخاف منها".

"لا أخاف منها أيضاً"، كذبتُ.

تجهَّمتُ مجدِّداً، ثم قاومت التجهُّم. بدت أنها عادت إلى صلواتها.

"سأتي كل أحد"، قالت بغتة بصوتٍ عالٍ.

"فقط عندما أغني. الأحد القادم هو عيد العنصرة".

"أعرف متى تغني. يمكنني سماعك".

"حقًا؟".

"نعم. حتى وإن كان هناك عشرون صوتًا آخر يغني".

"كيف تعرفين أنه أنا؟" سألتها.

"لا تكن أحمق. أعرف". نظرت إلى عيني. ابتسمت بدفء. "علي أن أذهب". خطت مُبتعدة والتحمت بتيار المُصلِّين الخارجين من الباب الشمالي.

في عيد العنصرة، تمامًا كما وعدتني، عندما ضغطت بعيني على البوابة، مُستكيًا وراء العمود الكبير حتى لا يراني أيُّ راهب، كانت هناك، تُخبر عمَّتها مجددًا أنها تريد الصلاة أمام القديس. إيماءة موافقة من كارولين.

"قلتُ لك سآتي"، قالت.

تحدثنا لمدة ثلاثين ثانية، ثم رحلت. حدت نفس الشيء في المرة التالية التي غُيِّت فيها، وفي كل يوم أحد بعد ذلك لشهور طويلة. أبدًا لم نتحدث طويلًا؛ خشية أن يمسكوا بنا، ورغم أنني كنتُ أرى كل ما يمكن رؤيته منها، إلا أنها لم ترَ منِّي أكثر من تلك العين الواحدة وكسرات ردائي الكنسي الأسود.

"يا لها من حيزبون"، تلفَّظت أماليا في ظهر عمَّتها المنسحبة ذات يوم أحد. "الآن تقول إنني لا أستطيع المشي إلى الكنيسة".

"لماذا؟" سألتها.

"الفتيات من سنِّك لا يجدر بهنَّ السير في الشوارع، حتى مع مُرافقة". هل سأقضي حياتي في ذلك المنزل أو في عربة تجرُّها الأحصنة؟



معها؟، 'سأجعل منك سيدة حقيقية'، تقول، 'حتى لو كلفني ذلك حياتي'. أتمنى أن يحدث هذا. فقط لو تسرق كل لطفة غبار على فستاني ساعة من عمرها. إنها غاضبة فحسب لأنها عانس، لكن هذا لا يعني أن تجعل مني السيدة التي تتمنى لو كانتها". تورّد وجهها بالغضب.

"أعتقد أنك سيدة بالفعل"، قلت.

ضمت أسنانها بقوة، لكن الضحك انفجر من أنفها. كبرت شعورها بالحرج.

"وما أدراك؟".

لم أجبها حينها، لكنني كنت أرى كل أسبوع أن ما قلته كان حقيقياً: أنها في طريقها لتصبح سيدة. الذهبي في شعرها ازداد دكنة قليلاً. وازدادت هي طولاً. لم يعد رأسي يصل إلى كتفها؛ ذلك أنني كنت متقرماً. لم أكتسب سوى إنش واحد كل عام منذ ألقائي كارل فيكتور في النهر. كان لدي القليل جداً لإخبارها به في زيارتنا، فيما كان لديها الكثير. "تحاول لسنوات استثارته برفق"، قالت ذات أحد في صوم الأربعين، "لكن بالأمس غصبت بشدة أخيراً لحد أنها قالتها بصراحة: 'آن الأوان يا فيليبالد. حان وقت إيجاد زوجة'. صدم أبي! وكأنه اكتشف لصاً يعيث في خزانته. تطلّع عبر المائدة، إليّ ثم إليها. 'زوجة؟'، قال. 'زوجة؟ لا يا كارولين. لن أتزوج ثانية. أبداً'. وعندما عاتبته، صرخ - كما لم يصرخ من قبل قط - 'لن أتزوج ثانية أبداً. لا تتحدثي إليّ في هذا الموضوع مجدداً'".

أخبرتني أماليا كيف أن أباه قد ازداد ثراءً فحسب. "بل إن رئيس ديركم الرهيب قد زاره في منزلنا! أردت الاختباء في غرفتي، لكن كارولين أجبرتني على الجلوس بخنوع بجانبها".

ثُمَّ عندما حلَّ عيد العنصرة التالي وانقضَّ: "لم يُعَدِّ بمقدوري احتمال الأمر يا موسى. أمقُتُ ذلك المنزل. إنه كالسجن. سألتُ أبي إن كان بمقدورنا السفر. إلى مكانٍ ما، أيُّ مكان. كنتُ على استعداد للسفر بصحبة كارولين حتَّى، لكن الحيزيون رفضت التفكير في الأمر أصلًا. 'ستزوَّجين قريبًا'، قالت، 'وحينها يمكنك السفر إلى منزل زوجك'."

\* \* \*

على النقيض، لم تتغيَّر حياتي إطلاقًا، حتَّى مع تغيُّر العالم من حولي. في الجوقة، وصلَ صبيان جُدد ليحلُّوا مكان الذين بَلَغَتْ أصواتهم. كان فيدر واحدًا ممَّن رحلوا عن الجوقة بعد وفاة السيدة دوفت بفترة قصيرة. ذات يوم، فيما نتدرَّب على ثنائية جديدة، وبينما ينظر إلينا الصبيان الآخرون برعب، ارتقينا أنا وفيدر معًا في استداراتٍ مُعقَّدة، ومرةً تلو الأخرى، تعثَّرَ صوت فيدر ولم يستطع اللحاق بصوتي.

"إنه يؤدي بشكل خاطئ"، قال زاعقًا لأولرتش، وأومأ كل صبي جالس على الأرض بعينين مُتسعَتَيْن، رافضين قبول ما لا سبيل إلى تفاديه.

"موسى يؤدي بشكل مُتقَن". قال أولرتش مُؤثِّبًا. "دائمًا ما يفعل". ابتسمَ لي، وانكمشتُ خوفًا؛ ذلك أنني كنتُ أدرك أن هذا النوع من الإطراء سيزيد من كراهية الصبيان لي.

"هذه المرة يؤدي بشكل خاطئ"، أصرَّ فيدر.

"إذن فغنِّ المقطوعة بمفردك"، عرضَ عليه أولرتش. استدرنا جميعًا لننظر إلى فيدر، كان الاحمرار يزحف إلى عنقه، فيما يشرَع في الغناء. ضمَّ الصبيان قبضاتهم وهزُّوا رؤوسهم بحماس، وكأنهم يهتفون لحصان. ارتقى في الغناء، ولسانه الرشيق يشطر كل نغمة، ثم مجددًا، تعثَّرَ؛ لم يستطع الوصول إلى النغمة. تحامَلَ على صوته، وتراجع كل

صَبِيٍّ فِيمَا صَوْتُهُ يَتَشَقَّقُ إِلَى نَشَازٍ صَارَ. غَشِيْنَا الصَّمْتَ. اسْتَدَارَ فِيدِرُ  
إِلَيَّ وَرَفَعَ إصْبَعًا، وَرَغِمَ أَنَّنِي تَرَاوَعْتُ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ إِهَانَةً مُنَاسِبَةً.  
انْسَحَبَ خَارِجًا مِنَ الْغُرْفَةِ.

ظَلُّ مَعْنَا لِبَضْعَةِ أَيَّامٍ، يَغْنِي بِهَدْوٍ فِي الْخَلْفِيَّةِ، مَلَقِيًا نَظَرَاتٍ  
غَاضِبَةً عَلَيَّ كُلِّ ثَانِيَةٍ. فِي يَوْمٍ تَدْرِيْبٍ فِيدِرُ الْآخِرِ، طَلَبَ مِنِّي أُولَرْتِشْ  
قِيَادَةَ الصَّبِيَّانِ فِي السَّلَامِ الْمَوْسِيقِيَّةِ، الَّتِي كَانَتْ تَلَقَائِيَّةً وَجَلِيَّةً لِي كَمَا  
الْأَلْوَانُ لِلرَّسَامِ. لَدَقِيقَتَيْنِ، أَنْصَتُ قَائِدَ الْجَوْقَةِ لِي فِيمَا أَغْنِي وَيُكْرَّرُ  
الصَّبِيَّانِ الْآخَرُونَ وَرَائِي فِي تَنَاعُْمٍ. لَمْ يَغْنُ فِيدِرُ حِينَهَا. "اسْتَمِرَّ حَتَّى  
أَعُودُ"، قَالَ أُولَرْتِشْ وَغَادَرَ الْغُرْفَةَ.

كَالْمُعْتَادِ، تَدَاعَتْ هَرَمِيَّةُ الْمَوْهَبَةِ فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي اخْتَفَى فِيهَا.  
لُسَلَمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ، اسْتَمَرَ الصَّبِيَّانِ فِي تَقْلِيدِ نَغْمَاتِي، لَكِنْ بِحِمَاسٍ أَقْلٍ،  
ثُمَّ بَدَؤُوا فِي التَّمَلُّمِ وَخَفَضَ أَصْوَاتَهُمْ، حَتَّى صَرْتُ أَغْنِي بِمُفْرَدِي فِي  
نَهَابَةِ الْمَطَافِ.

تَرَنُّحَ صَوْتِي، وَوَقَفْتُ صَامِتًا أَمَامَهُمْ كَمَلِكٍ خُلِعَ عَنْ عَرْشِهِ. لَمْ  
يَنْظُرُوا إِلَيَّ، لَكِنِّي شَعَرْتُ بِازْدِرَائِهِمْ لِي. فِيمَا يَحْتَشِدُ الصَّبِيَّانِ حَوْلَ  
فِيدِرِ، عَاوَدَتْنِي فِكْرَةُ أَنَّ صَوْتِي، بِكُلِّ كَمَالِهِ وَمَثَالِيَّتِهِ، لَا يَعْنِي شَيْئًا فِي  
الْعَالَمِ الْوَاسِعِ فِي الْخَارِجِ، عَالَمٍ سَيَعُودُ إِلَيْهِ قَرِيبًا فِيدِرُ عَالِي النَّسَبِ،  
وَإِلَيْهِ سَأَلْقَى أَنَا أَيْضًا ذَاتَ يَوْمٍ، عَاجِزًا وَبَائِسًا.

ثُمَّ أَدَارَ فِيدِرُ ظَهْرَهُ إِلَيَّ وَسَحَبَ شَيْئًا مِنْ تَحْتِ قَمِيصِهِ، كَانَ مِنْ  
الْوَاضِحِ أَنَّهُ يَرِيدُ إِخْفَاءَهُ عَنِّي. اقْتَرَبَ حَشْدُ الصَّبِيَّانِ مِنْهُ أَكْثَرَ، وَصَمْتُوا  
عَلَى الْفُورِ عِنْدَ مَرَأَى مَا يَحْمَلُهُ. نَظَرَ وَاحِدٌ أَوْ اثْنَانِ مِنْهُمْ بِعَصَبِيَّةٍ  
إِلَى الْبَابِ، الَّذِي سَيَعُودُ عِبرَهُ أُولَرْتِشْ بَعْدَ قَلِيلٍ، لَكِنَّهُمْ سَرَعَانِ مَا  
أَشَاحُوا بِنَظَرِهِمْ عَنْ كَنْزِ فِيدِرِ الْغَامِضِ. لَمْ أَجِرُّ عَلَى الْاقْتِرَابِ مِنْ  
الْمَجْمُوعَةِ، رَغِمَ أَنَّنِي كُنْتُ أَحْتَرِقُ بِالْفُضُولِ بِالطَّبْعِ. كُنْتُ عَلَى يَقِينٍ  
أَنَّ مَا يَحْمَلُهُ كَانَ دَلِيلًا ضَدِي.

بعد بضع دقائق، كان الصبيان أثناءها يتدافعون كالخنازير على حوض ماء، استدار فيدر ناحيتي. كان يضم ورقة صغيرة على صدره. "هل تحب أن ترى يا موسى؟" سألني، وتحت ستار تطفه، كإيقاع راعد يتصاعد ببطء على غشاء طبلية، سمعت تهديدًا. لكن فيما يخطو للأمام، تمثيت أن يكون هذا فصلًا أخيرًا يملؤه السلام. اقتربت منه. ابتسم ومدّ الورقة إليّ.

كانت رسمة بالقلم الرصاص، بشحم على حواف الورقة نتيجة تمريرها عبر أيايد شابة كثيرة، تُصوّر امرأة تستلقي عارية على فراش، ساقاها منفرجتان، مع كهف مُظلم في موضع التقائهما. كانت عيناها كبيرتين على نحو مستحيل. تُحدّقان بلهفة في رجل يقف فوق رأسها، من بطنه يمتد عضو عملاق، منتفخ. خصيتان تتدليان على جانبيه، كشمّامين في شوال.

زحف الفوران على عنقي وأحرق خذيّ. تضاحك الصبيان من الصدمة على وجهي. تمايلوا على بعضهم البعض لمنع أنفسهم من السقوط فيما يستغرقون في الضحك. بالطبع، كنت سمعتهم يتحدثون عن مشهد كهذا من قبل، لكنني لم أتخيله بهذه الوضوح في عقلي قط. رفع فيدر الصورة أمامي لما بدا أنه ساعات، لكنني لم أستطع انتزاع عيني عن الرجل، عن عضوه، عن الثقب الأسود بين ساقي المرأة. أبعدت عيني أخيرًا واتجهت بهما إلى الأرض.

"ألا تريد أن تنظر إليها أكثر؟" همس فيدر بوحشية.

أردت ذلك. بالطبع أردت، لكنني أدركت أنه لا ينبغي أن أجعلهم يرون تلهفي.

"هل رأيت امرأة عارية في حياتك من قبل؟ هل تعرف أصلًا ما يعنيه هذا؟" قال فيدر ببطء شديد، وكأنه يتحدث إلى معتوه. أشار إلى ما بين ساقي المرأة، وانفجر الصبيان وراءه في ضحك مهتاج.

تَحَامَلْتُ عَلَى نَفْسِي لِأَنْظُرَ إِلَى الْأَرْضِ مُجَدِّدًا. شَعَرْتُ بِتَحْدِيقَاتِهِمْ عَلَيَّ كَهَرَاوَاتٍ نَاحِزَةٍ. "أَوْ رِمَا"، قَالَ، وَقَدْ اسْتَدَارَ الْآنَ لِيتَحَدَّثَ إِلَى الصَّبِيَانِ، "لَا تَتَّيِّرْ هَذِهِ الْمَرْأَةَ اهْتِمَامَهُ عَلَى الْإِطْلَاقِ. رِمَا تُفَضِّلُ الرَّجُلَ".  
تَوَقَّفَ الضَّحْكَ الْآنَ، وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الصَّمْتِ.

عِنْدَمَا طَرَفْتُ بَعَيْنِي، بَدَأَ دَفَقُ الدَّمُوعِ عَالِيًا لِحَدِّ أَنْفِي تَبَقُّنْتُ أَنْ  
كُلَّ صَبِي كَانَ بِمَقْدُورِهِ سَمَاعَ خَزْيِي.

"سَأُرْجِلُ الْيَوْمَ"، قَالَ فِيدِرْ أَخِيرًا، بِخَفْوَةٍ يَكْفِي لِيَبْدُو أَنَّهُ يَتَحَدَّثُ  
إِلَيَّ أَنَا وَحْدِي الْآنَ. "أَنَا سَعِيدٌ جَدًّا لِأَنْفِي لَنْ أَضْطُرُّ أَبَدًا لِمُشَارَكَةِ  
الْجَوْفَةِ مَعَ وَاحِدٍ مِنْ أَمْثَالِكَ مُجَدِّدًا. كُنْتُ أَمْنَى، رَغْمَ ذَلِكَ، لَوْ  
اسْتَطَعْتُ الْبَقَاءَ لِفَتْرَةٍ أَطْوَلَ قَلِيلًا، حَتَّى تَرْجُلَ أَنْتِ فِي النِّهَايَةِ. وَدِدْتُ  
أَنْ أَرَى هَذَا الدَّيْرَ وَقَدْ عَادَ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مُجَدِّدًا. بِدُونِكَ. بِدُونِ  
الرَّاهِبَيْنِ الْقَذَرَيْنِ، صَدِيقَيْكَ الْوَحِيدَيْنِ".

أَدْرَكْتُ حِينَهَا أَنَّ سِرَّ نِيكُولَايَ وَرِيمُوسَ كَانَ قَدْ انْتَشَرَ مِنْذُ زَمَنِ  
طَوِيلٍ فِي الدَّيْرِ. طَالَمَا هَمَسَ الصَّبِيَانُ بِشَأْنَهُمَا، لَكِنْ هَذِهِ كَانَتْ أَوَّلَ  
مَرَّةٍ يَنْطِقُ أَيُّ أَحَدٍ بِالسَّرِّ بِصَرَاحَةٍ هَكَذَا. انْفَجَرَ خَجَلِي مِنْ هَذِهِ  
الصُّورَةِ، وَحَبَّبِي لِصَدِيقِي، وَتَحَوَّلَ إِلَى غَضَبٍ. اخْتِطَفْتُ الصُّورَةَ مِنْ يَدِ  
فِيدِرْ وَمَزَّقْتُهَا إِلَى نِصْفَيْنِ. مَزَّقْتُهَا مُجَدِّدًا فِيمَا يُسْقِطُنِي أَرْضًا، لَكِنِّي  
فَقَدْتُ الْقِصَاصَاتِ فِيمَا يَرْكَلُنِي بِقَدَمِهِ.

انْكَسَرَ الصَّمْتُ. تَجَمَّعَ الصَّبِيَانُ حَوْلَنَا، وَكَانَ بِمَقْدُورِي سَمَاعِ الْكِرَاهِيَةِ  
فِي أَصْوَاتِهِمْ وَهُمْ يَهْتَفُونَ فِي فِيدِرْ "ارْكُلِ الْكَلْبَ". أَطْلَقَ الْعِنَانُ لِأَفْضَلَ  
مَا لَدَيْهِ. انْسَابَتِ الدَّمَاءُ مِنْ فَمِي حَتَّى تَبَقُّنْتُ أَنْفِي لَنْ أَتَنْفَسَ ثَانِيَةً  
أَبَدًا. وَطَوَالَ كُلِّ هَذَا، فِيمَا غَضِبَهُ يَزْدَادُ اهْتِيَاجًا بِشَكْلِ غَيْرِ مَفْهُومٍ،  
مَا زِلْتُ أَسْمَعُهُمْ يَهْتَفُونَ سَاخِرِينَ، "ارْكُلْهُ يَا فِيدِرْ! حَانَ الْوَقْتُ لَكَ  
يَفْهَمْ! اجْعَلْهُ يَدْفَعُ الثَّمَنَ!".

ثمن ماذا؟ حاولت أن أصرخ. أدفع ثمن ماذا؟

في اليوم التالي رحل. بقيت في الدير، كأكبر صبيان الجوقة سنًا وأكثرهم موهبةً وأقلهم نيلاً للاحترام. تراءى لي حينها أن حياتي لن تتغير أبدًا.



## (4)

بعد عامٍ من وفاة السيدة دوفت، بدأت في النُمو.

كان الأمر وكأن كل غنائم نبيلمات تلك، كل سيقان حِملان سانت غال تلك، كل لحم الخنزير ذلك، ولحوم الضأن، والأجبان، وثمار اللوز، والحليب، وخمر التفاح، والنبيد، كانت تخزّنت وتراكمت في جسدي الضئيل، ثم اكتشفتُ، بغتةً، كل ذلك الوقود المُختبئ واستخدمته للانبثاق أخيراً من صَدفتي.

بدأ الأمر، ذات يومٍ أثناء تدريبات الجوقة، كألمٍ خامد في يَدَيَّ وقدمَيَّ. استمرَّ الوجع لبضعة أسابيع، ثم استيقظتُ ذات صباح لأكتشف أنه انتشر إلى ركبتيَّ وخصري، ومرفقيَّ، ثم إلى كل مفاصلي. صار يؤلمني بشدّة لدرجة أنني لم أستطع النوم. امتدَّ الألم إلى مِحجرتي عينيَّ، وظننتُ أن جمجمتي ستُنشق. في ستة أشهر تضاعف حجم يَدَيَّ وقدمَيَّ؛ في سنة صرْتُ أطول بمقدار رأس.



في الدير أثار مُؤَي القلق، كاحتشاد سحبٍ داكنة. "سرى أوقاتاً عصبية"، قال لي نيكولاي ذات ليلةٍ في صومعته. أخبرني أن صوتي سيتشقق قريباً، وأنني لن أعد مؤدّي سوبرانو.

"لا أحد يعرف ماذا سيحدث"، قال. "ربما تصبح تينور، أو ربما باص". كان يأمل أن يكون أولرتش خيراً بما يكفي ليجد لي طريقة للبقاء في الدير. شتاوداخ، أخبرني نيكولاي، ربما لن يوافق على جعلي راهباً مُبتدئاً، دون أبٍ ثريٍّ يتبرّع للدير من أجلي، لكن ربما يجعلني المُع الفضّة حتى يستقرّ صوتي في وضعه النهائي. "حينها"، قال نيكولاي، "نستطيع أن نجد أفضل مكان متاح لتبدأ فيه مهنتك". أوماً وكأنه عالم ببواطن الأمور. "فينيسيا، على الأغلب".

"مهنتي؟" سألته.

"تريد أن تكون موسيقياً، أليس كذلك؟".

فكرتُ في هذا. "مثل بوجاتي؟".

"حسنًا"، قال نيكولاي، وألقى بنظرة خاطفة على ريموس، المُستغرق في كتابه، "تقريباً. ربما يسمح لي شتاوداخ بأخذك في رحلة. بمقدورنا أن نغني في أعظم كاتدرائيات أوروبا". لَوْح نيكولاي بذراعه وكأنه تلك الأبنية المهيبة تصطفُ على جدار صومعته.

أخبرته أنني أحب ذلك.

"بالطبع"، قال، "في المرة القادمة التي أغادر فيها هذا المكان، أشك أن شتاوداخ سيسمح لي بالعودة مرةً أخرى. لكن حينها سيكون بمقدورنا تشييد ديرنا الخاص- أنت وأنا وريموس". عند هذا، رفع ريموس بصره عن كتابه. نخر، ثم عادَ إلى صفحاته. تجاهلّه نيكولاي. "أمر واحد مؤكّد: إذا سُمح لك بالانطلاق في جولةٍ حول العالم وصرتُ ثرياً ومشهوراً، فلن تتركني وراءك!".

عادَ للاستلقاء على فراشه وأغلق عينيه في ارتياح ورضا. "الآن ليس علينا سوى أن ننتظر صوتك. كُن صبوراً".

\* \* \*

ليالي كثيرة كنتُ أقف فيها عارياً أمام المرأة الصغيرة في غرفتي في العليّة وأنفخ حصّ جسدي الذي كان يبدو وكأنه يتغيّر كل ليلة. لقد جعلتُ منك موزيكو، قال رابوتشي حينها، والآن لم يعد هناك شك. كانت هناك أصابع بوجاتي الطويلة، الرقيقة، صدره المستدير، المتكور، وكأنه صدر طائر. صار رأسي يحتكّ بالسقف المائل. كان بوجاتي يبدو لي طويلاً قبل سنوات، لكنني الآن صرتُ أطول منه، أطول حتّى من كل الرهبان باستثناء نيكولا. كان للرهبان المبتدئين من سنّي شعراً أحمر فوق شفاههم، لم يكن لديّ. كانت تفاحة آدم عندهم تبرز من أعناقهم؛ فيما كانت عندي ناعمة كأعناق النساء. كان جلدي أبيض ونقيّاً، مع لمسات خفيفة حمراء على خديّ، لكن بلا شائبة واحدة، بلا أيّ من البثرات التي تملأ وجوه الصبيان الآخرين. كانت شفتاي ممتلئتين، لا تختلفان كثيراً عن شفاه النساء، لكنّ أحداً لم يكن ليُخطئ هذا الوجه ويظنه وجه امرأة. كانت هاتان العينان نافذتين للغاية لحدّ أنني كنتُ أجفل في كل مرّة ألمحهما في المرأة. ومع ذلك كنتُ أنظر كل ليلة؛ ذلك أن ما أراه في المرأة لم يكن رجلاً، ولا امرأة، بل كان مَلاكاً.

نَبَوْتُ حتّى فاق حجمي تلك الكنيسة. عَصَفْتُ بالجوفة، لأنّه حتّى عندما أغنّي بأخفض درجة كان صوتي يجعل صوت الصبيان الآخرين مختنقاً وبارداً. في لقاءاتنا القصيرة عند بوابة الشبيكة، حيث ما تزال أماليا تحني رأسها وتبدو كأنها في صلاةٍ لأيّ ممّن قد يراها، كنتُ أتوق لأسمع إطرأها على غنائي. "أوه، موسى"، قالت ذات أحد،

"قلبي يُرْفرف عندما تُغْنِي. مجرد التفكير أنك كنت لنا وحدنا أنا وأُمِّي". صرْتُ أختلس النظر عبر فُرْجةٍ أعلى الآن، لأتطلَّع من علٍّ إلى جمالها. من وقتٍ لآخر، تُلقِي هي بنظراتٍ خاطفةٍ لأعلى، وأراها أنا تحاول تبين شكلي البشري عبر تشابُكات أوراق الشجر الذهبية، لكنها أبداً لا ترى هينتي الملائكية. "المس يدي"، قالت لي ذات يوم، بتهوُّرٍ، متجاهلةً انحناءاتها التَّقِيَّةَ لوهلةٍ حتى تتناول وتُلامس البوابة. أُمِرُّ إصبعين نحيلتين طويلتين عبر فرجةٍ وأفركُ جلد يدها الناعم للحظة. يحمُرُ خذاها فيما تستدير مُسرعةً للقاء عمَّتها.

كان الجميع يتوق إلى سماعي. حتَّى البروتستانت كانوا يجيئون من المدينة لسماع قُدَّاسنا. في نهاية المطاف، صارت الكنيسة العملاقة صغيرة جداً على استيعاب الحشود. قَسَمَ شتاوداخ المدخل بحيث يضمن المصلُّون الأكثر ثراءً، هؤلاء الذين يحتاج إلى رعايتهم، مكاناً للجلوس في مقاعد الكنيسة، فيما يتزاحم الآخرون للوقوف في المؤخرة. كان الجَمع يتهامس وينام ويأكل فيما شتاوداخ يَعِظُ بكمال الرُبِّ ومِثاليته، لكنهم يصمتون فيما أغْنِي.

ثم، في ليلةٍ واحدة، تَغَيَّرَ كل هذا، وأكثر بكثير.

\* \* \*

كُنَّا في غرفة نيكولاي. ريموس يقرأ عابساً، ونيكولاي يُبهجني بتصوراته عن مستقبلنا: سنسافر عبر أوروبا معاً كَمَغْنٌ ووكيل أعمال. كان قد تَأَمَّرَ بشكلٍ ما للتسَلُّل من حجرة الطعام تلك الليلة بثلاثة أباريق من نبيذ الدير، وبعد أن احتسى اثنين منها بالفعل، دَمَعَت عيناه، وصارَ في أفضل مزاج. الآن كانت خطَّته من أَجَلِي قد تشكَّلت: قصرٌ في فينيسيا سيكون بيتنا، ومن هناك سنسافر إلى أعظم مسارح أوروبا. سنصطحب ريموس معنا ليحمل حقائبنا، فسرَّ لي، ضاحكاً

وصاخبًا بصوتٍ عالٍ جدًا، لحدّ أنني تيقّنتُ أن كل راهب في الرواق بمقدوره سماعنا.

كان نيكولاي قد قرّر، بما أن صوتي كان بطيئًا على نحوٍ مُدهش في تغييره، أنني سأصير بالتأكيد مؤدي تينور. "مؤدّو التينور هم الأخبث"، قال. "يرتدون أزياءً مثل الأمراء، يمشون مُتبخّرين وكأن حركتهم وحدها قادرة على تدويخ النساء، وهو ما يحدث في الحقيقة. في كل مكان يذهبون إليه يتركون وراءهم قافلة من النساء فاقدمات الوعي. لا يمكنك دعوتهم إلى حفلات العشاء في منزلك؛ لأنك ستجد كومةً من الضيوف على الأرض في نهاية الليلة". بدا جَزَعًا بغتةً. "لكنك لن تصير مثلهم، أليس كذلك يا موسى؟".

هزّزْتُ رأسي.

"لا؟" هتف، بعد اجتراع كأس آخر من النبيذ. "ولِمَ لا؟ ما المشكلة في تدويخ بضع نساء؟ هذا ما يُردّنه. كل امرأة ترغب في أن تدوخ من الحب مرّةً واحدةً في حياتها على الأقل. الرجال يرغبون في ذلك أيضًا، لكن حجمهم يجعل من الصعب عليهم أن يفقدوا وعيهم. فقدتُ وعيي ذات مرّة بسبب الحب".

"لم يكن ذلك حقيقيًا"، قال ريموس، رافعًا بصره. "في تياترو دو كاله كنتَ تتظاهر بذلك".

"لم أكن أنظاھر".

لمحتُ ابتسامةً مكبوتة على وجهه. "إذا فقدتَ وعيك حقًا"، قال، "سيعلم العالم أجمع بذلك. فالأرضيات ليست مُصمّمة لتحمل أوزان كوزنك".

هزّ نيكولاي كتفيه استهانةً. "إنه على حقّ. لا يُسمح لي بالإغماء. ماذا أقدم لأصبح سيّدةً نحيلة! حينها سأرغمي ساقطًا متى استولى

عليّ الشراب! سأفعل ذلك طوال الوقت حينها". نهَضَ وتَصَنَّعَ التَّائِقُ بأفضل ما لديه، يدها العملاقتان ممدودتان أمام صدره كمخالب أرنب. "سأوالف أذنيّ وعينيّ بدقة شديدة على الجَمال بكل صورة لحدّ أنني سأتمايل على الحافة. لن أحتاج سوى إلى نظرة خاطفة ليُرفرف قلبي، ثم أسقط". تطلَّع إليّ، مُتظاهراً بالوقوع في الحب، ووضع يداً على جبينه، ثم فقدَ وعيه، بحذرٍ، برفقٍ، واستلقى على الفراش. حتّى مع ذلك، انبعث الأنين من هيكَل الفراش. صَقَّقْتُ تحبّةً لأدائه. نخرَ ريموس.

"والحال هكذا"، قال نيكولاي، مُتَكِّئاً على الحشِيّة ومُحدِّقاً في السقف، "بهذا التكوين الجسماني عليّ أن أُخمد أذنيّ وأعتَم عينيّ حتى لا أجري المخاطر على نفسي وعلى البشرية. هذا الجسد مسؤولية جسيمة". ثم فَرَكَ بطنه المهول بيدين عملاقتين. هزَّ ريموس رأسه.

"لا تَخَفْ يا موسى"، قال نيكولاي، مانحاً بطنه تربتةً مُحبّةً، أخيرة. "ريموس يُقدِّس هذا التكوين الجسماني بشكل أو بآخر".

رفع ريموس بصره بغضب عن كتابه، اختفت الابتسامة عن وجهه الآن. "انتبه لما تقوله. هذا النبيذ يُرخي لسانك حقاً".

"أوه، عزيزي ريموس، ليس لدينا أسرار هنا. ليس مع موسى. إنه لا يخفي شيئاً عنّا، ولا نخفي شيئاً عنه".

"بعض الأمور من الأفضل أن تظلّ طي الكتمان".

أوماً نيكولاي في اتّجاه السقف. "أنت على حقّ يا ريموس. هناك من الحُبِّ ما لا يجدر الحديث عنه".

قَطَّبَ ريموس جبينه. "شكراً". هزَّ كتفيه بحرَجٍ ناحيتي وكأنه يطلب معذرتي.

"أحيانًا ما يحتاج الأمر لأغنية فحسب". اعتدل نيكولاي. ابتسمت.  
بدا ريموس مُتألِّمًا. سمعَ كلانا العزيمة في صوته: احتشاد عاصفة.  
"لا يا نيكولاي. ليس الآن". مكتبة سُر من قرأ  
"موسى؟".

"نعم؟" اعتدلتُ ووضعتُ يديَّ على ركبتيَّ، كمُستمعٍ تَوَّاق.  
صبَّ كأسًا آخر واجترعه كالماء، ثم وقفَ في منتصفِ الغرفة. تمايلَ  
من جانبٍ إلى آخر. كانت عيناه متأرجحتين، لكن برأقتين ومبتهجتين  
للغاية. "حان وقت الغناء!".  
أغلق ريموس كتابه. "نيكولاي، الوقت متأخر جدًا"، قال. انتصب  
واقفًا. "أنا وموسى سنغادر".

"أبدًا لا يتأخر الوقت لأغنية حبّ".  
"تأخَّر الوقت الليلة". أشار ريموس بكتابه إلى نيكولاي. "لا تمنحهم  
سببًا آخر لكُرهك يا نيكولاي".  
"كُرهِي؟ كيف لأيِّ إنسان أن يكرهني بسبب حبِّي؟".  
"سنتحدَّث عن ذلك في الصباح".  
"عندما لا أكون مُملًا بالحبِّ؟".

"وبسوائل أخرى"، أومأ ريموس إليَّ وأشارَ إلى الباب.  
"لا!" هتف نيكولاي، وكأننا على وشك خيانتة. وضعَ إصبعًا لإبقائي  
في مقعدي، مُتمايلًا برفقٍ ورأيي. "المُحبُّ المخلص لا يتراجع أبدًا عن  
إعلان حبِّه. الآن عليَّ أن أعني، وإلا لن تُصدِّق الآلهة حبِّي".  
"أرجوك"، قال ريموس بجديَّة. "ليس الليلة".

تطلّع نيكولاي إليّ. "هل ترى المشكلة؟ إذا غيّتُ سيغضونني؛ وإذا لم أغنّ، سأبغض نفسي". هزّ كتفيه استهانةً. "ليس خيارًا صعبًا".

عادَ إلى نبيذه، صبَّ كأسًا مُجدّدًا، اجترَعَ رشفةً، ثم خطا إلى خشبة مسرحه الارتجالي. جذبَ ريموس كُمّي. انحنيتُ وكأنني سأنهض لمغادرته، لكنني لم أفعل. لم أستطع.

بدأ نيكولاي بهدوءٍ شديد:

"O cessate di piagarmi, o lasciatemi morir, o lasciatemi morir"

"أوه، اعتقني من هذا العذاب، أوه، دعني أموت، دعني أموت!".

استدارَ ناحيتي وهمس: ألا ترى يا موسى؟ أنا مُعذّبٌ بالحبِّ!".

"هذه الأنوار الجاحدة *Luc' ingrate, dispietate*". تمایل باهتياج، ذراعاه كأغصانٍ في الريح. ازداد غناءه صخبًا الآن، صخبًا يكفي لأن يسمعه الرهبان الآخرون عبر الجدران حتمًا:

*"Più del gelo e più dei marmi fredde e sordi ai miei martir, fredde e sorde ai miei martir."*

"عديم الرحمة، عديم الرحمة، صامت، بارد، تجاه استشهادي، وكأنه الجليد، وكأنه المرمر".

وضعَ نيكولاي يديه على عينيه وكأنه يريد انتزاعهما.

"حسنًا يا نيكولاي"، قال ريموس. جذبَ قميصي بشدّةٍ أكبر. "هذا يكفي. أوضحتُ وجهةَ نظرك".

كرّر نيكولاي: "أوه، اعتقني من هذا العذاب، أوه، دعني أموت، دعني أموت!".

"موسى"، قال ريموس. هزُّ ذراعي. "علينا أن نذهب. سيتوقَّف إذا غادرنا".

"هذا ما يفعلونه دائماً"، قال نيكولاي لي، وكأن ريموس ليس معنا. "يكرُّون نفس الشيء مرارًا وتكرارًا، مرارًا وتكرارًا. يجعله هذا أقوى. وإلى ذلك، ليست الكلمات ما يهم. بل الغناء".

"أوه، اعتقني من هذا العذاب، أوه، دعني أموت، دعني أموت!" غناها بصخبٍ أكبر الآن، ووضعَ يداً على قلبه وكأنه على وشك الانفجار. صدَّحَ رنينه الباص المرتعش في معدتي. كنتُ على يقين أن الجناح بأكمله قد سمعَ أغنية حُبِّه. لم أستطع كتمان الضحكة المتنامية على وجهي. ضحكْتُ بابتهاج. لم يكن نيكولاي يتمتع بنفس سيطرتي المطلقة على النغمات، لكنه اقتنص عَظْمَةَ الموسيقى.

"أنت أيضًا يا موسى". مدَّ يداً للترحيب بي على خشبة مسرحه.

"موسى، أرجوك"، قال ريموس.

نظرْتُ إلى أحدهم ثم إلى الآخر، ريموس بقلقٍ كبير على وجهه، ونيكولاي ببهجةٍ عارمة. لم يكن خيارًا صعبًا.

أبدًا لم أغنُ بالإيطالية من قبل، لكنني بذلتُ ما في وسعي لتقليد نيكولاي، بمقدار أوكتافين أعلى.

"O cessate di piagarmi, o lasciatemi morir, o lasciatemi morir!"

"أعلى!" هتف بي، وكأنه قسٌ وثني. "السماء تحتاج لأن تسمعنا!"

"O cessate di piagarmi, o lasciatemi morir, o lasciatemi morir!"

"معًا!" أغلق عينيه ولوَّح بذراعيه.



"O cessate di piagarmi, o lasciatemi morir, o lasciatemi morir!"

فيما أكرّر الكلمات بمفردتي مُجدِّدًا، ارتجلَ نيكولاي، ثم غنى سطر  
باص بسيطًا فيما ارتجلتُ أنا. غنينا نفس الكلمات مرارًا وتكرارًا، وفي  
كل مرة نبتعد أكثر وأكثر عن الأصل حتّى لم يتبقَّ من الأغنية سوى  
الكلمات. لم تُعد الأغنية حول الحُب؛ صارت الآن حول الموسيقى،  
حول قوّة الموسيقى. قوّة كصواعق زيوس.

غنى نيكولاي بمفرده.

غنينا معًا.

غنيتُ بمفردتي.

ضحك نيكولاي فيما أجول وأدور. كنتُ أمطُ كل كلمة لتصل إلى  
عشر نغمات، عشرين نغمة، ولتستمرّ كل جملة واحدة لدقيقة كاملة.  
هزّ نيكولاي رأسه بإعجاب. رغم أن ريموس كان مُقعّيًا وكأنه ينوي  
الهروب من الغرفة، كانت عيناه مُثَبَّتَتَيْن على وجهي، وفمه فاغر  
بعض الشيء. أدركتُ في تلك اللحظة أن لا أحد، باستثناء أولرتش، كان  
يدرك القوة الحقيقية لصوتي. في الكنيسة، كنتُ مُقيّدًا بتلك الأغاني  
المقدّسة، المروّضة. والآن أشعر بقوة هذه الموسيقى الإيطالية، الأكثر  
إعجازًا بكثير من موسيقى باخ حتّى. أخذتُ نَفْسًا في رثتي الواسعتين  
وغنيتُ. انتفخَ صوتي فيما يرتقي. صدحت مرآة نيكولاي بارتعاشات  
صوتي. غنيتُ بصوتٍ أعلى. أردتُ أن أحطم كل نافذة في الدير بجمال  
غنائي. تنفّستُ مُجدِّدًا، وانحسرَ صوتي، ثم تصاعدتُ مُجدِّدًا أكثر، حتّى  
وجدتُ نغمةً عاليةً ورائقةً لم أغنّها من قبل قط. أمسكتُ بها، بصوتي  
يرتعش بموجات صغيرة من الصوت داخل الموجة الأكبر، حتّى تلاشي  
ذلك النَفْس الهائل.

تَوَقَّفْتُ لَاهُثًا. اسْتَغْرَقَ الْأَمْرُ بَضْعَ ثَوَانٍ حَتَّى تَبَدَّدَ صَوْتِي أَخِيرًا  
فِي اللَّيْلِ. حِينَهَا، وَسَطَ الصَّمْتِ، رَأَيْتُ عَلَى وَجْهِ صَدِيقِي أَنَّ حَيَاتِي  
كَانَتْ قَدْ تَغَيَّرَتْ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ.

لَمْ يَعُدْ نِيكُولَايِ يَتَسَمَّ. وَضَعَ يَدَهُ أَمَامَ أَنْفِهِ. كَانَ وَجْهُهُ شَاحِبًا،  
وَكأنه رَأَى شَيْحًا. "لِيسَامَحْنَا الرَّبُّ"، قَالَ.

حَدَّقَ رِيمُوسُ فِي الْأَرْضِ.

"مَاذَا؟" سَأَلَتْ. "مَا الْأَمْرُ؟" لَكِنِّي أَدْرِكُ بِالْفِعْلِ مَا الْأَمْرُ، أَدْرِكُثَهُ  
رَغْمَ أَنَّنِي لَمْ أَسْتَوْعِبْهُ بِالْكَامِلِ.

اِغْرُورِقْتَ عَيْنَا نِيكُولَايِ بِالدَّمُوعِ. "كَيْفَ كُنْتُ بِهَذِهِ الْحِمَاقَةِ؟"  
قَالَ.

رَفَعَ رِيمُوسُ بَصْرَهُ إِلَيَّ، وَبَدَتْ عَيْنَاهُ وَكَأَنَّهَا تَقُولُ، مُوسَى، حَانَ  
الْوَقْتُ لِنَتَوَقَّفَ عَنِ التَّظَاهَرِ. ثُمَّ عَادَ بِبَصْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ.

حَدَّقَ نِيكُولَايِ إِلَيَّ وَكَأَن جَسَدِي كَانَ يَتَحَلَّلُ إِلَى ضَبَابٍ. اتَّخَذَ خُطْوَةً  
لِلأَمَامِ وَمَدَّ يَدَهُ.

تَرَاجَعْتُ عَنْهُ. شَعَرْتُ أَنَّنِي حَيَوَانٌ مُحَاصَرٌ، وَكَأَنَّي أَشْعُرُ بِالْفِعْلِ  
بِفَكْئِنِ حَوْلِ عُنُقِي.

انْقَضَّ نِيكُولَايِ. ضَغَطَ بِجَسَدِهِ الْعَمَلِاقَ عَلَيَّ قِبَالَةَ الْجِدَارِ. فَاحْت  
مِنْهُ رَانِحَةُ النَّبِيذِ.

«لَا!» صَرَخْتُ. هَزَزْتُ رَأْسِي بِاِهْتِيَاجٍ.

«أَنَا آسَفُ يَا مُوسَى»، قَالَ. «عَلَيَّ أَنْ أَتَأَكَّدَ». جَذَبَ رِدَائِي لِأَعْلَى.

حَاولْتُ أَنْ أَدْفَعَهُ بَعِيدًا، لَكِنَّهُ كَانَ فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ. شَعَرْتُ بِيَدَيْهِ  
عَلَى مَلَابِسِي التَّحْتَانِيَّةِ، وَفِيمَا أَتَلَوَّى فِي قَبْضَتِهِ، انْتَزَعَهَا عَنْ جَسَدِي،  
وَبَغْتَةً صَرْتُ وَاقِفًا أَمَامَهُمَا عَارِيًا. لَمْ يَتَحَرَّكْ أَيُّ مِنَ الرَّاهِبِينَ لَوْهَلَةٍ

طويلة؛ ثم أفلتني نيكولاي. مدّ يداً مُرتعشة، وكأنه يرجو العفو عن الاعتداء. كانت أنفاسه مُهلهلة. ضمّ قبضتيه وطرفَ بعينه الداميتين المكدودتين وكأنه يناضل حتّى تنصاع له رؤيته المُغْبِثَة، الثُّمَلَة.

وقفَ ريموس وراء نيكولاي. وضع يداً على كتف الرجل الأضخم منه. "نيكولاي"، قال. "عليك أن...".

أزاح نيكولاي اليد بعيداً. أخذَ بضعة أنفاس بطيئة. ثم نظرَ عميقاً في عينيّ. رغم أنني أدركتُ أن الغضب الكامن فيهما لم يكن موجّهاً لي، إلّا أنني وجدتهُ مُرعباً. "مَن فعلها؟" همسَ.

"لا يا نيكولاي"، قال ريموس، بأهدأ ما يستطيع.

"موسى، لا بُدَّ أن تخبرني. أخبرني الآن".

قبضَ ريموس على ذراع نيكولاي بكلتا يديه. في زماننا معاً بأكمله، أبداً لم أره يُمسك بنيكولاي هكذا. "أرجوك يا نيكولاي"، قال. هزّ ذراعه. "نيكولاي! أرجوك!".

أمسك نيكولاي بكتفيّ بغتة. "أولرتش؟ هل هو أولرتش؟".

"نيكولاي، لا تفعل"، ترجمه ريموس. "ليس الآن. غداً. لا تتسرّع".

أخذَ نيكولاي في هزّي وكأنني عديم الوزن. "أخبرني يا موسى!" زمجرَ.

اغرورقت عينا ريموس بالدموع. "أرجوك يا موسى"، قال. "لا تُجبه".

"أقسمتُ على حمايته"، صاحَ نيكولاي في ريموس.

"فات الأوان"، قال ريموس لي.

"أخبرني"، قال نيكولاي. في عينيه كان غضب لم أدرك قط أنه قد يوجد في هذا الرجل المُحسِن.

تحوّلتُ ببصري عن وجه رموس المتوسّل إلى نيكولاى. أرجوك،  
كانت أعينهم تقول. أرجوك.  
"أولرتش"، قلت.

أوماً نيكولاى فيما يخطو متراجّعاً. تشبّثَ رموس بكم قميصه  
وتوسّلَ إليه أن يتوقف. استدارَ نيكولاى، وبدفعة واحدة، عفوية،  
أسقطَ صديقه على الأرض. فتح نيكولاى الباب، تعثّرَ قليلاً على حافة  
الباب، ثم اختفى.

\* \* \*

هرعنا في إثره، لكن رغم أنه كان ثَمِيلاً للغاية، إلّا أنه ركض بسرعة  
عبر الظلام. تعثّرَ وسقط عند أعلى الدّرج، لكنه سرعان ما نهض.  
تردّدَ صدى خطواته عبر أروقة الدير، لكن مع وصولنا إلى الطابق  
الأول، كان الرهبان الآخرون يتلصّصون بأنظارهم بالفعل عبر أبوابهم.  
"لا شيء"، قال رموس، ملوّحاً لهم ليعودوا أدراجهم، لكن هذا لم  
يفعل سوى أقنعهم في السير في إثرنا. جاءنا صوت خبطات قوية من  
الطابق الأرضي. وصلنا لنرى نيكولاى يندفع إلى باب أولرتش. خلّله  
من موضعه بصوتٍ تحطّم، أخذ ثلاث خطوات للوراء، ونفّساً عميقاً،  
ثم زمجر فيما يندفع ناحيته مُجدّداً. حطّمه بكتفيه، مُنتزِعاً مفصّلاته.  
خطا إلى الغرفة، التي كانت مُضاءةً بشمعة وحيدة.

كان أولرتش يتوقّع هذا. كان ينتظره لخمسة أعوام، ويحاول  
الهروب بالفعل. كان الرجل العجوز بجوار نافذته، يرتقي بخدّر عتبة  
النافذة حتّى يستطيع القفز إلى المُعتزّل المظلم. لكن نيكولاى كان  
وصلَ إليه بالفعل، وبدلاً من جذب قائد الجوقة عائداً به إلى الغرفة،  
أمسك به -بيدٍ على ردائه الكهنوتي ويدٍ على الشعيرات المتناثرة على  
مؤخرة رأسه- ثم طوّحَ به عبر النافذة المفتوحة.

صرخ أولرتش فيما يطير في الهواء، كانت صرخةً خاوية، عديمة الروح. اصطدم بالأرض وسمعت تكسر ضلوعه، كتشطي آلة گمان. صفرت رثاه فيما يلهث طلبًا للهواء.

تبعه نيكولاي بجسده العملاق عبر النافذة. قفز من على عتبة النافذة ووصل إلى الأرض بقدم واحدة، لكنه سرعان ما وقف على قدميه معًا مجددًا. تعثر بالرجل المحطم وشرع في ركله. حاول أولرتش الهروب زاحفًا، لكن ركلة نيكولاي الأولى كسرت ذراعه اليسرى. سقط على وجهه. انضغط وجهه على العشب. تأوّه مع كل ضربة.

كان هناك رهبان يحذقون من كل نافذة. تسربت الدماء من فم أولرتش. بصق فيما يحاول التنفس.

راقبت من نافذة أولرتش. لم أحول عيني. لم تمنحني الركلات والصرخات أي بهجة... كان العار يتصاعد عميقًا داخلي، العار الذي كان يمور كامنًا منذ أخبرني رابوتشي بما فعله بي. العار، لأنني رغم أنني لم أفهم بالكامل ما صرت إليه بعدها، إلا أنني أدركت أنه كان شيئًا مريعًا، مريعًا لحد أن هذا الرجل يستحق الموت جزاءً له.

بجواري، كان ريموس خارج النافذة بنصف جسده، يرجو نيكولاي أن يتوقف، لكن العملاق لم يكن يتوقف إلا لمسح دموعه. دفن نيكولاي وجهه في يديه وزار. "مجرد صبي!" صرخ. "إنه مجرد صبي!" ثم ركل أولرتش الزاحف، الباكي، مجددًا: ارتجاجات ألم عن كل بهجة مستقبلية سرقها هذا الرجل مني. غرغرت الدماء من فم أولرتش فيما يتوسل الغفران، لكن نيكولاي لم يكن لديه أي غفران ليمنحه. هرع أربعة جنود عبر المعتزل. رفع اثنان المصابيح، واستل الآخران سيوفهما. لكن عندما رأوا أنه لم يكن لصًا، بل نيكولاي فحسب، أكثر الرهبان إحسانًا، تجمّدوا، غير متيقنين مما عليهم فعله.

هتفوا فيه ليتوقّف، لوّحوا بسيوفهم، لكنه لم يُلْقِ لهم بالاً؛ لم يستطع. خطا واحداً من الجنود إلى الأمام ورفع سيفه، لكنه أسقطه مُجدّداً. ثم وضع الرجلان المُسلّحان نصالهما أرضاً وأمسك الأربعة بذراعَي الراهب العملاق. اشتبكوا معه، فيما أولرتش الدامي يحاول مُجدّداً الهروب زاحفاً. زعقَ الرهبان جميعهم في نيكولاي ليتوقّف. "من أجل محبّة الرب، ستقتله!" الآن كان رئيس الدير قد ظهرَ أيضاً. وقفَ عند نافذة مفتوحة، وصرخَ في الجنود في الأسفل، "أوقفوه! استخدموا سيوفكم إذا اضطررتم! أوقفوه!"

لكن نيكولاي لم ينتهِ بعد. قاومَ الحُرّاس، جائراً كالمجنون. حرّ ذراعاً، وبدلاً من استخدامها لدفعهم بعيداً، تناولَ واحداً من مصابيح الجنود ورفعَه فوق العِراك، عاليّاً فوق وجهه. كانت عيناه مضاءتَين كقطرتين من النار. أدركتُ أن هذا الغضب كان من أجلي، من أجل عاري، العار الذي أبقيته سرّاً طوال تلك السنين. ورغم أن الجميع -ريموس، الرهبان، رئيس الدير- كانوا يصرخون من حولي، إلّا أنني كنتُ صامتاً. لم أطلب من نيكولاي التوقّف.

طوّحَ بالمصباح في اتّجاه أولرتش المُنسحق، الذي كان قد تخلّى عن محاولات الهروب. تحطّم المصباح على الأرض، ولوهلة كان وجه أولرتش مُبتلاً بالزيت. حدّقتُ عيناه إليّ برعب. وقبل أن يتمكّن من إبعاد اللهب، احمرّ وجهه، ثم احترق مُعلّمي، وسط صرخاته.



## (5)

"إنه ينشد العفو".

تحدّث ريموس بالنيابة عن نيكولاي الصامت فور أن صرنا بمفردنا مع رئيس الدير. كان منتصف الليل قد حلّ، ولم يكن ناسخه المرتع قد أشعل سوى شمعة واحدة قبل هروبه من المشهد. موضوعة على مكتب شتاوداخ، أضفى لهب الشمعة على رئيس الدير الضئيل طولاً خارقاً للطبيعة. كان ظلُّ رأسه مُتعمِّقاً على السقف والجدار وراء مكتبه.

«العفو؟».

أوما ريموس.

هزّ شتاوداخ رأسه بعصبية. "ليس مِنّي".

سمعتُ رهباناً يُنشدون في الكنيسة، يُصلّون من أجل روح أولرتش، ومن أجل روح نيكولاي. لم يَنَمْ أحدٌ تلك الليلة. بقينا جميعاً نراقب



أولرتش يضرب وجهه بيدين، محاولاً إخماد اللهب الذي أذاب عينيه وجلده. لم يساعده أيُّ منّا. ظللنا نراقبه فحسب في صمت الصدمة حتّى انطفأت النيران واستلقى ساكناً على الأرض. ثم حمل أربعة رهبان جسده الذي ينبعث منه الدخان إلى النافورة وغَمَرُوهُ فيها حتّى احمرَّ الماء بالدماء.

"إذا مات، ستَشْنَق"، قال شتاوداخ.

ورغم أن نيكولاي كان يقف بكبرياء وتحدّ أمام رئيس الدير، إلّا أن أنفاسه كنت ضحلة، والخوف يسري في ارتعاشاتها.

"بالأكيد، أبتاه رئيس الدير"، قال ريموس، "حتّى وإن لم يكن هناك مجال للعفو، فحتمًا هناك رحمة". كان ريموس يقف أمامنا عند المكتب، بعينيه النديّتين تلتمعان في ضوء الشمعة.

"الرحمة؟" هزّ شتاوداخ رأسه، وتكرّرت تلك الحركة عشر مرّات بصورة أكبر في الظلال وراءه. "لا لا أستطيع منح الرحمة لمن يرغب في تدمير هذا الدير".

"لا تقتل رجلًا مُحسنًا باسمنا"، ارتعش صوت ريموس، فيما يدها ترتفعان قليلًا في تضرّع.

"رجل مُحسن؟" انحنى رئيس الدير للأمام وتضاعف ظلُّ رأسه على الجدار. "دومينيكوس، الرجل المُحسن لا يوسع أخاه ضربًا. الرجل المُحسن لا يُضرم النار في أخيه".

"يستحق كل ذلك وأكثر"، قال نيكولاي من بين الظلال. كان صوته هادئًا، لكن واثقًا.

أدار شتاوداخ عينيه إلى نيكولاي وتفحصه في الضوء الخافت. تحدّث بحدّة. "أيّ جريمة قد تستحق ما فعلته به؟".

نظرَ نيكولاي بخواء إلى رئيس الدير، لكنه لم يُجب.

"تحدّث!" أمره شتاوداخ.

"نذرتُ نذرًا".

"لديكَ نذرٌ آخر، وهو نذرٌ بذلته لي!" زأَرَ شتاوداخ وخبَطَ على مكتبه براحتيه. انكمشتُ خوفاً. تطلَّع رئيس الدير إلى ريموس ثم إلى نيكولاي. "الآن، أيُّكما سيدافع عن هذه الجريمة؟".

"لقد أقسمت بالفعل على قتلي"، أجابه نيكولاي. "لن أقول".

تحوَّلت العينان الباردتان إلى الراهب الضئيل. "تحدّث أنت إذن يا دومينيكوس".

"كلا، يا أبتاه رئيس الدير".

"وأنت"، قال أخيراً لي. "لماذا أنتَ هنا؟ ماذا لديك لتقوله؟".

رغم أنني كنتُ أطول من رئيس الدير بكثير، إلّا أنني شعرت وكأنني ما أزال ذلك الطفل الضئيل الذي وقفَ في هذا المكتب منذ سنوات، الطفل الضعيف الذي كان رئيس الدير يودُّ طرده من هذه الغرفة ذاتها.

"تحدّث!"

استغرقنا في الصمت. أزَّت الشمعة. تنفَّس شتاوداخ. تطلَّع إلى نيكولاي. "لم تترك لي خياراً إذن"، قال.

كانت يدا نيكولاي ترتعشان.

"لقد أخصاني"، قلتُ.

شعرتُ بعينيه تنزلقان ببطء على كل تفصيلة في وجهي. على وجهه، في البداية كان عدم التصديق، ثم الرعب. أدركَ أخيراً لماذا كان صوتي قد قاوم طويلاً هكذا.

"أخصاك؟" همس. حدَّق صديقا في الشمعة المُحرقة على المكتب.

"أين؟".

لم يجيباه.

استدارَ إليّ. كان حَلَقَه مشدودًا؛ قاومَ ليطلقَ أنفاسه. سعلَ بالكلمات. "تحدّث! أين! هل كان ذلك في هذا الدير؟".

أردتُ بشدّة أن أكون قويًّا، لكن ركبتيّ ارتجفتا وكأن الأرض نفسها قد انتفضت تحتهما.

نهضَ رئيس الدير وانحنى فوق الشمعة. "إذن فأنت مخصي؟ طواشي؟".

أومأتُ. كان وجه رئيس الدير أبيضَ كحجارة كنيسته. التمع صليبه على صدره في وهج الشمعة.

"منذ متى؟".

"منذ تدشين الكنيسة".

"لكن هذا كان منذ خمسة أعوام"، قال شتاوداخ، وقد تزايد الرعب في صوته.

أومأتُ.

"ليرحمنا الرب"، همسَ. لبضع ثوانٍ لم يتحرّك على الإطلاق. حدّقَ فيما وراءنا. "الموت للخاصي"، تلا رئيس الدير. "الحرمان الكَنسي لكلِّ مَنْ يساعده. هذا هو القانون. قانوني. قانون البابا. إنه قانون الرّبِّ". وكأنه أدرك أن صوته يتصاعد، سعلَ بخفّة وهمس مُجدّدًا، "صبيُّ يُخصى. في دَيْرِي!" عادَ اللون إلى وجهه. حدّقَ في نيكولاي باهتياجٍ. "أبدًا لم أرْده هنا. حاولتُ إبعاده، لكنك لم تدعني".

تابع، "والسفير الباباوي نائم هنا؟ وثمانية عشر رئيس دير! سمعوك تغني! سيظنون أنني أمرت بذلك. أنني حملت السكين. سيطردوني من الكنيسة. أنا!"، أمسك رئيس الدير بالصليب المتدلي على صدره.

"لن يكون عليهم أن يعرفوا أبدًا، أبتاه رئيس الدير. سرحل"، قال ريموس، وخطا للأمام. "الليلة".

"نعم"، قال شتاوداخ، مومئًا، مُتطلِّعًا عبر ريموس إلى ظل بعيد ناءٍ ما. "نعم، لا بُدَّ أن ترحلوا. أنت ونيكولاي معًا".  
"والصبي".

"لا!" قال شتاوداخ. مدَّ يده وكأنه سيقبض عليّ. أمسك نيكولاي بكُم قميصي وجذبني للخلف. "لا، لا بُدَّ أن يبقى هنا"، تابع رئيس الدير، مُشيرًا بإصبع مُرتعشة إلى نيكولاي ثم إلى ريموس. "أنتما، عليكما أن ترحلا. أنتما منفيان. إذا وضعتما قدمًا على أراضي هذا الدير مُجددًا سأشنقك لارتكابك القتل والإخفاء".

"هذا جنون"، قال ريموس.

أومأ رئيس الدير، وإصبعه الآن موجهة إلى صدر ريموس. "على هاتين الجريمتين ستموتان كلاكما، إذا عُدتما أبدًا إلى هنا أو إلى أي دير في سويسرا بأكملها".

نطق نيكولاي. "لن أترك موسى هنا".

"ستفعل!" تطاول رئيس الدير عبر مكتبه.

"أفضل أن أموت". اقترب نيكولاي ببطء من المكتب، واعتقدت أنه سيقبله. تراجع شتاوداخ خائفًا وسقط في مقعده. تأوّه ورفع يداً وكأنه يحمي وجهه. أمسك نيكولاي بحافة المكتب.

"لا"، قلت. استداروا جميعًا في دهشة. "لا يا نيكولاي. لا بُدَّ أن ترحل".

هزَّ نيكولاي رأسه. "لا يا موسى. لن أرحل. ليس بدونك".

"لقد أمرتك بذلك!" هتفَ رئيس الدير.

بالشمعة وراءه، لم أستطع تبيُّن وجه نيكولاي، ولا وجه ريموس الواقف بجواره، رغم أنني رأيت من بينهما تقطيعَ رئيس الدير بوضوح. لسنوات طويلة، هكذا سأتذكَّر المشهد: خيال ظلَّهما يقف ببسالة بيني وبين رئيس الدير، مُستعدًّا للموت على أن يهجرنِي. "نيكولاي"، قلت.

خطا نحوي وأمسكَ بكتفَيَّ. "لن أتركك معه"، قال، كان صوته الآن عميقًا ورنانًا، جسورًا كأناشيده.

"لا بُدَّ أن ترحل"، همستُ، صوتي أضعف ألف مرَّة من صوته. "لا خيار أمامك".

"أفُضِّل الموت"، قال نيكولاي.

"وحينها سأكون وحيدًا بحق".

هزَّ نيكولاي رأسه. كان قريبًا بما يكفي الآن لأرى الدموع تملأ عينيه. "موسى، أقسمتُ على حمايتك".

"يومًا ما سألحقُ بك"، قلتُ. "أعدك".

كان ريموس عند مرفقي الآن. "سنذهب إلى ميلك"، همسَ في أذني حتَّى لا يسمعه رئيس الدير. "في النمسا. دومًا سيكون لديك صديقان ما دُمنا حيَّين. سننتظرك. الحقُّ بنا".

أومأْتُ له، عاضًا شفتَيَّ. تناول ريموس ذراع نيكولاي، لكن الرجل الأضخم لم يكثرث له. هزَّ رأسه، اتَّسعت عيناه.

"نيكولاي"، قلتُ. بدا أنه سينهار، لكن بغتةً صرنا في عناق. الآن، بعد ثمانية أعوام من انتشاله لي من النهر، كان رأسي يصل إلى ما فوق كتفه، وعندما ضَمَّنِي، شعرتُ بدموعه الدافئة على جبیني.

"أنا في غاية الأسف".

"سآ... سآقي وأجدك"، همستُ بدوري. أمسكتُ بنسيج رداءه الكنسي في قبضتي. احتضنني وأدركتُ أنه لن يفلتني أبدًا ما لم أفلته أولاً، ولهذا أزحته بعيدًا برفق. ثم قاده ريموس إلى الباب، ورحلا، دون أن ينظرًا مُجددًا إلى الرئيس. لاحقًا، عندما مررتُ بصومعتيهما، اكتشفتُ أنهما لم يتوقفًا لجمع أغراضهما حتَّى. لم يؤدُّ نيكولاي صلاة واحدة أخيرة في تلك الكنيسة. لم يأخذ ريموس كتابًا واحدًا.

لم يَعدُ أيُّ من الرَّجُلَيْن قطُّ إلى سانت غالن، أو إلى سويسرا.

\* \* \*

بقيتُ بمفردي مع رئيس الدير كويلستين جوجر فون شتاوداخ. حدَّق في الشمعة على المكتب، لهبها يتوهَّج بمثالية تمامًا كالعالم الذي طالما تاق إلى تحقيقه في هذا الدير. بعد بضعة دقائق، رفع بصره إليّ. كانت عيناه قد فقدتها برودتهما، كراهيتهما.

"تعال يا بُني"، قال. أوماً بحنوٍّ، وكأنه يقول، انتهى الأمر الآن. تردَّدتُ للحظة فحسب. فرغم أنني وجدته مقيتًا وبشعًا، إلَّا أنه لم يَعدُ لي أحدٌ في العالم الآن. خطوتُ حول المكتب ووقفتُ بجواره في ضوء شمعته. أحنيتُ رأسي. جالت عيناه عبر وجهي، عبر جسدي النحيل، الطويل.

"تتمنَّى أن ترحل معهما، أليس كذلك؟".

"نعم"، أجبته.

نظرت عيناه عميقاً في عيني. "موسى، هل تدرك ما أنت عليه؟".

لم أجب.

نظر إليّ بتمعن في ضوء الشمعة المرتعش، تحديقته تنزلق على كل تفصيلة في وجهي، ثم أوماً ببطء، وكأنه رسول يحمل أخباراً مريضة. كان صوته هادئاً وموزوناً مُجدِّداً. "بني، أنت طواشي. لست رجلاً. ولا امرأة. أنت مخلوق لم يقصد الله قط أن يخلقه، مُقدَّر عليك أن تظل خارج خطط الرب. يقول قانونه إنه لا يمكنك أن تتزوج؛ ولا بمقدورك أن تكون قسلاً. هذه ليست قسوة. أعتقد أنه إذا كنت صادقاً مع نفسك، ستري لماذا ينبغي أن يكون الأمر كذلك. موسى، جسدك لن يسمح لك أن تكون أباً. أنت ضعيف: عضلات امرأة على هيكل رجل ثقيل. لا يمكنك العمل في الحقول. عقلك أيضاً ضعيف. أبداً لن تعرف التفكير الذكوري. هل أخبرك صديقك بهذا يا موسى؟".

هزرت رأسي. رغم أنني لم أسمع هذه الأشياء تقال من قبل قط، إلا أنها دائماً ما أثارت خوفي.

"يريدان أن يساعداك، لكنهما لا يستطيعان. ليس ليهما سقف ليناما تحته". لَوَّح بيده بازدياء. "لن يقبل بهما أي دَير؛ ذلك أنهما لوطيان. بمقدور أي رئيس دير أن يقرأ الخطيئة على وجهيهما بسهولة، كما فعلت أنا، وحينها سيُعرض عنهما. بمقدورك اللحاق بهما، لكنكم ستموتون من الجوع معاً. لكنهما رجلان يا موسى، وأنت لست كذلك. سيتضحك الناس عليك خارج هذه الجدران. هنا خُدعنا بالثَّقْدُم البطيء لحالتك. الآن فقط أراها بوضوح في جسدك. أنت صُدفة طبيعية، نتاج للخطيئة وليس للنعمة الربَّانيَّة".

تطلَّع رئيس الدير إلى ما ورائي، باحثاً عن تفسير لوجودي في غرفته المظلمة. هزَّ رأسه. "هذا مؤسف حقاً يا موسى"، قال. "مؤسف حقاً. هذا العام، ببساطة، لم يُخلق من أجل أمثالك".

شعرتُ بضعفٍ شديدٍ يتفشَّى من قلبي، بارتجافي يوشك على إسقاطي على ركبتيَّ. كل شيءٍ قاله كان حقيقياً. كيف لي أن أنكر؟ في وجه رئيس الدير المهموم، للمرة الأولى، رأيتُ أنه ربما لم يكن بارداً وميت القلب كما ظننتُ. كان رجلاً طاملاً عَمِلَ بشدَّةٍ ليخلق نظاماً من عالمٍ فوضويٍّ. مائة ألف إنسان يعتمدون على إرشاده، والآن، ها هو، قبل الفجر بساعات، يحنو على روح واحدة فحسب.

تفخَّصتني عيناه. "موسى، لا أستطيع إبقاءك هنا ضد إرادتك. لن أفعل. الدير ليس سجنًا. ما قلته منذ قليل - أن بمقدورهما أخذك معهما - قلته لمصلحتهما ومصلحتك. لكننا الآن بمفردنا، عليك أن تختار. ارحل، إذا شئت؛ قد تستطيع اللحاق بهما. اذهب وأخبرهما أن عليهما الاعتناء بك، أن عليهما أن يأخذاك معهما. أنهما لن يتبرَّان منك، أنهما سيجدان طريقةً لإطعامك، أنهما سيجدان وسيلةً للاعتناء بك، حتَّى وإن كان ذلك يعني أنهما سيعانيان من أجل ذلك".

كان رئيس الدير صامتًا. نظرَ إليَّ بتمعنٍ.

أرحل؟ لم أرغب في شيءٍ أكثر من هذا. مع رحيل صديقي، كنتُ أشعر بالفعل بخواءٍ ووحدة الدير تتسرَّب إلى كل غرفة. وهناك خارجه، يوجد صديقان منحائي الحبِّ.

ما زال رئيس الدير صامتًا. أنفاسه الموزونة تنساب داخله وخارجه، داخله وخارجه.

"سأسمح لك بالبقاء هنا يا موسى"، قال أخيرًا. "مَن في الدير أوقعوا بك ظلمًا رهيبًا؛ ولهذا سأفعل ما في وسعي لتصحيحه. إذا اخترت البقاء، سأمنحك ما حرمتك منه قبل أعوام: الفرصة لتصبح راهبًا مُبتدئًا لتصبح ذات يوم، ربما، راهبًا حقيقياً. ستحتفظ بصومعتك. سنستمرُّ في إعاشتك. سأعمل على ألا تُضرَّ أحدًا بضعفك. لا بُدَّ ألا



يعرف أحدٌ بنقيصتك. لن يعرف أحدٌ سواي. موسى، أتمنى أن تدرك أنه لا يوجد شيء أكثر من ذلك يمكن لي أو لغيري منحه لك".

تخيّلْ نيكولاي وريموس، ليس كما قابلتهما أول مرّة - على أفخم الأحصنة، ونيكولاي بعملات معدنية من الدير في جيوبه لإلقائها على المتسوّلين على الطريق - لكن كما هما الآن: يتسلّان عبر المدينة، على أقدامهما، بجيوب فارغة، بلا كتاب واحد مع ريموس يقرؤه. إلى متى ستستمرُّ عزيمّة نيكولاي الشديدة؟ يوم؟ أسبوع؟ أبدًا لم يمّش ميلاً في حياته. هل سيصيران متسوّلين الآن؟ بالتأكيد لديهما ما يكفي من الأحمال ولا حاجة بهما، كما قال رئيس الدير، إلى حملٍ آخر على شكل صدفةٍ من صُدَف الطبيعة. كان نيكولاي قد فعل الكثير من أجلي بالفعل: من أجلي نفسي من وطنه.

"موسى"، قال رئيس الدير. "عليك أنا تختار".

كانت إيماءتي واهية، لكن كافية.

"حسنًا. إذن فعليك أن تعديني بشيءٍ ما أيضًا يا موسى".

نظرتُ إلى عينيه الضيّقتين، اللامعتين.

"عليك أن تعديني بأنك لن تُغنّي ثانيةً أبدًا".

## مكتبة (6)

t me/soramnqraa

بذلتُ قَسَمِي له. جعلني أركع أمامه وتلا صلاةً ثم أوماً بحنوٍ في اتجاه الباب. لكن بالنسبة لي، بَدَتْ صلاته وكأنها تعويذة، لأن كل شيء سمعته حينها كان مُتَغَيِّرًا: صرير الباب، هسيس خطواتي الخافتة عبر مدخل الدير الخاوي؛ للمرة الأولى في حياتي لم أجد أيَّ عزاء في هذه الأصوات، أو في أيِّ أصوات أخرى. في الخارج، تدلَّى ضبابٌ صباحي فوق العُشب في تدويماتٍ عديمة الحياة أخمَدَت ارتعاشات ضوء الشموع المتنبعث من نوافذ الكنيسة. سقطتُ على ركبتيَّ على العشب وأصابني السَّقَم، هائج الأنفاس حتى لم يتبقَّ شيء داخلي. بكيتُ حتى استهلكْتُ الدموع أيضًا.

لكن حتى فيما أنتحب في يَدَيَّ، فيما أقول لنفسي إنني لا بُدَّ أن أكون ممتنًا لهدية رئيس الدير، انتصبت أذناي لثرهفا السمع: الرهبان يُنشدون في الليل، انقضاضة حُفَّاشٍ يُطارِدُ طائرًا في بدايات الصباح.

قاومتُ الأصوات. تشبَّثْتُ بالعشب الندي، البارد، حتَّى انتزعتَه في كُتْلٍ متداخلة. نشبْتُ أظافري في التراب حتَّى دَمِيتُ أصابعي.

لا! هذه الأصوات ليست لك. هذا العالم ليس لك. لا تسمح لها بإغوائك! لن تفعل هذه الأصوات سوى أن تجعلني أتوقُّ إلى المزيد، أتوقُّ إلى الألغاز خارج تلك الجدران، إلى الأصدقاء، إلى الحبِّ، إلى أجراس أمِّي، إلى نيكولاي وريموس، والأسوأ من كل هذا أنها تجعلني أتوقُّ إلى الغناء مُجدِّداً.

\* \* \*

وهكذا بدأتُ الفترة الأكثرَ بؤساً في حياتي. كنتُ ممنوعاً من مغادرة الدَّير، بل ومن التجاسُّر على الدخول إلى ميدان الدَّير، حيث قد يُلقني واحدٌ هائم من العامة نظرةً خاطفة على وجهي الملائكي، المعيوب. خلال الصلوات اليومية والقُدَّاس، كنتُ أجلس على مقاعد الرهبان المبتدئين، بعمودٍ هائل يفصل بيني وبين صحن الكنيسة الأضخم. أبداً لم أرفع صوتي في نشيدٍ أو غناء، ولم يُسمح قطُّ لصلواتي الصامتة حتَّى أن تتصاعد داخل رأسي في ذكرى لما كان يوماً صوتي. مرَّةً أو مرتين أتذكَّر ما قالته لي صديقتي أماليا: «بمقدوري سماع صوتك، حتَّى من بين عشرين صوتاً آخر يُغني». أحلم أنني أناديها، وسط غناء الآخرين؛ كنتُ على يقين أن شتاوداخ لن يسمعني. لكن حتَّى في لحظات كهذه يُبقيني العار صامتاً. لم أجروُ حتَّى على الاقتراب من بوابة الشبكة الذهبية مُجدِّداً قطُّ.

منحني شتاوداخ ذات يوم الفرصة لأقسم قَسَمَ الرهبنة، وهكذا صرْتُ أرتدي رداء الرهبان المبتدئين، الذي لا يختلف كثيراً عن رداء الرهبان، لكن تنقصه القلنسوة. (أوه، كم رغبتُ في قلنسوة لإخفاء وجهي!) كان هذا يعني في العادة الدراسة مع المبتدئين الآخرين كل يوم تحت إشراف كبير الرهبان المبتدئين، الأخ ليوديجار، لكن ربما كان

رئيس الدير يخشى أن ألوث بركة المبتدئين النقية، ذلك أنه فكر أنه يجب أن أصير راهبًا علمانيًا، جاهلاً. لا يحتاج إلى تعلّم فيرجيل أو القديس توما الأكويني، لكن الطاعة والخضوع فحسب.

أبدًا لم يُنشأ راهب مبتدئ بهذه الطريقة في الدير لسنوات طويلة، لكن شتاوداخ يزعم أنني لن أستطيع أبدًا أن أكون راهبًا عصريًا، يمكنه، عبر التعلّم والتقوى، أن يردّ الجميل للعالم. في أحسن الأحوال، سأكون مثل القديس غال نفسه: ناسك وحيد، بائس.

طوال هذا الفترة، كنتُ أحارب الأصوات، تمامًا كأني راهب يتصارع مع رغباته. عندما أسمع البقبة المبتهجة لنافورة المعتزل، أقمّعها بالصلاة. عندما أسمع طشيش اللحم في حجرة الطعام، أصوم. عندما تتصاعد الصرخات المرحّة للأطفال خارج جدران الدير، ويصبح بمقدوري الشعور بدفء بهجتهم، أبتعد إلى صومعة خالية ما وأتلو الصلوات على المسبحة. عندما تبدأ أذناي في الشرود إلى تعاويذ الرياح على طوال ألواح السقف فوق غرفتي، أغرز أظفري في جلد رأسي، أو أنتزع الشعر الأزغب على مؤخرة عنقي. أجد قميصًا من الشعر يتعقّن في دولاب، وأرتديه حتّى يُشَتّني نسيجه الحاك أثناء الصلوات اليومية عن جمال الأناشيد. أنصتُ إلى اعترافات الرجال الآخرين، أسمعُ رغبات تتحرّك في أحقائهم وعندما يحين دوري، أكرّر ما سمعته، على أمل أن أتحرّر بشكلٍ ما عبر هذا الخداع من خطايا الصوت التي تملؤني.

على هذه المنوال انقضى عامٌ، ثم آخر. وكما وعدني شتاوداخ، ظلّت حالتني سرًا. كان صوت حديثي حادًا وخافتًا، فيما كان الرجال الآخرون يزعمون ويتأفّفون؛ لذلك لم أنفضح. ولم يكن مظهري، رغم غرابيته، كافيًا لإثارة شكوك الرهبان الذي يعرفونني لسنوات.

حلّ رئيس جوقة جديد، متواضع المستوى، محلّ أولرتش ذي البراعة الفائقة. أبدًا لم يتحدّث هذا الأخ المدعو ماكسميليان معي. ولم يجرؤ أحدٌ على ذكر قائد الجوقة السابق صراحةً، لكنني سمعتُ همسات. "أرسله رئيس الدير إلى مستشفى في زيورخ. لن يعادر فراشه أبدًا مُجدِّدًا"، قال واحد من الرهبان. "سمعتُ أنه ميّت"، همسَ آخر. لكن عندما رأى الراهبان أن عينيّ مُثبتتان عليهما، نظرًا بخجل إلى أقدامهما. في البداية لم أفهم ما كان يعنيه هذا الصمت المفاجئ الغارق في الخزي، لكن ذات يوم، فيما أمضي بهدوء عبر واحد من الأروقة، سمعتُ محادثةً بين ثلاثة رهبان جعلتني أدرك أنهم ظنُّوا سرّي المخزي سرًّا آخر لا يَقلُّ خزيًا. "صبي يجلب عارًا كهذا إلى نفسه"، كرّر واحد من الرهبان للآخرين. "الأخ أولرتش سمحَ لنفسه بالوقوع فريسة للإغواء، وارتكاب خطيئة عظيمة، لا أحد منّا يُنكر هذا. لكن هذا الصبي لم يكن ينبغي أن يخطو إلى هذا الدير من البداية. إنه أفعى في وسطنا. أعتقد أنه يرغب في أن... في أن يُلَاعَبَ". "يومًا بعد آخر، ليلةً بعد أخرى"، وافقه واحد من الراهبَيْن الآخرين، "كان أولرتش مضطّرًّا لقضاء وقت طويل جدًّا مع الصبي؛ لقد وقع فريسةً للغواية، هذا هو الأمر بكل بساطة".

لم يكن هناك شيءٌ يميّز يومًا عن الذي يليه. عندما أقدر على تهدئة شغفي تجاه الأصوات، كانت المأساة تتخذُ؛ ولا يعود شيء يؤلمني حينها سوى الوحدة. كنت أفكّر كثيرًا في نيكولاي وريموس، مُتمنيًا لو أن هناك طريقةً ما لمعرفة كيف كان ارتحالهما.

لم يكن الرهبان المبتدئين الآخرين متوحّشين كما كان صبيان الجوقة، لكنهم كانوا مُترَفَعين. تجاهلونني تمامًا. كان آباؤهم يدفعون مبالغ ثابتة حتّى يصيروا ما صرّته أنا مقابل الشفقة. ظنُّوا أنني مُجرّد معنوه؛ رأيٌ لم أفعل ما ينبغي. عوضًا عنهم، صرّْتُ أترك نافذة صومعتي

مفتوحة حتّى تجثم الحمامات على سقفي وتمنحني الضجة، لكنها أبداً لم تأت.

كبرت حتى وصلتُ إلى مُنتهى طولي، أطول من الرهبان الآخرين بمقدار رأس. مَتَّ أضلاعي أكثر وأكثر. تحتها، اتَّسَعَت رئتاي أكثر: "أكبر رثتان في أوروبا"، سيتفاخر ناصِدٌ من لندن بعدها بسنواتٍ طويلة. لكنَّ أحداً في الدير لم ينظر إلى هيئتي الضخمة وصدري المنتفخ باعتبارهما شيئاً مهيباً أو عظيماً؛ ذلك أنني كنتُ متراخياً في مشيتي، وشاحباً وسقيماً. كانت هناك كدمات حول عينيَّ بسبب نقص النوم؛ ذلك أنني كنتُ أخشى إغلاقهما. عندما أفعل، كنتُ أحلم بأجراس أمي، بعناء نيكولاي، أو بصوتي ذاته، يرنُّ في أصابعي، وحينها يكون الاستيقاظ في غاية الألم.

\* \* \*

هناك واقعةٌ بعينها من تلك السنة الأولى بعد نفي صديقي لا بُدَّ أن أرويها. كان يوم أحد في الشتاء. انتهى القدّاس، وعلى جانبي الشبكة التي تفصل صحن الكنيسة إلى جزأين، كان الرهبان والعامة يتدفقون خارجين من الكنيسة. بقيتُ في مكاني في مقاعد المبتدئين، مختبئاً عن المصلّين وراء واحد من الأعمدة البيضاء الهائلة.

"موسى!"

بدا الصوت المألوف وكأنه يناديني داخل رأسي. ملأني بدفءٍ مُباغت، دفء لم أشعر به مؤخراً سوى في أحلامي. قبل أن أعاقب نفسي على الاستمتاع بهذا الصوت...

"موسى!"

كان الصوت حقيقياً؛ لأن الرهبان الآخرين استداروا نحو الشبكة.

أجلتُ نظري حول العمود. كانت تقف أمام الشبيكة، بيديها قابضتين على القضبان الحديدية والكُرُمات الذهبية وكأنها تنوي تحطيم الشبيكة. لم تكن الزخرفات مشغولة بتعقيد كبير في هذا الجزء من الشبيكة، ولهذا رأيتُ وجهها فيما تُحرّكه من فُرجةٍ إلى أخرى، مُكرِّرةً اسمي بين حشد الرهبان، الذين حدّقوا فيها باندهاش. تجاهلتُ وجوههم المصدومة. كانت وكأنها تبحث عني وسط غابةٍ من الأشجار الثابتة.

"موسى؟ هل أنت هنا؟" صاحت مُجدِّداً، حتّى تستطيع كل أذن في الكنيسة سماعها. وراءها، سمعتُ صوت كارولين دوفت يقترب، تُزاحم الحشد، في محاولة لإنقاذ اسم دوفت من الخزي الأبدي.

"أرجوك يا موسى"، زعقت أماليا. "هل أنت هنا؟".

لم تكن نَسيتني. شعرتُ بالأمل يستيقظ من سباته. أردتُ أن أهرع إلى تلك الشبيكة. أردتُ أن ألامس يد صديقتي.

تملّصتُ أماليا على طول الشبيكة بعيداً عن عمّتها. بحثت بعينيها في كل وجهٍ حملقَ فيها، مُحاولةً إيجاد الصبي الذي تعرفه من بين هؤلاء الرجال المُقلّنين. بدأتُ في التّحرّك حول العمود.

بغتةً، كان هناك، بيده على كتفي. استدرتُ نحوه. رفع المُعلّم الديرى رأسه عاليًا في مستوى رأسي.

"تذكّر ماذا تكون يا موسى"، همسَ. "لن تفعل سوى أن تجلب العار عليها وعلى الدير".

أحنيْتُ رأسي. راقبني لوهلة أخرى، ثم انسلَّ بعيداً. عندما تطلّعتُ ورائي مُجدِّداً، كانت كارولين دوفت قد اختطفَت أماليا عائدةً بها إلى الزحام.

ضاعفتُ جهودي، لم أعد عازماً على تدمير توقي تجاه أصوات العالم مثل مُجرّد شجرة تموت ببطء طلباً للماء- الآن، سأضرب الشجرة بصاعقة، سأحرقها لتتحول إلى رماد. صليتُ للرّب ليخلط كل صوتٍ بالألم، ليجعلني أشمئز من كل نغمة أسمعها. احتسيتُ شرباً من مياه القار في الأيام المقدّسة حتّى أنفياً عندما تُغنى أعذب الأغاني. لم أكل. كنتُ أخطو جيئةً وذهاباً في غرفتي حتّى لا أنام الليل وأحلم. ثم، باكراً ذات صباح، عندما لم أعد قادراً على السيطرة على توقي، ووجدتُ ذاكرتي تُغويني بسيمفونيات بديعة من أصوات نصف منسية، حطمتُ مرآتي في فورة غضبي. ثم استخدمتُ الجذاذات الباردة لإحداث جروح غائرة في ذراعيّ. سرعان ما صارت يداي غارقتين في الدماء لحدّ أنني لم أعد قادراً على الإمساك بالشظايا، وللحظة، لحظة واحدة مباركة، أوشكتُ على الشعور بالبهجة والرضا.

لكنني لم أستطع هزيمة أذنيّ، ليس أكثر من قدرتي على كتم أنفاسي حتّى أموت. ما زال قلبي يخفق كطبلّة، واضعاً العلامات على ثواني حياتي. في الليل، أستيقظ، ونصف واعٍ، أتحرّر وأحتضن خشخشة النافذة وكأنها صوت معشوقة. أو الأسوأ، أستيقظ مباشرةً من حلم بأجراس أمي أو بجهير نيكولاي المُدوّي وأجد غطاء فراشي مبتلاً بالعرق، وصدى أحلامي ما يزال يرنُّ في أذنيّ. في لحظات كهذه، أغلق عينيّ وأفتح مكتبة ذكرياتي، ليتذوّق خيالي لذائذ كل صوتٍ سمعته في حياتي. يُرَفرف قلبي عاليًا. ويبدأ الأمل -أنه بمقدوري أن أكون سعيداً في هذا العالم الجميل- في الاستيقاظ داخلي من جديد.

حتّى أفتح عينيّ وأجد نفسي في صومعتي، في سجنّي، في هذا الجسد المعيب، ومُجدداً أزدرى نفسي لأنني حلّمت.

\* \* \*



قَرَرْتُ ذات ليلةٍ أن أتخذ الخطوة الأخيرة. سرقتُ ريشةً كتابةً من راهب. جلستُ على فراشي، بلا ضوءٍ في غرفتي سوى كتلة ضوء القمر الساقطة على الأرضية. أقلبُ الريشةَ مرارًا وتكرارًا وأتخيل طرفها الذهبي يمرُّ عبر طبلتي أذني. جلستُ هناك لزمانٍ طويل، منتظرًا سببًا ما لكي لا أفعل ما انتويت فعله، لكن بدلًا من التمرد، بدأت الأصوات في ذاكرتي وكأنها تتلاشى ببطء، مُدْعِنَةً لأول مرة منذ بدأت في محاربتها. ازداد الدير والمدينة هدوءًا في الساعات الأولى من الصباح، ثم تراءى لي أن هسيس تلك العصا الخشبية التي تنزلق عبر يدي كان الصوت الوحيد في العالم.

بعد أن تنازلت أذناي عن آخر أثر للمقاومة، رفعت الريشة إلى أذني اليمنى وتهيأتُ لطعن نفسي بالصمت الأبدي.

\* \* \*

ثلاث مرّات في حياتي نادتنني أمّي الميتة عبر الأجراس. في هذه الليلة كانت المرة الأولى: قُرَع جرس الدير مرّتين. دويٌّ مزدوج رنانٍ تمامًا في اللحظة التي أوشكت فيها على استئصال أكثر حواسي بهاءً. استمرّت القرعتان في الرنين المتلاشي لعشر ثوانٍ، عشرين ثانية، حتّى لم أَعُد أسمع سوى الصدى الخافت القادم من المدينة البعيدة. أصمّ مثلك، يا أمّي، كنتُ لأصير.

سمعتُ همس أقدامها الراقصة على تلك الأرضية الخشبية. سمعتُ جسدها يصدح مع أجراسها. أوه، كان سجنها أبشع من سجنني! أبي الملعون يتربّص بالقرب منها ليلاً ونهارًا. تتنشي هي مع ذلك في كل صوتٍ بمقدورها استنشاقه بكل دُرّة في جسدها. وكنتُ أنا -المنعم بأذنين مثاليّتين- على وشك تدميرهما.

سقطت الريشة على الأرض مُقعّعةً، وحدّقتُ فيها وكأنها سَكِينٌ مُلَطَّخٌ بالدماء. شعرتُ بغتةً بالهواء خائفًا للغاية في غرفتي الضيقة؛ لم أستطع التَّنَفُّس. فتحتُ الباب على مصراعيه، لكن حتّى الرواق بدا أكثر اختناقًا. الجدران والسقف تنغلق وتقترب من بعضها. استدرتُ واندفعتُ عبر غرفتي، ووثبتُ من نافذتي. بالكاد استطعتُ حشرَ كتفيّ عبرها. كان هواء الليل في غاية العذوبة، والسماء بعيدة جدًا. ارتشفتُ ملء رثتيّ ليل الصيف البارد، لكن لا بُدَّ أن أهرب مع ذلك. وهكذا ارتقيتُ النافذة بصعوبة، قرفصتُ على العتبة، وأمسكتُ بالإطار الخشي حتى لا أسقط على المُعْتَزَل البعيد في الأسفل. جذّبتني الفضاء اللا نهائي فوقى بعيدًا عن سجنى. لا بُدَّ أن أتحرّر! أفلتُ قبضتي وانزلقتُ عبر ألواح السقف المنحدر حتّى وصلت الحافة لاهثًا.

سطعَ الدير الأبيض في ضوء القمر. كانت شوارع المدينة كالشقوق السوداء بين صفوف من الأسقف الرمادية. أنصتُ إلى العالم.

في مكانٍ ما، انفتح شابكٌ مُخلخلٌ، متأرجحًا، واصطدمَ بجدار المنزل. نبَحَ كلبٌ. أسرعَ فأرٌّ على طول الشارع وتوقّفَ ليمضغ نتفة طعام مُتَعَفِّنة. تسرّبَ سائلٌ بين بلاط الشارع وتساقت مُحدثًا رنينًا معدنيًا في المجاريير. طقطقت خطواتُ أقدامٍ في منزل. همهمت الرياح الخفيفة فيما تلتفُّ عبر الأزقة. في مكانٍ ما انفتح بابٌ، وأنت مفضّلاته. فُزَّان وقطط وكلاب تحكم الليل الدافئ، تبحث في القمامة، وتُشاكس بعضها البعض. سمعتُ المدينة نائمةً. سمعتُ الأنفاس الثقيلة لرجال بدينين، وتنهدات نساء. سمعتُ شخيرًا. سمعتُ بشرًا يهذرون بالأمانياتِ في نومهم.

صار العالم ضخمًا مُجدّدًا، وصارت لي أذنان لكل صوتٍ فيه.



## (7)

كان بمقدوري أن أصير لصّ منازل عظيم لو كان الربُّ منحني حُبّ  
الفضّة بدلاً من حبّ الأصوات.

بكل ليلة، كنتُ أهرب من سجنِي، وسرعان ما اكتشفتُ أنني  
لستُ أول من يفعل هذا. انطلقُ وألقي نظرةً على واحدٍ ممّا تُسمّى  
أديرة أوروبا العظيمة. ستجد الأرض مجوّفة قليلاً تحت البوابة، والقفل  
ملتويّاً على نافذة واطئة. إلى ذلك، في الأقبية هناك توجد أنفاقٌ  
سرية وأبواب مخفية، يفترض ألا يعرفها سوى رئيس الدير، لكنها  
تُكتشف من قِبَل أيّ راهب تستثيره الشهوة أو الفضول، وجميعنا كنّا  
مستتارين، جميعنا باستثناء مَنْ يحمل روحاً ضامرة.

في الطقس السيئ، كنتُ أخطر بالمرور في واحد من الممرّات  
التي يسلكها الرهبان الآخرون. كنتُ أفضل نفقاً في الأساسات التي  
بُنيت في العصور الوسطى تحت الاصطبلات، حفرته قرونٌ من صبيان  
الاصطبلات الكسولين جدّاً على أن يدوروا من حولها وصولاً إلى بوابة

الدير. لكن عندما تكون الأرض جافة من الأمطار والجليد، والرياح لا تهب بعنف، أتسلق السقف بصعوبة. في البداية أتخذ خطوات قصيرة، مترددة على طول الألواح المتكورة على الحافة العليا؛ وأقفز. ثم أزحف على سقف جناح الدير لأسقط على قمة البرج القروسطي، الذي كان آخر ما تبقى من الدير القديم، المعيب. هناك أمرت تحت نوافذ المساكن الديرية، التي تتوهج فيها المصابيح من الغسق حتى الفجر. حمداً للرب أن رئيس الدير لا يخطو أبداً إلى نافذته للتأمل في أحوال العالم المعيب.

أندفع بمحاذاة الجدار الذي يفصل الدير عن المدينة البروتستانتية. كانت المنزل مبنيةً أمامه مباشرة؛ لذلك أنزلت على أسطحها غير المستوية، ثم أثبت على الأرض في الأسفل. وحينها أصير حرّاً.

حرّاً في الاختباء فحسب بالطبع، لكن في أيّ ظلّ أشأؤبه. أسرق قلنسوة وأبقيتها فوق جبينني، حتى لا يرى أحد وجهي الشاحب يسطع من أعماقها. أوجهُ أذنيّ إلى خطواتٍ تقترب، إلى استدارة مفتاح، إلى تنهيدة أرقّة تنبعث من نافذة مفتوحة. كان قَرع جرس الكنيسة بوصلتي، وفي كل ساعة أدقّق في حجمه ونغمته لتحديد موقعي. بدونه، كنتُ لأتوه وسط الشوارع المتداخلة، محروماً من أصوات النهار التي أرشدتني ذات يومٍ أنا وريموس إلى منزل آل دوفت.

مشاهد طبيعية من الأصوات، وكأنها لوحات مرسومة، تتألف من طبقات. الرياح هي الأساس، وهي ليست صوتاً، بالمعنى الحرفي، لكنها تخلق الصوت فيما تتلاعب بالمدينة: تضرب نافذةً مُخلّخة، تُهمهم في ثقب مفتاح، تصنع صفيراً في شعار النبالة القصديري المُعلّق أعلى متجر الجزّار: مع الرياح تأتي أصوات الطقس الأخرى: المطر ينقر على بلاط الشارع، يتساقط من الإفريز، ويندفع إلى المجاري.

ندف المطر يهسهس. الجليد يكتم الأصوات الأخرى. الأرض تتبدل.  
المنازل تَصْرُ.

على قمة هذه الأصوات كانت الأصوات الذي تتغذى على صمت  
الموت والتفُسُخ: أفكاك الفئران، الكلاب؛ الديدان؛ التيارات المُخرِجرة  
لماء الغسيل والبول المتدفق في المجاريير؛ أكوام فضلات الطعام المُتَعَفِّنة  
التي تقوقئ في انتظار مُستمع صبور؛ رُكام الرُّوث الدافئ الذي يئزُّ في  
عملية تعفُّنه؛ رفرقة الأوراق الساقطة؛ استقرار الغبار على قِبرٍ جديد.  
في ضوء الشفق، البهائم المُجنَّحة تُولم على الموتى والمحتصرين: رفرقة  
خُفَّاش، الصَّفق الوقح لأجنحة يمامة هابطة، التينور الصادح لبعوضة،  
الهمهمة المنتشية لذبابة بدينة تتقافز من البراز إلى البول. ما من  
صوتٍ قبيح. أضعُ أذني على القبور. أجثم على أكوام الرُّوث. أتبعُ  
البول في جريانه عبر الميازيب.

«في الأوبرا يا موسى، يوجد نوعان من الأغنيّات»، قال لي نيكولاي  
ذات ليلةٍ قبل أعوام، وهو يخطو جيئةً وذهابًا في صومعته، وكأس  
النبذ يتماوج في يده، ساكبًا قطراتٍ قرمزية على البُساط القشديّ  
الذي لا يُقدَّر بثمن. «أصغِ إليّ يا موسى، ستحتاج إلى هذا في مستقبلك.  
أولًا، فالغناء بإيقاعات الحديث اليومي (المرويات *Recitatives*) يدفع  
القصة قُدّمًا. أحيانًا ما تبدأ الموسيقى في أثناء الغناء بإيقاع الحياة  
اليومية وتتدفّق كالحديث. ثم نسمع معلومات يرى المؤلف الموسيقى  
أننا نحتاجها». رفعَ إصبعًا. "في تلك الإيقاعات، أحيانًا ما يغلبني  
النعاس. لكن لا بأس في ذلك. لا شيء لأخجل منه. فلا أحد يذهب إلى  
الأوبرا لسماع تلك المرويات يا صديقي. بل يذهبون إلى الأوبرا من  
أجل أنغام الآريا. الآريا تُلوي أعيننا وتفتحها على اتّساعها. انفعال  
محض، موسيقى محضة، بلا أيّ اعتبار آخر".

كنتُ قد احتفظت بهذه التعاليم بعيدًا عن تناول يدي؛ ذلك أنني لم أتصوّر قط أنني قد أحتاجها، خارج أي مسرح على الأقل. لكن في تجوالاتي الليلية سرعان ما أدركتُ أن بمقدوري تقسيم أصوات الليل البشرية إلى النوعين اللذين ذكرهما نيكولاى من أغاني الأوبرا. على مسرح الحياة، يمكنك سماع المرويات من الشارع في ليلة دافئة، وفي الشتاء لا تحتاج سوى إلى تسلُّق نافذة أو معالجة قفل والدخول إلى ردهة استقبال. هذه الأصوات، كأبناء عمومتها في عالم الأوبرا، هي الأصوات التي تدفع حياتنا. هي الشخير، الأنفاس المنتظمة، الاحتياجات، تأوهات الثَّقَلَب على الفراش، هذيانات الأحلام. إنها الهسيس في إناء التَّبُول، بوق أنفٍ مُحْتَقَن. إنها تقطيع الأخشاب وإيقاد النار في الشتاء، عَجْن العجين في ساعات الصباح المُظلمة. مرويات ليايلنا هي تقليب الصفحة بيدٍ ساهدة، وَقْع خطوات الأقدام الأرقّة. هي أصوات مثيرة للاشمئزاز. أصوات كئيبة، مُكرّرة، مُهمّلة، غير مسموعة. هي أصوات لا غنى عنها.

لأسابيع طويلة كنتُ أسمع هذه الأصوات. أجلس على دَرَج خاوي، أكل بقايا الطعام في مطابخ خالية فيما القاطنون نائمون في الأعلى. أنسلُّ إلى غرف أطفال، أنحني على أسرّتهم وأهيم في أنفاسهم الناعمة، المريحة. وكلما أنصتُ إلى هذه الأصوات كلما صرّْتُ أصغر؛ وصار العالم كبيراً؛ ويا له من عزاء كان هذا لي. لم أرغب إلّا في الصوت. أنسلُّ عبر النوافذ أو أنسلُّ عبر الأروقة، ولا أشعر بأيّ ذنب، تمامًا كالملائكة التي تنظر إلينا في أحلامنا.

استغرق الأمر عدة أسابيع قبل أن أكتشف مستوى آخر: معزوفة الليل. لا بُدَّ أن تكون محظوظًا لتسمعها، أو أن تكون في غاية الشجاعة؛ ذلك أن البشر يخفون هذه الأصوات كما يُخفون الرُّقْع الأكثر حميميةً من أجسادهم. لتسمع معزوفة الآريا في ليلة حارّة؛ عليك أن تدفع بنفسك إلى نافذة مفتوحة، أو أن تجد بابًا غير موصد في ليلة باردة.

أو تتعلّم معالجة القفل عبر الأصوات التي يُصدرها عندما يُنكسر  
بالدبابيس. لا تتوقّف عند رَدِّه المدخل، بل ارتقِ الدّرج، وتقدّم  
ببطء حتى تجد بابًا يمكنك وضع أذنك عليه. أو ربما من الأفضل أن  
تجد ساكنين مشغولين بالاغتسال، ثم تختبئ تحت فراشهم أو في خزانة  
ملابسهم. وإن لم يكن هذا، فلتتسلّق إلى سقفٍ وتتحسّس الألواح حتّى  
تجد فُرْجةً يمكنك من خلالها حصد الأصوات في الأسفل. وحدهم  
الأشباح والملائكة واللصوص لهم الحق في سماع معزوفات الآريا.

للبيكاء ألف صورة: رضيعٌ يعوي في احتياج، تأوّه سقيم، انتحاب  
وحيد. البعض يبكي في الوسادة الكاتمة أو يضغط بقبضةٍ على أسنانه  
حتى يتنشّق حُزنه. بعض الأحران ما هي إلا فيضانات من الدموع  
والمُخاط المصبوق. بعضها مخلوقات جافة، لاهثة، تُيِّس القلب. قد  
يبدو الحزن كولادة طفل غير مرغوب فيه. وهي مخلوقات تحلّ  
على الإنسان بلا دعوة أو تحيُّز؛ قد يهذي الرجل الرصين، المتغصّن،  
ويضرب جبينه، فيما حُزن حفيدته الهشّة يجعلها تختلج فحسب.

وأصوات الكراهية -التي تمثّل جزءًا من أيّ ليلٍ- ما هي، في أبهى  
صورها، إلّا الصيحات والسيوف المتقارعة التي يحاكيها المسرح النابوليونيُّ  
بأفضل شكل. منها أيضًا الصفعات الغاضبة والقبضات الثميلة، الأكثر  
شيوعًا بكثير، والإهانات والتقريعات، التي لا تخلو منها غرفة نوم وإن  
خلت من الفراش. سمعتُ عظامًا تنفلق، ودماءً تتقاطر على الأرض،  
وثيابًا مُمزّقة. رغم أنه بمقدوري الإنصات للنحيب لساعات -ذلك أنني  
دائمًا ما أشعر برهبةٍ من عمق الأحران في هذا العالم- إلّا أنه عندما  
تنساب الصفعات والسباب، أعزّ قبضتي لأحتملها.

بالطبع، إنه الحبُّ ما تعيش الأوبرا من أجله، وله تُبنى المعابد في  
كل مدينة. وسرعان ما صرّت مثل تلك الجحافل من الرجال الإيطاليين  
الذين يقضون الأسبوع دون عشاء حتّى يستطيعوا توفير ثمن تذكرة



واحدة. أضني نفسي بحثًا عن أسمى الأصوات جميعًا: معزوفات الحب. أتسلَّل إلى عُرف النوم، أختبئ في الخزائن (ولا أتسلَّل خارجًا إلا عندما يأتي النوم الحقيقي). الضحكة الخجلى. الهمهمة المُشجَّعة. همسٌ يد على جلد عارٍ. تناعُم الأنفاس. دفء الاهتياجات حتَّى يبدو وكأنهم يهمسون حارًّا؛ حارًّا؛ حارًّا! القبلية التي تتزايد حِدَّتُها فيما تنتقل من الشفاه إلى العنق إلى الصدر.

ينبغي أن أتوقَّف هنا. أغلقوا الستائر. ذلك أنه لا يُسمح بالحب على مسارح أوروبا إلا لأن أكثر الأصوات بذاءةً قد تُرجمت إلى الإيطالية. رغم أن البابا يكافئ أغنية المخصي المُوجَّعة عن الحب بالذهب، إلا أن المرأة التي تضع يدها بين ساقها وتتاوّه في حضور الكرسي الباباوي ستجد نفسها في السجن. لكن لا بُدَّ أن أخبركم عن الأصوات المُحرَّمة؛ ذلك أن الإنصات إلى الحب قد ساعدني أخيرًا على استدراك ما كُنْتُه، وما ينقصني. عندما تتحوَّل القُبلات إلى تحسيسات، وعندما تلتحم بالأنفاس إيقاعات ثابتة أخرى (دَقَّات لوح الفراش، صفير الأغنية، التَّنْهَّدات المُتزامنة)، فلا أطلب الإذن بالانصراف. بل تتبَّع أذناي أصوات تلك الأجساد كواحد من ميكروسكوبات السيد دوفت يُرَكِّز على عين برغوث. أسمع فرقة أصابع الأقدام المضمومة، الأيادي التي تهرس في الصدر والمؤخرة بصوتٍ يشبه شدَّ حزام من الجليد. الصدر على الصدر وانزلاق الجلد الجاف وانسياب العَرَق، تلاطم الأحضان، تطاحن الضلع على الضلع.

ممارسة الحب تشبه الغناء. عند النَّفس الأول -الاندفاع الأول- يكون الجسد خادِرًا غافلاً عن الصوت. تموت التَّنْهَّدات والتَّأوّهات في الحلق. لكن الإيقاع يتسارع، واللَّذَّة تتوهَّج، والجسد يتوالف ليستقبلها. سرعان ما تندفع التَّنْهَّدات إلى الصدر، ورغم أنها قد لا تكون أكثر صخبًا، إلا أنها تنهَّدات أكثر امتلاءً؛ يتأوّه المُتأوّه على أنامل أصابع المعشوقة.

لم أكن أدرك حينها أنه في ممارسة الحب يشعر المرء بلمسةٍ سحرية، لكن كان بمقدوري أن أستوعب بسهولة تماوجات جناحي صقر في تحليقه الصاعد؛ لذلك اعتقدتُ في البداية أن هذه الأنشودة هي ما يبحث عنه العاشقان. يتحرَّكان معًا، يتأوَّهان معًا، يلهثان معًا. يهمسان نعم! نعم! في أذنيَّ بعضهما البعض، ويرتجفان من الرأس حتى أصابع أقدامهما في أغنيتهما المتوحَّدة. أسمعها عندما يخلدان إلى الراحة -صامتَيْن، باستثناء أنفاسهما ودقات قلوبهما المتسارعة- نشوتهما نفس نشوتي في الغناء، جسدٌ متَّحدٌ من أجل غاية واحدة: أن يَرى مع جمال الأنشودة.

كان في أصوات معزوفات العُشَّاق هذه أن استوعبتُ أخيرًا ما قاله لي نيكولاي منذ سنوات طويلة، وأنا جالس معه على حصانه: اتحاد نصفين في الحب. استوعبتُ هذا عندما سمعت الصرخات المنتشبة للاتحاد في تلك المنازل، لكنني أيضًا لأنني سمعت روعي ذاتها تهتف، أرجوك! أرجوك! أنا، أيضًا، أتمنى أن أُحبُّ! أتمنى أن أكتمل! لكن مع هذا أدركت مأساتي: أنه بسبب نقيصتي، كان الحبُّ مُستحيلًا بالنسبة لي. بغتةً، صارت صفقة الطواشي مفهومة: لقد تخلَّينا عن أغنية الاتحاد هذه من أجل أغنية علينا أن نغنيها بمفردنا.



## (8)

أثناء تجوالاتي الليلية كان هناك منزل واحد كثيراً ما مررتُ به،  
تَوَاقًّا لاستكشافه، لكنني أبداً لم أدلف إليه: منزل آل دوفت. حتَّى  
من الخارج كنتُ أسمع أصداً تلك الأصوات الخادعة وأدركُ أنني  
كنت لأتوه في أروقتَه التي تشبه المتاهة، أو الأسوأ: أن أنخدع وأتوهم  
أن إحدى غرفه خاوية، لأكتشف أن العمَّة كارولين المقيتة رابضة وراء  
الباب.

لكن أحياناً ما كنتُ أحوم في الظلال وأراقب نافذةً مضاءة لبعض  
الوقت، على أمل اقتناص نظرة على أماليا. لكن ماذا لو ظهرت؟ ماذا  
لو حدقتُ إلى الخارج في الليل؟ لا شيء غير هذا: سأراجع أعماق في  
الظلام الذي يخفيني.

كان خارج منزل آل دوفت ذات ليلة أن اكتشفتُ أنني لستُ شبح  
المدينة الوحيد.

كنتُ في الظلال أراقب نافذةً مضاءة، على أمل أن أتبين لمحةً عابرةً من ذلك الشعر الطويل ذي لون الثَّبن، أو من ظلٍّ يعرج. كانت أذناي تنتقل مُرفرفةً من فأرٍ ينزلق برشاقة، إلى أوراق شجر تتساقط متناثرةً، إلى دجاجةٍ هربت من حظيرتها وصارت تهيم ذاهلةً خرساء في الشوارع.

بغتهً، في زاوية عيني، رأيتُ شكلاً بشرياً يندفع إلى أحد الأبواب. ما بدا مستحيلاً هو أن هذا الشكل البشري لم يحدث أي صوت. تراجعْتُ إلى ظِلالي وانتظرت. لم أسمع شيئاً. افترضتُ أنني توهمتُ الرؤية، وخطوتُ مبتعداً عبر الشارع، جاهزاً للتراجع إلى الدير. قبل أن أستدير حول أحد النواصي على الفور، تطلَّعتُ إلى ورائي. هيئةٌ بشرية قائمة كانت تتحرك بخفوتٍ بين المنازل المظلمة. لم تُبدِ أي صوت على الإطلاق بمقدوري سماعه. كان الأمر مُرعباً لي وكأنني رأيت رجلاً يخطو محترقاً جداراً صلباً.

فررتُ هارباً.

ركضتُ عبر زقاق، ثم انعطفتُ مرّةً تلو الأخرى، حتى تأكدتُ أنني أفلتُ من الشبح عديم الصوت. كنتُ في الخريف، والنوافذ المغلقة تحجب أنفاس المدينة النائمة. لم أسمع سوى أصوات التَّعْفُن المتوارية وراء الرياح الباردة، المَصْفُرة، المُتَنهِّدة. بعيداً في الزقاق الذي خرجتُ منه لتوِّي، أضيئت نافذة. كان لها أن تكشف أي شيء يقترب مني. لم يكن سوى متشرّد، قلتُ لنفسِي. متشرّد سرقَت الريح أصواته. فأنا شبح المدينة الوحيد.

ثم سمعتُ النقر الخشن لخشبٍ على حجارة الزقاق قبل النافذة. أرهفت سمعي بحثاً عن وَقَع أقدام أو أنفاس. لم أسمع شيئاً سوى الدَّق. كان يُكرِّر نفسه بانتظام مُتَقَن، كدقات تروس الساعة في برج شتاوداخ الشمالي.

رَأَيْتُ ظِلًّا لِرَجُلٍ. اِحْدُودَبَ عَلَى جَانِبٍ وَاحِدٍ وَعَرَجَ مُسْرِعًا عِبرَ الزُّقَاقِ. كَانَ يَرْتَدِي عِبَاءً سَوْدَاءَ طَوِيلَةً، بِقَلَنْسُوءٍ تَخْفِي وَجْهَهُ. مِنْ الطَّرِيقَةِ الَّتِي يَدُقُّ بِهَا الشَّارِعَ بَعْصَاهُ، أَدْرَكْتُ أَنَّهُ أَعْمَى. ثُمَّ تَوَقَّفَ أَمَامَ النَّافِذَةِ الْمُضَاءَةِ. اعْتَدَلَ وَأَدَارَ رَأْسَهُ جِيئَةً وَذَهَابًا، مُنْصِتًا.

كَانَ هُنَاكَ شَيْءٌ مَأْلُوفٌ فِي هَذِهِ الْإِمَاءَاتِ؛ أَعْرِفُ هَذَا الرَّجُلَ. كَانَ شَبَحًا حَقًّا.

رَكَضْتُ. انْعَطَفْتُ عِبرَ أَزْقَةِ ضِيقَةٍ دُونَ أَنْ أَعْرِفَ إِلَى أَيْنَ تَوْدِي. لَمْ أَبَالِ إِنْ كَانَ رَأَيْتِي أَوْ سَمَعْنِي أَحَدًا. فِي كُلِّ مَرَّةٍ أَتَوَقَّفُ، كُنْتُ أَسْمَعُ الدَّقَّ وَرَائِي، يَبْدُو أَنَّهُ يَخْتَرِقُ جَمْعَمَتِي ذَاتَهَا. رَكَضْتُ كَبْغَلٍ مَذْعُورٍ، مَصْطَدِمًا بِالْجِدْرَانِ، مُتَعَثِّرًا فِي الزُّقَاقِ غَيْرِ الْمُسْتَوَى، وَمُدْمِيًا يَدَيَّ عَلَى أَحْجَارِهِ.

انْتَهَى بِي الْأَمْرُ إِلَى زُقَاقٍ مَسْدُودٍ. تَحَسَّسْتُ الْجِدَارَ الْعَالِيَ بَحْنًا عَنْ مَخْرَجٍ وَلَمْ أَجِدْ، ثُمَّ اسْتَدْرْتُ وَأَنْصَتُ. دَقَّةٌ. دَقَّةٌ. دَقَّةٌ. أَقْعَيْتُ وَرَاءَ بَعْضِ الرَّمَامِيلِ الْمُتَعَقِّنَةِ وَأَرْغَمْتُ أَصْوَاتِي عَلَى الْإِخْتِفَاءِ. كَانَتْ أَنْفَاسِي بِأَدْنَى هَمْسٍ، لَكِنْ قَلْبِي مَا يَزَالُ يَنْبِضُ كَالطَّبْلِ. دَقَّةٌ. دَقَّةٌ. دَقَّةٌ. اجْتَازَ الصَّوْتُ مَدْخَلَ الزُّقَاقِ. تَوَقَّفَ الشَّبَحُ هُنَاكَ. احْتَشَدَتِ الرِّيحُ فِي نَهَايَةِ الزُّقَاقِ، عَاوِيَةً حَوْلَ الْبَرَامِيلِ.

كَانَ الْعُكَّازُ قَدْ اسْتَدَارَ الْآنَ وَأَخَذَ فِي الدَّقِّ عِبرَ الزُّقَاقِ نَاحِيَتِي. كَانَ أَقْلُ الْإِحَاحَا. دَقَّةٌ. نَقَرَ مَرَّةً وَاحِدَةً فِيمَا أَلْتَقِطُ أَنْفَاسِي فِي رَعْبٍ.

دَقَّةٌ. مَرَّةً فِيمَا أُخْرِجُ أَنْفَاسِي.

دَقَّةٌ.

عِنْدَمَا اقْتَرَبَ الشَّكْلُ الْبَشَرِي، تَبَيَّنَتْ وَقَعَ خَطَوَاتِ خَافَتِهِ، هَادئةٌ كَخَطَوَاتِي عِنْدَمَا أَعْبُرُ الْأَسْقُفَ وَأَتَسَلَّلُ مِنْ غُرْفِ النَّوْمِ. لَمْ يَكُنْ شَبَحًا، لَكِنْ رَجُلًا تَلَامِسُ قَدَمَاهُ الْأَرْضَ حَقًّا. لَمْ يَمْنَحْنِي هَذَا الْعِزَاءَ.

توقَّف العُكَّاز والخطوات. رفرفت الريح عباءته. كانت أنفاسه أكثر خفوتًا من أنفاسي. نهضت واقفًا. تعثرتُ بين البراميل. انفلقت، نائرة الخشب المتعفن عبر الزقاق. اقترب مني، مخرجًا عُكَّازَه عند قدمي. تراجعَت ملتصقًا بالجدار. عندما تارجح عُكَّازُه مجددًا نحو قدمي، اندفعتُ مُتجاوزًا إيَّاه، لكن أذنه كانت أسرع. أمسكت يدَ بكمٍ ردائي وهزنتني بقوةٍ لحدِّ أنني فقدتُ توازني. جرَّني نحوه. حاولتُ أن أتملَّص من قبضته، لكنه أسقط عُكَّازَه -قعقعَ على الأرض- وقبضَ عليَّ بكلتا يديه.

"أفلتني!" صرختُ. كان عجوزًا ومعاقًا، لكن بالنسبة له لم أكن أقوى من طفلٍ يصرخ. أزاحت يدَ قلنسوته. إنشأت كانت تفصل بين وجهينا. حتَّى في الضوء الخافت، كان بمقدوري تبين كل تفصيلة خربة في وجهه. لم يتبقَّ فيه شَعْرٌ على الإطلاق. كان جلده أحمر مُرقطًا، بلُطخ من البياض كغضاريف حَمَلٍ نيئ. كان خذُّه الأيسر مشدودًا وناعمًا، كنسيج رقيق عرضةً للمزق عند لمسة إبرة. فيما خذُّه الأيمن مُلطَّخ بالفقاقيع والندوب. محجراً عينيه خاويين؛ وجفناه سدائل مُجعَّدة من الجلد.

"وجدتك"، قال أولرتش.

\* \* \*

"مَن هناك؟" صاح أحدهم من نافذةٍ في الزقاق.

"تعالَ معي"، همسَ أولرتش. "منزلي قريب".

حاولتُ التحرُّر.

"لن أتركك مُجدِّدًا"، قال. ثم أحكم قبضته عليَّ بكلتا يديه. "لا أبالي إن أمسكوا بنا، رغم أننا سُنعاقب كلانا".  
 "من هناك؟ نحن مسلَّحون!" هتفَ الصوت.

"تعال!" قال أولرتش مُتَعَجِّلًا. أَمَسَكَنِي مِنْ كُمِّي وَجَذَبَنِي. كُنْتُ مُسْتَسْلِمًا تَمَامًا كَمَا كُنْتُ ذَاتَ يَوْمٍ عِنْدَمَا حَمَلَنِي إِلَى الْأَسْفَلِ عِبْرَ أَرْوَقَةٍ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ. رَغِمَ أَنْيِ الْآنَ أَكْثَرُ طَوَلًا مِنْهُ، لَمْ أَسْتَطِعْ اسْتِجْمَاعَ شِجَاعَتِي لِضَرْبِ الرَّجُلِ الْمُعَاقِ.

دَقُّ بَعْكَازِهِ عِبْرَ الزَّقَاقِ. تَلَوَّى بِنَا بِخَبْرَةِ الشَّوَارِعِ، وَهَكَذَا أَدْرَكْتُ أَنَّ ذَاكِرَةَ الْأَشْكَالِ لَدَيْهِ كَانَتْ أَفْضَلَ كَثِيرًا مِنْ ذَاكِرَةِ الْأَصْوَاتِ. وَصَلْنَا إِلَى مِيدَانٍ بِنَافُورَةٍ ثَلَاثِيَةِ الْمِيَازِيبِ، وَدَفَعَنِي نَحْوَ بَابٍ لِمَنْزِلٍ ضَيِّقٍ. فَتَحَ رَتَاجَ الْبَابِ وَدَفَعَنِي إِلَى الدَّخْلِ.

كَانَ لِلْمَنْزِلِ غُرْفَةٌ وَاحِدَةٌ فِي الطَّابِقِ الْأَرْضِيِّ. كَانَتْ مُرْتَبَةً بِشَكْلِ مُدْهَشٍ، بِمَقْعِدٍ وَاحِدٍ مَعَ مَنْضَدَةٍ صَغِيرَةٍ، وَفِرَاشٍ مُلْتَصِقٍ بِالزَّاوِيَةِ. لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ أَيُّ زِينَةٍ عَلَى الْجُدْرَانِ، وَلَا أَيَّةُ قِطْعٍ أَثَاثٍ أُخْرَى، وَلَا مَصَابِيحَ وَلَا شَمُوعَ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ. كَانَ الضَّوُّ الْوَحِيدَ قَادِمًا مِنْ تَوْهْجِ الْفَحْمِ فِي مَوْقِدٍ. دَرَجَ مَائِلٌ بَعْدَهُ كَانَ يُوْدِي إِلَى الطَّابِقِ الْأَعْلَى الْمُظْلَمِ. الْفِرَاشُ مُرْتَّبٌ بِعِنَايَةٍ، وَالْمَقْعِدُ يَتَوَسَّطُ الْمَنْضَدَةَ. لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَيُّ رِمَادٍ مُتَطَايِرٍ حَوْلَ الْمَوْقِدِ، وَلَا بَقَايَا طَعَامٍ عَلَى الْأَرْضِ. التَّمَعَّتِ الْأَرْضِيَّةُ الْحَجَرِيَّةُ.

أَوْصَدَ الْبَابَ وَوَضَعَ الْمِفْتَاحَ فِي جَيْبِهِ.

"افتح الباب"، قُلْتُ.

ارْتَفَعَ رَأْسُهُ وَكَأَنَّ بِمَقْدُورِهِ أَنْ يَرَانِي بِعَيْنَيْهِ الْمَجُوفَتَيْنِ. "صَوْتُكَ مَا يَزَالُ كَمَا هُوَ"، قَالَ. "لَكِنْ أَقْوَى".

"افتحه"، قُلْتُ.

"إِذَا فَتَحْتَهُ، هَلْ سَتَرْحَلُ؟".

"إِذَا شِئْتُ".



تفكر لوهلة، ثم فتح قفل الباب. خطا ناحيتي، مدّ يده حتى  
وجد صدري، ثم دس المفتاح في جيبي.  
"هذا مفتاحك"، قال. "هذا منزلك. إذا شئت".  
"لا أريده".

لم يقل شيئاً. طَقطق الجَمْر في الموقد كالجليد.  
خطوت متجاوزاً إيّاه نحو الباب. كان ظهراًنا قُبالة بعضهما البعض  
عندما تحدّث.

"عندما استعدتُ قدرتي على المشي، منحني رئيس الدير كويلستين  
زكيةً من الذهب. قال إنه سيشنقني على إخصائك إذا عدتُ أبداً  
إلى هذه المدينة. ثم أرسلني إلى زيورخ. ألقوا بي من العربة وتركوني  
بجوار البحيرة. لم تكن لديّ عصا حتّى. أنصتُ إلى العربة تختفي.  
إلى الأمواج في البحيرة. الخيول العابرة. الباعة في سوقٍ قريبٍ. أبداً لم  
أسمع في حياتي عالماً خاوياً كهذا. لو كان بحوزتي مُسدّس لوضعتُه في  
رأسي وأطلقتُه".

سمعتُ التّوسّل في صوته، لكن مع ذلك مددتُ يدي نحو مقبض  
الباب.

تابع أولرتش: "عربة"، صحتُ حينها. 'أحضروا لي عربة!'. "

ارتعش ظهري عندما سمعتُ صوت مُعلّمي الفاتر، المتلهّف. اتّخذ  
خطوتين ناحيتي. ارتعبتُ من لمسته الرقيقة الآن تماماً كما كنتُ  
أشمزُ منها عندما كنتُ طفلاً.

"موسى، كان ينبغي لنيكولاي أن يأخذ أذني! كان بمقدوره بترهما،  
وكنْتُ لأشكره فيما أصرخ. لكن العمى هو لعنة الشيطان! لا أفعل  
شيئاً سوى السَّمْع. أسمع النمل يزحف على الأرض. أسمع الطين  
ينساب تحت قدميّ. أسمع ندوبي تتقرّح فيما أحاول النوم. أسمعك

يا موسى. أنا أيضًا أهيم في الليل؛ ذلك أنني أيضًا عليّ أن أبقى مختبئًا. طالما تَبَعْتُكَ. طالما سمعتُ خطواتك وأنفاسك. تلك الأنفاس التي علّمتُها كيف تنطلق."

استدرتُ إليه ورأيت الدموع تنساب من حيث كانت عيناه يومًا. مدّ يَدًا وكأنه يتوق إلى لمس ذراعي. جَفَلْتُ متراجعًا.

"لكن ماذا هناك لأسمعه؟ سمعتُ الجمال في هذا العالم ذات مرة، لكن ضجيج هذا المدينة المريعة يذكّرني كل لحظة بما فقدته. موسى، كل ما أريده أن أسمعك تغني مُجددًا. أرجوك."

توقّف. لم أستطع انتزاع عينيّ عن رأسه المحترق، الذي كان يلتصق قرمزياً في ضوء الفحم المتوهّج. مسح وجهه الغارق في الدموع. "موسى، أرجوك..."

"لم أعد أغني"، قلتُ بغتةً. "رئيس الدير يحظر عليّ ذلك".  
"رئيس الدير أحق."

"طالما كان رئيس الدير عطوفًا عليّ"، قلت، بغضبٍ في صوتي. "جعل مني راهبًا مبتدئًا. يومًا ما سأصير راهبًا حقيقياً".

فتح أولرثر فمه لكن توقّف. اختلج وجهه فيما يتأمل ما قلته لتوي. "هذا... من حُسن... حظّك"، قال، لكنني سمعتُ في تردّده أنه كان يُخفي ما يعتقدُه حقًا. "تنوي البقاء هنا إذن؟ للأبد، في هذه المدينة؟".

"إلى أين غيرها يمكنني الذهاب؟".

رأيتُ الدهشة على وجه الرجل الأعمى، لكنه سرعان ما خنقها. "رئيس الدير في غاية الكرم"، قال. "هذا عالمٌ قاسٍ على أمثالك. بمقدور الدير أن يوفّر لك الكثير من الترف".

"لا أريد التَّرف. أرغب أن أترك وشأني فحسب".

"حسنًا"، قال. أوماً. مدَّ يداً مرتعشة وعثرَ على كُمِّي، لكن بخفَّةٍ شديدة لحدِّ أنه كان بمقدوري الابتعاد. بيده الأخرى ربَّتَ على ذراعي، وكأنه عمٌّ غير معتاد على الأطفال. "موسى"، تابع. "دعني إذن أعرض عليك الشيء الوحيد الذي لا يستطيع رئيس الدير تقديمه. حينها ستنال كل ما تريده. ستكون سعيدًا للأبد".

"ماذا بمقدورك أن تعرض عليّ؟".

"أن تُغني"، قال بهدوءٍ شديد.

انتزعتُ ذراعي وتراجعتُ بضع خطوات.

"أرجوك أنصت"، قال بهدوء، مُجاهدًا ليسيّط على حماسته المتقدِّدة. جرَّ قدميه ناحيتي، محاولًا استعادة قبضته. "أرجوك غنِّ هنا. في هذا المنزل. في الليل، بدلًا من التطواف في الشوارع. لن أقول لك ماذا تغني. لن أتحدّث. سأجلس فحسب وأنصت".

فتحتُ الباب.

"أرجوك يا موسى، غنِّ"، همسَ وكأنه يصلي.

استدرتُ لألقي عليه ما كنتُ آمل أنه النظرة الأخيرة. ثم قلت. "كيف لك أن تطلب مني ذلك؟".

"موسى!".

"لقد دمَّرتني".

"لم... لم... يكن لديّ..." لم يستطع إنهاء جملته.

"لن أُغني مجددًا أبدًا"، قلت. "لا لك. ولا لأيِّ إنسان".

## (9)

كنتُ شبحَ المدينة الصامتة، أتلّس الشوارع والمنازل، أجمع كل صوتٍ ما عدا صوتي؛ ذلك أنني لا أبدي أيّة أصوات. كنتُ مغتبطاً أكثر من أيّ وقتٍ منذ نفي صديقيّ. نجحتُ في التصالح مع بلاويّ، وتقبّل أن الرّب لم ينو في الأصل أن يمنح هبة الفرحة لمن يحملون نقيصتي. في التاسعة عشرة من عمري فحسب، كنتُ تخليتُ عن العالم. وكنتُ سأظل هكذا حتى اليوم -شبحاً عجوزاً، صامتاً- لو لم يُعديني ملاكٌ إلى الحياة.

حدثتُ انبعاثي بغتةً. باكراً ذات صباح، انزلقتُ على سقف الدير عائداً إلى نافذتي، مُنتبهاً حتّى لا أحدث صوتاً. بهدوء وضعتُ قدمي على حافة نافذتي وأقعيت، مُستعدّاً للسقوط على فراشي. كنتُ أحجب ضوء النجوم عن الغرفة.

فيما ألقى بهذا الظلّ على أرض غرفتي، سمعتُ تنهيدةً. كانت في غاية الخفوت لحدّ أن معظم الناس لن يسمعوها، لكن بالنسبة

لي كانت ذات دلالة وكأنها بورترية. تعرّفتُ على الرثتين اللتين دفعتا الهواء، والحلق الذي صاغ شكله.

لم أتحرك. لم أكن لأرتعب أكثر لو سمعتُ أسدًا يقف هناك.

"موسى"، قالت. "هل هذا أنت؟".

لم أجب. أقعيتُ على حافة نافذتي وحاولتُ الامتزاج بالليل. خَطَّت عبر غرفتي. كانت ترتدي عباءة سوداء بقلنسوة، مثل عباءتي. لكن قلنسوتها كانت مخفوضةً. في الظلام، كان بمقدوري رؤية حدود وجهها، ووهج شعرها الذهبي.

هبطتُ إلى الفراش ثم نزلت إلى الأرض. كانت قمة رأسها تصل إلى ذقني.

"موسى؟".

أنصتُ إلى أنفاسها. كان زفراتها رطبة ودافئة.

"ألا تريد التحدُّث إلي؟".

سمعتها تعضُّ شفتها.

"يا لي من حمقاء"، قالت. "يقتلني الخزي".

استدارت لتتصرف. أنصتُ إلى حذائها على الأرض. سمعتُ نسيج ردائها يُحفف على ظهرها.

"انتظري"، همستُ، بنعومةٍ كنعومة ذلك الصبي الضئيل.

استدارت. انتظرت. لم أتحدّث. حاولتُ أن أسمع قلبها. كان خافتًا للغاية على أن أسمعه من نهاية الغرفة، لكنني كنتُ مرتعبًا على أن أخطو خطوةً واحدة.

"انتظري"، قلتُ مُجدِّدًا. "لا ترحلي".

لبضع ثوانٍ وقفنا هناك فحسب في الظلام.  
"هل لديك شمعة؟" سألت أخيراً. "مصباح؟".  
"كلّا".

"كيف تستطيع الرؤية؟".  
"لا حاجة بي إلى الرؤية".

"أريد أن أرى وجهك"، قالت. "لخمس سنوات لم أكن أرى شيئاً  
سوى عينيك و يضع أصابع عبر تلك البوابة اللعينة. ازداد طولك كثيراً  
منذ ذلك الحين".

أغلقتُ عينيَّ وتمنَّيتُ لو تجمَّد العالم وأبقى لي أصواتها فحسب.  
"ألا تريد أن تراني؟" سألت.

"رايتكِ"، أجبتها. "في كل مرّة تحدّثنا فيها. وفي العام الفائت أيضاً.  
في الكنيسة".

سمعتُ الهوان يستولي على صوتها. بعد بضع ثوانٍ تحدّثت. "إذا  
كنتَ هناك حقّاً، لماذا لم تُجبنني؟".  
لم أجبها، لأنني لم أستطع إخبارها بالحقيقة.

"أردتُ أن أراك"، قالت. "أريد أن أراك الآن. مضى زمنٌ طويل. طالما  
ظننتُ أنك صديقي. صديقي الوحيد. هل نسيّتي؟".  
"كلّا"، همستُ. "لم أنسكِ على الإطلاق".

خطتُ بخفّةٍ عبر الغرفة. انكمشتُ في قلنسوتي، حتّى لا ترى  
وجهي، حتّى لا تقرأ نقيصتي في انحناءاته الناعمة. كانت علي  
بعد إنشآت الآن. أستطيع سماع قلبها الآن، كالطبل. كل خفقة تهزُّ  
جزءاً ذاوياً داخلي وتعيده إلى الحياة. لاحظتُ بغتةً كم هي صغيرة  
غرفتني في العليّة، وكيف يوشك رأسي على ملامسة السقف المائل. لو

فردتُ ذراعِي سيكون بمقدوري ملامسة كلا الحائطين. صارت غلاتي الكهنوتية ضيقة بغتة، لحد أنني لم أستطع التَّنَفُّس.

"هل يمكنني رؤية وجهك؟" مدتُ يداً ولامستُ القنسوة. تناولتُ يدها في يدي حتَّى لا تكشف عن وجهي.

«أرجوكِ لا تفعلي»، قلتُ. عندما تركتُ يدها، أفلتتُ فماش ردائي، لكنها أبقت يدها قريبةً من وجهي.

«لم يكن ينبغي أن آتي».

كانت أنفاسها قد تبدَّلت. صارت أكثر دفئاً الآن؛ وحلقها أكثر توتُّراً. ابتلَّعت ريقها.

«قبل شهرٍ سرقْتُ هذا الرداء من مصنع أبي. فكَّرتُ، سأتنكَّر فيه. فكَّرتُ، سأذهب لرؤية موسى. وجدتُ هذه. هل تتذكَّرها؟» خشخشة ورقة تنفتح. استطعتُ رؤية القليل منها في الظلام؛ كان عليها ما يشبه رَسْمَةً. «علامة X ما تزال تشير إلى غرفتك».

استحضرتُ ذكرى طفلين ساذجين يثرثران في الرواق. كم تمثَّيتُ لو كنتُ هناك مُجدِّداً.

"موسى"، تابَّعت، "عندما أستلقي في الفراش وأحاول التفكير في شيءٍ سعيد واحد في حياتي، أفكِّرُ فيك. مرَّةً في الأسبوع، كل خميس. تزور كارولين خالتها في بروجن. يصير المنزل خاوياً للغاية- يمكنني فعل ما يحلو لي حينها. أفكِّرُ دائماً: لكن ماذا يحلو لي؟ مرَّتين، وصلتُ إلى حدود الكنيسة قبل أن أستدير على أعقابي، بهذا الرداء تحت ذراعي. الليلة لم أستطع التَّوقُّف. تسلَّقتُ تلك الشبكة الذهبية. لا أعتقد أن أحداً رآني، لكنني لا أبالي على أيِّ حال. موسى، كيف لي ألا آتي؟".

وقفنا هكذا ليضع ثوانٍ، يدها ما تزال مرفوعةً أمامي، وكأنها تمنحني البركة. ثم بأنفاسٍ مُتقطَّعة، وكأنها لم تستطع مقاومة الرغبة،

مدّت يدها ولا مست ذقني بإصبعها. تتبّعت إصبعها حافّة فكّي.  
وضعت راحتها على خديّ، ثم حرّكت أصابعها عبر شفّتيّ، وحينها  
شعرتُ بأنفاسي الحارّة ترتدُّ من على أصابعها.

"يا إلهي"، همست. "يا لي من حمقاء".

تسارع قلبانا معًا. سمعتُ ابتلال فمها فيما تبتلع ريقها مُجدّدًا.  
مدّت يدها وراء أذني. أجرت أصابعها عبر شعري، ثم بدأت في جذب  
وجهي ناحية وجهها، وشعرتُ بشفتيها تلامسان شفّتيّ. لم تستجب  
شفّتي لشفتيها، لكنّ أذنيّ سمعتا كل نغمةٍ في القُبلة: افتراش شفّتيها،  
شدّهما الناعم على شفّتيّ، تحرّرها.

خَطَّت متراجعةً للوراء في خجل. لكن فيما توشك على اتّخاذ خطوة  
أخرى -للهرب للأبد ربّما- ارتفعت ذراعي. أمسكتُ يدُ بكتفها،  
والأخرى بخاصرتها. لم أعناقها، أو أجذبها ناحيتي حتّى، لكنني أمسكتُ  
بها فحسب، وكأنّني أمسك بكنزٍ غني سهل الانكسار في يديّ.

أطَلَقْتُ زفيرًا، ثم تنفّست مُجدّدًا. كانت كل نبضةٍ من قلبها،  
متماثلة تقريبًا لسابققتها، صوتًا جديدًا وجميلًا لي، ووجدتُ نفسي  
أقترّب منها ببطء، بذراعيّ يتسلّان حول ظهرها لتقريب أصواتها إليّ.

تنهّدت، وأرسلت الهمهمة الرقيقة في رئتيها برعشة انتشاء عبر  
ظهري. قرّبتها أكثر. انضغط نهداها الناعمان على صدري، وأسفل  
منهما، لامست أضلاعها أضلاعي. عندما تنهّدت مُجدّدًا، انتقل الاهتزاز  
من جسدها إلى جسدي، وشعرتُ به في رئتيّ. ضغطت بخدّها على  
كتفي، برأسها تحت فكّي. صارت كل زفرةٍ عذبة الآن سجيّةً في عنقي.

لم أَعُد أحتمل الأمر. شرعتُ في غناء نغمةٍ أحادية، بخفوفٍ في  
البداية، ثم بالكاد استطعتُ مقاومة استخدام كل قوة هاتين الرئتين.  
كان قد مضى وقتٌ طويل جدًّا، أكثر من ثلاثة أعوام، منذ غيّبتُ آخر  
مرة. انتشرتُ الوخزة المألوفة للنغمة خارجةً من عنقي، إلى صدري



وفكّي، حتّى صرْتُ أرُنُّ من جديد. انطلقت الأغنية مباشرةً مني صدري إلى صدرها. كان صوتي ما يزال همسًا، لكن سمعتُ صداه في عنقها، في عضلات ظهرها، وكأنه جرسٌ طَرَقَتْهُ برفقي بِمدَقَّةٍ من اللَّبادِ الناعم. رفعتُ صوتي بالغناء وضممتُها إليّ أكثر. وضعتُ إصبعًا على كل ضلعٍ في ظهرها، حتّى أشعر بصوتي فيما يمرُّ عبرها.

ثم سمعتُ وقع خطواتٍ في الرواق. قطعْتُ صوتي، وكأن يدًا قَبَضَتْ على حلقي. كان أحدهم قد سمعني أغنّي فيما يقف في الرواق، خارج غرفتي مباشرة.

"ما الأمر؟" همست.

"أحدهم هناك"، قلت.

اتَّخَذْتُ أَيَّ مَنْ كان ذلك خطوتين نحو باي وانتظر. وضعتُ إصبعي على شفتيها.

بعد بضع ثوانٍ، تراجعَ وقع الخطوات عبر الرواق.

"تعالَيَ معي". قُدَّتْهَا نحو النافذة.

"إلى الأعلى؟".

"سأمسك بيدك".

ارتقينَا النافذة، ثم حملتُها حتّى وقفت بقدميها على حافة النافذة، وصار بمقدورها النظر إلى المُعْتَزَلِ في الأسفل. أَحْكَمَتْ يدها حول يدي. كان ليلاً بلا قمر، وبالتالي ظلٌّ وجهي آمِنًا في الظلِّ. كانت المدينة سوادًا محضًا وراء الدير الأبيض. بقيت النافورة في المُعْتَزَلِ. حَفَحَقَتِ الرياح كحرييرٍ رقيقٍ على السقف. ناحت حمامة. فَعَقَعَتِ عربةٌ عبر شارع بعيد.

ساعدتها لتتسلق إلى الطُف، ثم وقفنا، يدًا بيدًا، وسرْتُ في الخلف وهي في المُقدِّمة، بساقها العرجاء تتخبط. انزلقنا عبر البُرج، متجاوزين نوافذ رئيس الدير، ثم زحفنا على طول الجدار لنهبط إلى المدينة. كان منزل آل دوقت المكانَ الوحيد الذي بمقدوري إيجادَه بكل ثقة؛ ذلك أنني كنتُ أزوره في كل ليلة طوال العام الفائت، رغم أنني لم أدخل إليه. قدَّتها عبر الشوارع المظلمة، مُسترشداً في طريقي بنغمة أقدامي على أحجار الشارع، وحفيف الرياح. لم نتهامس حتَّى، ليس لأننا خشينا أن نسمعنا أحد، لكن لأن كلينا شعرَ بأننا كنَّا في حُلْم، وأن أيَّ ضجيج قد يُفزعنا ويوقظنا. تشبَّثت بذراعي برفقٍ حتى وصلنا إلى منزل آل دوقت، ظلًّا أسود في الليل.

خطوتُ وراءها، أمسكتُ بذراعَيْها أسفل كتفَيْها، وهمستُ في أذنها. "في هذه البقعة"، قلت. "بعد أسبوع. سأكون هنا". وبدفعية رقيقة، قدَّتها إلى بوابة حديقة المنزل وأفلتُها.

استدارت ناحيتي، لكنني كنتُ رحلت. اختفيت كشبح.



## (10)

في الليلة التي تلت زيارة أماليا، تسلَّلتُ إلى منزل أولرتش. استخدمتُ المفتاح الذي كان وضعه في جيبِي. لم أطرُق الباب. في البداية، بسبب الغياب المُطلق للأصوات البشرية، كنتُ متأكِّدًا أن الرجل العجوز قد مات بسبب لحم جسده المُتَعَفِّن، لكن عندما دلفتُ إلى الغرفة، أباَنَ الفحم المتوهِّج في الموقد قائد الجوقة السابق جالسًا على المنضدة. كان مُحَجَّرًا عَينِيهِ الخاويان يشيران إلى يديه متصاليَتَيْنِ أمامه. كانت جمجمته المتقيِّحة جرداء.

لم يُبدِ ردَّةَ فعلٍ على دخولي، لكنني كنتُ متأكِّدًا أنه سمعني. لم يصدر عنه صوت أكثر مما تُصدر جُثَّة. كنتُ جلبت معي شمعةً، أشعلتها من الفحم. ثم تسلَّقت الدَّرَج. لم يحرك رأسه.

أبانت طبقةٌ من الغبار على السُّلَّمة الرابعة أبعَدَ نطاق وصلَ إليه اهتمام أولرتش المهووس بالنظافة. لم يكن أحدٌ قد ارتقى الدَّرَج حتَّى هذه السُّلَّمة في عامٍ أو يزيد. في الطابق التالي، كان هناك رواق طويل

تتناثر فيه مقاعد، وسجاجيد ملفوفة، وإطارات لوحات مكسورة، وزهریات مُحطّمة، وكومة من الأواني الفضية القذرة، وكل هذا يسدُّ الأبواب الأربعة الخارجة عن الرواق. عند النظر عن قرب اكتشفت أن المقاعد والسجاجيد والأطر كانت ملطّخة أيضًا ببقع كثيرة. غبار؟ دماء؟ وضعتُ يدي على أنفي وتراجعتُ بسرعة عن هذه الفوضى المغيّبة، مُتابعًا طريقي على الدَّرَج المُغْبِرِّ حتى الطابق الأخير، حيث انتهى الدَّرَج ببساطة ذات باب، فتحتَه ودلفت عبره.

كانت هذه المساحة تحت سقف المنزل عبارة عن غرفة طويلة واحدة. سقفها ينحني لحدّ أن رأسي احتكّت بالعوارض فيما أخطو نحو النافذة العريضة في الناحية الأخرى. كان الغبار يغطي كل شيء.

بجوار الباب ينتصب موقدٌ غير مُشعل، وفراش قديم يقبع بجوار النافذة تتناثر عليه أوراق وكتب صفراء. في منتصف الغرفة تنتصب منضدة مستطيلة، بمقدور عشرة أفراد تناول عشائهم عليها بكل أريحية، لو لم تكن مكسوّة بطبقة من السخام وتعلوها جرار ومخلّفات أخرى. بالتّمعّن فيها عن قرب، اكتشفت سكاكين وفُرشًا متنوّعة مبعثرة على المنضدة، ورأيت أن الجرار الزجاجية كانت ممتلئة بأطلية، مفتوحة للهواء في معظمها، وقد جفّت تمامًا، لكن بعضها ما يزال مغلقًا، وفي هذه الجرار، كانت الأطلية قد استقرّت في طبقات وكأنها عيّنات من الرمال. على الجدران، كانت أقمشة الرسم غير المؤطرة تغطي كل إنش مربّع. مزيدٌ من اللوحات كانت مرصّوة في الزوايا، مئات منها ربما، بعضها كبير كبورترية شتاوداخ المعلّق في مكتبة الدير، وبعضها صغير كأيقونة مريم المنمنمة التي طالما كانت مُعلّقة فوق فراش نيكولاي.

كانت بورترية. كلّ منها تصوّر وجهًا منفردًا، وكان بمقدوري على الفور تبين أنها رُسمت جميعًا بنفس اليد. كانت الخطوط غير مُتقّنة،

ومع ذلك فيما ألُوِّح بالشمعة أمام أقمشة الرسم، شعرتُ على الفور بألفةٍ مع هذه اللوحات، أكثر ممَّا منحني الوجوه الحقيقية قطً.

وحدثُ وجهًا لامرأةً مكرَّرًا بكثرة: كبير أحيانًا ومنمنم أحيانًا، ترتدي فستان حفلات في بورتريه، وهناك، في بورتريه آخر في نهاية الغرفة بجوار الفراش، لا ترتدي شيئًا سوى جلدها الشاحب. على قماشة الرسم الأخيرة هذه كانت تجلس على مقعد، في وضعية وقورة لا تلائم العُري. حدَّقْتُ في جسدها العاري. هذا المرأة -لا، هذه اللوحة لهذه المرأة- أوقفت أنفاسي. سمعتها. هل كان صوتها أم أنفاسها أم انزلاق فخذٍ ناعمة على الأخرى؟ سمعتُ كل هذه الأصوات في اندفاعه صاخبة مرَّت من خلالي كريحٍ عاصفة.

نظرتُ من فوق كتفي. هل كانت معي في الغرفة؟

لكنني كنتُ بمفردي.

سرعان ما بدت الغرفة صاخبة. مع كل نظرة خاطفة، كانت كل لوحة تهمس لي. أزلتُ الكثير منها وقلَّبتها حتى يواجه مَن فيها الحائط، لكنني تركتُ ثلاثة بورتريهات لوجه هذه المرأة الساحرة، والبورتريه التي تجلس فيه عاريةً.

ألقيتُ بالجرار والفُرَش في الشارع في الأسفل. انفجَرت في طرشات متعددة الألوان. ظهرَ ضوء الشموع في المنازل على الناحية الأخرى من الشارع، وسمعتُ امرأة تصرخ، "يا إلهي! الشبح!" ثَرَبَت نوافذ وسُلِسَت أبواب. صُوِّبَت بالجرار على النوافذ، مُخَلِّفًا خطوطًا خضراء وزرقاء على المنازل المواجهة لمنزل أولرتش. لطَّخت جرَّة حمراء شاردة النافورة وأغرقتها بالدماء.

سرعان ما أفرغتُ الغرفة من كل شيءٍ ما عدا اللوحات، والمنضدة الطويلة والفراش. ضربتُ على حشِيَّة الفراش حتَّى امتلأت الغرفة بضبابٍ عُباريٍّ.

كنتُ أنوي تجاهل أولرتش، لكن عندما عدتُ إلى الأسفل لاحظتُ الكمال التشرّحي لأذنيه، البارزتين للغاية وسط حطام وجهه. رفع رأسه بغتةً. وجدتُ نفسي أحدقُ في عينيه الخاويتين.

"كان خياطًا مثل أبيه"، قال أولرتش. "أبدًا لم يخبرهم أنه كان يرسم وجوههم. لم يعرف بالأمر سوى زوجته. لكنها ماتت حينها".

ميّنة؟ فكَرْتُ، مدرّكًا بالغريزة أن أولرتش يتحدّث عن المرأة في اللوحات. كيف لها أن تكون ميّنة؟

"ماتت وهي تلد طفلها، وأخذت الطفل معها إلى القبر. قيل لي إنه لم يبك في الجنازة. ظلُّوا جميعًا أنه مُتَحَجِّر القلب". اختلجت عينا أولرتش الخاويتان فيما يتحدّث. "بعد الجنازة، عاد إلى المنزل، هنا، وجرحَ وريدًا. تناول واحدة من فُرْشه، ورسمَ لوحتها بدمائه. ليس على قماشة رسم، بل هنا، في هذه الغرفة. على الحوائط، على الأرضية، على النوافذ". أدارَ أولرتش وجهه وكأن بمقدوره رؤية بقايا الدماء. "وجدوه على الأرض غارقًا في الدماء من رأسه إلى قدميه، والفرشاة ما تزال في يده. قالوا إن شَبَحَها أجبره على فعل ذلك... غاضبًا لأنه لم يبكِ عليها. لم يقبل أحدَ تنظيف الدماء". بحثتُ عن آثار دماء الرِّسَام على الأرضية والحوائط، لكن كل إنش من الغرفة كان مفروكًا بنظافة شديدة. "يظنُّون أن الشبح ما يزال يعيش هنا. عندما استخبرْتُ عن المنزل، ترجّاني وكيل أبيه ألا أشتريه. قال إنه من الأفضل أن يُحرق. لم يكلفني شيئًا تقريبًا".

اتَّجَهْتُ عينا أولرتش الخاويتان ناحيتي. "ظننتُ أنني لن أواجه أية متاعب. كان لديّ وقت للتنظيف؛ كل الوقت الذي في العالم. ما لا أستطيع رؤيته لا يمكن أن يصيبني بالاشمئزاز. لكن الدماء كانت كثيرة جدًا. مهما نظَّفتُ، ما أزال أشمُّ رائحة تعفُّنها. أشعرُ بها كأمّنة

في ثنايا أصابعي". مدّ يديه الجافتين، المتشققتين ناحية شمعتي. كانتا بيضاوين كاللُّطخ على وجهه.

"هل رأيت لوحاته؟" سألني.

"نعم".

"هل كانت المرأة جميلة؟".

"نعم".

أوما أولرتش ببطء، مستغرقاً في أفكاره. "هل تعرف لماذا فعل ذلك؟".

"كان يُحبُّها"، قلتُ.

نُمت عنه ضحكة خاوية دون ابتسام. "أنت مثل رئيس الدير"، قال. "يريدنا أن نحبَّ الرَّبَّ، لكنه سيّد كنيسة جميلة لنقع في حبِّها. تركك تغني، وأحببنا غناءك. موسى، نحن نحبُّ ما نراه، ما نسمعه، ما نلمسه. مثل جسد امرأة جميلة في ضوء الشموع. مثل رنين صوتك".

"لكن هذه الأشياء تفتني"، تابَعَ، "ونصير نحن أكثر خواءً مما قبل. إذا كان هذا هو الحبُّ، فالحبُّ هو لعنتنا. الحبُّ كالدماء التي تقاطرت من وريد ذلك الرَّسام يا موسى. نحن العُشَّاق حمقى. من الأفضل لنا جميعاً أن نبحث عن ذلك الشيء الذي نحبُّه وندمُّره، قبل أن يفوت الأوان".





## (11)

من خزانة المكنس في الطابق الثاني من الدير، سرقت كل الأدوات التي أحياها لنفض وكنس وتنظيف غرفة العلية تلك حتى صارت بقع الطلاء، التي كانت تُلطّخ ألواح الأرضية كندوب مرض لا شفاء منه، تلتصق كوريقات شتاوداخ الذهبية. سرقت ملاءات، وفُرُشًا من الريش، ووسائد، وأغطية موائد من الدير. سريعًا ما أصبحت غرفة العلية تلك مناسبة للعُشاق من جديد.

مرتين دلفت في الليل لأجد أولرتش مُقعياً على ركبتيه، يفرك في بقعة تخيلها على الأرضية التي لا تشوبها شائبة. خطوت من فوقه فحسب. لم أقاطع عمله.

\* \* \*

بعد أسبوع، كانت ليلة موعدا باردة ومطيرة؛ أسوأ ليالي أكتوبر. تسَلَّلْتُ عبر النفق في الاصطبلات فور أن سَكَنَت المدينة بما يكفي

لأنسَلَّ مُتَخَفِيًا مِنْ ظِلٍّ إِلَى آخَرٍ، ثُمَّ دَلَفْتُ إِلَى مَنْزِلِ أُولَرْتَش وَأَوْقَدْتُ  
 الفحمَ فِي الْمَوْقَدِ. ثُمَّ عُدْتُ إِلَى اللَّيْلِ النَّدِيِّ، وَشَرَعْتُ فِي الدَّوْرَانِ طَوَالَ  
 سَاعَتَيْنِ حَوْلَ مَنْزِلِ آلِ دَوْفَتِ، مُرَاقِبًا فِيمَا تَخْبُو الْمَصَابِيحُ فِي النُّوَافِذِ  
 شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى قَرَعَتِ سَاعَةُ الدَّيْرِ مُعْلَنَةً مُنْتَصَفَ اللَّيْلِ، وَصَارَ  
 مَنْزِلُ آلِ دَوْفَتِ بِنَاءً مَسْوَدًّا، مُصَمَّمًا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ.

شَرَعْتُ فِي مَطَارِدَةِ خَادِمَةٍ فِي مَلْحَقِ الْمَطْبَخِ، مُتَلَصِّصًا عَلَى مَهْمَّتِهَا  
 الْعَاطِفِيَةِ، لَكِنِّي سُرْعَانِ مَا أَدْرَكْتُ مِنْ اسْتَوَاءِ وَقَعِ خَطَوَاتِهَا أَنَّهُمَا لَمْ  
 تَكُنْ أُمَالِيَا(ي). فِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ تَكَاثَفَ الْمَطَرُ، وَرَغِمَ أَنِّي جِثَمْتُ  
 فِي الظَّلَالِ الَّتِي مَنَحْتَنِي بَعْضَ الْحِمَايَةِ، إِلَّا أَنَّ رِذَاءَ الرَّهْبَنَةِ سُرْعَانِ مَا  
 أَطْلَقَ رَائِحَةً كَقَطِيعٍ مِنْ أَغْنَامِ نِيلِمَاتِ.

\* \* \*

فِي ذَاكِرَتِي، تَدْلِفُ هِيَ كَقَعْقَعَةِ جَرَسٍ؛ وَكُلُّ نَغَمَاتِ جَسَدِهَا تَمَلَأُ  
 اللَّيْلَ بِدَفٍّ مَبَاغِتٍ. تَتَوَقَّفُ أَسْنَانِي عَنِ الْإِصْطِكَاكِ. لَا تَعُودُ أَصَابِعُ  
 قَدَمَيَّ تَتَأَلَّمُ مِنَ الْبَرْدِ. لَكِنِ ذَاكِرَتِي تَكْذِبُ حَتْمًا، فَلَيْسَ هَذَا مَا  
 سَمِعْتُهُ فِي الْحَقِيقَةِ. لَا بُدَّ أَنَّهُمَا كَانَتِ تَلْمِيحَاتٍ فَحَسْبُ: جَرَجَرَةٌ سَاقِهَا  
 الْعَرَجَاءُ، بِاسْتِدَارَةِ الْمِفْتَاحِ فِي بَوَابَةِ تِلْكَ الْحَدِيقَةِ، رُبَّمَا الْهَمْسُ بِاسْمِي  
 يُحْفَظُ فِي اللَّيْلِ.

لَمْ أَهْرَعْ إِلَيْهَا، وَلَمْ أَنَادِهَا. كُنْتُ مُرْتَعِبًا. لَكِنِ مَنْ مَازَا؟ يُفْتَرَضُ  
 أَنَّ هَذَا هُوَ الْفَصْلُ الثَّانِي وَالْأَخِيرُ مِنَ الْمَسْرُوحَةِ: يَنْجَحُ الْعَاشِقَانِ فِي  
 الْهَرُوبِ مِنْ سَجْنِهِمَا، فِيمَا يَنْتَظِرُهُمَا عَشُّ الْحُبِّ. لِهَمَّا أَنَّ يَتَعَانَقَا  
 حَتَّى تَزْحَفَ أَصَابِعُ الصَّبَاحِ الْوَرْدِيَّةِ عَبْرَ السَّمَاءِ! لَيْسَ هَذَا وَقْتُ  
 الْخَوْفِ!

لَا تُصَدِّقْ مَا تَعَلَّمْتَهُ فِي الْأَوْبَرَا. الْحُبُّ لَيْسَ مَجْرَدُ فَتْحِ أَبْوَابِ  
 رُوحَيْنِ. وَلَا هُوَ تَرِيَاقُ لِلْقَلْبِ الْحَزِينِ؛ إِنَّهُ مُهَيِّجٌ. تَحْتَ تَأْثِيرِهِ، يَتَعَاضَمُ  
 ذَلِكَ الْقَلْبُ حَتَّى تَتَوَهَّجَ كُلُّ نَقِيصَةٍ مَتْنَاهِيَةِ الصَّغَرِ بِرَهَائِ أَلِيمِ.

ونقيصة المخصي ليست متناهية الصغر. كنت أعرف ما يكفي من تجوالاتي الليلية لأدرك أنني متورط في أفطع أنواع الخداع. في هذا العالم التعيس، حيث جميعنا غير مُكتملين، كنتُ فقدتُ الهبة التي بمقدورها جعلنا مُكتملين مُجددًا.

وبغته، هناك كان نصفي الآخر، جميلًا، يعرج تحت المطر.

جزءٌ شريفٌ من روحي -جزءٌ طامًا حاولتُ تجويعه وحرمانه من النور- تحدّثَ حينها، فيما أختبئُ منها في الظلّ. قالَ لي أن أعود إلى الدير وأبحثُ هناك عن العزاء الذي تُقَتُّ إليه في حياتي، أيًا ما كان. اقتبسَ ذلك الجزء من كلمات رئيس الدير وقرأه عليّ مُجددًا. أنتُ صدقة الطبيعة، نتاج الخطيئة وليس الفضيلة. لا تُثقل على الآخرين بمأساتك، قال هذا الصوت داخلي. اتركها في هذا المطر. لا تشاركها محنتك؛ لن تستعيد ما فقدته أبدًا.

لكنَّ جزءًا آخر -ذلك الجزء المتقّد الذي يحبُّ ويصبو- قال: هي! هي! هي! نسيَ المطر، والبرد. ومع اقترابها إلى هذا الحد، وجدَ العالم في غاية الدفء.

وهكذا، وكأنني لَصٌّ، فيما تنادي على اسمي وتبحثُ عني بعينيها، اختبأتُ من أذنيها. لم تُبدِ قدماي أيَّ صوتٍ فيما تنسلّان على حجارة الطريق المبتلة. لم أنادِ عليها. ثم انتزعتُ من داخل رداء الرهبنة -حيث كنتُ أخفي من المطر، على صدري- راية خداعي.

كانت شريطًا من الحرير الأحمر الناعم، مسروقًا من مخزن رئيس الدير الخاص، وهو حريرٌ كان يومًا جزءًا من أندر الملابس. حملته في كلتا يديّ فيما أتلصص وراءها -مُطابِقًا خطواتها بخطواتٍ أطول- حتى اقتربت بما يكفي لأسمع قطرات المطر تُطقطق على كتفها. كان لأيّ رجل يرانا من نافذته أن يفترض أنني على وشك خنقها.

رفعتُ الحرير عاليًا ثم شدّدته، فورَ أن وصل إلى مستوى عينيها.

صرخت بالطبع. مع ذلك كنتُ خائفًا أن تنتزع العِصَابَة وتري وجهي، لتقرأ في تقاطيعه الناعمة عاري وخزيي؛ لهذا شددتُ الحرير أكثر، وجذبتها ناحيتي، على أمل أن تهدأ بفعل ملازمة جسدي، الذي كان مبتلًا وباردًا، وعفئًا كالأغنام.

لم يحدث ذلك. صرخت مُجددًا.

«أماليا»، قلت. «هذا أنا، موسى. لا تخافي». كان هذا، على الأقل، استراتيجية أفضل. لم تصرخ، لكنَّ يديها لم تتوقفا عن محاولة انتزاع الحرير، الذي كان لا بُدَّ يضغط على عينيها بشكل مؤلم.

«هذا أنا، موسى»، قلتُ مجددًا.

توقفت عن جذب العِصَابَة بعض الشيء، وأرخيتُ قبضتي.

«موسى؟» سألت.

«نعم»، قلت. «إنه أنا».

«ماذا تفعل؟».

فضلتُ الصمت. ومضَّ ضوءٌ في أقرب منزل إلينا، أيقظ صراخها قاطنيه.

«موسى، أفلتني رجاءً».

«لا يمكنك انتزاع العِصَابَة»، قلتُ باندفاع.

«لماذا؟».

«لا يمكنك رؤيتي». توهَّج الضوء أكثر ثم انكمشَ حتى صار شمعة واحدة في إحدى النوافذ.

«لماذا لا يمكنني رؤيتك؟».

«بسرعة»، قلت. «أحدهم هناك». بدأت نافذة في الانفتاح بصريـر. ربطتُ العصابة وراء رأسها. لم تحاول انتزاعها مُجددًا لحسن حظي. تناولتُ يدها وقدمتها عبر الشارع. سارت بيدها الأخرى ممدودة لتفادي العوائق. استدرنا نحو الأزقة الضيقة في حيّ أولرتش.

"موسى"، قالت. "هذا سخيـف".

لم يكن سخيـفًا، لكن كيف لي أن أقنعها؟

اعتصرت يدي، تمامًا كما اعتصرت تلك الفتاة يدي منذ سنوات خلت قبل أن تقودني إلى عالمٍ عجيب.

"لا بُدُّ أن هناك سببًا".

لماذا تحتاج إلى سبب؟ كنتُ لأدعها تعصب عينيّ للأبد دون كلمة واحدة. لم أستطع أن أقول: إذا رأيت وجهي، سترين في تقاطيعه أنني لسْتُ نصفك الآخر المثالي الذي انتوى الرّبُّ أن أكونه. سترين أنني مكسور، ولن تقعي في حبي. لم أستطع أن أقول: ذلك الرجل الذي ترينه الآن، في عقلك، ذلك الرجل المثالي؛ هو أنا الحقيقي.

وبالتالي قلتُ، "إذا رأيتني، سأختفي". لم تكن ذلك كذبة.

"لكن هذا مستحيل"، قالت.

"أرجوك، أماليا، صدّقيني".

وضعتُ يدها على كتفي، وشعرتُ في اللمسة بتحسّس، كما لو أنها تحاول رؤيتي بها، لمعرفتي عبر ارتفاعات وانخفاضات عظام كتفي. تلوّيتُ تحت وقع لمستها.

"هل سنسير تحت المطر طوال الليل؟" سألت.

"لا"، قلتُ. "سنذهب إلى مكانٍ ما".

"بإمكاني إذن انتزاع العصابة؟".

"لا".

"متى يمكنني انتزاعها؟" تحرّكت يدها على طول كتفي.

"لا يمكنك انتزاعها".

"أبدأ؟".

"ليس وأنتِ بصحبتني".

"وإلا ستختفي؟" جسّت بأصابعها على طول العضلات إلى عنقي.

"نعم".

"لكنني اعتقدتُ أنك أورفيوس".

"ماذا؟".

"لقد أسأت فهم القصة يا موسى".

"أية قصة؟".

"أورفيوس ويوريديس".

"مَن هما؟".

"هل تتعلّم أيّ شيء في ذلك الدير؟ أورفيوس هو ابنُ ملكٍ وكاليوب مُلهمة الشّعر"، كانت تتكلم كما لو أنها تقرأ من كتاب، بيدها نستكشف نتوءات عمودي الفقري. "رجلٌ لا مثيل له: جميلٌ وقوي. لكن أكثر من ذلك، كان أعظم موسيقيّ عاش على الأرض. يوريديس كانت زوجته"، قالت. أوقفت سيرنا. استدارت ناحيتي حتّى تتمكّن من استكشاف عنقي بكلتا يديها. "موت يوريديس، ومع ذلك يروّض أورفيوس ربّات الانتقام في العالم السفلي بأغانيه ويستعيدها، لكن على شرطٍ واحد: لا يمكنه النّظر إليها حتّى يغادرا العالم السفلي. وإذا فعل، ستموت مُجدّداً، وسيفقدّها إلى الأبد. هل هذا هو الأمر؟".

"نعم"، قلتُ، وكلماتها (رجلٌ لا مثيل له) يتردّد صداها في رأسي. اكتمل الخداع.

"إذن فأنت من تحتاج إلى عصابة العينين، يا أورفيوس".

"لا تريد أن أنظر إليك؟" سألتُ، مُستشعرًا مساومةً.

"بالطبع أريد. أريدك أن تنظر إليّ"، قالت. أمالت رأسها إلى الأمام، بلمحة مر ابتسامةٍ تتلاعب على شفيتها. "حسنًا"، تابعت. أمسكت رأسي بقوةٍ بكلتا يديها. "سأرتدي العصابة. لكن عليك أن تدعني ألامسك. توقّف عن التلويّ".

شرعت يداها في استكشاف أين يكمن عاري: في الاستدارة الخفيفة لخدّي، في أنفي الدقيق، في جبیني الضيّق، في جلدي الناعم عديم الشعر كجلد رضيع. لامست يداها كل هذا، ثم لامسته مُجددًا فيما يصيب المطر وجهي ويديها بالبرد والبلل. توقفت يدها اليسرى على عنقي -حيث ينبغي أن تكون تفاحة آدم- واستقرت هناك.

"لماذا أنت خائف؟" سألت.

"خائف؟".

"قلبك يسض كما لو أنك خائف مني".

أنصتُ إلى قلبي وحاولت إبطاءه. لكنه لم يكن ليطيعني الآن. أبعدت يديها المتحسّستين برفقٍ ونكرتها لتتقدّم إلى الليل.

سرعان ما سمعتُ النافورة ذات الميازيب الثلاثة واطمأنت نفسي أننا نمضي في الاتجاه الصحيح. عندما أوقفته أمام باب أولرتش، أدارت رأسها وكأنها تحاول الرؤية عبر العصابة. حللت مزلاج الباب وفدتها إلى غرفة أولرتش. كان يجلس على منضدته، برأسه مُنحن كالاعتاد، لكن عندما دلفنا، ارتفع رأسه بغتةً. خشيتُ أن تسمعه، لكنه لم يُبد أي صوت أعلى من صوت الدخان الذي يدوم حول باب الموقد.



"تعالى معي"، قلت، فيما عينا أولرتش الخاويتان تتبعاننا عبر الغرفة.

ارتقينا إلى العليّة في الظلام، وعمائي لا يقلّ عن عمائها. أمسكت بيدي اليمنى بيدها اليمنى، فيما يسراي تدعم أسفل ظهرها حتّى لا تسقط. كان الدّرج المائل بحدّة يشقّ على ركبتها العرجاء، التي لا تنشي.

على بسطة الدّرج، تحسّستُ بحثًا عن الباب -وجدته في اندفاعتي الثالثة- وفتحته. جفّف الهواء الدافئ وجهينا المبتلّين. كان الوهج القادم من الموقد كافيًا لأرى سواد المنضدة الكبيرة، وبياض الفراش، والمستطيلات القائمة لبورتريهات المرأة على الحائط.

"موسى؟".

بيدي على أسفل ظهرها، دفعتُ أماليا إلى الغرفة وأغلقتُ الباب وراءنا.

وراء الباب، في البداية، كان الصمت فحسب. واجهنا الموقد، تساقطت القطرات من أكامي المشبّعة بالماء وصنعت برّكًا صغيرة على الأرضية. استدرتُ وتطلّعت إليها؛ تدلّت عصابة الحرير الأحمر، ملطّخة بالقرمزي بفعل المطر، على ظهرها واشتبكت مع شعرها. بدت مأخوذةً بالحرارة، وكأن الفحم الملهب يجذبها نحوه.

هل تُنصتُ الآن إلى نبوءات عمّتها كارولين عن الفضيحة والعار تنعب في رأسها؟ مَنْ هذا الرجل؟ لا بُدّ أنها تتساءل. مَنْ يختبئ وراء هذه العصابة؟ هل هذه هي إجابة القدر على وحتي؟ ماذا حدث لتلك الفتاة التي كانت تجلس صابرةً لساعات طويلة جدًا بجوار فراش أمها؟ هل أسعى إلى إحياء تلك الفتاة الليلة؟ أم أنني على وشك فقدها؟

وفي رأسي: جسدي مأساقي. لا يستطيع أن يُحب أو يُحب. كيف أجرو  
على الكذب عليها؟ كيف أجرو على إحضارها إلى هذه المنزل المربع؟  
لا بُد أن أنزع تلك العصابة عن عينيها، قبل أن تقع في الحب حقًا.  
أوشكتُ على فعل هذا.

أسمع صرير ألواح الأرضية عندما تُبدل من وزنها، الخشخشة  
المنتظمة للمطر على السقف فوق رأسي. في واحدة من زوايا الغرفة،  
تسرب المياه عبر ثقب في السقف وتتقاطر في بركة على الأرضية. ولا  
أنزع عصابتها.

ما ينقذي من قُضح نفسي أمامها - ما ينقذي من شفقتها - ليس  
سوى قطرة من مياه المطر. تتجمع على خصلات الشعر المبتلة بجوار  
أذنها وتنساب على خدّها، على طول الفك. لا بدّ أنها تُدغدغها، لأنها  
ترفع إصبعًا، وأسمع تلك الإصبع تمسح على جلدها الناعم، المبتل،  
حتى تتوازن قطرة المطر على مفصل إصبعها. ثم كصوت من الجنة،  
تقبل قطرة المطر تلك.

شفتاها تحتوي إصبعها. أخطو مُقترَبًا. أنفاسها، عميقة ما تزال من  
أثر صعود الدَّرج، تؤمني، لأنها في غاية الجمال. أمدُّ يدي وأربت على  
ذقنها، حيث أنقذت إصبعها قطرة المطر تلك قبل لحظات، وأسمع  
جلدها كريح دافئة تمضي عبر العُشب. أدرك أنه صوت جلدي، أيضًا،  
يلامس جلدها.

تتناقل أنفاسها إلى تنهيدة.

تجد أصابعها الباردة طريقها إلى الجلد الرطب لعنقي. أرتعش  
فيما تتسلل إلى شعري. تجذبه هي بشدة حتى يؤمني، ويتوتّر فمها  
وكانها تشعر بنفس الألم. لكن حينها ترتخي شفتاها وتجذب وجهي  
ناحيتهما. إنها قبلة محمومة، ساذجة، تخلط بين أصواتنا. أشعر باهتزاز  
تأوُّهها على طرف لساني.

تنشب أظافرها في قلنسوتي وكأنها تريد انتزاعها. أرفعها من على رأسي وأسقطها أرضاً. ثم تُمسك بردائي. فيما أساعدها لترفع فستانها، أضع رأسي على صدرها. خفقات قلب، خفقات قلب. يداها ترتجفان فيما تحل الكورسيه وتركل آخر جذاذات من النسيج الأبيض الأنيق. ثم صارت لا ترتدي شيئاً سوى العصابة الحمراء. جلدها الشاحب، الرطب يرتجف، لكنني أستغرق لحظة أخرى قبل أن أعانقها.

أضغط برأسي على صدرها لأقترب من ذلك القلب قَدْر المستطاع، ثم أسمع أنفاسها في رثتيها. تتأوهان كريح في كهف رطب، هائل، وفي كل شهيق تعلو لتقترب من التهديدات.

اللمسة الباردة الأولى لفراش الدير الأملس تجعل أنفاسنا ترتعش، لكنه دافئ الآن، نطفو فوقه، ونتحسس بحثاً عن بعضنا البعض. تنكس في صدري وكأنها لم تدرك قط من قبل كم هي كبيرة الأجساد. تمُد يدها نحو آخر قطعة ملابس أرتديها -قماشة ملفوفة بإحكام حول منتصفني، كضمادة- لكنني أبعد يدها؛ ذلك أنني لن أسمح لها بملامسة ما هناك.

تشهق عندما تهيم يدي تحت سُرَّتْها. تَزفر عندما أقبل كتفها. تبدو أصواتها وكأنها تأتي من داخل رأسي. تشهق مُجدِّداً. يداي تلامسان صدرها، تتحسسان الانحناء الغض لبطنها. تعتصران العظام الباتنة لخاصرتها. تبدو أنفاسها وكأنها نحيب فيما أصابعي تتبّع أثر الندبة التي تمضي من منتصف سَمَانْتِها إلى أعلى ركبتيها ثم إلى الداخل الباعم لفخذها. يداها تجذبان يدي، لكنني لا أحتاج إلى دليل؛ لأن أنفاسها، وشهقاتها، وتأوّهاتها تُرشدني. تلاعبني بأصواتها، والأعبيها بلمساتي. وفيما تبدأ في الارتجاف تحت يدي، أضغط بأذني على تأوّهها الحار حتى لا تفوتني قطرة من صوتها.

## (12)

ليلة واحدة كل أسبوع أصير حيًا.

صليتُ ألا تموت خالة كارولين المريضة، ولسنةٍ نعيميةٍ واحدة، على الأقل، أُجيبَت صلواتي. كل خميس، فور أن يحلَّ الظلام، كنَّا أنا وأماليا نهرب من سجنينا. كنْتُ هناك أمسك بيدها وأقودها إلى غرفتنا فور أن أثبتت العصابة حول رأسها. دائمًا ما كان أولرتش على المنضدة، رأسه منحني وكأنه نائم. أدرك أنه ليس نائمًا، وأنه يسمع ضجيجنا كله. لكن سرعان ما نسيته، لم يُعَد بالنسبة لي سوى تمثال في ذلك المنزل.

في ليالي الخميس تلك التي تضطر فيها كارولين للتَّخَلِّي عن رحلتها الأسبوعية بسبب الجليد أو لأي مانع آخر، كانت أماليا تترك لي رسالةً على عتبة نافذة. كانت تركت لي مفتاحًا، يمكنني به التسلُّل إلى حديقة آل دوفت ومنها صعودًا إلى المنزل. كنْتُ أرتعب وأنا أمدُّ يدي إلى النافذة الحجرية الباردة؛ يئنُّ قلبي إذا وجدتُ قصاصةً من

الورق على عتبتها. فحينها أهِيم في الشوارع وحيداً، أُنصِّد الأصوات التي تُذَكِّرني بها.

في غرفة العِلِّيَّة، أَسْتَلْقِي بجوارها على الفراش، فيما تُمسك هي بأذني أو شعري، أو تضع يداً على خدي أو على صدري، وكأنني سأطفو مبتعداً لو لم تفعل. «غَنِّ يا موسى»، سألتني، ورغم أنني كنتُ أقسمُ لأولرتش في هذا المنزل ذاته أنني لن أفعل أبداً، أجد نفسي أغني مُجدِّداً. أَيْها خطرَ لي: القُدَّاسات التي علَّمني إياها أولرتش والتي طالما غنَّيتها للسيدة دوفت، أو أناشيد الرهبان، أو رعويات نيكولاي (تضحك أماليا من نطقي الاعتيادي للفرنسية)، أو أغاني باخ، أو ارتجالات من كل هذا. أحياناً ما كنتُ أغني نغمات فحسب تبدو بلا معنى لأيِّ إنسان باستثنائي أنا وأماليا.

أراقبها تستلقي مُتكاسلةً، وعند نغماتي الأولى ترفع ذقنها برفق وتُقَوِّس أصابع قدميها، وتُدِير قدمها إلى الخارج قليلاً، ثم إلى الداخل ثم إلى الخارج مُجدِّداً، كعازف كمان يلوي عصا عَزْفه. لم تكن تدرك أنها تفعل ذلك حتَّى أخبرها، لكنها لم تتوقَّف عن فعله. كان يبهجها. حينها أغلق عينيَّ دائماً. كان كلانا يعمى عندما أضغط بأذني على كل إنش من جلدها حتَّى أسمع ما يرنُّ تحته. كان جسدها جَرَسِي.

حاولتُ مرَّاتٍ كثيرة أن تزيل قطعة القماش التي تشبه الضمادة والتي تحمي سُرِّي. لكنني أوقفها دوماً. ظنَّت أنني أحمي عفتها (التي لم تُبدِ أي دفاع عنها). بالتأكيد لم يكن في بالي شيء من ذلك، وأيُّ تمَنُّع كان عائداً لمسألة إخصائي فحسب. هناك شائعات عن مخصيين ما زالوا قادرين على ممارسة فعل الحب. لا تصدِّقهم. لقد قُطِّعنا مبكراً جداً.

كانت أماليا أول شخص في حياتي أحكي له عن أمِّي. "كنا ننام على القش"، قلتُ ذات الليلة، وراقبتُ وجهها بحثاً عن اشمئزاز. لم أجد أيّاً

منه. "كُنَّا نأكل بأيدينا. نُحْمَمُني في نبع. أرتدي قصاصات من قماشٍ كان فيما مضى الملابس الداخلية لمزارعٍ ما". مع ذلك، لم تُشح في خجل عني. استلقت بجواري وأجرت إصبعاً جيئةً وذهاباً على ذراعي، التي كانت تنغزني عند المرفق. "أماليا"، قلت. "ألا يفاجئك هذا؟".

"يفاجئني؟" قالت. وضعت أذنهما على ذراعي، وكأنها تريد الإنصات إلى ارتعاشة عضلاتي. "لا".

توهج عنقي. إذن فقد كانت تظن دائماً أنني فلاح قذر؟

"تري"، قالت، وهي تُقبّل رسغي وتتذوّقه، "اعتقدتُ في البداية أنك مُجرّد واحد من أولئك الصبيان الذين يطمحون لأن يكونوا رهباناً. اعتقدتُ أن لديك أباً غنياً يحبُّ الرّبَّ ويرغب أن تصير مثل رئيس الدير. ما تخبرني به الآن يُفسّر لماذا أحببتك بتلك الطريقة. لو كنتُ أخبرتني من قبل أنك يتيم فلاح ربما لم أكن لأتصرّف معك بخبث. كنت سأساعدك أكثر. لكنني اعتقدتُ أنك أحمق فحسب".

غرزت أسنانها في ساعدي.

تجمّدت حيّاتي خارج تلك الغرفة. لم يرَ شتاوداخ عجلةً في أن أثرهب؛ لذلك بقيتُ راهباً مبتدئاً لا يفعل سوى حضور ما يكفي من صلوات الساعات حتّى أتجنّب لفت الأنظار. إذا كان لحياتي في الدير أن تتغيّر، فعليّ أن أبادر وأفعل شيئاً، لكنني لم أرغب في التغيير. كنتُ على استعداد الآن لأشيخ في تلك الغرفة.

لكن مع أماليا، الابنة الوحيدة لأغنى رجل عرفته سانت غال، كان العالم مهيئاً للعمل. كان الخطّاب همّاً مقيماً. كانت تنسج هي أبرع الإذانات لعيوبهم، وهو ما أقنَعَ كارولين، لبعض الوقت، أن أماليا تبحث بإخلاص عن الرجل المثالي.

"لم تفعل كارولين سوى أن كتفت من بحثها"، أخبرتني أماليا ذات ليلة خميس. "الورق الذي بددته في إرسالها في طلب 'المتقدمين'! 'سنة أخربه، تقول، 'على أقصى تقدير. إذا لم تُقرّري، فعلى أبيك أن يفعل!' نخرَ أبي عند هذا. 'الصبر يا كارولين، قال لها. 'سنجد زوجًا مناسبًا؛ هناك دائمًا شخص مناسب مثالي'."

ضحك كلانا على كل هذا، مُدركين أنه أبدًا لن يظهر رجل مثالي.

\* \* \*

لكن بعدها:

"تزوّجني"، قالت ذات ليلة.

بغته، لم أستطع التَّنَفُّس. لم أتحرك. لم أقل شيئًا. شعرت وكأن أيّ صوت سيفضح خديعتي وعاري.

"موسى؟" سألت.

"نعم؟".

"سألتك أن تتزوّجني".

"لا أستطيع".

"ولمَ لا؟" سألت، وضحكت. "لأنك راهب؟ موسى، أنت لا تعرف الإنجيل حتّى. تقضي كل ليلة بصحبة امرأة. أنت...".

"ليس لهذا يا أماليا".

"لماذا إذن؟".

شكرت الربّ على العصابة حينها؛ ذلك أنها لم تستطع رؤيتي أرتعش خشية أن أفقد كل ما لديّ.

"لا أستطيع".

"لكن لماذا؟" سألت، لم تعد وقحة.

"أرجوك، لا تسأليني".

لا بُدَّ أنها سمعت إخلاصي؛ ذلك أنها لم تُلج.

"أرى"، قالت. "حسنًا، لا أحتاج إلى الزواج منك. لنهرب بعيدًا. أنا متعبة من أيامي بعيدةً عنك. يمكننا الذهاب إلى زيورخ، أو إلى شتوتجارت. أورفيوس، بمقدورك أن تُغني".

"أرجوك، لا تناديني بهذا الاسم".

"لم لا؟ بالنسبة لي أنت أورفيوس. أورفيوس(ي)".

هزرت رأسي، رغم أنها لم ترَ ذلك. كان هذا الاسم رمزًا ملدى بشاعة خداعي لها، ومدى خداعي لنفسي. فما تاقنت إليه كنتُ أتوق إليه: أن أهرب بعيدًا، أن أفرَّ من شتاوداخ وأولرتش وسجني النهاري أنا وأماليا. أن نكون واحدًا كرجل وزوجة. أردتُ ذلك بشدةً تمامًا كما أرادت، بل وأكثر ربما.

"أرجوك لا تسأليني الهروب بعيدًا"، قلتُ. "هذا غير ممكن".

"لا أمانع أن أكون فقيرة"، قالت.

"لا نسأليني ذلك مُجددًا أبدًا"، قلتُ ذلك بشدةً لم أتحدث بها من قبل قط. حبستُ دموعي واختنقت بها.

لدقائق كثيرة كان كلانا هادئًا. ثم بدأت يدها في تحسُّس صدري، وعنقي، وذقني. لامست شفتاي، ثم بلَّلت إصبعها على لساني.

"أريد أن أراك يا موسى"، قالت. "أريد أن أراك بعيني".

"لا يمكنك"، قلت. ما دمت تُحبِّينني، لا يمكنك".





### (13)

سُرعان ما بدأ المستقبل في الإثقال علينا بِجَمَلِهِ كأكوامٍ من الكتب  
عل بيانو فيثاري. عندما أَعْنَيْ، كُنْتُ أَضْطَرُّ إلى إخراج الهواء عنوةً  
من رِئَتَيَّ لأشعر بالصوت يرنُّ في رِكْبَتَيَّ ومِرْفَقَيَّ. كانت يداي وقدماي  
تنضمُّ بشدَّةٍ لحدِّ أنها لن تُردِّد الصدى إذا وُضِعَتْ بجوار جرس.  
أضغط بأذني على صدر أُماليّا حتَّى أسمع صوتها.

فقط في دُري نشوتنا كان هذا الجِفل يبدو وكأنه يتلاشى، ولهذا  
تحوَّلت حاجتنا إلى لمساتٍ وأصواتٍ جَسَدِي بعضنا البعض إلى جوعٍ  
محموم. عند افتراقنا، كنت أتوق إليها وأبغض نفسي، وأقرِّر في الأسبوع  
التالي أن أنتزع تلك العصابة. لكن من اللحظة التي ندلف فيها إلى  
الغرفة، كانت تضغط بيديها وتأخذ في تحسُّس جسدي وكأنها تبحث  
عن منفذٍ في لحمي، وأسمعُ أنا التآلف التدريجي لأنسجة جسدها  
الذي سرعان ما يصير صادقًا كجرسٍ مُدلىٍّ من السماء. حينها فحسب

أستغرق في النعيم وأتيقن أن هذا الحب الذي نشعر به كان حقيقياً.  
ويتلاشى حينها كل شك.

لكن بحلول صيف 1761، بعد اثني عشر عامًا من وصولي  
إلى الدير، وتسعة أعوام من إخصائي، وأربعة أعوام من نفي نيكولاي،  
وعام كامل من إغارة أماليا على غرفتي في العلية، أدركتُ أن هذا لا  
يمكن أن يستمر. أصابني الكرب.

\* \* \*

"اسمه أنطون ريشر"، قالت ذات ليلة فيما نستلقي في الفراش.  
مَطَّعَت بتكاسل، بيدها اليسرى تقبض على رسغي. كان ظهري  
ملتصقًا بالحائط. "أنطون جوزيف ريشر"، تقول كارولين، وكأنَّ اسمًا  
ثالثًا سيُحدث فرقًا. "الابن الأكبر للكونت سياستيان ريشر. رغم  
أن الرجل قد اشترى اللقب منذ بضع سنوات. هل سمعت به؟"  
اعتصرت رسغي.

باستثناء المؤلفين الموسيقيين الذي كان أولرتش يجلب لي موسيقاهم،  
أبدًا لم أسمع بأي شخص حيٍّ سوى القاطنين في سانت غال. «كلًا»،  
قلت.

«كان أبي يرأسه لعدة سنوات. يُمثّل لفيينا ما يمثّله أبي لسانت غال:  
الإمبراطورة ترتدي أقمشة سياستيان ريشر، وكذلك فلأحو النمسا.  
أعتقد أنه أغنى من أبي حتّى، الكونت ريشر ذلك. فيينا كبيرة بشكل  
فظيح». كانت هناك مساحة من التشامخ، من معرفة أناس مُهمّين  
أكثر مما أعرف، وهو الأمر الذي كان، في ليالينا كلّها، غائبًا حتّى الآن.  
لوَحَت بيدها بعفوية في الهواء. «أتساءل كيف يتصرّف ابن رجل بهذا  
الثراء»، تابعت. «كأميرٍ بالتأكيد. على أيّ حال، سنعرف قريبًا. سيسافر  
كل تلك المسافة ليراني. يُفترض أن يصل بعد بضعة أيّام».

تصوّرت أنطون ريشر وسيماً مثل نيكولاي، مزهوّاً بنفسه مثل شتاوداخ، وثرِيّاً مثل فيليبالد دوفت. وفيما أجمعُ معاً صورته العظيمة، تركّزَ اهتمامي على مركزه، الذي يحمل مزيّته الأكبر عليّ. «قرّر أبي وكارولين أن أتزوّجه»، قالت أماليا. «يقول أبي إن الأمر يعود إليّ بالطبع، لكن لا يوجد شيء أكثر نفعا من ذلك لتجارته، فيما تقول كارولين إنه زواج متكافئ بشكل استثنائي. تقول إنني مخطوبة، رغم أنني لم أقابله بعدُ حتّى. أخبروه بشأن... بشأن ساقى، وكتب لهم أن اختيار زوجة له لا شأن له بتفاهات كهذه».

استلقيتُ ساكنًا، وكأنني سمعتُ عاصفةً قادمة ولم أجد خطة أفضل من الاستلقاء ملتصقًا بالأرض وتغطية رأسي.

«موسى؟» قالت. «هل تسمعني؟».

«نعم»، قلت.

«سيرث كامل ثروة ريشر عندما يموت أبوه، تمامًا كما سارث أنا كامل شركة 'دوفت وأبنائه'، رغم أنني لا أستطيع إدارتها. ترى أن الأمر منطقي إذن؟ بمقدورنا أن نكون أكبر عائلة منسوجات في العالم. أو خارج إنجلترا على الأقل، وبعض الأماكن الأخرى ربما. سنذهب إلى فيينا، حيث تعيش الإمبراطورة ماريا تيريزا. سأتحرّر من هذه المدينة، من ذلك السجن الذي على شكل منزل. لن أرى كارولين اللعينة مُجدّدًا. سيكون بمقدوري فعل ما أريده».

في استدارة هلالية حول صُرّتها، انتصبت الشعيرات الذهبية الضئيلة وتوهّجت في ضوء الشمعة، وكأن ريحًا باردة قد أيقظتها.

«سيكون أطفالنا من آل ريشر، لأنه لا يمكنهم أن يكونوا من آل دوفت».

حاولتُ تهدئة أنفاسي.

«موسى، هل تنصت؟» اعتدلت ووجهت عينيها المعصوبتين ناحيتي.  
«أنا مُنصت».

«لماذا لا تقول شيئًا إذن؟».

شعرتُ وكأن الزمن قد تباطأ، وأن أمامي الأبدية لأمنحها إجابة.  
«موسى، ماذا أفعل؟» سألت.

«تزوَّجيه»، قلتُ. أبدًا لم يكن طعم الكلمات مريًا هكذا.

لم تقل شيئًا لزمان طويل. أمسكتُ يدها بالحرير الأحمر وبدأ أنها على وشك انتزاعها. لم أخبرها أن تتوقَّف. ربما شعرتُ بضغفي؛ ذلك أنها سحبت يدها.

بدأت في الانتحاب، وتفتَّحت لُطخُ قرمزية على الحرير. أنصتُ إلى حزنها: النشجات، الشبهقات الخافتة، البلل في أنفها وفمها. لوهلة، تمثَّيتُ أن تنزع تلك العصاة لترى نصف الرجل الواهن الذي كنته. استلقيت هناك، نشجاتها تُوخزني كمنايا من الخناجر المُنممة.

«أنت ضعيف يا موسى»، قالت. أدارت ظهرها إليّ، وتقتُ بشدَّة إلى الضغط بأذني على المسار المُجوِّف في عمودها الفقري، لكنني شعرتُ أن هذا مُحَرَّم عليّ الآن. بقدميها العاريَّتين، تحسَّست بحنًا عن الأرضية. وقَّفت، عاريةً، بيديها تكنس الهواء أمامها. تعرَّرتُ للأمام واصطدمت بواحد من مقاعد المنضدة الصغيرة مُتقشِّرة الطلاء. قبضتُ على حافة المنضدة ودارت حولها بمشقة، وعضلات ظهرها ومؤخرتها تختلج فيما تناضل لموازنة نفسها. كان عليها فحسب أن تنزع العصاة ليصير كل شيء في غاية السهولة. لكنها لم تكن لتتخذ الخيار نيابةً عني.

استدارت ناحيتي مُجدِّدًا: «أنت واقعٌ في حُبِّي حقًا»، قالت. «وهذا يجعلك أضعف فحسب. لا أعرف ممَّا تخاف يا موسى، لكن لا ينبغي لأحد أن يكون خائفًا من أي شيء هكذا». حاولتُ مُجدِّدًا أن تجد

موضعًا لتخطو فيه، لكنها لم تستطع، وأوشكت على السقوط. «هل تعرف لماذا أحتاج دائمًا لألمسك؟» قالت فور أن استعادت توازنها. «لأنني إذا أفلدك فلن أرى سوى ذلك الصبي الضئيل الذي لا يصل إلى كتفي. ربما أنا وافعة في حبّ شبح». راقبتهما تُجاهد في خطواتها، وأبدًا لم آمن أن أكون قويًا، أن أكون رجلًا حقيقيًا، كما تمنيتُ الآن. لكنني كنتُ مشلولًا بالحزن. والخوف. تعثّرتُ وسقطت على ركبتيها وزحفت على طول الأرضية حتّى وصلت إلى الحائط.

«قل أيّ شيء»، صرخت. فيما تنهض مُجددًا، اصطدمت يداها بلوحة زوجة الرّسام العارية. لاحظتُ للمرة الأولى كم كانتا متشابهتين، وكأنهما شقيقتان، أو نفس الملاك وقد أُرسِل إلى رجلين مختلفين.

«قل أيّ شيء!» صرخت مُجددًا.

أنا أسف، حرّكتُ شفّتي، لكنني لم أنطقها.

«قل شيئًا!» لكن الأمر تلاشى إلى انتعاباتٍ ارتجفت الدواخل الناعمة لفخذيها العاريين فيما تبكي، وتوتّرت بغتةً من عقبيها إلى عنقها. مرّقت اللوحة عن الحائط. ألقتها نحو الفراش. تشطّط الإطار عندما اصطدم بالأرضية أمامي، واندفعتُ ناهضًا. استندت على الحائط وانتحيت في شهقات مهتاجة، ثم انزلقت هابطةً حتى جلست على الأرضية واحتضنت ركبتيها. مع كل هذا، لم تنزع تلك العصابة، تمامًا كما لم تجرؤ يداها على فكّ الضمادة حول وسطي.

جلبتُ لها ملابسها وساعدتها على ارتدائها في صمتٍ. فيما أقودها إلى المنزل ذلك الصباح، سمعتُ أن شيئًا داخلها كان قد انكسر. ثقّتُ للعودة إلى غرفتنا في العليّة لأضغط بأذني على كل إنشٍ من لحمها، عليّ أستطيع إصلاح ما انكسر.

فيما نقرب من منزل آل دوفت، أوقفنا أمانيا قبل البوابة. أقلقني هذا التّغيّر في عاداتنا، فدفعتهما برفقٍ إلى الأمام، لكنها قاومت. لبضع

لحظات وقفنا بلا حراك. صاح ديك في فناء قريب. رفعتُ بصري إلى المنزل. ظننتُ أنني لمحتُ حركةً عند أحد نوافذه.

"قد يرانا أحدهم"، همستُ. "السماء تتحوّل إلى الرمادي".

بغته، استدارت ناحيتي. "انتهى"، قالت. "لن أفعل ذلك بعد الآن". مدّت يدها ودسّت يدها تحت العصابة، رافعةً إيّاها. توتّرت كل عضلة في جسدي.

أزالت العصابة. لم أستطع التّحرّك. لم أستطع التنفس.

كانت عيناها مُغلقتين.

أبعدت العصابة وأسقطتها. ببطء شديد؛ رفرفت حتى وصلت إلى الأرض.

لكنها لم تفتح عينيها بعد. "موسى، لن أرتديها مُجددًا"، قالت. "أبدًا. في الأسبوع القادم سأراك بعيني. إذا جنّت".

تحسّست يدها ذراعي، وصولاً إلى كتفي وعنقي حتى عثرت على خدي، واستقرّ إبهامها على شفتي السفلى. تباطأت راحتها.

"ليلة طيبة يا أورفيوس"، همست.

لم أستطع إيجاد صوتي حتّى أجيب.

استدارت إلى البوابة، وأدركتُ أن عينيها كانتا مفتوحتين؛ ذلك أنها سارت بخطواتٍ واثقة. لم تنظر وراءها، ورغم أنه كان بإمكانها مناداتها حينها، إلّا أنني تركتها ترحل.

## (14)

لا تظنّ بي الجبن لدرجة أن أسترّد تلك العصا، وأنظّفها من التراب،  
ثم أجعلها ترتديها مُجدِّداً. تركتها في الشارع حتّى تطأها الأحصنة.

فيما ينقضي أسبوع "صلوات الساعات" بتأفل، أدركتُ أن خديعتي  
قد انتهت. ستعرف أنني مخصّي، حتّى وإن لم تقرأ ذلك بشكلٍ ما في  
نعومة وجهي، سأخبرها. رغم أنني قاومتُ تصوّرات ضحكانها القاسية  
كسخریات فيدر والصبيان الآخرين، إلّا أنني أدركتُ في قلبي أنها لن  
تكون ناقمة.

ربما تصرّ أن الأمر لا يحدث فارقاً. أنها تحبّني كما كانت دوماً.  
ربما تُصدّق هذا حقّاً. لكنني أعرف ما هو الفرق. كان أورفيوس رجلاً،  
ولم أكن أنا. إذا أعدتها إلى تلك العلّية، سيتورّد كلانا. سنحدّق في لُطخ  
الطلاء على المنضدة ولن نعرف ماذا نقول. إذا تلاقت أعيننا، سنبتسم  
في خجل. هل ستعانقني كشقيقة؟



ألمني الندم فيما أجلس في مقاعد المرتلين، غافلاً عن الغناء من حولي. لم أسمع سوى تلك الأصوات في ذاكرتي، الأحبَّ إليّ، والتي سافقد قريباً الحقُّ في سماعها. مع ذلك، فيما يمضي الأسبوع، شعرتُ بحماسةٍ تتنامى من حولي. قريباً سيفُشّي أحدهم سرّي.

عندما غربت الشمس أخيراً في ذلك اليوم الأخير من الانتظار، أوقدتُ شمعةً ووقفتُ أمام آخر شظايا المرأة على حائط غرفتي. كنتُ استحممتُ، وفركتُ كل لطخة من القذارة. منذ آخر مرةٍ شاهدت فيها انعكاسي، كان محجراً عينيّ قد فقدوا أثرهما المظلمة. ازداد خدّاي امتلاءً واكتسبا لحمًا مُعافى.

خرجتُ إلى المدينة، وطفْتُ حول منزل آل دوفت مرّتين، في انتظار أن تنطفئ المصابيح. حاولتُ استخراج الأصوات من داخلي، لكنها راوغتني كعادتها. سمعتُ صلصلات المطابخ قادمةً من الأحياء النائمة، وحديثاً مُستثاراً في غرفةٍ ذات نافذةٍ مظلمة.

انطفأ المصباح الأخير فور أن قرعَ جرس الدير الثانية عشرة. اختبأتُ خارج حديقة البوابة، مُنصّتاً لمرير المفصلات. لم تأت. في الواحدة، نفذَ صبري وقررتُ معرفة ما إذا تركت لي رسالة. أخرجتُ المفتاح الذي كانت منحتني إيّاه وفتحتُ البوابة، ثم تسلّقتُ إلى نافذة الحديقة.

يا لها من خيبة أملٍ أشعرُ بها عندما أجد قصاصة من الورق على تلك العتبة! فضضتها وأملتُها ناحية نور القمر. أوشكتُ على ملاستها بأنفسي لقراءتها.

موسى العزيز،

كم سأسعد في الصباح عندما لا أجد رسالةً على عتبة النافذة هذه وأعرف أنك أتيت. أتوق بشدّة لرؤيتك بعينيّ! لا أستطيع التفكير في شيءٍ آخر. لكن هذا لن يكون الليلة. هناك شيءٌ ما يدور. كارولين

ساحرة داهية- غادرت إلى بروجين، لكنني سمعتها في القبو. لا أجرؤ على المجيء. لكنها سترحل في الأسبوع القادم مُجدِّدًا، وسأخرج إلى الليل، لأتملى في أورفيوس(ي).

أ.

ضممتُ الرسالة إلى صدري، وكأن صوتها سيخرج من الحبر ويعانقني. أسبوع آخر بطوله! كيف لي أن أحارب شكوكي لزمن طويل كهذا؟

ثم سمعتُ بابًا يفتح على الحديقة.

جاءت في نهاية المطاف! تقافزتُ تقريبًا لرؤيتها، لكنني لم أرد إخافتها، ليس في هذه الليلة التي تحمل الكثير على الملحك.  
"أماليا"، همست.

ثم كان هناك شهقة، وأدركتُ في لحظة أنني ارتكبتُ خطأ مريعًا. تلك الأنفاس المتثاقلة لم تكن أنفاس أماليا.

"هل سمعت هذا؟" قالت كارولين دوفت. "أخبرتكَ أنني رأيتُ شيئًا عبر البوابة. لديّ عين قطّة. سُمسك بهذا الوغد حتمًا".

لم أكن رأيتها لسنواتٍ طويلة، لكنني تعرّفتُ على الفور على ذلك الظلّ الذي يخطط بأقدامه في الحديقة، رغم أن ورغيها قد اتسعتا الآن، لحدّ أن المرء قد يصدّق أنها تخفي ثروة شقيقها في ملابسها التحتانية. دوّمت برأسها الضيق من جانب آخر وكأنها تريد زحزحة شيء داخله.

بخطط أحية طويلة، خطا رجلان -كلاهما من حرس الدير- إلى الحديقة وراءها. كانوا يتحرّكون ببطء.

"إنه هنا"، قالت. "في هذه الحديقة. اعثروا عليه".

نظروا بتراح وراء الأجسام فيما رفعت هي جونلتها وشرعت في الصيد. كانت أصدَح قطّة عرفتها الطبيعة، تنتزع أذرع الشجيرات، تنفخ من الجهد، وتطلق سبابها بما يتبقى من هواء داخلها.

لم أتحرك. صليتُ أن يبحثوا في الاتجاه الآخر أولاً، حتّى أستطيع الانطلاق عبر الحديقة وأخرج من البوابة، لكن الجنود نكزوا الأسيجة على طول سياج الحديقة بهراواتهم، واقتربت كارولين منّي أكثر. ثم صارت فوقى، بوركتها تحجبان الليل.

'اخرج!' أمرتني. 'أنت رهن الاعتقال!'

خرجتُ حقّاً. وثبتُّ من حولها بصمتٍ وسرعةٍ لحدّ أنها زعقت وسقطت على مؤخرتها الناعمة. اندفعتُ نحو البوابة. لكن كان في انتظاري جنديّ هناك، وفيما أمرُ به، رفع ساعده وأصاب عنقي. سقطتُ على الأرض. اختنقتُ ولهثت، وتيقّنت أنني لن أتنفّس مُجددًا. ثبتَّ حذاءٌ ثقيلٌ صدري على الأرض.

سمعتُ وُقع خطواتهم الثقيلة على الأرض. ثم ظهرَ وجهها الأبيض فوقى، محجوبًا بعض الشيء برسغها الهائل.

"راهب!" هتّفت.

"لا يا سيدتي"، قال الجندي الثاني، الذي انضمَّ وجهه المرهق إلى الوجوه الأخرى في التحديق فيّ. "مُجرد راهب مُبتدئ".

"يا للفسوق!" قالت، وهزّت إصبعها وكأنها ستطرد الفسوق من روحي القذرة. "لكنك لن تلوّث هذا المنزل! ليس وأنا حيّة! هاتان العينان تُراقبان دائماً. رأيتُ الذنب في عينيها! يا للفسوق! يا للشر! راهب! انتظر حتّى يسمع رئيس الدير بهذا!"

"سيفعل"، قال الجندي ذو الحذاء الذي يهرس في صدري. "أول شيء في الصباح".

"في الصباح!" قالت كارولين. "خذي إليه الآن!"

"سيدتي، رئيس الدير نائم."

في ضوء القمر، رأيتُ كارولين تنظر إلى الجندي بنفس الازدراء الذي تنظر به إليّ. "هذا ليست مُجرّد نجاسة مع خادمة منزل"، قالت ببطء. "إنه يهدّد سُمعة منزل ذي أهمية قصوى لرئيس الدير. هذا الصبي يهدّد خطوبة ذات أهمية قصوى لهذه المدينة. خذي إلى رئيس الدير الآن."

تنهّد الجندي، ببطءٍ شديدٍ لحدّ أنني تيقّنتُ أن أحدًا لم يسمعه سواي. قبضَ على مِرْفَقي ورفعني وكأنني مصنوع من القش. "أبّنة مشاكسة وسأنتزع ذراعك"، قال، ولواه مرّةً لتأكيد كفاءته في تلك الإجراءات. دفعني نحو البوابة.

"أعطيني هذا"، انتزعت كارولين الخطاب الذي ما زلتُ أحمله في يدي. لم أفكّر في إخفائه.

قرأته.

"لا أفهم ما يعنيه هذا الهراء الداعر"، قالت، "لكن يبدو من الأفضل أن نترك الخطاب حيث وجدته. لا ينبغي لها أن تعرف أنك كنت هنا على الإطلاق. قليلٌ من خيبة الأمل سيفيدها."

دهست كارولين الأجمة الواطئة تحت النافذة ووضعت الرسالة مُجدّدًا على عتبة النافذة. فكّرتُ أن أنادي على حُبّي، أن أصبح أنني جنّت لإظهار وجهي، وأنني على استعداد للمجيء مرّةً تلو الأخرى، حتّى لو كان هذا يعني موتي. استدرتُ وفتحتني فمي لأغني، "أما...".

وضعَ ذلك الجندي يدًا مكسوّة بقفازٍ على فمي. "ابقِ هادئًا. قضضت مضجع ما يكفي من النائمين الليلة واحدة."

جرّني بصمّتٍ عبر الشوارع، فيما الجندي الآخر يهرع إلى رئيس الدير.



## (15)

في قبو بلا نوافذ في دير سانت غال، كانت هناك صومعة يمكن فيها للرهبان، بعد أن اكتفوا من تقلبات الدهر، أن ينصرفوا إلى أنفسهم. كان الباب ذا فراغ على طول الأرضية حتى يُدسّ الطعام عبره دون تعكير خلوة الراهب. وفي واحد من طريقي الغرفة الصغيرة كان ثقبٌ يُصرفُ مُخلفات شاغل الصومعة إلى النهر. بمقدور هذا الراهب أن يُغني أو يُصلي أو يصيح بأعمق أحزانه دون أدنى خوف أن يسمعه أحد؛ ذلك أن جدرانًا من الحجارة وأبوابًا من البلوط السميك كانت تفصله على المهاجع في الأعلى.

في تلك الأيام، مع التقدير الشحيح للتصوّف العبشي، نادرًا ما كانوا يستخدمون هذه الصومعة. تفسّى العفن على طول الأرضية الباردة، الرطبة. تصوّرت أنني أول قاطن لها منذ عشر سنوات أو أكثر.

كان رئيس الدير خيرًا بما يكفي ليزورني بعد بضعة أيام. لم تتطلّب هذه الزيار قطع التأمّل أو الصلوات المقدّسة؛ ذلك أنني استفدتُ

من ساعات عُزَلتي بطرقٍ أخرى. تَكُونُ على شكل كرةٍ وانغمست في البكاء. انفجرتُ في نوباتٍ من الغضب وضربتُ يديَّ البابَ حتَّى أدُميت راحتيَّ. ومستخدماً أكبر رثتين في أوربا، صرختُ طلباً في أن يطلقوا سراحِي. وعندما وصلت وجبتي الأولى، بعد ساعات كثيرة -شحيحة وباردة، بحسب احتياجات الاستبطان الرهباني- ألقىَ بها على الحائط في اهتياج، ثم غمَّ نومًا مكدودًا ومضطربًا وسط ما تبقى منها. حلُمْتُ بأماليا تَقَرع أجراس أمي بجنون.

عندما جاء رئيس الدير أخيراً، كانت قوَّتي قد تضاءلت كثيراً. يُخجلني القول أنني قَبِلْتُ الكأس الذي رفعه إلى شفَّتي، وأبدًا لم أستطعم ماءً بهذه العذوبة. أسندني على الحائط، وجلبَ واحدٌ من الجنود مقعدًا حتَّى يجلس رئيس الدير بجواري. أطعمني ثمرة تين شعرتُ وكأنها غارقة في الدماء. التهمتُها بجشع.

«لا بُدَّ أن تستفيد من هذا الوقت يا بني»، قال، «في التأمل. يؤسفني أن أخبرك أنك ستبقى هنا لبضعة أيام أخرى».

لا بُدَّ أنه رأى الرعب في عيني؛ ذلك أنه ابتسم ابتسامة الخال تلك. «هذا لمصلحتك. رغم أنك هددت سمعة الدير وسمعة أرقى عائلة في هذا المدينة، لا تظنُّ أنني لا أبالي بسعادتك».

وضعَ ثمرة تين أخرى في فمي، داسًا إيَّاهَا بالقوة بين شفَّتي. «لمصلحتك فحسب أنا هنا اليوم. ترى، إذا كنت أيُّ راهب مُبتدئ آخر يا موسى، كنتُ سأتحدَّثُ معك الآن حقًّا، لكن محادثتنا كانت لتختلف كثيراً. لو كنتُ أتحدَّثُ إلى صبيٍّ سيصير رجلًا يومًا، لطلبْتُ منه أن يبحث داخل روحه ويسأل نفسه إذا كان مستعدًّا لقسم الرهبنة التي تنتظره. إذا كان مُستعدًّا للتخلِّي عن الحب الدنيوي من أجل حبٍّ أسمى. ربما يخبرني أنه ليس مستعدًّا، وحينها، في تلك الحالة، سأقترح عليه أن يبحث عن حرفةٍ أخرى».

«لكن، موسى»، استمرّ بخفوت، «بالنسبة لك، الأمر كله مختلف. لا توجد حرفة أخرى. ليس لديك سوى ما عرضته عليك وإلا فلن تجد سوى البؤس. بالنسبة لك، فالحب الديوي ليس خداعاً. ولا يمكنني أن أعرض عليك الاختيار الذي يُعرض على الرهبان المبتدئين في هذا الدير لألف عام. اتَّخِذْ الاختيار بالفعل بالنسبة لك».

عرض عليّ تينةً أخرى، لكنني زممتُ شفّتي الآن. أخبرْتُ نفسي أنه لا ينبغي أن أقبل إحساناً آخر من هذا الرجل المريع الذي حرمني من حبّي. رغم ذلك، أمسكُ بالتينة أمام شفّتي، مُنتظراً بصبر أن أفتحهما.

«تحدّثتُ مطوّلاً مع كارولين دوفت. مطوّلاً. ربما تهدأ إذا علمتُ أنني لم أخبرها بشيءٍ عن...» هنا توقّف مُتهيّباً، وانكمشتُ أنا من الخوف، «... حالتك. إنها قلقة جداً بشأن شرف عائلتها المحترمة، وترغب، كما أرغب أنا، في أكبر تكثّم ممكن في هذا الموضوع. وهي قلقة أيضاً بشكل مُضاعف بشأن الزواج المُرتقب لابنة أخيها، الفتاة التي يبدو أنك خدعتها. تقول إن الفتاة تقاوم رغبات أبيها بلا أسباب واضحة، وهو ما أيقظ شكوك كارولين في بداية الأمر. تظنُّ أنها أدركت أخيراً لماذا ترفض الفتاة الزواج: لأنها مفتونة برجل آخر».

أبعدَ التينة عن شفّتي، وفيما أفتح عينيّ، شعرتُ بالدماء تسري مُجدّداً في عروقي. إنها لي، أردتُ أن أصرخ فيه، رغم أنني أدركت أن سأبدو كأكبر أحمق في العالم. لي!

في النهاية، أعادَ التينة إلى القصعة. أخذَ نفساً عميقاً، ثم تحدّث مُجدّداً، كانت صوته مشوّباً بالغضب قليلاً.

"كيف أمكنك أن تكون بهذه القسوة يا موسى؟ إنها فتاة راقية، من أفضل عائلة في أراضي الدير. وهو رجل نبيل من أعلى طبقة في واحدة من أفضل مدن أوربا. بُنيّ، سيكونان سعداء معاً".



تنهَّد، منتظرًا إجابتي. كنتُ صامتًا. هزُّ رأسه في ارتباك.

"هل كانت الغيرة؟ هل تزدريها لأنها ثرية ومُتعلِّمة؟ هل لديك أسباب خفية لفسوقك هذا؟ في البداية، عندما أبلغوني أن راهبًا مبتدئًا متورطٌ في بذاءة كهذه، لم أتصوّر لوهلة أنه قد يكون أنت. أنت من بين كل الرهبان المبتدئين. لكنني أعدتُ التفكير. أيًا كان الأمر، فهم يحبُّون صوتك في أكثر مُدن أوربا تفسُخًا. هل غيبتَ لها؟ لا بُدَّ أن الأمر كذلك. تلك الفتاة الساذجة مسحورة بصوتك. أشكر الرَّبَّ لأنني منعتك من الغناء في كنيسة من منذ سنوات خلت."

نهضَ رئيس الدير. خطا ناحية الباب ثم استدار ناحيتي مُجددًا. حفحت أطراف عباة على الأرض. كل كلمة قالها كانت حقيقية، ومع ذلك بدأ الغضب في الخفقان داخلي. كيف يجروُ على التحقير من ذلك الصوت الذي هو أغلى ما عندي؟ "البؤس، لك ولكل مَنْ تخدعه"، تابع. "أمل أن ترى ذلك الآن. من حسن الحظ أنه لم يحدث ضرر دائم كما يبدو. بالطبع، السيدة دوفت متخوفة للغاية أن تكون أتلقت الفتاة قبل زواجها. سألتني ما إذا كان هناك علاجٌ ما بمقدور أطباء الدير توفيره". شدَّ رئيس الدير شفتيه لكبت ضحكته. "أخبرتها أنه لا داعي لهذا، لكنها ما تزال غير راضية. لا بُدَّ أن تكون كذلك. لكنني أثق أن الزوج لن يشعر بخيبة الأمل".

تورّد وجهي في خجل، وصليتُ ألا يرى رئيس الدير ذلك في وجهي.

"لكنها قلقة أكثر أن ترفض الفتاة الارتباط بدافع من" -لوح بيده في الهواء، باحثًا بازدراء عن الكلمة المناسبة- "التشبُّث المتطاوُل بك، وفي هذا، يُسعدني القول، كنت قادرًا على طمأننتها. سوَّيت المسألة بسهولة".

اعتدلْتُ في جلستي.

"تري، الفتاة لا تعرف شيئاً عما حدث؛ ولهذا كتبتُ خطاباً إلى السيد فيليبالد دوفت، أخبره بموت مُرثَل القُدَّاس الذي غنى لزوجته المريضة قبل سنوات. فسرتُ له أنك سقطت من على السقف. لم أفهم ما الذي دفعك للصعود إلى هناك في منتصف الليل. أثق أنه سيشارك هذه الأخبار الحزينة مع ابنته؛ ستأكد كارولين دوفت من هذا على أيِّ حال". أحنى رأسه بخشوع. "ربما ما أبلغته به ليس سوى نصف الحقيقة، وفي هذا بعض الخزي". ارتفع رأسه بغتةً. "لكنه يصحح خداعك الأسوأ بكثير. هذا أفضل لك، ولها، ولبقيتنا...".

"أرجوك"، توسلتُ. جثمتُ على يديّ وركبتيّ، مُحاولاً النهوض. شعرتُ بضعفٍ شديد. "لا بُدَّ أن تدعني أتحدّث...".

تجاهلني رئيس الدير. "يبدو أن الفتاة لا ترغب في شيء الآن سوى الهروب من هذه المدينة. الزفاف غداً. هنا، في كنيستنا. سأعقد زواجهما بنفسِي".

حاولتُ النهوض. راقبني رئيس الدير أجاهد. هزَّ رأسه وكأن الشفقة قد غمرته. ثم رفع قدمه ووضع حذاءه على كفي. دفعةً خفيفةً كانت كل ما يحتاجه ليطرحني أرضاً.

غادرَ الصومعة، ثم تحدّث عبر آخر شقٍّ قبل إغلاق الباب. "الحقيقة، مهما كانت بائسة، مُفضَّلة دائماً على الخداع يا موسى. سأطلق سراحك عندما يكون الوضع آمناً لك... ولها".

في الظلام، حاولتُ الصياح طلباً للعون، لكنني لم أستطع سوى النواح. بعد بضعة ساعات دسَّ أحدهم الطعام من تحت الباب. جاهدتُ لأزحف عبر الأرض وأحشو فمي به. كان عليّ أن أكون قوياً مُجدداً. في سواد الصومعة، فقدتُ شعوري بالزمن؛ تباطأ وتسارع. بعد ساعات أو أيام، سمعتُ ثرثراتٍ وأقداماً خابطة لألف إنسان، وأدركتُ أنهم كانوا يتوافدون من أجل الزفاف. جاهدتُ للوقوف على قدمي.

وصرختُ أن هناك حريقًا، فيضائنًا، أنني مريض، أنني أتوق للاعتراف بخطايي، لكنَّ أحدًا لم يأتِ إلَّا لجلب الطعام. صرختُ مناديًا أماليا. كنتُ أخبرتها أن عليها أن تتزوَّج، لكن الآن تفشَّى داخلي السَّقم. لا، كنتُ لأقول لها، فقط لو كان بمقدورها سماعي. تخبرني أذنائي أننا ارتكبنا خطأ فظيعة! نحبُّ بعضنا البعض، أنتِ وأنا! توقَّفي! لستُ ميتة!

فقدتُ أثرَ الدقائق والساعات. ثارت أذنائي على حواسي الأخرى. أيُّها الأحمق! قالتا. أيُّها الأحمق! تسرَّبت أصوات الاحتفالات إلى صومعتي. غطيتُ أذنيَّ وصرخت، لكن هذا لم يفعل سوى أن زادَ من صخب الأصوات؛ ذلك أنها لم تُعَد تأتي من الكنيسة فوقِي، بل عميقًا من داخل رأسي. كانت هناك عندما أخطوُ عبر الصومعة مستيقظًا؛ كانت هناك عندما أنطرح على الأرض تهدُّني الكوابيس. كارل فيكتور على المنبر. بوجاتي يغني للعشَّاق. نيكولاي وريموس في الزحام المُبتسم. أجراس طفولتي هذه تصدح عبر العالم. أماليا بين ذراعي زوجها. الجميع قد نسيني.

\*\*\*

في النهاية، انفتح الباب. "يمكنك العودة إلى صومعتك"، قال رئيس الدير. انفرجت شفتاه قليلًا اشمئزًا ممَّا رأى. كان هناك جنديان يقفان وراءه، لكنني كنتُ مُستعدةً لهزيمة الثلاثة. لا أحتاج سوى إلى إجابة أولًا.

"هل تمَّ الزفاف؟" سألت. كان صوتي مُتصدِّعًا وأجشَّ. "هل فات الأوان؟".

هزَّ رئيس الدير رأسه بحزن. "لكن بُنيَّ العزيز"، قال، "كان هذا منذ ثلاثة أسابيع".

## (16)

رفعني الجنديان من ركبتيّ وجراّني وراء رئيس الدير إلى خارج القبو. عندما وصلنا إلى الطابق الأرضي من المهاجع، توقّف رئيس الدير واستدار. أسقطني الجنديان على الأرضية الخشبية. ركعتُ ورفعت بصري إلى رئيس الدير.

"لا بُدّ أن تستحم"، قال. "استبدّل ملابسك. في حال رغبت في الاعتراف بخطاياك، يمكنك المجيء إليّ".

لم تعد هناك ابتسامة أبوية الآن، لا شيء سوى الازمئزاز ممّا رآه في الضوء: ملابس القذرة، جلدي المصفرّ، ونواقصي الأخرى.

اندفعتُ ناحيته. لم يتوقّع هذا، ولهذا أسقطه انقضاضي إلى الوراء. أصوات قليلة استمتعتُ بها في حياتي مثل صوت ارتطام جمجمته المبهج على الأرض الخشبية. صرخ. أطلق سبّابًا. رفع يديّ أمام عينيه خشية أن أحاول تقويرهما. لكن هذا كان عليه أن ينتظر ليومٍ آخر.

أَمْسَكَ بِي الْجَنْدِيَانِ لِمَنْعِي مِنَ الْإِنْتِلَاقِ. كَانَتْ سَاقَايَ طَوِيلَتَانِ، وَجَسَدِي خَفِيفٌ، فِيمَا هُمَا مُسْلَحَانِ بِعَضَلَاتٍ صُلْبَةٍ. لَكِنَّ الْحُبَّ كَانَ ضَرَبَنِي عَلَى ظَهْرِي بِقُوَّةٍ. لَمْ يَجِدِ الْجَنْدِيَانِ فُرْصَةً لِلْإِمْسَاكِ بِي فِيمَا أُنْدَفَعُ نَاحِيَةَ الْمُعْتَزَلِ. عَبَرْتُ الْبَوَابَةَ وَخَرَجْتُ إِلَى مِيدَانِ الدِّيرِ قَبْلَ أَنْ يَتِمَكَّنَا مِنْ تَحْذِيرِ الْجُنُودِ الْآخَرِينَ.

كَانَ الْوَقْتُ مُنْتَصَفُ الصَّبَاحِ فِي أَوَائِلِ الْخَرِيفِ. الْمِائَةُ إِنْسَانٍ الَّذِينَ يَعْبُرُونَ إِلَى قَصْرِ رَئِيسِ الدِّيرِ، يَتَسَكَّعُونَ فِي الشَّمْسِ، أَوْ يَتَّجْهَوْنَ إِلَى الْكَنِيسَةِ الْمِثَالِيَّةِ، اسْتَدَارُوا جَمِيعًا لِيَنْظُرُوا إِلَى هَذَا الرَّاهِبِ الْقَذِرِ -سَاقَاهُ النَّحِيلَتَانِ بِالْكَادِ تُلَامِسَانِ الْأَرْضَ، كَسَاقِي طَائِرٍ هَابِطٍ- يَهْرَعُ عِبرَ الْمِيدَانِ. صَارَ ثَلَاثَةُ جُنُودٍ يَطَارِدُونَنِي الْآنَ، لَكِنِّي خَلَفْتُهُمْ بَعِيدًا وَرَائِي.

صَاحُوا مُنَادِينَ عَلَى جُنْدِي رَابِعٍ كَانَ يَقِفُ حَاجِبًا الْبَوَابَةَ الْمُؤَدِيَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ.

"أَسْقِطْهُ أَرْضًا"، صَرَخَ أَحَدُهُمْ.

"حَاوِلْ اغْتِيَالِ رَئِيسَ الدِّيرِ"، صَاحَ آخَرُ.

كَانَ الْجُنْدِيُّ عِنْدَ الْبَوَابَةِ شَابًّا، بَعِينِينَ كَابَيْتَيْنِ، وَجَسَدٌ كَالدُّبِّ، وَكَتَفَيْنِ عَرِيضَتَيْنِ ضِعْفِ كَتَفَيَّ، رَغْمَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِنَفْسٍ طَوِيلٍ. ابْتَسَمَ وَكَشَفَ عَنْ أَنْيَابِهِ.

عَلَى بُعْدِ عَشْرِ خَطَوَاتٍ مِنْ هَذَا الشَّابِّ الْمُنْفَرِدِ الضَّخْمِ، اسْتَنْشَقْتُ أَعْمَقَ نَفْسٍ بِمَقْدُورِي، وَعِنْدَمَا زَفَرْتُ، غَنِيْتُ أَبْشَعَ صَرْخَةٍ صَارَةً شَيْطَانِيَّةً. لَوِيتُ وَجْهِي لِأَعْلَى. فَرَدْتُ ذِرَاعِي الطَوِيلَتَيْنِ كَأَجْنَحَةٍ تَنِينٍ. كَانَتْ صَرْخَتِي عَالِيَةً وَحَادَّةً لِدَرَجَةٍ أَنْ كُلَّ إِنْسَانٍ فِي الْمِيدَانِ غَطَّى أُذُنِيهِ. تَعَثَّرَ الْحُلُوفُ عِنْدَ الْبَوَابَةِ سَاقَطًا لِلْوَرَاءِ فِي رَعْبٍ، مُتَيْقِنًا أَنَّي شَيْطَانٌ هَرَبَ لَتَوُّهُ مِنَ الْجَحِيمِ. رَفَعَ يَدَيْهِ أَمَامَ وَجْهِهِ. لَامَسْتُهُ

فحسب بخفة على ذراعه فيما أمر به، لكنه تراجع وكأن لمستي قد أحرقتة.

كان هناك بشر في الشوارع!

لم يكن تفاعلي تجاه دخول المدينة تحت ضوء النهار لأول مرة منذ سنوات يختلف كثيراً عن رجل يصل منزله ليجده يغص بالفئران. طالما كانت هذه الشوارع لي ولها وحدنا! كم تمنيت أن ينسحب هؤلاء البشر مُجدداً إلى منازلهم. كانوا يقودون عربات الأحصنة والثيران الممتلئة بحزم الكتان الأبيض. ملابسهم أنيقة ووظيفة. حدقوا في الوحش القذر. أشار الأطفال بأصابعهم الوردية.

عندما وصلت إلى منزل آل دوفت، كان الجنود قد فقدوا أثري، أو أنهم تخلوا عن المطاردة. خبطت بقبضتي على الباب الأمامي الفخيم حتى فتحه البواب العجوز. أمسكت بتلايب معطفه المخملي بيدٍ وجذبت ربطة عنقه العجيبة بالأخرى.

"استدع أماليا"، قلت. "لا بد أن أتحدث معها على الفور".

لاحظت أنه لن يستطيع استيعاب كلماتي ما دام يختنق، لهذا أفلتته وسويت ملابسه. حملت فيّ وكأنني ذئب، وأذهلته رائحتي ووجهي القذر.

"الآنسة أماليا دوفت"، قلت، بهدوء وصبر كناظر مدرسة.

"الآنسة دوفت"، كرر بتردد. ثم أشرقت عيناه. "السيدة ريشر الآن"، قال. هز رأسه. "لكنها غادرت إلى فيينا منذ عشرة أيام".

تراجعت، ولم يفوت هو الفرصة: صفق الباب في وجهي.

\*\*\*

مضيتُ عبر المدينة بخطواتٍ مضطربة. لم يتبقَّ لي سوى مكان واحد في العالم لأذهب إليه.

فور أن حللتُ مزلاج الباب، سمعتُ مقعدًا ينقلب. كان الرجل العجوز ذو الندوب قد جفَلَ من المفاجأة. «أين كنت؟» صرَخَ أولرتش. قبَضَ على المنضدة وكان الأرض تهتزُّ من حوله. «أين هي؟ ماذا حدث؟».

خطوتُ عبر الغرفة وبدأتُ في ارتقاء الدَّرج.

«موسى!» صاحَ في إثري. «أخبرني أن كل شيء على ما يرام! أين هي؟».

في غرفتنا، حيث طالما قضينا ليالينا، ضغطتُ وجهي الدامع على غطاء الفراش. بكيتُ حتى انجرفتُ إلى أحلام بها.

عندما فتحتُ عينيَّ مُجددًا أخيرًا، كان الظلام قد حلَّ تقريبًا، ورائحتها قد تلاشت بفعل رائحتي المُنتنة. بحثتُ في الغرفة عن آثارٍ أخرى، لكن لم يكن هناك شيء. كنتُ وجدتُ وأضعتُ أعظم كنوز العالم: أصوات الحب.

في آخر أضواء المساء الوردية، رأيتُ زوجة الرُّسام في البورتريه. كان يستلقي ساكنًا على الأرض حيث كانت أماليا ألقته في غضبها. احتضنتُ قماشة الرسم إلى صدري وتذكَّرت حينها أن الرُّسام، في حزنه، قد رسمَ بورتريها لها بدمائه. فقط لو أستطيع سكب دمائي بأغنية! خطوتُ إلى النافذة وحطَّمتُ زجاجها بقبضتي. خشخَشَ الزجاج المكسور في الشارع في الأسفل كجليد متساقط. انتزعتُ شظية كبيرة وجلستُ على الفراش، بالبورتريه بين قدميَّ. سأشقى أوردتي وأموت هنا على هذا الفراش.

لكن بغتةً وجدتُ أولرتش واقفًا عن الباب.

«ماذا تفعل هنا!» جارتُ، مُهتاجًا أنه جرؤَ على تلويث حرمي المقدّس.

«أرجوك»، قال. «انتظرتُ كل ليلة طوال شهر. لا بُدَّ أن أعرف. هل هي... هل هي ميّنة؟»

"لا يعنيك الأمر في شيء!" صرخت. "اخرج وإلا سأجندلك على الدّرج!"

لكنه اتّخذ خطوةً زلقةً أخرى إلى داخل الغرفة، بيديه ممدوّتين وراءه. "كنت أستمعكما"، قال. "كل ليلة. أسمعك تُغني. أسمعها تصدح بصوتك".

أبدًا لم تَبْدُ كلماتٌ مثيرة للاشمئزاز هكذا في أذني. نهضتُ وافقًا. رفعتُ مقعدًا من المنضدة وقذفته عبر الغرفة. سمعَ أزيز الهواء ورفعَ ذراعه. كشطَ المقعد ذراعه، ودفعه إلى الخلف، لكنه لم يسقط.

"فقط أخبرني وسأغادر"، قال. "هل هي ميّنة؟".

"ماتت بالنسبة لي"، صرختُ. "تزوّجت ورحلت إلى فيينا. والآن ارحل".

لكنه لم يتحرّك. مدَّ يَدًا وكأنه يبحث عن شيء ليستند عليه، لكنه لم يجد شيئًا.

"ليست ميّنة؟" قال، لنفسه تقريبًا.

"اخرج!" صرختُ مُجددًا.

"لكن إذن"، قال فيما أضع يديّ على مقعد آخر. "لماذا أنت هنا؟".

طوّحتُ بالمقعد فوق المنضدة. هذه المرّة، أوشكَ على إصابة رأسه. تعثّرَ للخلف وسقط، دون كثير من التأوّه. جلسَ بجوار الباب. عيناه المُختومتان تحدّقان إليّ.



"موسى. لماذا لم تذهب في إثرها؟" غمغم.

زاد غضبي اهتياجًا بسؤاله الأحمق هذا.

"دَعَتْكَ أورفيوس(ها)."

لم يجلب هذا سوى الشعور اللاذع بذنب خديعتي. "وهذا"، قلتُ،  
رافعًا مقعدًا آخر، "بالضبط ما لن أكنه أبدًا".

فكَّرتُ حينها كيف أن هذا الرجل المتكوِّم على الأرض الآن هو  
مهندس مأساتي، ومع ذلك فإن قتل أولرتش المهيض، المثير للشفقة،  
لن يكون سوى تعويض بخسٍ عن كل ما فقدته. أسقطتُ المقعد، ولم  
يجفل هو حتى من الضجيج.

"اتركني وشأني"، قلتُ. استدرتُ وأخفيتُ وجهي في يديّ.

عَشِينَا صمْتُ جعلني أخشى أنني ربما أقتله في نهاية المطاف. لكن  
عندما استدرتُ مُجدِّدًا، كان ما يزال يجلس هناك، برأسه يرتجف  
قليلاً. "لقد جنيتُ عليك"، قال.

"نعم"، أجبتُه.

"لا"، قال. "ليس ذلك. بالطبع هناك ذلك الأمر أيضًا. وقد كان  
منذ زمن طويلًا جدًّا، ولم أنقطع عن سؤال الربِّ كلَّ أيَّوم أن يغفره  
له. ما أتحدَّثُ عنه هي جنايةٌ أخرى، جنايةٌ ما زالت مُستمرةً حتَّى  
يومنا هذا".

كان يحاول النهوض. تسرَّبَ الدم في خطٍّ من صدغه إلى ذقنه. مدَّ  
يدًا بحثًا عن شيءٍ يستند عليه.

"موسى، عندما وجدتك أخيرًا مُجدِّدًا، خشيتُ بشدَّة أن ترحل عن  
هذه الدينة، أنني لن أسمع صوتك ثانيةً أبدًا. كنتُ أدرك أنني لن  
أجدك أبدًا إذا رَحَلْتَ؛ ولهذا، عندما أخبرتني بالخزي الذي استغلَّه

رئيس الدير لإبقائك هنا، لم أناقضه. يخشى أنك ستخبر الآخرين بما حدث في دير؛ ولهذا، كذب عليك. أنا أيضًا، بصمتي، كذبت عليك". راقبته، ذاهلاً. مدَّ يده وخطا نحو المنضدة مُتخبطاً.

"نعم، العالم مكان صعب حقاً لأمثالك. إذا كان رئيس الدير قد أخبرك أنك لا تستطيع الزواج، أنك لا تستطيع أن تكون قساً، في هذا لم يكذب عليك. وإذا كان أخبرك أن الرجال البُسطاء سيضحكون عندما يسمعون أنك لست رجلاً، أنهم لن يدعوك تعيش بينهم دون سخرية، فهذا أيضًا حقيقي".

وضع يداً على المنضدة الآن. شعرتُ بوخزٍ دافئٍ على طول عنقي.

استمرَّ في تحرُّكه فيما يتحدث. "لكن هناك شيء آخر لم يُخبركَ به. شيء كنتُ لأخبرك به إن لم أخش أنني لن أسمعك تُعْني مُجدِّداً. موسى، فيما وراء هذه القرى التي لن تجد فيها أيَّ أصدقاء، هناك مُدنٌ لا يستطيع رئيس الدير ذاته تصوُّرها".

لاحظتُ أن يديه ترتجفان فيما تنزلقان على حافة المنضدة. "في هذه المدن بإمكانهم أن يكونوا قساةً أيضًا، لكن هناك، ستُعْني. ستروِّضهم بصوتك. سيمنحونك الذهب ويجعلونك ثرياً. موسى، لا بُدَّ أن تعلم أن قيينا هي مكانٌ كهذا".

وصلَ إلى نهاية المنضدة. أفلتها. مدَّ يداً إلى وجهي. "دَعْنِكَ أورفيوس!" قال مُجدِّداً، وكأن هذا سببٌ كافٍ للارتحال عبر العوالم. اتَّخذَ خطوةً زلقةً نحوِي؛ اليد البيضاء المعطوبة تتوتَّر بحثاً عن وجهي. "سمعتُ كل شيء، كل نغمة في كل ليلة. امقُتني من أجل ذلك! اقتلني! لم أَعُد أباي. لكن، موسى، أنت أيضًا، سمعتَ كل شيء! عندما جنَّت الليلة وحيداً، طننتُ أنها ماتت. الموت وحده كان ليفسِّر لي ذلك، لكن حتَّى الموت لا يكفي لإيقاف أورفيوس! موسى! يوريديس(تك) حيَّة!".

عندما وصلت يده إلى خدي، لم أجفل من لمسته. لهثت، وكأن  
ملمس جلدي قد أيقظ داخله مليون ذكرى خافتة عن صوتي.  
"لكنني لست أورفيوس"، قلتُ بضعف.

تحسّست يده على طول فكيّ. أجراهما عبر عنقي الطويل، الأغر.  
توقّفت يدٌ واحدة للحظات للإمساك بالوضع الذي يستقرُّ فيه كنز  
صوتي في حلقي. ثم تحسّست ثنايا صدري المُقبَّب، الذي تحته كان  
تتنفّس رئةٌ أكبر عشرين مرّة من تلك التي لامسها قبل أعوام.  
"نعم"، قال. "نعم، أنت أورفيوس".

لمرّة أخيرة وضع يداً على حلقي، بلمسةٍ خفيفة كالحرير. "اذهب!"  
همسَ. "اذهب!".

## الفصل الثالث



## (1)

لم أتوقّف حتى لأغسل وجهي من كلاحه السجن. غادرتُ ذلك الرجل الأعمى في العليّة. سقطَ على ركبتيه وناداني من أجل الغناء لمرة واحدة أخيرة. لم أفعل.

خطوتُ خارجًا من المدينة عند الغسق، ثم سألت أول مُزارع قابلته عن اتّجاه النمسا. نظرَ إليّ مليًا؛ ذلك أنه حتمًا لم يرَ قطُّ رجلًا ضخّمًا هكذا بوجهٍ صبياني هكذا، وشعرتُ بظلّ العار القديم. لكنه فركَ ذقنه، واستدار كلانا مرتين حول بعضنا البعض. أشارَ أخيرًا ناحية نهر الراين البعيد. «هذا الاتّجاه»، قال. ثم هزّ كتفه استهانةً واستدارَ إلى محراثه.

وهكذا سرّتُ حتى وصلتُ إلى النهر العظيم في الفجر. لم أكن سمعتُ أبدًا مياهه الفيّاضة تُجلجل على طول الضفاف الساكنة، رغم أنني قضيتُ اثني عشر عامًا على بُعيد لا يزيد عن خمسة فراسخ. تتبّعْتُ عكس تياره؛ ذلك أنه كان من المنطقي بالنسبة لي أن فيينا الساحرة

هذا تقع حتماً حيث تنبع المياه البلورية لهذا النهر. تابعتُ طريقي بهذه الشكل لعدة أيام، مراقباً الأفق بحثاً عند مدينة متلاثة.

بالطبع، بسبب جهلي المطبق بالجغرافيا، لم ألاحظ أن الراين قد انحنى على نفسه مُرتدّاً وقادني إلى الجنوب الغربي<sup>(1)</sup>. وهكذا، لأيام كثيرة، تسلّقتُ الجبال، وجهي يتوهّج بالأمل، مُولّياً ظهري إلى غاية قلبي. كنت أسرق الطعام في الليل من أرقى المنازل التي أمرُّ بها -مع سرقة أصواتها أيضاً- ثم أشاركه مع أي فلاحين فقراء، عطوفين أقابلهم.

لكنّ واحداً من هؤلاء الأكثر فقراً وعطفاً، رجلٌ عجوز كان جندياً فيما مضى، قال لي أخيراً، «بُنَيَّ، أنت أحمق». هزّ رأسه. «الاتّجاه غرباً طوال حياتك لن يقترب بك من فيينا. شرقاً يا بُنَيَّ. الشرق هو ما تريده!». أمسكني من كتفيّ وأدارني حول نفسي وكأنني دمية.

«كل يوم، اتّجه ناحية شمس الصباح»، همس في أذني من خلفي. «استرح في الظهيرة، ثم اتبع ظلّك مع اقتراب المساء». دفعني، وتقدّمتُ مُتعثراً عبر نفس الطريق الذي كنتُ تسلّقتُه. بالتالي نهبتُ نفس المنازل الراقية مُجدّداً، وهتفتُ لي نفس الأصدقاء الفلاحين مُجدّداً. التزمتُ نصيحة حكيمي وسألتُ كل وجهٍ ودود كيف أصل إلى الإمبراطورية الرومانية المقدّسة.

شكراً للرّبّ أنني كنتُ أحمقاً! وإلا فلم أكن أبداً لأملك القوة على بدء رحلة كهذه مُجدّداً. استحضرتُ ذاكرتي أصوات أماليا عند كل انحناءة، وبهذا لم أستسلم حتّى عندما بدأت قدماي العاريتان في التّزرف، عندما اشتدّ البرد حتّى أملتني أصابعي، عندما طرحني رتلٌ من الجنود النمساويين في الطمي.

(1) مسع الراين يقع في جنوب سويسرا في بحيرة توما. (المترجم)

كان ممرُّ آرلبيرج مُغلَقًا بفعل الثلوج، وأبقاني ذلك في بولدينز طوال الشتاء. عملتُ في نفث الغبار وتلميع الأرضيات لأرملة سمعتني أغطُ في النوم في قبوها، وسمعت في صوتي ما أثار شفقتها. جلبت لي حذاءً وملابس وصنعت مني ما يشبه رجلًا. اجتزتُ الممرَّ فورَ أن ذابت الثلوج، وامتنطيتُ عربة تاجر نزولاً إلى إنزبروك. في أوائل الصيف، بدا الزمن وأنه يسبقني فيما أهبط الجبال إلى الأراضي المنبسطة، لحدِّ أن قرونًا قد انقضت قبل أن أترك المجازات الوعرة ورائي مُتَّجِهًا إلى الطُّرق المحاذية للقنوات. ثم صادفتُ أوسع نهر بمقدور الرَّبِّ أن يخلقه.

سألتُ رجلًا عابرًا عن اسم هذا النهر العجيب، وإذا ما كان يقودني إلى بُغيتي.

«إنه الدانوب»، أجابني. «إذا كنتَ سمكةً، فربما تصل إلى فيينا قبل الخريف». جلستُ على ضفافه وراقبت التيار الهادئ. مضغتُ الجذاذات الأخيرة من لحم خنزير مملَّح مسروق. أملتني قدامي. قرَّرتُ ألا أمشي مُجدِّدًا، وأن أجد طريقةً للطفو عبر هذا النهر المهيب؛ ذلك أن حُبِّي كان فيًّا صامدًا كميابه.

أخذتُ في التلويح لكل قارب عابر، كبيرًا كان أم صغيرًا. كنتُ أصرخ، «هل تمضي مع التيار؟» وكأنَّ اتِّجاه قيدومه ليس دليلًا كافيًا. البعض هزَّ رؤوسه؛ آخرون تظاهروا بأنهم لم يسمعون. لم يتوقَّف أحد ليقلِّني كمُسافر. نظرتُ إلى انعكاسي في المرآة، وأذهلني ما رأيته. لم أكن استحممتُ منذ منزل الأرملة في الشتاء، قبل أربعة أشهر تقريبًا. حاولتُ إزالة كتل التراب بالماء المُعكَّر، لكن ذلك لم يفعل سوى أن صنعَ خطوطًا من الطمي على خديّ، كخطوط طلاء الحرب على وجوه المتوحِّشين.

أخيرًا، عند الغسق، انجرفَ قارب صغير مُثقل بأشولة الحبوب بتراخٍ على مجرى التيار. كان مشهدًا مؤسفًا. أظهر بدن القارب رُفعات



كثيرة تمامًا كملابس قبطانه، الذي كان يقف عند الكوثل يدفع عصا  
مُرَبَّعة بتراخٍ في المياه الضحلة. فيما صبيُّ أعجف، لا شيء سوى عظام  
وبثور، يجلس أخرس عند القيدوم. شعرتُ في أصابع قدمي المنهكة أن  
هذه السفينة لي. نهضتُ مسرعًا وخطوت بجوارها على الضفة.

غَنَيْتُ أغنيةً بسيطة.

غرَزَ القبطان العصا المُرَبَّعة بقوة في طمي الضفة، وكأنه يلوي  
خنجرًا في جرح. تمايل القارب على هذا الارتكاز. تدلَّى فكُّ الرجل  
مفتوحًا، كفكُّ ابنه. لم يتحركا، أنصتا فحسب، مذهولين.

انتهيتُ من غنائي، لكنها لم يُغلقا فكَّيهما؛ ولهذا شرعتُ في أغنية  
جديدة. فيما يُنصتان في ذهولٍ أحمق، خطوتُ إلى النهر المتعكِّر،  
وخَضتُه إلى القارب، ثم تسَلَّقتُ صاعدًا.

من اللحظة التي خطوتُ فيها على القارب المتمايل، أدركتُ أن  
القوارب لم تُخلق من أجلي؛ كان أول ما شعرتُ به اضطرابًا مُزعجًا  
في بطني، وكأنني احتسيْتُ شرابًا فوارًا. توقَّفتُ عن الغناء وأطبقت  
فمي خشية أن أفقد عشائي مع أغنيتي. فيما البحار يستأنف تقلبيه  
المُتراخي في حساء النهر، أصابني شلل السَّقم، وانهرتُ على الأشولة.  
فَكُرتُ أن أصبح فيهما ليطرحاني على الضُّفَّة، لكنني أوقفت نفسي؛  
ذلك أنها حينها بدأنا في الانجراف ببطء عبر التَّيار، وفي ضباب الغثيان،  
صاح قلبي في بهجة، أماليا، أنا قادم!

## (2)

نمْتُ بين أشولة القمح لعدة أيام في ضبابٍ مُغيثٍ، حتَّى أيقظتني أمي ذات صباح. أو هكذا تراءى لي. انهض! صاحت في غيبوبتي. انهض! حان الوقت! حان الوقت! كانت صيحتها رنينًا مدوياً، هائلاً. في اللحظة التي سمعته فيها، أدركتُ أنني المقصود به؛ كانت تصيح في مرّة ثانية.

نهضتُ فزعاً كجنرال أيقظه نداء بوق الحرب. جاهدتُ للخروج من عناق القمح ووقفتُ على قدمي. ضربني الدُوار كركلة حصان، وانهرتُ مُجدّداً.

دوّت السماء مُجدّداً، وهكذا، من أجل أمي، نهضتُ مُتعثراً وأوشكتُ على السقوط في المياه الممتنة، لكن ابن البُحار احتضنني بذراعين عظميّتين. ناولني سطلاً، وأخذته منه، ظاناً أنه أداة للوصول إلى الشاطئ البعيد، لكنني لاحظتُ الإشفاق في عينيه. «هياً»، قال،

فيما يساعدي على رفع السطل ذي رائحة الزنخ إلى فمي، «أخرجه.  
ستشعر بتحسُّن كبير بعدها».

«لا! هتفت، وأشرتُ إلى السماء. «أنصت!».

نظرَ الصبي إلى أبيه، الذي هزَّ كتفيه لا مُباليًا.

«أرجوك»، قلت. «خذني إلى الشاطئ!».

كان النهر مزدحمًا للغاية هنا، بصنادل وقوارب أصغر، وكان أضيق  
كثيرًا. كنّا في مركز مدينةٍ ما. على الجانبين كانت الضفاف الطينية قد  
استبدلت برصيف حجري يغصُّ بالحركة. جلجلَ الدَّويُّ مُجدِّدًا، بل  
وأعلى وأكثر استمرار، وبدأت النوبة التالية قبل أن تتلاشى الأولى. صارَ  
الآن وكأنه وقَّع خطوات عملاق يركض عبر السماء.

«أسرعوا! صحتُ في قبطاني.

كان ذلك الأحمق متباطئًا كتيار النهر. اندفعتُ إلى القيدوم  
وانحنيت حتّى أستطيع التجديف بالسطل. كنتُ نسيئٌ دُواري تقريبًا.  
وقفَ الصبي ذو البثور بجواري.

«هل أنت»، سأَل، ونقرَ بإصبع على صدغي، «مريض؟».

طُوِّحتُ بيدَيَّ عاليًا. إذا كانت أذناه الغيَّتان عاجزتان عن فهم  
المغزى من الصوت، فلا يمكنني شرحه له في لحظة. أخيرًا، اقتربنا  
من الرصيف العالي، الذي كان مزدحمًا ببشر أكثر ممّا رأيتُ قطُّ،  
وكان سانت غال بأكملها قد احتشدت في ساحة ضيقة واحدة. رجال  
وأحصنة وعربات تتدافع فيما بينها لتجنّب السقوط في المياه الكريهة.  
انطلقَ ذلك الدَّويُّ مُجدِّدًا عبر العالم. تماوجَ سطح النهر، غطّى بعض  
الرجال آذانهم، لكن أحدًا منهم لم يرفع بصره (رغم أن واحدًا من  
البغال المحمّلة نهقَ نحو السماء بحماس، وكأنه يرجوها ألا تسقط).

بدا أننا اقتربنا بما يكفي من العافة الحجرية؛ لذلك وثبت، لكن  
أحدًا لم يشرح لي قَطُّ قوانين نيوتن للحركة. فيما أقفز، أوقف عَزْمي  
عَزْم القارب؛ وبالتالي كانت قفزتي للأعلى أكثر منها للأمام. لم أستطع  
سوى ملامسة الرصيف بشكلٍ خاطف فيما أسقط قبله وتَنغمس  
ساقِي حتى رُكبتِي في المزيج العَفِن. لم أستطع إيجاد شيء لأمسك به،  
وكنْتُ لأنزلق وأغرق لو لم يعتصر الصبي المبتور قميصي ويساعدني  
على التسلُّق عائِدًا إلى سطح المركب.

بدأ في تعنيفي وتعريفني بمخاطر السباحة في قناة الدانوب، لكن لم  
يكن لديَّ وقت لهذا؛ بحساباتي كنتُ أضعتُ سنوات كثيرة ولم يَعد  
أمامي سوى دقائق قبل أن يختفي الصوت! لهذا قفزتُ مُجدِّدًا، هذه  
المرة هابطًا وسط الزحام.

اصطدمَ جبينِي برَجُلٍ وحشِيٍّ يقبض على دجاجة حيَّة في كل يدٍ  
من يديه المُنتفختين، وطَوَّحَ بواحدةٍ منها ناحيتي فيما أندفع قُدْمًا.  
ركضتُ على طول الرصيف المُزدحم، الذي كان مسوَّرًا بأعلى جدار  
رأيتَه في حياتي، أعلى من قصر شتاوداخ، وبلا نافذة واحدة. جاء  
الدَّويُّ من الجانب الآخر من هذه الاستحكامات؛ ولهذا قفزتُ بين  
حصان وعَرَبته المتحركة إلى نفقٍ في السور يغصُّ بالبشر.

أصواتٌ كثيرة جدًا! مخبول بعينٍ واحدة يعوي، صلصلة عملات  
نحاسية في قدرٍ خشبية أمام مجذوم، قعقعة عجلة عربية ملتوية،  
هسيس قَطِّ أسود تساقط نصف فروه بفعل مريض ما. فيما أندفع  
عبر النفق، سمعتُ أصواتًا أكثر تنوعًا مما تخيلتُ وجوده في عالمٍ  
واحد، الجميع يتصايح ليُسمَعَ وسط الصخب: غرغرة الهنجارية،  
أزيز التشيكية، اختناق الهولندية، الفرنسية الساحرة، الإيطالية وكأن  
أحدهم يضرب بكرة على رأسي. كان النفق مُظلمًا، لكنني كنتُ الأطول  
في الحشد، وأرى حتَّى سوق اللحم في الجانب الآخر. أبدًا لم أسمع

مذبحة كهذه: السواطير تشقّ السيقان الثخينة للأبقار؛ الشفرات تسحج قشور السمك؛ ماعز يثغو بحدة ويقاوم حبلاً يجره إلى مقتله؛ امرأة بأذرع عريضة كالصواري تُخلّي خروفاً من عظامه وتلطم بكّتل اللحم على منضدة غارقة في الدماء؛ طفلٌ يشقّ أمعاءً بسكين صدئة؛ رجل بساق واحدة يتمدد أمام كومة من السَّقَط ويلوِّح بعكّازه في الطيور التي تحاول اختطاف الأعين والعوافر.

وما زال ذلك الدويُّ يُجلجل.

كان أقوى في هذا الجانب من السور. شعرتُ به في أصابع قدمي، على طول ظهري. ركضتُ عبر شارع واسع تحيط القصور بجانبيه، كل قصر منها فخيم وسامق كدير شتاوداخ. سمعتُ بيانو فيثاري يصدح خارجاً من النوافذ، صليل كريستال وقعقة فضّة. كان الشارع مرصوفاً بأحجار مستوية. زامنْتُ خطواتي مع وَقْع الدويِّ، واثبًا كل أربع خطوات حتّى يضربني الصوت فيما أنا مُعلّق في الهواء. شرّحته إلى مليون نغمة. سمعتُ النغمات المُرتفعة في العضلات المشدودة لرَبَلَتَيَّ، والنغمات الواطئة في ذراعيَّ، اللتين كانتا تتطوّحان بخَرْقٍ على جانبيّ كجناحين مهيزين.

فيما أركض، كانت القصور تزداد حجماً وزخرفةً، وأحجار الطريق تزداد انتظاماً، والروائح تغدو أقلّ بشاعةً. ضاق الشارع، ثم اتّسع، ورأيتُ ميداناً فسيحاً في نهايته. كان كل إنسان هنا يسدُّ أذنيه عن الجلجلة، راكضاً إلى وجهته، وكأنه يحاول أن يسبق عاصفةً. اندفعتُ إلى أكبر ميدان رأيتُ في حياتي، ونظرتُ إلى بناءٍ كان من الضخامة لحدّ أنني ظننته جبلاً. رفعتُ بصري إلى الشمس، إلى ذلك الصوت الذي هزّ قلبي، ولمحتُ عموداً هائلاً ظليلاً أدركتُ أن عليّ أن أتسلّقه. هرعتُ إلى داخل الجبل الأسود. أزحتُ جانباً جدّاتٍ مُتغضّبات وأرامل نائحات. جندلتُ جنراً على ركبتيه، سكبتُ مياهاً مُقدّسة على الأرض.

ألقى زجاج نوافذ أحمر كالدّم بظلالٍ ورديةٍ على الوجوه الشاحبة.  
باستثناء الدّويّ الذي لم ينقطع، كان وَقَع خطواتي على الأرض المتلاونة  
بالأبيض والأسود هو أعلى صوتٍ داخل ما أدركتُ أنه كنيسة هائلة.  
توقّفتُ في منتصف صحن الكنيسة ورفعت بصري إلى السقف. كان  
وكأنه سقفٌ لغاية: أعمدة رمادية سامقة مشقوقةً إلى أفرع متداخلة  
من الأحجار كان بمقدورها أن تُمسك السماء أن تسقط.

كنتُ على وشك تسلُّق الأعمدة والتّديّ من على فروعها، لكنني  
رأيتُ حينها رجلاً ضئيلاً، ووراءه باب ضيق. ذكّرني النظرة الكليّة،  
الكابية على وجه الرجل، ببيتِ الوفيّ يقفُ حارساً أمام غرفة السيدة  
دوفت المريضة قبل سنوات طويلة.

عبر الباب المفتوح رأيتُ درجاً. ركضتُ، مستجمعاً سرعتي فيما  
أعبر الكنيسة. رأيتُ الرجل الضئيل قادماً؛ ذلك أن عينيه اتّسعنا من  
اندفاعتي وبدأ لسانه في التّحرُّك بعصبية داخل فمه. رفع يديه: دُبُّ  
يحمي كهفه. لكنه مع ذلك دُبُّ ضئيل، صغيرٌ دبُّ، ليس بنصف  
حجمي، وهكذا في اللحظة الأخيرة، فيما أحمل عليه لأسويه بالدرج،  
نظرَ بشرود نحو المذبح وخطا جانباً. انحنيتُ لأنقذ رأسي واندفعتُ  
صاعداً الدّرج المُلتفّ.

«سيدي»، صاح في إثري، «لا يمكنك الذهاب هناك. أذاك...».

دوّمتُ صاعداً أعلى وأعلى، برأسي يدور، لكن كان عليّ أن أسرع.  
اندفعتُ إلى غرفةٍ مُربّعة ورأيتُ ستة عشر رجلاً، ظهورهم ناحيتي،  
وأذانهم محشوة ومربوطة بقماش، يجذبون ستة عشر حبلاً يتدلى  
من السقف. كانوا يشدّون حتى يجلسوا على الأرض. صدح الدّويّ،  
هازاً كل أعضائي الداخلية. ثم شدّت الحبال عن آخرها وتوتّر الستة  
عشر رجلاً، وبتناغم مُطلق، كراقصات روسيات، قفزوا عشر أقدام  
فوق الأرض. وعندما وصلوا إلى الطّنف في الأعلى، صدح الدّويّ مُجدداً.

لكنني لم ألقِ على هذا المشهد سوى نظرة خاطفة. اندفعتُ صاعدًا دَرَجًا أَضيق، مائلًا بشدَّة، لحدِّ أنني تسلَّقته مُستخدماً يَدَيَّ وقدمَيَّ.

ثم وصلتُ أخيراً إلى القمة، إلى غرفةٍ ذات أربعة جوانب مفتوحة على السماء، هناك كان هو: البوميرين (Pummerin)، أعظم أجراس الإمبراطورية، مسبوك من 208 مدفع تركي. كان بارتفاع ضعفي طولي. له مدقَّة طويلة وعريضة كجذع شجرة. كانت حبال الستة عشر رجلاً هؤلاء ملفوفة هنا في جديلةٍ واحدة تُدير عجلةً بعرض عشرين قدماً. فيما تدور، يهتزُّ الجرس، ويشقُّ الهواء كقيدوم سفينة مندفعة. وفي ذروة كل تطويحة، يصطدم الداخل السميك لشفته بالمدقَّة وتدوي نغمته المضروبة -نغمة ري مثالية، طنانة- عبر المدينة.

خطوتُ تحت الجرس. كانت المدقَّة تتدلى على بُعد إنشات أمام وجهي. رأيتُ أنها مُلتقَّة ببطانة من الجلد لإخماد قَرع الجرس الهائل. وددتُ لو شققْتُ البطانة حتى أسمع صوته الذي خُلِق من أجله، لكن المدقَّة في اصطدامها، كانت تتقافز وتتلوى، وأدركتُ أنني إذا لمستُها سأفقد أصابعي. لكنني وعدتها أن أعود ذات يوم لتحريرها. أرتُ شفتا الجرس فوق شعري تماماً. إذا قفزتُ، كان لينتزع رأسي من مكانها.

أغلقتُ عينيَّ. جعلتني قوة رياحه أتمايل من جانبٍ إلى آخر. تدلَّى فكيَّ مُرتخياً، تهدأت ذراعاي، انفتحت يداي. لامس صوته كل موضعٍ في جسدي. دغدغ دواخل فخذي وأرعش أجفاني. أرتُ أصابعي. تفككت عضلاتي -المشدودة من طول السير، والنوم تحت الأجمات، والوحدة- وهيئت للرنين مُجدداً. في كل موضع مُتخشب في جسدي، جعلني الجرس ليّناً مُجدداً. أذهلتني نغماته الكثيرة مثل لا نهائية

مسحات ألوان غروب الشمس. هناك كانت أجراس أمي، كأمواج في هذا المحيط الهائل.  
تخفّف دويّه.

فتحتُ عينيّ لأرى أن أرجحته تناقصت كثيراً، كان الرجال الستة عشر قد أفلتوا حبالهم. لدقائق كثيرة كان اندفاعه الذاتي يضرب ما يزال المدقّة. ثم عندما توقّف عن ملازمة المدقّة، تهادى رنين في جسده لبضع دقائق أخرى، ولم يتبق سوى صوت أزيز الهواء أمامه فيما يتأرجح برفق، حتّى توقّف ذلك أيضاً، وصارت أنفاسي وجلبة المدينة في الأسفل، هي الأصوات الوحيدة التي تتحرّك في الهواء.

ثم سمعتُ وقع خطوات، قبضت يدٌ على كفي وأدارتني برفق.

كان الحارس. حدّق في رأسه الأصلع، الذي كانت قطرات العرق تحتشد عليه. مرّت بضعة دقائق قبل أن تسمح له أنفاسه اللاهثة بالتحدّث.

"لا يُسمح بالتواجد في الأعلى هنا"، صرّخ وحرّك شفّتيه بحذر حتّى أقرأهما، مُفترضاً أنني أصمّ. لكنّ شفّتيه كانتا على حافة مجال رؤيتي؛ لأن عينيّ كانتا مُثبتتين على المشهد وراءه. وضعتُ يداً على كتفه حتّى لا أسقط. قادني إلى الحافة.

بذراعينا حول كتفيّ بعضنا البعض، حملنا إلى الأسفل، إلى مدينة أكثر بهاءً من أجمع خيالاتي. شوارع عريضة، تزدهم بالأحصنة والعربات والبشر كتملّ ضئيل، تؤدي إلى كل اتّجاه من الميدان. قصورٌ مستطيلة الشكل بأفنية ممتلئة بالزهور كانت متناثرة بين هذه الشرايين. على البُعد، كانت الأسوار تضمّ كل هذا جميعاً في نجمة ذات نقاط كثيرة. وراء تلك الأسوار، تمتدّ المدينة أكثر، وصولاً إلى التلال الخضراء على البُعد.



"يا إلهي"، قلتُ للرجل الذي أَسْتَدُّ عليه. "ما هذا المكان؟".  
"هذه سيدي"، قال وكأنه يتحدَّث إلى أحق، "هذه مدينة  
جلالتها. هذه فيينا".

\* \* \*

وهكذا، أخيراً، بعد عامٍ تقريباً من الأسفار، وصلتُ إلى نفس  
المدينة التي وصَّلت إليها محبوبتي. لكن حينها همسَ صوتٌ شيطانيُّ،  
كان صامتاً طوال هذه الشهور، في أذني بغتةً، "لكن لماذا تتصوَّر أنها  
تُحبُّك؟ لقد تزوّجت، رجلاً".

عليَّ أن أعترف، لم أتوقَّع أن تكون فيينا ضخمة هكذا، تغصُّ بالبشر  
الذين ينظرون، عندما أصطدم بهم، إلى أسماي ووجهي القذر وكأنني  
حيوان فرٌّ من الغابة. لكنني أغلق عينيَّ وأدع أصوات المدينة تنساب  
عبر جسدي، لأستدعي كل أصوات حبِّنا الكامنة، وحينها أستعيد إيماني.  
هممتُ طوال النهار عبر المدينة باحثاً عن أيِّ أثرٍ لأصواتها، وجامعاً  
بسعادة أصواتاً أخرى فيما أتسكَّع. كنتُ أستدير على عقبيَّ عندما  
أصل إلى نهاية مسدودة، أو إلى واحدة من تلك البوابات التي تقود  
إلى خارج هذا المكان الساحر. مرَّةً واحدة فحسب جرؤْتُ على إلقاء  
نظرة خاطفة على ما يقع خارج الجُدران؛ خرجتُ بخطوات مُتعثرةً  
من شتوبينتور عبر جسر المشاة إلى المنحدر الأخضر، ذلك الحقل الذي  
يشبه الحدائق ويحيط بسور المدينة بحيث تستطيع قوَّات جلالتها  
القضاء على أيِّ غزاةٍ بنادقهم. وجدتُ الصمتَ غير محتملٍ: طيور  
تُزقزق وحصانان يمضغان الشوفان.

بعد العودة إلى داخل البوابات، أخذتُ في تأمل الاندفاع العجيب  
للبشر: قضاة وموظفين وكُتَّبة في عرباتهم أو على أحصنتهم الضخمة،  
فيما المساعدون والخدَم على أقدامهم. أرتالٌ من الجنود يزحفون

جيئةً وذهابًا عبر الشوارع، بالمهزولين والمنهوكين منهم، في عاية الابتهاج لعودتهم أحياءً من الحرب مع روسيا، ومن حلَّ محلَّهم من الجنود المتوَّبين حزاني لما ينتظرهم من شتاءٍ قارس. وقفتُ في ميدان صغير بعض الشيء وبنظرة خاطفة واحدة استوعبتُ شحاذًا يستجدي العملات النحاسية، رجلًا بلحية رمادية وساق واحدة يتمايل على عكازه، وقسًا في غاية البدانة لحدِّ أن ظهر حصانه تهْدُل للأسفل. سيدة تسترق النظر من عربةٍ بأنفٍ كمنقار صقر. سرعان ما أدركتُ أن لا أحد، شريطة أن أبقى بعيدًا عن طريق الناس -مَهْمَة صعبة بالتأكيد- كان يُضَيِّع لحظةً لاقتناص نظرة عليٍّ، لا على قذارتي ولا على الوجه الملائكي الذي يختفي تحتها.

وقفتُ خارج بعض من أفخم القصور وحاولت استخلاص الأصوات من داخلها. سمعتُ همسات لفتاة تُغني، لدرسٍ عن اللغة الفرنسية، لكُدَّ خادِمات وطهاة وحمالين. في معظمها جميعًا، لاحظتُ الهدوء المدهش لهذه الأبنية المذهلة. مفضلاتها لم تكن تئن. عجالات العربات التي تتدحرج خارجةً من بوابتها لا تصرُّ. أقدام خادِماتها تبدو وكأنها لا تلامس الأرض. عندما أسمع أصواتًا من نافذة مفتوحة، لم تكن مُتَعَجِّلَةً أو غاضبة قط.

لم أفهم شيئًا عن المدينة سوى أنها كانت محاطة بأسوار من جميع جوانبها، أنها تميل قليلًا للأسفل ناحية نَتْن الأسواق والنهر، وعاليًا ناحية أكثر القصور بهاءً، وأنه في مركزها تنتصب هذه الكاتدرائية السوداء العملاقة (سان ستيفن St. Stephansdom)، التي في بُرجها السامق الجنوبي يتدلَّى ذلك الجرس العظيم، الذي كان رنينه أضخم صوت سمعته في حياتي، أكبر حتَّى من رنين جرس أمِّي الأكبر. كنتُ إذا وجدتُ بابًا مواربًا، أخطو عبره. طاردتني امرأة مُتَغَضِّنة عبر واحدٍ منها بساطورٍ في يدها، لكن وراء الأبواب الأخرى كان حظِّي

أفضل. تسَلَّلْتُ إلى عُرف مؤن، كانت غنائمي رغيـف خبز، نصف ديك رومي بارد، قطعـتي سـجق، ثلاث جـزرات مسلوقة، ونصف كعكة. ثم مضيتُ أبعد، صاعدًا أدراجًا ملتوية عريضة؛ إلى عُرف نوم خاوية بوسائد منتفخة؛ وأعلى، إلى عُرف عليّات ضئيلة (في أحدها وجدتُ طالبًا شابًا نائمًا، غطيـطه برائحة كحوليات عَفِنة). أخرجتُ برأسي من كل نافذة عالية صادفتني، واسترقتُ النظر عبر أسطح الأسقف، أملًا من ناحية أن أُلحـ محبوبيـتي محبوسـةً في بُرجٍ ما، ومن ناحية أن أسمع، موسى! موسى! تحملها همسات الرياح.

لكنني سرعان ما أدركتُ أن أساليبي الاعتبارية لن تفيـد بالتأكيد في مَهْـمة إيجاد فتاة جميلة في حاضرة مزدحمة بالبشر. مع اقتراب المساء، بدأت في سؤـال المارة عن كيفية الوصول إلى المدعو أنطون ريشر ذاك.

رَـبـما كنتُ لأجد فرصةً للاستحمام قبل أن أبدأ بحثي المحموم، رغم أن تخطيطًا مُتمهِّلًا كهذا كان ليقـتل الكثير مما حدثَ لاحقًا في تلك الليلة الإعجازية الأولى في قُـيـينا. كنتُ ما زلت أحمل خطوط الطين على وجهي، بأظافري طويلة وقذرة، وشعري كأذرع نباتات المستنقعات. كان بنطالي ممزقًا من الركبة إلى الكاحل، ونعل فردة من حذائي يرفرف كلسان كلب مُرتخٍ في كل خطوة أخطوها؛ لذلك لم تجد تحرياتي سوى تحديات مُشمزّة. أخيرًا، وقع اختياري على خادم بدا في عجلةٍ شديدة من أمره، لحدّ أنني اضطررتُ لقطع طريقه بذراعي الطويلتين. طَوَّحَ بِقُـفـازه ناحيتي، لكنه خشيَ حتمًا أن يلوّثه بوجهي. "ساعدني أرجوك، وسأمضي بعيدًا"، توسّلت. أخبرته بما أبحث عنه. "إنها مَهْـمة حَبِّ"، أضفت.

أَجـالٍ في نظره. ثم سمّى شارعين وأخبرني أن أبحث عن موضع تقاطعهما.

"لكن في أي جزء من المدينة عليّ أن أبدأ بحثي؟" سألته.

نظرَ إليّ وكأنني أبله بحق. "أذهب إلى كاتدرائية القديس ستيفن"، قال، مُشيرًا إلى البرج الأسود في السماء، "وانظر ما إذا كنت ستجد فائدة أكبر داخل جدرانها. إذا كنتَ ما تزال ترغب في العثور على قصر ريشر، فلن تضطرَّ إلى السفر بعيدًا".

كان ينبغي أن أعرف! همتُ عبر المدينة لنهارٍ كامل، في حين كانت (هي) تمامًا حيث بدأتُ. كانت أمّي وذلك الجرس قد دعاني إليها! فقط لو كانت عيناى مثل أذناى، لكنّ تجسّستُ عليها من البرج. بعد نصف ساعة، عثرتُ على التقاطع الذي ذكره لي الخادم، وحينها، رافعًا بصري، رأيت قصر ريشر، جليلاً ومثاليًا ككنيسة شتاوداخ.



### (3)

كان الظلام قد حلَّ تمامًا. رأيتُ قصر ريشر محصورًا بين واجهتين أكبر، لكن أقلَّ عراقَةً؛ لذلك لم أرَ من البناء العظيم سوى وجهه، بنافذتين مضاعفتين في الطابق الثاني كعينين متوهجتين، وبابة سوداء مغلقة كفمٍ مُخيف.

كانت البوابة الكبيرة، المصمَّمة لاستيعاب أكبر عربات في الإمبراطورية، ذات باب صغير في منتصفها مُخصَّص للبائسين أمثالي. فيما أقترَب من البوابة، لم أفكر فيما أفعله. طرقتُ الباب.

لم تأبِ إجابة. ثم لاحظتُ حبلًا يتدلى بجوار البوابة، لا يختلف عن حبال الأجراس كثيرًا. جذبتَه. في موضع ما عميقٍ داخلي سمعتُ رنينًا. مسحورًا كالعادة بأيِّ شيء يرنُّ، جذبتُه مُجدِّدًا، وحاولتُ تقدير حجم وشكل ومعدن الجرس؛ ثم جذبتُه مُجدِّدًا، وخمَّنتُ قُرب القَرع. طَن. طَن، طَن-طَن. طَن، طَن، طَن، طَن-طَن.

«لا تفعل هذا» كان أول درس تعلَّمته عندما أطلَّ رجلٌ على شكل غول من الباب الصغير. لم يحتج إلى الشرح بالكلمات؛ كان الاتِّقاد في عينيه يكفي. أفلتُ الحبل وابتسمت ببراءة. خطوتُ ناحيته. لم يتسم بدوره.

«مساؤك طيب يا سيدي»، قلت.

«انصرف»، أجابني.

«تري»، قلت. «أريد التحدُّث مع أماليا دوفت، امم، ريشر. تعيش في الداخل». أشرتُ إلى المنزل.

«إذا جذبتَ ذلك الحبل مُجدِّدًا»، قال، وقد بدا أنه لم يفهم طلبي، «سألفه حول عنقك». كان رأسه كبيرًا بشكل مُفزع. استرقتُ نظرةً إلى ظلِّ الكتفين الهائلتين، بلا عنق بينهما.

«للحظات قليلة فحسب»، قلتُ، «فقط لأقول لها...» توقَّفت، لأنني في واقع الأمر لم أكن أعرف ماذا أودُّ أن أقول لها. في شهور ترحالي الطويلة، كنتُ تصوِّرتُ الأمر بشكل مختلف بعض الشيء. «لنطر ونهرب»، كنتُ لأقول لها، وكُنَّا سنهرب. ببساطة؛ لا حاجة إلى فصاحة اللسان. لكن الآن، بذلك الغول يسدُّ طريقي، أيَّة رسالة بمقدوري إرسالها إليها؟ رسالة مثل «أخبرها أن الرجل الذي تحبُّه ليس ميتًا» لن تكفي. كنتُ أعرف ما يكفي لأدرك أن أفعال الحب المحرَّم من الأفضل أن تتم وجهًا لوجه.

لكن لم أستطع الاستسلام بسهولة هكذا.

"هل بمقدوري أن أريك شيئًا؟" سألتُ الغول. أشرتُ إلى نهاية الشارع. "شيئًا سيثير اهتمامك. كثيرًا جدًّا".

عندما خطا عبر الباب، اضطرُّ إلى إدارة كتفيه ليتمكَّن من المرور. عندما اعتدلَّ منتصبًا، تطلَّعتُ رأسه إلى رأسي من عليّ. سرعان ما

أدركت أنه لم يأت ليستكشف التسلية المثيرة التي وعدته بها. بل كان يرغب في منحي رسالة. أشار إليّ أن أقترّب. عندما فعلت، قبض على شعري وزمجر في أذني، "لا يعجبني وجهك. إذا رأيت هنا مُجددًا، سأغيّر أبعاده حتّى يُعجبني".

لكن شعري كان زلّاقًا للغاية، لم يستطع إحكام قبضته. تلوّيت وأفلت من قبضته، وكراقيص ماهر، اندفعت عبر الباب. كنت على وشك إغلاقه وحبس الغول في الخارج عندما أمسك بكاحلي، وجرتني للخلف ورفعني لأعلى كسمكة عملاقة اصطادها من النهر. ثم طوّح بي إلى الشارع وأغلق الباب ورائي.

نهضت واقفًا. كان الوحش قد سلخ مرفقي على أرض الشارع. صارت البوابة مُغلقة بإحكام الآن. لم أستطع قرع الجرس مُجددًا وإلاّ سيجعلني قبيحًا، وحتّى إن صادفني الحظ وتمكّنت من تجاوز هذا الرجل، كنتُ أعرف أنني سأقابل أيّامن يحرس الدائرة التالية من هذا المنزل الفخم: خادمًا، أو ربما ذكّرًا آخر من آل ريشر سيرغب في معرفة بُغيتي. لو أخبرتهم بسبب وجودي هنا، فسيرمونني خارجًا في أفضل الأحوال؛ وفي أسوأها، سيحبسوني ويرسلون بأماليا إلى مكان ناء بعيد حيث لا أستطيع العثور عليها أبدًا.

لا، قرّرت، كنتُ تصرّفتُ برعونة. عليّ أن أدخل إلى المنزل بطريقة أخرى.

كانت نوافذ الطابق الأرضي مسدودة بقضبان حديدية مُزخرفة؛ بينما تلك في الطوابق الأعلى ليس كذلك، لكنها كانت مُغلقة بإحكام، وعلى أيّ حال، لم تكن لديّ وسيلة للوصول إليها. أدركت أن قصر ريشر كان سجنًا، وأن محبوبتي محبوسة فيه.

استدرت مبتعدًا، غارقًا في الإحباط، لكن حينها فُكّرت: ماذا كان نيكولاي الشجاع ليفعل؟ أطلق هذا اللجام خيالي. نسجتُ الفانتازيّات:



ارتداء زيّ مُنظّف مداخلن، أو سرقة خنزير من السوق وتسليمه إلى المطبخ ثم الاختباء في خزانة، أو إطلاق سهم مسموم الرأس على الغول ليستغرق في النوم. لكن كل هذه الأفكار جعلتني أهزُّ رأسي؛ جميعها تحتوي نفس الخطأ. أي، لفعلها، تنقصني الموارد. لم يكن لديّ سروال نظيف حتّى، ولم أكتشف مكانًا حتّى لسرقة واحد.

لم أشك كثيرًا حينها أنني سأتوفّر على وسيلة لدخول قصر ريشر ذات يوم، ليس عن طريق حيلةٍ ما، بل بدعوة من سيدة المنزل ذاتها.

\* \* \*

اتبعني في تلك الأمسية الإعجازية فيما أنعطفُ عند شوتينتور عائداً إلى شوتينغاسه ثم إلى قلب المدينة. تمشيتُ على عمالي، مُنصتاً إلى قعقة الفضة على أرقى أسنان في قيينا فيما تنبعث خارجةً من المساكن الفخيمة على طول الشارع، عندما باغتتني عربة أحصنة، ثم توقفت على بعد عشرين خطوة تقريباً أمامي. لم أعرها اهتماماً، حتّى عندما هبط منها رجلٌ، وأكملت العربة طريقها، وبقيت في مساري فيما أقرب منه.

كنتُ على بُعد خطوات قليلة عندما بدأ في الضحك، ناخرًا في البداية من أنفه بطريقة مُتشكّكة، ثم أخذ في القهقهة، مع اقترابي أكثر، بكامل بطنه لدرجة أزعجتني بعض الشيء. من أنفاسه الرشيقة، العميقة، أدركتُ أنه لا بُدَّ إمّا موسيقيٍّ أو راقص، لكنه كان بديناً للغاية على أن يكون راقصاً. في الظلام كان بمقدوري رؤية وجهه المستدير، المتورّد؛ إمّا بالنوايا الحسنة أو بالنبيذ.

"أورفيوس"، قال الرجل. "لقد انتصرتَ على نفسك".

## (4)

تَطَّلَعَ إِلَى الرَّجُلِ مُتَّجِهًا لَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ الْإِبْقَاءَ عَلَى عُبُوسِهِ طَوِيلًا،  
وَانْفَجَرَ مُجَدِّدًا فِي قَهَقِهَاتِهِ فِيمَا يَقْتَرِبُ. انْحَنَى عَلَيَّ وَاشْتَمَّ يَاقَتِي؛  
ابْتَعَدَ بِفَعْلِ النُّفُورِ. لَكِنْ حِينَهَا، لَدَهْشَتِي الْكَبِيرَةِ، دَفَنَ وَجْهَهُ فِي  
كَتْفِي وَاسْتَنْشَقَ رَائِحَتِي الْعَفْنَةَ وَكَأَنَّني وَرَدَةً.

«فَقَطْ وَاحِدٌ مِنْ آلِ جَارِيكِ»، قَالَ بِصَفِيرٍ وَكَأَنَّ رُثْيَهُ لَنْ تَسْتَنْشِقَا  
نَفْسًا آخَرَ أَبَدًا، «يَجْرُؤُ عَلَى أَنْ تَكُونَ رَائِحَتُهُ كَرِيهَةً هَكَذَا. مَاذَا فَعَلْتَ؟  
قَضَيْتَ لَيْلَةً فِي وَاحِدٍ مِنْ مُوَاخِرِ سَبِيْتَلْبَرَجٍ؟ دَعْنِي أَرَى يَدَيْكِ».

رَفَعْتُ يَدَيَّ الْقَدْرَتَيْنِ وَبَسَطْتُ أَصَابِعِي لِيَرَى الْقَدْرَ الْمُتَرَكَمَ بَيْنَهَا.

«يَا إِلَهِي»، قَالَ. «هَاتَانِ الْيَدَانِ لَا تَقْلَانِ قِيَمَةً عَنْ هَاتَيْنِ الْأُذْنَيْنِ».

جَذَبَ شَحْمَتِي أُذُنَهُ. ثُمَّ قَرَضَ عُنُقِي. «وَهَذَا الْحَلْقُ، الَّذِي يَبْدُو أَنَّهُ  
أُصِيبَ بِالطَّفَحِ الْجُلْدِيِّ بِسَبَبِ هَذَا الْقَمِيصِ الَّذِي وَجَدْتَهُ فِي النَّهْرِ،

يساوي أكثر عشر مرات. دوراتسو سيغضب بشدة. تكنيك الخداع فعال حقًا، لكن لنقل وداعًا له!».

ضيق الرجل عينيه في الظلام ليراني، وكأنه اندهش أن أنفي كان كبيرًا هكذا. حمدًا للرب أنني لم أنطق بكلمة. كلمة واحدة، «مرحبًا» أو حتّى «ماذا؟» كانت لتقطع هذا التواصل الإنساني بغتة كما بدأ. لكن لحسن الحظ كان الصمت ما يزال حالتي الطبيعية.

نفّض الرجل الشك عن نفسه وقال: "دعنا، إذن، ندلف إلى منزلك، ليس كسيّد وصديق، لكن كفئّان ورفيقه الفئّان". وضع يدًا على أسماي القذرة ودفعني نحو منزل فخيم مُشيّد من الحجارة، محشور بين قصرين آخرين. قرعَ الجرس. فتحَ الباب خادمٌ طويل وعريض للغاية، من النوع الذي لا يترعرع سوى في مزارع بوهميا.

"أوه!" هتفَ الخادم.

"أوه؟" قال مُرافقي مُعاتبًا. "أوه؟ أهكذا تتحدّث إلى عبقرية؟" تراجع الخادم بضع خطوات واصطدمَ بجدارٍ، وبجهدٍ انحنى انحناءً طفيفة.

"الفا-الفارس جلوك"، غمغم بصعوبة. "إنهم ينتظرون... ينتظرونكما".

"ولن نُخيّب أملهم!" هتفَ هذا المدعو جلوك، ونغزَ مرفقًا في أضلاعي. سيطر الخادم على نفسه وبدأ في قيادتنا عميقًا داخل المنزل الباذخ، الذي لم تستطع رائحة اللافتندر فيه هزيمة رائحتي.

ضحكَ جلوك بخفوت في أذني. "بوريس نفسه يظنُّ أنك صعلوك"، همس.

انفقتُ بعض الشيء مع بوريس المُتبصّر ذاك، لكنه لم يستدر حتّى ليحدّق فينا بينما يقودنا عبر الدّرج العريض المُغطّى بالسجاد، حيث كان صوت ضحكات مرحلة يرتفع من وقتٍ لآخر، بذلك الصياح

الخفيض لمحادثة جادة. أدخلنا عبر باب مزدوج، ووجدت نفسي وسط حفلي الساهرة الأولى.

كان هناك ما يقرب من عشرين رجلاً في قاعة الرقص، وثرثرة نساء أيضاً. حتى أصغر الرجال سنًا كان لديهم شعر أبيض مناسب، وكل أنف في الغرفة بدا مُستدقًا، رغم أنني سرعان ما أدركت أن لهذا علاقة بالرُّفَع العام للذقون. كان هؤلاء الرجال والنساء يثرثرون في دوائر مُزدحمة، ويتحدّثون في همسات حادة للغاية، لدرجة أنني تيقّنت أنني قاطعتُ مؤتمرًا دبلوماسيًا ذا أهمية قصوى. كانت هناك مجموعة من أربعة رجال تقف بالقرب من بيانو قيثاري، وبدوا وكأنهم وزراء أو قادة؛ ذلك أنهم عندما يُبدون أيّة آهة تعجّب، كانت الأعين في القاعة تتطلّع، وبأمل تقريّبًا، في اتجاههم.

لكن دخولنا أفسدَ هذا التوازن. فيما جلوك يخطو ناحية مجموعة الأربعة، من أرجاء القاعة جاءت "أووهِ!" و "آه" وكأن طاووسًا قد نفّس ذيله لتوّه. رُفعت الكؤوس، كل كأس أعلى من سابقه. ثم انصبت عليّ كل عين أيضًا. أنزلت الكؤوس. صمتت القاعة.

أخيرًا، خطا واحد من الرجال الأربعة إلى الأمام. "Chevalier Gluck, qui est-til؟ الفارس جلوك، مَنْ هذا؟".

لم أكن تعلّمتُ أيّ فرنسية، لكن كان من الواضح لي أن القاعة بأكملها ترغب في معرفة ماذا يفعل هذا المتشرّد وسطهم. ابتسم جلوك بخبث. أجالّ بصره في الحاضرين، متوقّفًا أولًا قليلًا عند كل واحد من الرجال الأربعة المهمّين، "سنيور كالزابيجي، سنيور أنجيليني، سنيور كواليو، الناظر دوراتسو، السيدات والسادة". أشار بإصبعه إليّ. "هذا هو مستقبل فنّنا".

أمهل الحاضرين قليلًا ليستوعبوا أثر عبارته، فيما يخطو ببطء حولي، متأمّلًا في أسامي المُمزّقة وكأنها أفخم ملابس وقعت عليها

عيناه. "لا ريش نعام، لا صدرِيَّات مُرْصَعة بالماس، بلا تَجْمُل على وجهه. لا يبدو كْمُهَرَّج. امنحوه نظرةً واحدة، واستوعبوا رسالته". رفع إصبعًا إلى السقف. "الخِداع ليس فنًّا".

أوماً جلوك ببطء وخطا إلى الأمام ثم عادَ إلَيَّ فيما يُحدِّق في كل ضيفٍ كأبٍ يؤدِّب أطفاله. "من أجل هذه الأوبرا، لن نعيد إحياء أورفيوس الذي سمعه الجمهور مائة مرة. ليس أورفيوس نابولي، ولا فينيسيا. لا. لن أفعل هذا. بموسيقاي، مع نص سنيور كالزابيجي الأوبرالي المدهش، سنستحضر بدلًا من ذلك أورفيوس الذي عاش قبل زمن طويل، الذي لم يرتدِ الريش في رأسه، الذي شدا بأجمل موسيقى قاطبة، والأهم من كل هذا، الذي شَغِفَ بعاطفة صادقة وحقيقية". تطلَّع جلوك إلى السقف وفردَ ذراعيه في تضرُّع. "أورفيوس!" هتف. "تعالَ وغرُّ لنا! نتوقُّ لأن نعرف الحب! لأن نعرف أعظم حزن وأعظم فرحة! بموسيقاك، املاً قلوبنا!".

لبضع ثوان تركَ جلوك الصمت يسود، ثم عادت العين العابسة إلى الجمهور. "في أكتوبر، سيقوم أورفيوس كما لم يسمعه أحدٌ منكم قط؛ ذلك أننا سنوقظ روحه، ليس بالنَّص الأوبرالي والموسيقى فحسب، لكن لدينا أيضًا المُغَنِّي الذي سيحمل صوته. في هذه الليلة يختفي وراء حجاب الوضاعة، لكنكم تعرفونه جميعًا. أنساق ساداتي، مُضَيِّفُكُمْ، أورفيوس(نا)، أعظم أصوات أوروبا، جايتانو جواداني".

بتلويحةٍ من يده قدَّمني إلى الحشد، الذي ذابت وجوهه المصدومة في الابتهاج فيما يتعرَّفون على جايتانو جواداني الشهير ذاك، أيًّا مَنْ كان، تحت طبقات الشُّخام على وجهي. أخذوا في التصفيق، وفيما يفعلون، أدركتُ برعبٍ مُباغت أن القاعة صارت مُنتفخة بالتوقُّعات والآمال، كفقاعة على وشك الانفجار بصوتٍ صاخب! لم أبتسم فيما يصفقون، وزادوا من حدة تصفيقهم ردًّا على ذلك؛ ولهذا قرَّرتُ الهروب. اتخذتُ

خطوتين للوراء، لكن حينها أدركتُ أن هروبي قد أعيق بفعل خطواتٍ تقرب. استدرتُ لأرى رجلاً يدخل. فسَرَ منظره كل شيء، بالنسبة لي على الأقل.

كان جايتانو جواداني يكبرني بخمسة عشر عامًا، لكننا كنّا نتشارك نفس الوجه الذي لا يشيخ. كان طوله يصل إلى أذني فحسب، لكنّ كلينا يتشارك في ذلك القوام الملائكي الذي يجعل الحشود تظنّ أن طوله ست أقدام، وتظنّ أن طولي سبع أقدام. مثلي، كان له صدر الطيور ذاك الذي يُميّز الطواشيّين ورهافة الجسد الذي لا تثقله العضلات الرجولية. لم نكن توأمًا، بل شقيقين ربما. في تلك الليلة كان شبابي مشوبًا بالسخام، وفي معطفه الطويل المُوَشَّى ظهرَ هو كملكٍ. بدا وأنه يدلف إلى القاعة طافيًا. إذا كان الجميع قد سكّث عندما رأوني، فالآن عندما رأوا جواداني -وأنا بجواره- لم يتنفّسوا حتّى. لم يجفل الطواشيّ الشهير من رؤية هذا المتشرّد في منزله، للحظة تطلّع إلى الحاضرين بابتسامةٍ كريمة، عليمة. ثم نظرَ إليّ بتمعّن من رأسي إلى قدمي.

"أيّها الفارس"، قال بألمانية قويّة اللكنة، "هل وجدتَ لي بديلًا؟".

تحوّل وجه جلوك المتورّد إلى القرمزي. "أيّها المحتال!" قال لي بكلمات لاهثة. هزّ قبضةً ورفعَ الأخرى أمام صدره وكأن قلبه سينفجر من الحرّج. خطوتُ إلى الوراء مُجدّدًا وكنت لأصطدم بالطواشيّ لم لو يتحاشاني بمهارة راقص. رفع يداً لتهدئة غضب المؤلف الموسيقي.

"ظننته أنا؟" سأله جواداني فيما يستدير ناحيتي واضعًا نفسه بيني وبين جلوك. شرعتُ في الاقتراب ببطء من الباب.

"كان يتصعلك خارج بابك. خدعني".

"تَنكّر مُتَقَن"، قال جواداني، وزمّ شفّيته حتّى يدرك ضيوفه أن بمقدورهم الضحك.

"سأرميه إلى الخارج بنفسِي"، قال جلوك، ومدّ يده ناحيتي.

"لا!" هتَفَ جواداني. تجمّد جلوك. لم يستدِر جواداني حتّى ليتأكّد أن المؤلف الموسيقي قد أطاع أمره. وضع المُغَنّي راحته فحسب على صدره، وكأنّه يستشعر نبضه، بالرؤوس الحمراء لأظافره المطلية تتلألأ. "أبدًا لا أتخلّى عن شقيق السُّكّين"، قال بهدوء.

أحنى رأسه وظلّت يده على قلبه. تعجّبت كلّ عينٍ في القاعة من حنوّه هذا.

"بوريس!" نادى بصوته الرّئّان الناعم. ظهرَ بوريس من حيث كان يتوارى خارج الباب المفتوح.

"امنحه استحمامًا وبعض الملابس، وطعامًا. اعتقد أن ملابسك وحدها ستلائمه".

لم يُبدِ بوريس شيئًا سوى ازدراة مُرتعبة. لم يلتفت إليّ فيما يقودني إلى خارج القاعة ثم عبر ردهة. "انتظر هنا"، أمرني. طوال عشرين دقيقة، جثمتُ هناك كتمثال، خائفًا أن يلوّث سُخامي الحوائط البيضاء إن أبديت أيّ حركة. أيّ اتّجاه كان الباب؟ أخيرًا، عاد بوريس بكومةٍ من الملابس على ذراعه.

"اتبعني"، قال، بصوتٍ يخلو من الاحترام والازدراء على السواء. قادني عبر دَرَجٍ خشبي ضيق يهبط إلى غرفة اغتسال للخدم في القبو. كان هناك حوض اغتسال خشبي ممتلئ حتّى منتصف بالماء، كان بمقدور بوريس أن يُسخّنه أكثر بالتأكيد، لكن بما أنه كان أول ماء دافئ يُلامس جلدي منذ شهور، فلم أجروّ على التّشكّي. أغلقتُ الباب

ووضعت وراءه صندوقًا خشبيًا لتريسه قبل أن أتجرّد من أسمالي  
القذرة وأغطس في الماء.

ظهرَ الجلد الرائق تحت طبقات من القذارة. فركتُ الصابون في  
يدي حتّى تغضّنت حشّيات أصابعي بأشكال بيضاوية وردية. فقدَ  
شعري وزن سنةٍ من الدهن، وعندما جفّ، انتفش إلى هالةٍ من  
الزغب الرقيق كريش صغير الفراخ.

عندما تأكدتُ أنني فركتُ كل إنشٍ من جلدي، خطوتُ خارجًا من  
حوض الاستحمام ووقفتُ أمام المرأة. تفحصتُ كامل جسدي العاري.  
لا يوجد مخصّيّ بعضلات رجولية، لكن بعد عام من الترحال على  
طول جبال الألب، اكتسبَ جسدي عديم الشعر رشاقة الحوريات.  
رأيتُ في فخذيّ لمحةً من تلك السيقان العارية التي كنتُ ألصقُ أذنيّ  
بها في تلك السنة في علّية أولرتش. كانت العظام البارزة في صدري  
وحوضي عظام رجل، لكن الطّبع الحليبي، اللّحيم، لجلدي كان شبيهًا  
بذلك الذي كثيرًا ما قبّلته.

كنتُ عديم الشعر، ومع ذلك، الآن وقد تطهّرتُ من القذَر، سطعَ  
زغبٌ ذهبي تحت ذراعيّ، فوق شفتيّ، وفي سهم يشير إلى الأسفل من  
صُرتيّ. عندما رفعتُ ذراعيّ، تماوجت الحركة على صدري المستدير،  
عبر معدتي الطويلة، وتلاشت في فخذيّ. كان عامٌ من المشي قد عزّزَ  
القوام الذي طالما عمَل أولرتش على تمرينه. لم يبدُ الطواشي الذي في  
المرأة هشًا. كانت قدماه راسيتيّن على الأرض، وكتفاه تبدوان مُعلّقتين  
من خيطٍ غير مرئيّ مربوطٍ في السماء. كان جسدًا نبيلًا، مثاليًا، بنقيصة  
واحدة فقط في مركزه.

شقيق السكّين، كان جواداني قد دعاني؛ الاعتراف الذي طالما خشيته.  
لم يحتجْ إلى سماعي أغني حتّى. رأيتُ ذلك فيه أيضًا. رأيتُ ظلًا  
لذلك الموزيكو الآخر. أنتونيو بوجاتي. وجهاهما الملائكيان، الرائقان،



رونقهما، أصواتهما البديعة- كلها كانت علامات تسم جسدي أيضًا. أورفيوس. ما زال صدى الاسم يتردد في أذني. أورفيوس. ومُتأملًا هذا الملاك العاري في الزجاج، فُكِّرْتُ مزهوًا أنه إذا كان بمقدور جواداني أن يكون أورفيوس من أجل إمبراطورية بأكملها، فحتمًا بمقدوري أن أكون أورفيوس من أجل امرأة واحدة.

كان سروال بوريس طويلًا بما يكفي بالكاد، لكنني لم أستطع تزيير الصدرية على صدري. برزَ رسغاي من المعطف، واضطربت لترك الحذاء المؤلم دون رباط. تمعنْتُ في نفسي في المرأة. أبدًا لم أبدُ وسيما هكذا.

في الردهة، كان في انتظاري صَحَفَةٌ كبيرة تعمل طبقًا من الخبز وجُذائذات لحم؛ وجبة زهيدة لشخص مثلي اعتاد على سرقة الولايم. توابثُ صاعدًا الدَّرَج. لم أعد الصعلوك الدخيل، كان بمقدوري إيجاد طريقي إلى الخارج.

كان المنزل الذي يقطنه جواداني مفروشًا بسجاجيد على أرضيات خشبية بلوحات مُوطَّرة بالذهب على الجدران. عمَّ الهدوء المكان، وكان الضيوف قد غادروا جميعًا أثناء استحمامي وأُرسِلَ بالخدم إلى الفراش. وجدتُ الباب الأمامي، قبضتُ على المقبض النحاسي المؤشّي، وتهيأتُ للانسلال إلى الخارج دون أن يراني أحد. لكنني سمعتُ صوتًا جعلني أحبس أنفاسي.

بدأ بيانو قيثاري في العزف. سمعتُ على الفور أن سيّدًا يجلس على لوحة المفاتيح. انسَقْتُ ناحية الصوت، بعيدًا عن الباب، صاعدًا الدَّرَج، مُسرِّعًا، صامتًا، خائفًا أن تتوقَّف تلك الموسيقى بفعل أي صوت أبديته.

فيما أقترب من الباب المفتوح الذي كانت تنضح منه الموسيقى -أدركتُ أنها تلك القاعة التي كنتُ فيها من قبل- وجدتُ بوريس

والخدم الآخرين جاثمين على جانبي الباب، مختبئين عمن يوجد داخل القاعة. لم يُبدوا أي رد فعل عندما انضممت إليهم؛ ذلك أن أجسادهم كانت مشدودة لتُنصت. عبر مدخل الباب ذاك، سمعتُ مقاعد تصرُّ وأقدامًا تتبدل تحت النغمات الرائقة للبيانو القيثاري.

كنت أريد أن أعرف من يجلس على البيانو. ربما كان لي أن أدلف عبر الباب وأفسد الأمسية - للمرة الثانية - لو لم أسمع صوتًا زاد من ذهولي أكثر: شرع جايثانو جواداني في الغناء.

Che puro ciel! Che chiaro sol! Che nuova serena luce è questa mai!

يا للسماء الخالصة! يا للشمس الرائقة! يا له من ضوءٍ مُتجددٍ أصيل!

يا له من دفء! أغلقتُ عيني واستنشقتُ آخر قطرة من الهواء في ثنايا رئتي. احتشدتُ مع كل الخدم حتى انضغطنا على بعضنا البعض كحفنة من صغار الخنازير تتسابق على صُرْع أمها. في كتلة واحدة، اقتربنا من مدخل الباب زاحفين. نظرْتُ في الأنحاء لأرى جواداني يقف أمام الحشد المُتشي، ووراءه يجلس جلوك على البيانو القيثاري.

كان جواداني يلوح بيديه فيما يغني، أصابعه الطويلة تصف الانحسارات والتصاعدات التي يخلقها صوته. في لحظات صوته الرهيفة، كان يجعلني أتخشب فيما أعتصر نفسي لأنصت، ثم في لحظاته العاتية، أشعر وكأنني على وشك الانسحاق تحت قوة بهاء صوته. حدّق جواداني ناحية واحدة من زوايا القاعة، ورأيتُ في عينيه أن هناك كانت يوريديس (ته)، التي سريعًا سيمتلکها مُجددًا. اعثر عليها! قالت لي الموسيقى. اعثر عليها! أراح ذلك أي خوف كان يتلکأ في ظلال روحي. دموعٌ دافئة لوّثت وجهي النظيف الآن.

فيما يُنهي جواداني آهته الأخيرة - (يوريديس، أين أنتِ Euridice !dov'e) - كان اجتراح صوته عنيقًا، ووحدها قوّة بوريس منعتنا من السقوط إلى قاعة الرقص. بدأ الضيوف في التصفيق؛ نفَضَ الخدم الذهول عن أنفسهم وفرّوا هاربين. لم يكن ردُّ فعلي في غاية التمرُّس؛ من اللحظة التي توقّف فيها جواداني عن الغناء، شعرتُ بتراجع الدفء. زحفَ الخوف خارجًا من الظلال. مع كل لحظة تمرُّ، تراجع يقيني أكثر وأكثر أنني سأفوز بما أتوق إليه. شعرتُ بحاجة إلى سماع هذه الموسيقى مُجدِّدًا، بالحاجة إلى تعلُّم غنائها بنفسي، وهنا كان أستاذان بمقدورهما تعليمي.

شعرتُ بيد بوريس على ذراعي تحاول جذبي بعيدًا عن الباب، وأدركتُ أنه كان يهمس بشيء ما في أذني، ويسألني إن كنتُ بهذه الحماسة حتّى أقاطع الأمسية للمرة الثانية. كنتُ كذلك. اعتصرتُ نفسي للإفلات من قبضته.

لكن بوريس لم يكن يسمح بمقاطعة أخرى، على الأقل ليس بسبب أحرق يرتدي ملابسه؛ ولهذا جذبَ كتفي بعنف. تلويّنتُ وقاومت حتّى أفلتَ قبضته أخيرًا. سقطَ اللوراء وأسقط زهريةً من مكانها. خطوتُ مُضطربًا إلى قاعة الرقص.

بملابس خادم، ودموع تجري على خدّي، هبطتُ على احتفالهم وكأنني سقطت عبر درج لتوّي. توقّفَ التصفيق. حدّقوا فيّ، لكن هذه المرّة كانت تحديقتهم مختلفة. لم يتلاش اندهاشهم إلى اشمزاز، بل إلى إعجاب؛ إعجابٍ بجمالي.

اتّخذتُ بضع خطوات نحو جواداني، ورأى الجميع الطواشيئ نصفار جوار بعضهما البعض: أنا مرّة أكثر شبابًا وطولًا لجواداني. وجهه الملائكي الرائق، عظامه الرهيفة، وعيناه الخضراوان الوديعتان، كان كل ما أذريه في نفسي.

حاولتُ استجماع الكلمات، لكن كل ما استطعته كان ضمّ قبضتي وإرخاءهما أمام وجهي، وكأنني أجاهد لاقتناص ذرّة مُراوغة من غبارٍ سحريّ يسبح في الهواء.

"ها هو أورفيوس (ك) قد عاد، أيّها الفارس جلوك"، قال جواداني وضحك. ضحك الجمهور أيضًا.

حدّق المؤلف الموسيقي إليّ من البيانو القيثاري. عاد بوريس ونشبَ يدًا في ذراعي.

"انتظر"، قال جواداني لخادمه، دون أن يتحرّك من موضعه على المنصة الخشبية. "ربما هذه هي فرصتنا، أيّها الفارس، في غياب مدموازيل بيانشي، لنُسمع جمهورنا دويتو من الفصل الثالث".  
"معه هو؟" قال، نافئًا رذاذ لعابه. "يوريديس؟".

"هل تستطيع غناء السوبرانو؟" سألني.

أومأت. أثارَ جلوك اعتراضات أخرى، لكن عبارة إيطالية أوقفت حديثه، وأقنعه لغطُ في القاعة أن الضيوف يسعدهم أن ينصتوا إلى جواداني يغني مع رفيقٍ شاب. انتزع جواداني بعض الأوراق وناولني نوتة موسيقي. تفحصتها بحماس وغمرتني على الفور خيبة الأمل.  
"لكن هذا... لا أستطيع..." تلعثمتُ.

"طبقه صوتٍ عالية جدًا عليه". صرّ مقعد جلوك على الأرض فيما ينهض واقفًا، ارتفعت راحته وكأنه يريد دفعي وإخراجي من القاعة.  
"لا"، قلت. "ليست عالية عليّ".

"ما المشكلة إذن؟" سألني جواداني.

"إنها الكلمات"، قلت. "ليست باللاتينية".

زَمَّ جواداني شفّتيه، ورأى الجميع أنه يكم ضحكته.

"هل هي الإيطالية؟" سأله.

أوماً جواداني. "إنها كذلك".

"لا أتحدّث الإيطالية". سرى صمّت عبر القاعة. "لا أعرف كيف أنطق الكلمات".

تناول جواداني الأوراق من يديّ برفق، وكأنها كنز يستعيده من قبضة طفل. "لا تتحدّث الإيطالية؟" سأَل بهدوء، لكن عاليًا بما يكفي لتسمع كل أذن تُجاهد لتسمع. "لكنك طواشي".

أومات. احمرّ وجهي رغم هدوء جواداني.

"هذا مستحيل"، قال. "في أيّ دور أوبرا غنيّت؟"

"دور أوبرا؟".

"مسارح!".

"لم أغنّ قطّ في مسارح".

"أين إذن تعلّمت الغناء؟".

"في الدير"، قلت. "دير سانت غال".

استدار جواداني إلى جلوك. "أين هذا؟".

"في سويسرا"، قال جلوك. أوماً.

"لكن ليس لديهم أي موزيكو في الأراضي الألمانية"، قال جواداني، مُندهشًا. هزّ جلوك رأسه برفق مؤكّدًا. أشرق وجه جواداني بغتةً. ابتسم إليّ. "لكن هذا شيء استثنائي. منذ متى وأنت في فيينا؟".

"وصلت اليوم".

"اليوم!".

بدأ جواداني في الضحك، وكانت ضحكته بنفس قوة أغنيته. سرعان ما انغمس جميع مَنْ في القاعة في الضحك معه على هذا الموزيكو العجيب الذي لا يتحدث الإيطالية؛ القادم من أرض لا يوجد فيها نوعه. بدا بوريس وكأنه رأى هذا فرصة جيدة لإخراجي خلسةً، لكن هذه المرة جذبت نفسي بنفسي بعيداً.

لكن جواداني رفع يداً فحسب. تجمّدت أنا وبوريس، وخمد الجمهور على الفور. جالت عينا جواداني المترقّعة على كل واحد من ضيوفه، وكأنه يبحث عن قلب نبيل واحد بين هذه الصقور. "أنا، مثل هذا الموزيكو البائس"، قال، "لم يكن لديّ أيّ كونسرفتوار (conservatorio) ليعلنني ما أنا عليه اليوم. علّمت نفسي بنفسي. ولن أتخلّى عنه".

"غداً"، قال لي، "ستأتي إلى مسرح بيرج. ستكون تلميذ جايتانو جواداني".



## (5)

"زائر إلى المدينة، سيدي، ألسنت كذلك؟ أي خدمة في مقدوري؟" كان الصبي قد قال بعد أن استيقظت في الصباح التالي من فراشي القاسي على الرصيف وتقلبْتُ ثلاث استدارات كاملة، بسؤال واحد في رأسي لا غير .

«في الواقع»، قلت، «مقدورك. هل أنت من أبناء هذه النواحي؟».

"ابن خالة عمِّي هو الملك عمليًّا"، قال بفخر، مُبرِّزًا صدره، الذي كان في غاية النحول لدرجة أنه كان باستطاعتي إحاطته بيديّ. تساءلت متى تناول طعامًا آخر مرّة.

"هذا جيد"، قلت. "أنا في حاجة إلى اتجاهات. هل يمكنك مساعدتي في الوصول إلى ذلك المسرح، الذي يُسمَّى مسرح بيرج".



"مسرح القياصرة والملوك في القلعة (Die Kaiserliches und Königliches Theater an der Burg)، سرد الاسم بإيماءة. "إلى ساحة ميخائيل (Michaelerplatz). دَع لوثر يكن مُرشدك".

وهكذا فعلتُ. سرتُ وراءه عبر المدينة النائمة بعد الفجر مباشرةً، صاعدين التُّل المُنبسط، بتلك الكنيسة السوداء تطل علينا من اليسار عبر ضباب الصباح، ولطخات الرُّوث الرطب تتناثر في كل مكان بين أحجار الشوارع. لم نستدر يسارًا أو يمينًا قطُّ. كانت القصور تزداد حجمًا وأبهةً.

بعد ما لا يزيد عن عشر دقائق، دلفنا إلى ميدانٍ. "ساحة ميخائيل"، قال لوثر، وانحنى.

فغرْتُ فاهي. على مسافة ليست بعيدة، كانت خطوط الأسقف البارزة لأضخم أبنية رأيتها في حياتي تشقُّ بحدّة السماء الساطعة. في الميدان نفسه؛ كان هناك قصر مُبهرج بقبابٍ ومخائيل بيضاء لمحاربين ينتصب عاليًا فوقنا.

"يا إلهي"، قلتُ لمُرشدي، مُشيرًا إلى الصرح العجائبي. "هل هذا هو المسرح؟".

"لا"، أجابني. "هذه المدرسة الشتوية لتعليم ركوب الخيل، للأميرات وخيولهن الصغيرة. هذا هو مسرحك". تَبَعْتُ إصبعه الممدودة إلى الحافة الحادة لمدرسة تعليم ركوب الخيل هذه -التي بدت وكأنها تنتهي بغتةً، وكأنها مشقوقة بسكّين من السماء- منكمشةً إلى مكعّب حجري بلا نوافذ في إحدى الزوايا. في سانت غال كان ليُلفت النظر، لكن هنا، كان....

"صغير بعض الشيء، أليس كذلك؟" قلت.

نظرَ لوثر إلىَّ بعبوس. "أعظم مسرح في الإمبراطورية. يسع ألفًا وأربعمائة إنسان".

"لا يبدو كمسرح". كانت الواجهة بلا نوافذ، وبلا أبواب.

"كان دارَ رقص فيما مضى".

"مرقص؟".

"ساحة للرقص. حتّى يستطيع الأمراء اللعب والتراقص. الآن هو مسرح. وليكن بوابة إلى الشيطان فلا أبالي. لا يُسمح لي أبدًا بالدخول".

تقدّمتُ إلى الميدان. لاحت القصور وراء مسرحي أكبر وأكبر.

"راض؟" سألني لوثر. "راضٍ عن خدماتي؟".

أؤمأتُ بشرود.

"اثنان كروزر"، قال.

"ماذا؟" استفهمت.

"أتعابي. تدين لي باثنين كروزر".

"مقابل ماذا؟".

"مقابل الخدمة".

"لكن هذا لا شيء. أيُّ أحقق بإمكانه إيجاد الطريق".

"أيُّ أحقق إلّا أنت. اثنان كروزر".

"لكن...".

"اثنان كروزر". مدّ يده وتقدّمتُ ناحيتي.

"لا أملك بنسًا حتّى".

مكتبة  
t.me/soramnqraa

"سأعضُّ كاحلك". كشفَ عن أسنانه. صفراء، لكن حادّة بما يكفي لإنجاز المهمة. تراجعتُ.

"لا شيء!". هتفت. "أنا فقير مثلك".

تطلّع إليّ من رأسي إلى قدمي وكأنه لاحظ للمرة الأولى كم تلائمني ملابسني بالكاد. امتعضَ من فقري. "أعطني حذاءك إذن"، قال.  
"لا!".

غطسَ إلى الأرض من أجله ونجحَ في انتزاع فردة فيما أثبُ مُبتعدًا، لكنه سرعان ما جندلني، رغم أنه لم يكن بنصف بحجمي، واختطفَ الفردة الأخرى أيضًا. لكنني نشبتُ إصبعين في كل فردة واستبسلتُ في استرداد حذائي، وتطوّحتُ إلى الأمام فيما يخطو للوراء، جرّني الوحش الصغير عبر الميدان.

كشّر.

عضّ يدي.

جأرتُ وتلوّيتُ، لكن هذا لم يفعل سوى خلخلة الشيء الوحيد في جيبي، خابور مُدهّن من جبن مُتعرّق، آخر ما سرقته من طعام. جحظتُ عيناه. أفلتَ الحذاء ووثبَ لانتزاع خابور الجبن. مزّقه بأسنانه. حاولتُ مطاردة إفطاري بحماسة فاترة، لكنه فرّ هاربًا.

نفضتُ الغبار عن ملابس بورييس واستعدتُ زرًا من التراب. كان لوثر قد ترك رائحة الجبن في إثره، وقرقعت بطني. نظرتُ من حولي وقرأتُ العمارة جيدًا: ميدان ميخائيل ليس مكانًا مناسبًا للتسلل خلسةً ما لم يكن المرء مُغمّرًا بالزنازين الإمبراطورية. لهذا استدرتُ عائداً إلى المسرح بسيط الحال. كان شاذًا عن الميدان كجدّة مُتغصّنة الوجه وسط حفلة راقصة باذخة.

شعرتُ بالنبضات الأولى للوقوع في حبّه تخفق في قلبي.

اقتربت. رغم أن الواجهة كانت خاوية، في زاويته كان ينتصب باب مزدوج عالٍ من خشب البلوط، الشيء الوحيد في هذا البناء الذي يبدو أنه يناسب أبهة لقب المسرح الأول لإمبراطورية. طرقتُ على هذا الباب المهيب لكن ضرباتي لم تُحدث سوى صوت مكتوم. لم يتطوَّح الباب مفتوحًا.

أخذتُ في السير لساعة كاملة على طول الجوانب الثلاثة للمسرح. كان هناك القليل جدًّا يُسمع، الإمبراطورية تصطخب ليلاً. من وقت آخر تمرُّ عربة عبر ميدان ميخائيل. يجاهد بغل أمامه عربته المحمَّلة بالشَّمَام. وراء المسرح، عبر بوابة، ملحتُ "ميدان القلعة" الخاوي، وفي كل مرة أمهلُّ لأقرب منها، مُفكِّراً أنني قد أنسلُ عبرها إلى الميدان، كان الحارس هناك يرفع حاجبيه: أودُّ أن تجرَّب. ثم أستدير على عقبي.

لكن في نهاية تلك الساعة، رأيتُ شيئاً غريباً. كان هناك باب معدني مربَّع صغير للغاية في واجهة المسرح، بارتفاع خاصرتي. تطوَّح هذه الباب مُفتحةً بغتً. ظهرت منه ذراعان. ثم تلاهما رأس. امتدَّت الذراعان إلى الأرض، حيث تظاهرتا أنهما قدَمان. في تلك الأثناء، ظهرت القدمان من الباب، وأغلق عَقِبٌ -يشبه راحة يد- الباب بإحكام. ثم استقامت هذه التشكيلة من الأيدي والأقدام إلى وضع إنسان منتصب مُعتدل، وفرتُ بعيداً. كنتُ لأتيقَّن أنه ليس سوى صبي؛ ذلك أنه انتصبَ واقفاً ليس أطول من لوثر الماكر، لكن هذا العفريت كانت له لحية رجولية وكومة من الشَّعر.

فورَ أن غابَ عن نظري، تفحصتُ الباب الصغير، الذي تعرَّفتُ فيه الآن على مَزَلق مهجور للفحم. تحسَّستُه بأظافري. حاولتُ أن أزيحه لأعلى أو لأسفل أو إلى الجانب. لكنني لم أستطع فتحه. داومتُ على فعل هذا لبضع دقائق حتَّى سمعت صيحةً غاضبة.

"هاي أنت! لا تلمس ذلك الباب!"

استدرتُ ورأيتُ أن الرجل الملتحي الضئيل قد عاد. كان هناك شيء يشبه القوارض في هيئته. شعره ولحيته كانا بلون كستنائي، وكذلك ذؤابات الشعر التي تبرز من قميصه المفتوح. كان نحيلًا ومُعْضَلًا. كانت شفتاه مزمومتين دوماً، وعيناه على شكل خرزتين سوداوين، فيما رأسه بالكاد تبين وراء أذنيه. كان يحمل رغيف خبز في يده وقطعة سجق في الأخرى. قطعة السجق سمكة كذراعيه؛ والخبز مستدير كهالة شعره.

"ذلك"، أشار بقطعة السجق، "هو باب الإمبراطورة". نشب أسنانه في اللحم بوحشية. "تريد أن تفقد رأسك؟".

أخبرته أنني لا أريد أن أفقد رأسي، لكنني أحتاج إلى الدخول إلى المسرح. أخبرته أنني تلميذ جايتانو جواداني الجديد. نظر إليّ من أعلى إلى أسفل.

"ليس لديك خصيتان؟".

تورّد وجهي ولم أجب.

"كما تشاء"، قال. ناول الباب ضربة هائلة، وانتثر مفتوحًا. وضع الخبز والسجق في المزلق. ثم، وكأنه ينحني فحسب لالتقاط عملة نحاسية، شقلب نفسه بحيث صارت قدماه فوق خصري بالضبط ويداه على الأرض. انثنت ركبته إلى الخلف واختفت قدماه في المزلق المظلم، حيث أمسكتا بشيء يشبه الدُرَج. ثم، شيئًا فشيئًا، أدخل جذعه إلى داخل التجويف. عندما لم تبق سوى رأسه وذراعيه، لامست كتفه.

"حسنًا"، قلت. "إنه كما قلت".

"هل تألمت عندما قطعوهما؟" سألني.

"نعم"، قلت. "تألمت".

برزت عيناه فيما يستلقي على ظهره هناك في نفقه، وكأنه جُحر. بدت رأسه وكأنها مُثبتة مباشرة في كتفيه، دون الحاجة إلى عنق. وذراعاها مشدودَتَيْن كفروع شجرة. "هل تعرف ماذا كنتُ لأفعل لو حاولَ أحدهم قطع خصيتَيَّ؟".

لم أسأله.

"سأخبر الإمبراطورة، وستشقه".

"ولماذا قد تحميك الإمبراطورة؟" سألتُه.

"إنها ربةٌ عملي. أعمل لحساب الإمبراطورة".

"كيف تبدو؟" سألتُه.

"لديها ستة عشر طفلًا. أسمت البنات جميعًا باسم ماريّا، على اسمها".

أومأْتُ. "هل قابلتها قط؟".

"أراها طوال الوقت. تأتي إلى المسرح".

"هل صافحتها؟".

"لا تكن أبلهً"، قال.

بدأً في الانزلاق أكثر ببطء إلى داخل المزلق. "اسمي ناسو". قال فيما يوشك رأسه على الاختفاء. "تريد بعض الإفطار؟".

أردتُ حقًا.

"فقط تأكد من إدخال قدميكِ أولًا"، صاحَ من موضعٍ ما في الجُحر. كان صوته مكتومًا.

تفكرتُ قليلًا كيف يمكنني أداء هذه الحركات الأكروبايَّة البارة، ثم استسلمت ودلفتُ برأسي أولًا. كان الكهف رَحْبًا بما يكفي لأزحف

داخله مِرفقيّ، وفي البداية لم يكن مائلاً بشدّة، لكن فور أن دخلتُ  
بكامل جسدي إليه، بالكاد استطعتُ منع نفسي من الانزلاق. ثم  
فقدتُ السيطرة تمامًا. فيما أنزلتُ عبر المزلّق المظلم، صرختُ ومددتُ  
يَدَيَّ أمامي. اصطدمتُ بالأرضية وسرعان ما تكوّمتُ على نفسي  
كقطعة سحوق محشورة في جرة. رفعتُ بصري إلى ما وراء ركبتيّ لأرى  
ضوءًا خافتًا وظلّ الرجل الضئيل يهزُّ رأسه بكآبة.  
ارتعبتُ، وتأوّهتُ وتلوّيتُ. "النجدة!" صحت.

"توقّف عن التلوّي!" هتفَ تاسو من أعلى. ربطَ حبلًا حول  
كاحليّ. سمعتُ طقطقة بكرات ثم رفعتني لأعلى من خارج الجُحر،  
بالحبل يُمزّق في جلدي. في النهاية، هويتُ خارجًا من الفتحة إلى أرضية  
ساحة الرقص القديمة.

استلقيتُ في قاعة ذات سقف واطئ بشدّة. كان بمقدور تاسو  
ملامسته بأصابعه بالكاد عندما يقف بذراعيه مرفوعتين. اضطررتُ  
للجثوم في وضع القرفصاء حتى لا يصطدم رأسي بالسقف. هزّ الرجل  
الضئيل إصبعًا في وجهي. "القدمان أولًا في مزلق الفحم"، قال. "دائمًا.  
من حظّك الطيب أنني هنا".

انتصب قائمًا وجلب مقعده المُنمنم، ثم منحني نصف رغيف  
الخبز ونصف ما تبقى من السحوق تقريبًا.  
"كيف تبول؟" سألني فور أن قَبِلتُ عطيته.

أخبرته أن التَّبُول لا يُسبّب لي أيّ مشاكل، وأنني لست مُهتّمًا  
بأيّ أسئلة أخرى من ناحيته. مع ذلك التهمتُ طعامه بشراهة  
فيما أتطلّع في أنحاء كهفه. كانت شمعة وحيدة هي مصدر الضوء  
الوحيد. كان هناك موقد صغير غير مُشعل، وبجواره فراش مُتنقّل  
مُغطّى بالدُّنر بعناية. كان يحتلّ زاوية صغيرة فحسب من المساحة  
الهائلة. وما تبقى منها يمتلئ بظلال مشؤومة، تشبه أدوات تعذيب

في زنزانة. أفقيًا بارتفاع خِصر تاسو، كانت تمتدُّ عارضة خشبية على طول القاعة -من مَزَلق الفحم حتى منتصف قاعة الرقص- كصاري سفينة موضوع أفقيًا. في منتصف العارضة، تبرز رافعة بعجلة من الأوتاد، منها تتطلق حبالٌ، تُلجُّ في بكرات في حواف القاعة، وتختفي عبر السقف. في الطرف البعيد من القاعة كان رأسٌ رحويٌّ بحجم تاسو بمزيدٍ من البكرات ومزيدٍ من الحبال التي تمضي في كل اتجاه. كانت هناك أيضًا ثمانية أجهزة تبدو كمراقد تعذيب من أحجام مختلفة، كل منها بحبال وبكرات كثيرة حولها. تردَّد صدى مَضْغِنَا للطعام في الزوايا المظلمة، وكأننا فئران تختبئ وسط الآلات.

"ما هذا المكان؟" سألتُ تاسو عندما انتهينا من طعامنا.

"انظر بنفسك". انتفض واقفًا وخطا مُتَعَثِّرًا إلى العارضة الرئيسية. سارَ على يديه للحظة، ودسَّ قدمًا في حلقة من الحبال، وجذبها للأسفل. فيما تهبط قدمه وترتفع رأسه، انفتحت بوابة صغيرة (كمبوشة) في السقف فوق أكبر مراقد التعذيب الخشبية. رأيتُ مُربَّعًا من سماء سوداء.

"اجلس"، قال. تسلَّقتُ فوق العارضة وعبر شبكة الحبال وجلست على المرقد، الذي كان يتدلَّى بحرية. أسرعَ تاسو عبر القاعة جاذبًا حبلًا بقوة. راقبتُ الحبل يشتدُّ عبر مجموعة من البكرات. صحتُ فيما المَرَقْد ينتثر لأعلى بغتةً، ثم أظلم كل شيء.

جاهدتُ لأقف في الظلام الحالِك، ملوِّحًا بعماء بيديَّ أمام وجهي لا شيء هنا. طرقتُ بقدمي على الأرضية الخشبية. تردَّد صدى الطريقة في الظلام. سمعتُ أنني في تجويف هائل.

لم أستطع أن أقاوم. غنَّيتُ لحناً مُتسارعًا في الظلام.

\* \* \*



إلى المهندسين: لا تشيّدوا قاعات احتفالات للمستمعين، بحيث يكونوا مُرتاحين، بحيث يمكنهم رؤية خشبة المسرح، بحيث يشعروا بالتبجيل في مقاعدهم. قاعات كهذه ينبغي أن تُحرق وتسوّى بالأرض عقابًا على جُرم الوثنية. المعابد الوحيدة التي ينبغي أن تظل قائمة هي معابد تأليه الأغنية.

في هندسة الأغنية، الزمن هو الاعتبار الجوهري. في تلك المعابد المُشيّدة لأصنام أخرى -نوتردام، سان بطرس، أو حتّى كنيسة شتاوداخ- ربما تُجلجل أغنية في سماءات ذلك الفضاء لعشر ثوانٍ على الأكثر. ربما يمنح هذا الجمهور خوفًا من الرب وحبًا له ولكنيسته، لكن في هذه الثواني العشر، تشيخ الأغنية وتتكدّر، كتفاحة طرية بلا مذاق. على النقيض، عند الغناء في بهو منزلك أو غرفة طعام، تظهر المشكلة المقابلة: تصطدم الأغنية بالحوائط والبُسط وأطباق العشاء سريعًا جدًّا، لحدّ أنها لا تجد وقتًا لتتضج قبل أن تموت.

الآن لنفكّر في القاعة الكبرى، هذه التي تظهر الآن في حكايتنا والتي أراها للمرة الأولى في حياتي. هنا تُحبس دورة حياة الصوت بشكل مثالي بحيث لا يوجد نُضج قبل الآن، ولا موت تراچيدي، ولا شيخوخة؛ صوت يعيش لثلاث ثوانٍ مثالية. ثلاث ثوانٍ من الشباب الزاهي.

هذا المسرح على القلعة ربما يكون قُدس أقداًس معابدنا؛ ذلك أن الشكل الهندسي للعبة الكفّ (Jeu de Paume)<sup>(1)</sup> مثاليٌّ للأغنية. على نحو فريد، شُيّد طابقاه من المقصورات والشُرَافات في الأعلى من الخشب بالكامل، بلا أحجار على الإطلاق، وحتّى مع ستمائة فرد يجلسون داخله، فهو يحاكي الجسد الخشبي الرّثان لآلة موسيقية.

(1) لعبة رياضية ظهرت في زمن الثورة الفرنسية ومنها تطورت لعبة التنس التي نعرفها. كانت تُلعب في ساحة طويلة وضيقة بمقصورات خشبية على جانبيها لجلوس الجمهور. (المترجم)

القاعة في المسرح طويلة وضيقة -ليست مستديرة كما هو الحال في قاعات الأوبرات العظيمة الأخرى-؛ ولهذا فإن الأغنية، مثل كرة لعبة الكف (Jeu de Paume) تتطوّح من أميرة إلى ابنة عمتها، تنتقل على طول القاعة حتّى ترتدّ من الحواف الرقيقة للمقصورات.

لم أدرك أيّاً من هذا حينها؛ لكنني سمعته فحسب. لكن فيما أخطو بحذر قُدماً نحو حافة المسرح، هرّع تاسو ورائي بفتيلة مشتعلة في يده. صعد السلام المغروسة بسرعة مُوقداً مصابيح ألواح الإضاءة الجانبية. بدأ المسرح في التوهّج.

أطلقت الشُرّافات الرنين في أرجاء المسرح على ثلاث جوانب تحت السقف المطليّ بالزخارف مباشرةً. تحتها كان طابقان من مقصورات ضئيلة، كزنازين سجن بحائط واحد مفتوح، كلّ منها يمكن الوصول إليه عبر باب مُفرد. على أرض المسرح، في الخلفية، انتصبت صفوف كثيرة من مقاعد طويلة بلا ظهر، وأمام هذه، صفّان من اثني عشر مقعداً مخمليّاً.

"أين تجلس الإمبراطورة؟" سألته.

"هناك". أشار بإبهامه إلى أكبر المقصورات على يساري. "حتّى يمكنها الدخول من القصر؟".

"ومن يجلس هنا؟" سألت، مُشيراً إلى صفّ المقاعد تحتي على الأرض.

"ذوو الأصوات المزعجة"، أجباني الرجل الضئيل. أمسك بـسُلم يعلوني مرّتين فوق خشبة المسرح. "المستعرضون. نُسمّي هذا الجزء حظيرة الثيران. يتحدثون في هذه المقاعد أعلى من الممثلين على خشبة المسرح".

"وماذا عن تلك النُضد القريبة من السقف؟ هل يمكنك رؤية أي شيء من هناك؟ أشرتُ عاليًا إلى الشُرَافَات البعيدة.

"لا تستطيع رؤية نصف خشبة المسرح"، أجابني تاسو. "يُسَمُّونها الجنة (Le Paradis)؛ ربما لأنها أقرب إلى السماء منها إلى خشبة المسرح".

"لكن لماذا يحبسون الناس في هذه الكبائن الصغيرة؟" قلت. "حتى لا يتحدثوا؟".

نخر. "مقصورات (Loges)"، صَحَّح لي. "وأبوابها ليس لحبس الأغنياء في الداخل؛ بل لمنع الفقراء من الدخول. مُستعد؟".

"مُستعدٌ لماذا؟" سألت، واستدرتُ فيما الضوء يخبو من الذهبي إلى الأحمر.

\* \* \*

وجدتُ نفسي في جحيم متأجِّج. كان كهفًا جحيميًّا. السنة نار متجمَّدة. أعمدة من حجارة مُغضَّنة. نفق يؤدي إلى فتحة ساطعة ما، بعيدة بُعد النجوم.

ظهرَ رأس تاسو عبر واحدة من الكمبوشات، سنجابٌ يُطلُّ من جحره. رفعت بصري إلى المصابيح الحمراء. "زجاج مصبوغ"، فسَّر. "مُستعد لما هو قادم؟" سأل. اختفى رأسه قبل أن أومئ بالموافقة.

سمعتُ طقطقة خطواته وأنين العارضة تحت قدميَّ. بغتة -سريعًا بما يكفي للسهو عنه لو كنتُ رَمَشْتُ- غادرنا الكهف الموحش إلى حقول جنة عدن. كانت الأشجار تنحني على نَبْع. أغواني حقلٌ من العشب الناعم بالنوم. فور أن شرعَ جواداني بالغناء، ملأ الأمل قلبي. في مكانٍ كهذا سنكون أنا وأماليا معًا ذات يوم.

برزَ رأس تاسو من تجويفٍ آخر. "تري؟" كان كل ما قاله.

"فعلت كل هذا؟" سألت، مشيراً إلى ستارة المسرح الخلفية.  
"أوه!" قال. "احتاج الأمر جيشاً لإقامته. نسبوا الفضل لكواليو. لا أحد يذكر تاسو. يجذب الحبال فحسب".  
"ما هو شعور أن تشاهد أوبرا؟" سألته.  
"لا أعرف"، قال. "لا أرى شيئاً من هنا في الأسفل".  
"ألم تشاهد أوبرا من قبل قط؟".  
هز رأسه. "لا أكثر".  
"لا تكثر!" قلت. "يوماً ما سأغني أمامك عن الحب. وحينها ستغير رأيك".  
طرف بعينه. "الحب؟" قال.  
"نعم"، قلت، بأكبر ما في مقدوري من زهو. "الحب".  
نخر. "لدي طرق أفضل لقتل الوقت". ثم اختفى في أخدوده.



## (6)

في التاسعة، وصلَ ثلاثة عُمَّال مسرح ذوو وجوه كالحة. بعد ذلك، لم يغادر تاسو كهفه قطُّ. أطلَّ برأسه من كمبوشة وصاح، "شخِّموا كل ثلثي وكان الإمبراطورة ستأتي. دوراتسو سيكون في غضون ثلاثة ساعات مع المايسترو! أقل صرير وسيطالب برؤوسكم!" انسلَّ الرجال الثلاثة خلصةً في كتلة واحدة، وكأنهم مُقَيَّدون معًا بأغلالٍ في كواحلهم. في الحادية عشرة، ظهرت فرقة المسرح الألمانية. أجزوا بروفات لساعة، وطوال عشرين دقيقة سُمِّح لي بالجلوس في "حظيرة الثيران" ومشاهدتهم، لكن المشاهد أصابتني بنوبات شديدة من الضحك الدامع لدرجة أن المخرج العابس هتفَ بغتةً، "أخرج ولا تُعد حتَّى تستطيع احتواء ضجيجك".

في الثانية عشرة اقتحمت الفرقة الفرنسية المسرح، مقاطعةً البروفة بأصواتها العالية. بدا تمثيلهم مُملاً في نظري، وأتوقَّع أنني كنتُ لأجده كذلك حتَّى لو فهمتُ الفرنسية. في الواحدة، استولت فرقة باليه

أنجيولينى على خشبة المسرح، كانت رائعة بلمحات خاطفة، ووددت لو بقيتُ أشاهدهم للأبد لولا أن أنجيولينى كان يُوقف راقصيه بين كل خطوة وأخرى ليُطلق فيهم السباب بإيظاليته المبهجة.

لا أثر لتاسو، لكن عندما هتفوا، «أضواء!» ارتفع مصعد أضواء المسرح كالشمس على الممثلين. «ستارة!»- وانغلقت الستارة كما لو بفعل السحر. لم أر وجه صديقي الجديد ثانيةً حتى وصل رجال مسرح فيينا العظماء في الثالثة، ولاخ رأس تاسو من كمبوشة في أرضية المسرح للإيماء إلى سادته، الذين تعرّفُ عليهم من الأمسية السابقة. ثم اختفى تاسو، ولم أعُد أسمع سوى الأسطر شديدة الخفوت من تحت خشبة المسرح، فيما دوراتسو وجلوك وكالزابيجي يومنون ويفركون ذقونهم عندما يصرخ كواليو، «حسناً، والآن امنحونا اليونان». «الكهوف، الكهوف! الحقول! أسرع يا رجل. لا تجعل هؤلاء الرجال المنتظرونك كثيرًا!». تبدّلت المشاهد بسلاسة، بلا صرير. تأمّل هؤلاء الرجال المهّمون في كل مظهر خلفي بتقطيعة؛ بأباهيمهم تضغط على حُرّ أبيض في ذقونهم. وجدّ كلّ منهم تفصيلاً أثارت استياءه. وعدهم كواليو بإحداث تغييرات.

أخيراً، في الرابعة، وصل جواداني. هيبّث واقفاً لتحيتته، لكنه خطأ متجاوزني أنا والرجال الآخرين؛ لم ير سوى خشبة المسرح.

"نعم"، غمغم، عندما رفع تاسو المصابيح الحمراء فوق الكهوف. "هممم. نعم". ثم أغلق عينيه وراقبنا جميعاً فيما يتطوّح جيئةً وذهاباً في الممر الأوسط، وكأنه يستدعي في عقله رؤيا لمستقبل هذه الأوبرا. فتحَ عينيه وأوماً، وأجابه الرجال الآخرون بإيماءة. ثم ارتقى خشبة المسرح وخطا في عدة دوائر. لوّح بيده على لحنٍ في رأسه، وطنطنَ الرجال الأربعة العجائز في رضا. "الآن امنحني الحقول"، أمر جواداني الهواء. سمعتُ تاسو يهرع بأسرع ما يستطيع تحت خشبة

المسرح. سَقَطَ الستار الخلفي، انزلت الأُطر الجانبية الجديدة في موضعها، تحوَّلَ الوهج المتَّقَد إلى شمس الغروب. استدار جواداني ببطء، ثم هزَّ رأسه. "لا"، قال. "لا".

"ما المشكلة؟" سأله كواليو، كخادم مطيع لأمره.

"(إنها) المشكلة"، قال جواداني. لوَّحَ بيده واستدار مُبتعدًا عن الرسومات البديعة، وكأنه لا يطبق النظر إليها.

"كيف ذلك؟" توسَّلَ كواليو، فيما يخطو تجاه خشبة المسرح، لكن جواداني نزلَ بسرعة وتخطَّى كواليو في الممر الأوسط. نادى رَسَام المشاهد في إثر المُغَنِّي، "ما هي المشكلة بالضبط؟".

توقَّف جواداني، لكنه لم يستدر. هزَّ رأسه. "أنا أغني"، قال بهدوء. تطلَّع من فوق كتفه في اتجاه كواليو دون أن ينظر إليه على الأخص. "وأنت ترسم".

خطا جواداني ناحية المخرج. نادى جلوك في إثره، "لكن لا تريد أن ترى الرسومات الأخرى... اليونان، المعبد؟".

تابع جواداني. "ليس اليوم"، أعلنَ بشكل قاطع. "ليس اليوم".

"لكن متى؟"، ازداد صوت جلوك يأسًا. "الوقت اللازم للتغييرات ينفد بسرعة!".

لكن لم يَبْدُ أن جواداني قد سمع السؤال. اتَّجه إلى بهو المدخل. خرجتُ من الظلال وخطوتُ لأسير جانبه. "ألن تغني؟" سألته. لم يتوقَّف مع ذلك؛ ولهذا اضطررتُ للتراجع مُتعرِّجًا لتجنَّب الاصطدام به، لكنني اصطدمتُ بالمقاعد ثم ارتطمتُ بالباب. للحظةٍ انهصرَ فيها قلبي، خشيتُ أن عرضه في الليلة الفائتة لم يكن سوى دعاية قاسية.

حملتُ جواداني في وجهي، مُنزِعًا من المقاطعة. "آها!" قال أخيرًا، وأطفأتُ ابتسامته المفاجئة مخاوفي. "موزيكا(نا) السويسري!" أمسك



بذراعي وجذبني برفق بعيداً عن الباب حتّى يستطيع فتحه. "أغني؟ الليلة؟" تنشق. "لا، ليس الليلة. ليس غداً. ليس الأسبوع القادم. أواخر سبتمبر ربما. ربما ليس قبل أكتوبر". أشار بمكر إلى الرجال خلفه الذين ما زالوا يحدّقون فاغري الأفواه في اتجاهه. "درسي الأول لك: أبداً لا تمنحهم كل ما يريدون وإلا سيلتهمونك وكأنك فطيرة زلابيا (Knödel). أبداً لا تجعلهم يظنّون أنهم رؤّضوك يا شقيقي (mio fratello). أبداً". جذبني برفق إلى ردهة الدخول الصغيرة وقرصني في ذراعي. "كلب الصيد الشجاع، فور أن يُجرّح، يستلقي بهدوء في الزاوية. للأسف (Purtroppo)، هذا ما صار إليه كثيرٌ منّا: ندغدغ أميرة قبل العشاء بغنائنا حتّى نجعلها تحتسي النبيذ؛ ندغدغها بعد العشاء بأصابعنا حتّى نتشارك فراشها من الريش".

هزّ جواداني رأسه ورفع إصبعاً أمام وجهي. "أنا مختلف. عندما تطلب مني دوقاً أن أغني لها، أخبرها أن لا وقت لديّ. عندما يطلب ذلك أمير، أنا مريض. هذا جزء من عملية الصيد. ولمن لا يستطيع القتل، يصبح الصيد كلّ شيء. تعال".

قادني إلى المخرج. عبر الباب السميّك كان بمقدوري تبيّن أصوات حشدٍ جائع: أصابع تكشط في الخشب، نساء يتداخلن في بعضهنّ البعض، أصوات تنادي، "جايتانو، أوه، جايتانو!" وقف أربعة جنود من حرس الإمبراطورية جاهزين لحمايتنا من الغوغاء.

"دعهم يلمسونك"، نصحني جواداني. "لكن أبداً لا تدعهم يمسونك". أوماً، فانفتح الباب.

لم يكن الرجال والنساء الذي ينتظرون في الخارج من الفلاحين الذي كنتُ تشاركُ معهم فراشي على رصيف الميناء. كانت النساء يرتدين أزياءً بديعة. بذهبٍ ومجوهرات فخيمة تسطع على أعناقهن. وراء

الحشد كان يقف صفً من العربات التي كانت تطلُّ منها سيدات الطبقة الأعلى عبر ستائر من الدانتلا.

خطا جواداني إلى وسطهم. أحاطَ بنا الجنود ودفعوا الحشد بعيدًا بما يكفي فحسب حتَّى تتمكَّن الأيادي الممدودة عن آخرها من مَسِّ الموزيكو العظيم برفق. بدا جُواداني وكأنه يرى كل يدٍ -حتى تلك التي وراءه- ويُمسِّد كل يد. تناول بعض الأصابع بين أصابعه لوهلة. لكن لم تحاول أيُّ يد الإمساك به -أو امتلاكه- أيُّ من هذه لم تجد مُستقرًّا لها. ألقت قبضات مضمومة بقصاصات أوراق، بأشعار حُبٍّ مخربشة على كلٍ منها.

قرصتني أصابع.

نتفَّت شعري.

مزَّقوا ملابسني حتَّى يعتصروا مَزَقَات معطف بوريس على شفاههم؛ فقط لأنني كنتُ أخطو بجانب الطواشي العظيم. أفواهٌ جائعة بدت وكأنها تكتم ألسنةً هائجة فيما يمدُّون أيديهم إلينا كفلاحين يندفعون طلبًا للخبز وسط مجاعة. معظم الوجوه كانت لنساء، لكن بين لحظةٍ وأخرى كان رجلٌ يناضل بين الحشد؛ كان بعضهم يرتدي أقنعة احتفالية لإخفاء وجوههم. عرضَ رجلٌ من المُقتنعين خاتمًا من الياقوت. قبَّل جواداني الجوهرة ووضعها في جيبه. كانت السيدات يصرخن بصوتٍ حادٍّ فيما الآخرون يدفعونهن إلى الخلف. مدامٌ متكالبة تجذب شعرَ أخرى. محاور عربات تَصُرُّ فيما قوافل من الشقيقات يتقاطرن خارجاتٍ من أبوابها.

اختارَ جواداني عربةً واحدةً من المععمة. وراء الباب، أرسلت له امرأةً إشارةً تخلو من إلحاح الأخريات، وكأنها تنادي نادلاً فحسب. انحنى جواداني وقبَّل يدها. لم تبدُ حتَّى أنها شعرت بلمسته، لكنها تطلَّعت إلى ما وراء رأسه المنحني لكل هؤلاء المُتعبدين الذي

يحسدونها على امتيازها. كانت امرأة جميلة؛ رداؤها من حرير أخضر  
أملس، حليتها تلتصق على عنقها، بلا أي جزء في وجهها يشي بنقيصة  
واحدة، لكن جلدها الأبيض منحنى الانطباع أنه بارد، وتيقنت أن  
لمسة واحدة من أصابعها على عنقي ستبعث القشعريرة في أوصالي.  
لم تكن شائبة، لكن وجهها وجبينها الأملس، عديمي التعابير، جعلها  
دائمة الشباب.

"ستأتين وتسمعين غنائي لأورفيوس الجديد؟" سألها جواداني.

"بالطبع"، أجابته المرأة. "مقصورتنا تمتلئ دائما عندما يغني  
جواداني".

انحني مجدداً.

"من هذا؟" سألت وتطلعت إلي. دفع الخراس الحشد بعيداً، لكن  
فتاة جائعة كانت ما تزال تجذب في قميصي المرتخي.

"هذا، سيدتي الكونتيسة"، أجابها جواداني، وكأنه يكشف النقاب  
عن كنز، "هذا تلميذي الجديد".

هل كانت تلك غمزة من معلّمي إلى تلك المرأة؟ لم أحب  
ابتهامتها. استدار جواداني إلي. "يُشرفني أن أقدم الكونتيسة ريشر،  
أكثر نساء فيينا سحراً".

كنتُ بدأت في الانحناء، لكن رأسي انتثر لأعلى عندما سمعتُ الاسم.  
تأملتُ في وجهها. بدت عيناها الخضراوان الباردتان وكأنهما تقبضان  
على تحديقتي داخلهما.

"أمل أنه يغني أفضل من تلميذك السابق"، قالت بابتسامة  
عريضة.

أنصتُ إلى ظلام عربتها. هل كانت هناك أنفاس؟

منحها جواداني نظرةً وهزُّ كتفيه استهانةً. "لا يتحدث الإيطالية  
".Non parla italiano".

هزَّت الكونتيسة رأسها ومنحت جواداني نظرةً مُستاءة.

"إذن"، قالت لي بالألمانية، "كيف تشعر وأنت لديك مُعلِّم مشهور؟".

هل ابنها لديه هاتان العينان الخضراوان أيضًا؟ وهاتان اليدان  
المضمومتان أمامها- هل لامَسَت محبوبتي اليوم؟

"هل يتحدث أيُّ لغة؟" سألت جواداني.

"يبدو أنه مفتونٌ بجمالك، سيدتي الكونتيسة".

هزَّت رأسها ومنحتني ابتسامةً مُبتهجةً. استدارت مُجدِّداً إلى  
جواداني. "لا بُدَّ أن أسمعك تُغني"، قالت. "سأقيم حفلةً صغيرةً".

"أنا مشغول بشدَّة، سيدتي".

"بعد ثلاثة أسابيع"، قالت. ثم ناولت جواداني قصاصة من الورق.  
فضَّها، ورأيتُ أنها لم تكن تحوي سوى رقم. فكَّرتُ أنني لمحتُ ومضة  
اندھاش تعبر وجه المُغني.

"معظم الناس يكتبون إليَّ بقصائد حب"، قال، "للتلُّف إليَّ".

هزَّت كتفها استهانةً. "لكن هذه شهادةٌ على مشاعري إذن، تلك  
التي تسري عميقاً جداً". تحدَّثت بلا انفعال.

"سأفكر في الأمر"، قال جواداني. وضعَ قصاصة الورق في جيبه.  
مدَّت يدها إلى جواداني لتقبيلها مُجدِّداً. أبقى عينيه على عينيها فيما  
ينحني للأمام.

ابتسَمَت إليَّ مُجدِّداً؛ ومَضَّ لسانُ عبر شفتيها الرقيقتين. "بالطبع،  
إذا حضرتَ، اصطَحِبْ معك تلميذك الساحر". ثم تراجعت واختفت  
داخل عربتها، وفيما تبتعد، ابتلعنا الحشد مُجدِّداً. هذه المرَّة، كنتُ

في غاية الذهول على أن أتحاشى الأيادي. تمزَّق قميصي من تحت معطفي فيما أنصتُ إلى كل صوتٍ من أصوات كبيرة آل ريشر: تكتكة باب العربة المُغلق، توجيهاتها المُقتضبة لسائقها، فرقة السوط، طقطقة العجلات على أحجار الشارع.

راقبها جواداني فيما ترحل. "إنها شنيعة"، قال بهدوء، فيما يدفع بخشونة الأيادي من حولنا. "لكنها ثرية جدًّا، في غاية الثراء. أعتقد أنني لا بُدَّ أن أبارك حفلتها بصوتي".

\* \* \*

كان أكثر ما شغلَ بال جواداني عند مغادرة مسرح بيرج هو أن ارتدي ملابس تليق بتلميذ للطواشي العظيم. فضَّل لي خيَّاطه الإيطالي عدَّة معاطف ملساء، طويلة، مُوشَّاة، تتماشى مع زيِّ الطواشي. في المرأة، تأمَّلتُ نفسي فيما الخياط يعمل بالخياط الذهبية- سرعان ما تراقصت القروود على صدري.

"مُتقن"، قال جواداني عندما تزَيَّنتُ كما ينبغي بالذهبيِّ والمخملي، بحذاء مُستدق. "بديع".

في نفس تلك الأمسية الأولى، فيما نمضي في عربتنا عائدين إلى منزله الباذخ، الذي كان بمثابة بيتي أنا أيضًا في فيينا. سألته متى سيبدأ في تعليمي الإيطالية حتَّى أستطيع غناء أوبراته. كتمَّ ضحكةً وأشاح بنظره إلى خارج العربة. "كُن صبورًا"، قال. "كُن صبورًا. سيكون عليك تعلُّم الكثير. الغناء سيأتي لاحقًا. ترى، قبل أن يسمحوا لك بالصعود على خشبات مسارحهم، قبل أن ينصتوا إلى غنائك حتَّى، لا بُدَّ أن يؤمنوا بك". تفحَّصني بتمعُّن، من رأسي إلى قدمي، وبهذه الكلمة الأخيرة، تماوج منخراه. "عليك أن تكون موزيكو قبل أن تتمكَّن من الغناء كموزيكو".

وصلنا إلى منزله.

"لكنني كذلك"، همستُ بخجل، "أنا موزيكو".

"لا"، قال بقسوة، وطقطق بلسانه. "أنت طواشي". تحدّثني  
تحديقته على أن أشكّك في هذه الحقيقة. فتح بوريس الباب للعربة.  
"وأنا موزيكو".

"إذا علّمتني الإيطالية ربما يكون بمقدوري...".

رفع إصبعًا لمقاطعتي. "سأعلّمك ما يجب أن تعرفه"، قال، ثم  
تقدّم وأنا في إثره إلى منزله.

\* \* \*

كنتُ ظلّه. تمامًا كما لم يكن يذهب قطّ إلى أيّ مكان دون ملابسه  
الأنيقة، وعربته الفخيمة، والابتسامة المتكلفة المُبتهجة على وجهه، لم  
يكن يخطو إلى أيّ مكان بدوني أسير في أعقابهِ، كتلك الكلاب (chiens)  
منفوشة الوبر التي تسحبها السيدات الفرنسيات وراءهن بالرّسن.

طوال أسبوعين لم يؤدّ أيّ غناء، وكان درسه الوحيد لي أنه أعظم  
مخلوق على هذه الأرض. كنتُ في منزله، أتناول العشاء معه، أتبعه في  
أنحاء فيينا متى أحبّ؛ يرسلني بعيدًا عندما يتطلّب صيده الحميمة  
والخصوصية. أحمل معطفه عندما يكون الجو دافئًا، أفتح الأبواب  
حين لا يتوفّر بواب. أدلف إلى الحفلات الساهرة عند مرفقه، حتّى  
تُفرّقنا حشود المُعجبين.

في حفلتنا الساهرة الأولى، بعد أن أزاخني المُعجبون إلى زاوية مُقفرة،  
ظهرَ بغتةً مُمسكًا بذراعِي شقيقتين؛ ابنتين حمقاوين لدوقٍ ما. بدا  
أنفاهما التوأم الخشنان وكأنهما يتهدّلان فيما يُمرّهما إليّ، لكن فور  
أن اختفى مُجدّدًا في الزحام، استدارتا إليّ بابتسامتين مُتطابقتين وقالتا،  
اجعلنا ملكك.

"ما اسمك؟" قالت الفتاة الأقل بشاعةً  
بقدر طفيف من شقيقتها.

ضيقْتُ عَيْنِيَّ تجاهها، ساعيًا أن تُشرِّحَ أذناي هذا السؤال البسيط  
الذي قد يكون مفتاحَ هروبي. لكن هذا كان بلا فائدة.

"آها"، جرَّبت. "هممم". تضاحكت الشقيقتان والتصقتا بصدري  
بدفءٍ أكبر. حاولتُ التراجع، لكن سرعان ما وجدتُ نفسي مُثَبَّتًا على  
الجدار. ملحتُ سيدي في الحشد. غمزَ لي.

أغلقْتُ عَيْنِيَّ وتظاهرت أنني جرسٌ يتدلَّى بصمتٍ في الزاوية.  
عندما فتحت عَيْنِيَّ مُجَدَّدًا، كانت الحفلة الساهرة قد فَرَّغَتْ بالكاد  
ووجدت الشقيقتان فريسةً أخرى أكثر انصياعًا.

\* \* \*

ولا لثانية واحدة غابَ هدي عن ناظري. عبر مُعلَّمي الجديد  
كنت سأجد فرصة للدخول إلى سجن أماليا(تي)، لكن ثلاثة أسابيع  
بدت كانتظارٍ أبديٍّ؛ لهذا لم أتخلَّ عن فكرة النجاح بطرقٍ أخرى. في  
الصباح، عندما ينام جواداني أو يرسلني بعيدًا، كنتُ أتسكَّع في الشارع  
المواجه لقصر ريشر، على أمل أن أراها بشكلٍ خاطف في واحدة من  
العربات التي تغادر البوابة. تخيلتُ الركض بجوارها فيما أغني رسالةً  
سرَّية. "أوقفوا العربة!" ستصيح هي، ثم تهبط وتعانقني في الشارع،  
ثم يهْلُل كل بائس مسكين آخر في قيينا لاتحادنا مُجَدَّدًا.

وا أسفاه، لم يكن هذا ليحدث أبدًا. كانت ستائر العربات مُسدلة  
دائمًا، وأبدًا لم تُطلَّ عينا زرقاوان متألِّقتان من بينها. أحيانًا في الليل  
كنتُ أتسلَّل إلى القصر وأنفخُص الواجهة الخارجية لإيجاد طريقة  
جديدة ما للدخول خلسةً. لكنني وجدتها محكمة الإغلاق أفضل من  
أي منزل في سانت غال. ذات ليلة حاولتُ تسلُّق الحوائط لمعرفة ما

إذا كان من الممكن اقتحام نافذة علوية ما. عندما وصلتُ إلى ضعف طولي من عن الأرض خذلتني أصابعي. في الصباح ازرقُّ كاحلي وتورم. كل يوم، في الظهيرة، لساعتين مُباركتين، كان سيدي يُغني. كان يتمرن في الأغلب على مسرحية أورفيوس الجديدة التي كتبها جلوك، مُكرِّراً الألحان والإلقاءات المُنغممة مرّة تلو الأخرى حتّى يصل إلى تلك الدقة التي اشتهر بها. أحياناً ما كان يختار ألحان آريا أخرى (من مقطوعات هاندل غالباً) يرغب في إيقائها مشحودةً حتّى يجدها عندما يحتاج إلى سلاح في صيده. كنتُ أستلقي على أريكتي وأنصت لتشكيله الموسيقي الاستثنائي يتردّد عبر المنزل. أستظهر الموسيقى فيما بوريس المطيع يجلب لي الشاي والكعك. "نعم يا سيدي"، يقول عندما أطلب كأساً أخرى. و"لا يا سيدي"، عندما أطلب منه الجلوس واحتساء الشاي معي. في بضعة أيام فحسب، تحوّلتُ من فلاح بائس أدنى منه بكثير إلى سيدٍ ثانٍ يعلوه بمسافات. الرّفقة، تقول كل نظرة عابرة من وجهه، هذا ما لن نجده معاً أبداً.

مَسَّنِي غناء جواداني في أعماقي، لكن سرعان ما استحوذت عليّ الألحان في الشكل الذي كان ينبغي أن تتخذه -أو كان لها أن تتخذه- لو غنيتهُ أنا. أدركتُ أدناي المُدرّبتان نقائص جواداني، والتي كانت كثيرة في الحقيقة؛ ولهذا كان ما وصل إلى سمعي في النهاية خليطاً ضبابي من أغنيته والأغنية التي في خيالي. كنتُ لأغنيها بنفسي، ربما كنتُ لأتهوّر بما يكفي لأثبت لجواداني أنني قادر على الغناء، لكن مع اقتناص أدنيّ للأصوات، كان انتقالها إلى شفّتي ولساني سيستغرق وقتاً. كان عليّ أن أتعلّم الإيطالية، أن أقرأها بحيثُ أسطيع إدراك أشكالها ومعانيها. لكن مُعلّمي يحول بيني وبين ذلك. عليّ أن أجد مُعلّماً آخر.

ثم وجدته ذات يوم: ذئبٌ عابسٌ، محصورٌ في زاوية.





## (7)

كنتُ أسير في قلب المدينة، ضائعًا في تلك الشوارع التي تشبه المتاهة، بعدما ترصدتُ خارج قصر ريشر حتَّى الظهيرة، وقررتُ تجربة مسار أكثر مباشرةً إلى المنزل. كنتُ تائهاً الآن، وبالتأكيد فوّتُ موعدِي مع سيدي، لتناول العشاء مع أميرةٍ وشقيقتها. بحثتُ عن علامةٍ مألوفة، أو حتَّى لوثر مُتخابث، لكن الشارع كان خاويًا، أو خاويًا تقريبًا؛ ذلك أن رجلًا واحدًا كان ينتظر عند مدخل منزل بكتابٍ قريبٍ من وجهه. لم أتمكن من رؤية شيء من جلده سوى يديه المُشعرتين. كان يرتدي ملابس مُهندمة، لولا أنها كانت مُتغضنة حول فخذيه وكأنها شوال مشدود على خصره. لم ألقِ له بالًا، حتَّى مررتُ به، وحينها أبدى سعلةً مُنظفةً للحلق واجترع الهواء كأنه سائل.

ذلك الصوت!

ملأني بهجة، وكأنه الشمس تخترق السحب في شتاء بارد. انتزعتُ الكتاب عن وجهه ووثبتُ ناحيته. ظنُّ أنني قاطع طريق وحاول ضربي. لكنني ثبتُّه في مكانه.

"رموس!" هتفت. "هذا أنت حقًا!"

كان صديقي! تلك التقطية البشعة! ذلك الشعر المُشعث! ذلك الأنف المعوج! ناديتُ اسمه ثانيةً في بهجة. ذلك الاسم، الذي لم يخاطبه به قطُّ سوى شخصين فحسب، كان كالتعويذة. ذابت التقطية. صار ذلك الوجه، الذي لم يكن قطُّ سعيدًا وحزينًا؛ سعيدًا وحزينًا في آنٍ. ضغطَ بوجهه في يافتي، وانتحبتُ في شعره الملبَّد وكأنني أستقي دموعي من بحيرة.

"موسى! أنت هنا!"

"وأنت كذلك!" قلت. "في فيينا!"

"رفضوا استقبالنا في ميلك. لا بُدَّ أن شتاوداخ قد أرسل بخطاب. حاولنا أن نرسل بخطابات إليك، لكن أخشى أنها اعترضت." "لقد اعترضت." قلت.

"حمدًا للرَّب أنني وجدتك الآن! العالم شاسع جدًّا."

"هناك الكثير لأحكيه لك!" قلت.

"انظر إلى ملابسك"، هتفت، دافعًا إياي حتَّى يتمكن من إلقاء نظرة على معطفي الموشى، ثم عانقني بقوةً مُجدِّدًا. تقدَّم في العمر - بشعره الرمادي، لم يكن هناك شكُّ في ذلك - لكنني كنتُ على ثقة أنه لم يبدُ بخير هكذا قطُّ. لوهلة تخضَّب وجهه.

"وبيكولاي! أين نيكولاي؟" تطلَّعت من حولي أملًا، وكأنني أتوقَّع أن يظهر بعنَّة من أحد الأبواب مُنشدًا أغنية راقصة مَرحة.

تصلبت ابتسامة رموس. أوما بتجهّم. "إنه هنا"، قال.

أجفلتني نبرته. "رموس، ما الأمر؟".

أجال رموس بصره عبر الشارع، كان رموس العجوز، الذي لم يكن لينظر في عيني، قد عاد. "نيكولاي تغيّر كثيراً. إنه مريض".

"مريض"، قلتُ، عاجزاً عن تصديق أن الدبّ قد يصاب بأيّ مرض. "لكن هل سيتحسّن قريباً؟".

هزّ رأسه وأشاح بنظره. استغرق في الصمت.

"أخبرني يا رموس. أنا صديقه".

أوماً. "أعِدْكَ بأن أخبرك بكل شيء. لكن أولاً، من الأفضل أن تراه. احكم بنفس. رؤيتك سترفع من معنوياته حقاً".

"إذن فلم ينسني؟".

"ينساك؟" ضحك رموس، ضحكة قاسية وحزينة للغاية - لم أتذكّر أنني سمعته يضحك قطّ - لحدّ أنها أجفلتني. وضع يداً على ذراعي، وأدارني إلى الشارع. "لا، لم ينسك. تعال، أنا في انتظار تلميذي ليفتح الباب، لكنه كان يشرب طوال الليل ولن يستيقظ ليتعلّم درس اللاتينية. لن يخبر أباه، وبالتالي سيدفعون لي أجري. لا أحد يخسر، باستثناء القديس أوغسطين".

كانت الأعوام الخمسة هذه قد غيّرت رموس. كانت خطواته سريعة، ولم يتردّد فيما يقودني يساراً ويميناً عبر الشوارع الحلزونية. "هذا مملوك للأمير لاينبيرج"، قال، مُشيراً لقصرٍ ذي نوافذ مُعبّرة. "وذلك المسخ الهائل"، هزّ رأسه تجاه قصر جديد بأحصنة رخامية تنتصب خارجة من كل زاوية، "مملوك للكونت كيرسكي. وذلك، للأمير بارهايني؛ وذلك، للكونت فون بام".

"كيف يمكن أن يوجد أمراء وكونتات كثيرون هكذا في مدينة واحدة فحسب؟" سألته.

ضحك. "لا، يا موسى. ليست مدينة واحدة. بل إمبراطورية واحدة. وحتى مع هذا فهناك الكثير جداً منهم. البعض يحكم أراضي بعيدة؛ البعض لا يفعل سوى زيارة فيينا من وقت لآخر. آخرون لا يستطيعون إيجاد ضيعاتهم على خريطة. وآخرون لا يملكون أراضي على الإطلاق، بل مجرد لقب. الناس على استعداد لفعل الكثير لينالوا لقب "كونت". وهكذا، عندما تحتاج الإمبراطورة إلى أموال من أجل حروبها، تغصُّ هذه المدينة بالنبل."

قادني عبر الميادين الخضراء للمرة الأولى منذ وصولي إلى المدينة. تركنا القصور الحجرية لقلب المدينة وراءنا متجهين إلى منازل ضواحي المدينة نصف الخشبية. هنا كانت الشوارع أضيق؛ والأصوات البشرية أقل رُقياً: الأطفال تراكض بلا أحذية فيما أمهاتهم يُعَنِّفْنَهُمْ من نوافذ مفتوحة؛ رجال ييصقون في الشارع بدلاً من المِصْقَةِ؛ الأبقار ترتع في أكوام المخلّفات في الشارع بدلاً من ربطها في حظيرة.

ثم وصلنا إلى جزء من المدينة كان بمقدوري التعرف عليه بأصواته المخزية: إلحاحات الغانيات من أبواب ونوافذ الحانات المتهالكة التي تصطفُ على طول الشارع الرئيسي في الحي. رأي رموس أحدق في دهبول في كل سيدة مُلوَّحة. "مرحباً في سبتيلبيرج"، قال. "موطننا للثلاثة أعوام الفائتة. في الحقيقة، لا يوجد مكان أفضل لنا؛ ذلك أنه لا يوجد مكان أكثر بُعداً عن دير شتاوداخ." لَوَّح بيده إلى الشارع كدليل على ما يقوله. كانت النسوة يلقين بأسطال الماء القذر في طريقنا مباشرة. والرجال يدفعون بعربات يد مُحمَّلة بشمار كُرنب حامضة الرائحة. إلى ذلك كله، كانت الشوارع تغصُّ بالأطفال؛ يفيضون من المنازل، يصرخون من النوافذ المفتوحة، ينغزون العصيان في الفضلات المُتَعَفِّنة

على طول الشارع. في دفء أواخر الصيف، قليلون كانوا يرتدون القمصان ولا أحد يرتدي أحذيةً. فتاة صغيرة تجلس فوق أخرى وتدغدغها؛ شقيقتها الصغرى لا بُدَّ؛ ذلك أن كليهما كانتا بشعرٍ مُحَمَّرٌ متوهَّج. أربعة صبيان يقفون على ركام حانة مُهْدَمَة ويتصايحون بقواعد لعبة لم أفهمها. "تمَّ اختياره"، صاح أحدهم. "ثلاثة أحجار! ثلاثة".

لامَسَتْ يد ريموس مرفقي، ليعيدني إليه. "لم يكن الأمر هكذا دائماً. قبل مائة عام، كان التُّجَّار من الجنوب والشرق يتوقَّفون هنا عندما يزورون المدينة الإمبراطورية. هذا الشارع الموحد كان مرصوفاً بالحجارة. هذه الحانات الرمادية الكابية كانت زاهية وبراقة. كانت العربات تتزاحم في كل فناء. لكن الجيش التركي حاصر هذه المنطقة، لثمانية أشهر في عام 1683. استولوا على كل شيء ذي قيمة، ودمَّروا كل ما ليس له قيمة". أوما ريموس إلى حانة مهجورة. لم يتبقَّ منها شيء سوى الواجهة الباهتة. على الجانب الآخر من النوافذ الخاوية كانت بضعة صبيان مُغْبَرِّين يسحقون الركام إلى تراب. "ابقَ بعيداً عن الأزقة في الليل"، تابع ريموس. "وإذا كنتَ تحمل أَيْةً نقد، راقِبْ جيوبك".

وصلنا إلى عدَّة أزقةٍ تؤدِّي صعوداً إلى تلٍّ، وفي زاوية واحدٍ منها توقَّفنا أمام منزلٍ من طابقين. كان في حال أفضل من كثيرٍ من المنازل في الحيِّ، رغم أنه يميل إلى الجانب قليلاً. كان الطابق الأرضي يشبه حانة صغيرة، بكلمة واحدة مكتوبة على الباب: *Kaffee*.

"هنا"، قال ريموس. كانت القاعة الوحيدة مزدحمة برجالٍ على مقاعد طويلة. جميعهم يحتسي نفس السائل المُتَبَخَّر، ذي الرائحة اللاذعة، الفظة. بدا وأنه شراب مُتَخَمَّر سحري؛ ذلك أنهم كانوا جميعاً أسرى لنفس الحيوية مُتَّسعة الأعين. كانوا يخطون على المناضد

ويبصقون بأحاديث ذاتية مُلحّة في آذان بعضهم البعض. في الخلفية من كل هذا، كان رجل بشعرٍ كشعر الغريبان يلعب دور المشعوذ؛ يطحن حبوب فاصوليا، سوداء كالموت، إلى مسحوق ناعم قبل خلطها مع ماء مغلي من سيماور.

تَبِعْتُ ريموس إلى دَرَجٍ في الخلفية. توقّف صديقي ووضع يداً على كتفي. "لا تفزع"، قال، مُفزعاً إياي. "هناك أيامٌ سَمان وأيامٌ عَجاف".

ارتقينا الدرجات الضيقة، المُلْتَفّة. فتح ريموس الباب ودعاني للدخول إلى مسكنهم المكوّن من ثلاث غرف: ردهة استقبال، وغرفة نوم منفصلة لكل رجل وكل هذا معاً، كان أصغر من صومعة نيكولاي في الدير. في ردهة الاستقبال كان السقف يرتفع مستنداً على عوارض مائلة. قبالة واحدٍ من الجدران كانت مدفأة خاوية. والستائر السميقة تغطّي النوافذ الصغيرة الثلاثة؛ لذلك لم يكن هناك سوى وهج خافت، غير مباشر، ينير المكان. أكداس من الكتب كانت مكوّمةً على المناضد وعلى الأرض على طول الحوائط، والهواء خائق برائحة التبن المُتَيْسّس. كان أحدهم يجلس في مقعد ذي مسندين، ظهره ناحيتنا، لكنه كان رجلاً في غاية الضخامة لحدّ أنه حتّى في الظلام كان بإمكانني تبيّن أنه صديقي.

"نيكولاي!" هتفتُ وقد اختفى كل التوجّس من صوتي. خطوت حول المقعد حتّى أنفخّص وجهه.

\* \* \*

لسنوات طويلة بعدها، رأيتُ ذلك الوجه البشع في النواصي المظلمة لمدينٍ كثيرة: استدارته المتورّمة؛ آثار القروح التي شُفِيَتْ منذ زمن طويل وتحوّلت إلى ندوب؛ الأنف الناعم، المشوّه، وكان الدود قد

التهم غضروفه. كان ما يزال رجلاً ضخماً، لكن الآن كان مستديراً فيما كان ربعةً من قبل. كان شعره ولحيته رماديّين، وجلده شاحباً.

"مَن هناك؟" سأل. اتّجهت عيناه ناحيتي، لكن رفرفة جفنيّيه وشت بإخفاقهما. لا بُدَّ أنني بدوّت ظلّاً بالنسبة له.

"سأفتح الستائر حتى ترى بنفسك"، قلت، محاولاً أن أبقى صوتي هادئاً وثابتاً.

"لا!" هتفَ بينما أمدُّ يدي نحو الستائر. هزَّ ريموس رأسه وهمسَ بأن عينيّني نيكولاي لا تحتملان الضوء.

فما كان منّي إلّا أن ركعتُ بجوار صديقي القديم، أمسكتُ بذراعه، واقتربتُ بوجهي من وجهه حتّى أتبيّن الشحوب الإسفنجي لهذه الصمغات السّفسليّة تحت جلده. جاهَدَت عيناه للتركيز على وجهي. شهِقَ بغتةً. رفعَ يداً مُرتعشةً ليُلامس خَدَي.

"هل هذا حقيقي يا ريموس؟ قل لي إنه حقيقي!"

"نيكولاي، إنه هو حقّاً. لقد جاء موسى إلى قُبينا".

"ليباركنا الرب!" هتفَ نيكولاي وتناولَ يدي في كلتا يديه المتورمتين وقَرَّبَني من صدره. انتحبَ على شعري، وبكيتُ على صدره، ثم رفعَ وجهه حتّى ينظرَ إليّ مُجدّداً. تمعّنَ في كل تفصيلة بهاتين العينين الغائمتين حتّى حفظها في ذاكرته.

"لقد كبرتَ جميلاً كما شِختُ أنا قبيحاً"، قال.

لم أعرف ماذا أقول؛ ذلك أنه حقّاً لم يكن ليمضي في الشارع دون أن يحدّق فيه الناس وكأنه وحش مريع. لكنني لم أشعر بأيّ نفور، أخبرته بهذا.

"أستحقُّ كلَّ هذا وأكثر"، قال.



"هراء"، قلت. "هذا هراء".

تطلّع نيكولاي إلى ريموس ثم إليّ. "ليس لديّ شيء أفعله طوال اليوم سوى الجلوس هنا والتفكير في كيف خدلتُ الصديقَيْن الوحيدَيْن في حياتي".

"نيكولاي"، قال ريموس بحدّة، "لا تَخُضْ في هذا الآن. ليس بعد. لنُكُنْ سعداء اليوم. لقد عاد موسى إلينا أخيراً".

"وأبداً لم أُنقِ إلى شيءٍ أكثر من هذا"، قال نيكولاي، والدموع تلوح في عينيه، "حتّى أخبره كم أنا نادم على ما فعلته. على ما فشلتُ في فعله".

"فشلتُ؟" قلت. "نيكولاي، كنتُ أباً لي. أنقذت حياتي! أبداً لم أُلْمَك على أيّ شيء". مكتبة سُر من قرأ

هزّ رأسه. "لم يكن ينبغي أبداً أن أتركك مع ذلك الرجل. كان علينا أن نغادر الدير قبلها بسنوات. كان العالم مفتوحاً أمامنا، وضيّعنا فرصتنا".

"نيكولاي"، ترجّاه ريموس، "ليس الآن. ستد...".

"كان علينا أن نرحل!" جأّر نيكولاي في صديقه ثم غطّى عينيه بيديه المرتختين، المتورّمتين. أحنى ريموس رأسه.

سرعان ما تحرّكت يدا نيكولاي من وجهه إلى صدغيه، وسمعتُ أنفاسه تضيق فيما يستولي عليه الصداع، وتلك التورّمات الطرية داخل دماغه تحتقن بالدماء. انبعتّ أنينٌ أسيان من حلقه المشدود، كأنفاسٍ متناقلة لرجلٍ يخنق.

تناولتُ ذراعَه وحاولت تهدئته. "نيكولاي، هل هناك شيء بمقدوري فعله؟".

لكن ريموس كان يعرف العلاج الوحيد، وخطا ليجلب صبغة الأفيون التي صارت خَلاصَ نيكولاي الوحيد من الآلام. لم تكن لمستي قد فعلت أيَّ شيء سوى أنها فَتَحَتْ عَيْنَي نيكولاي مُجَدِّدًا. غادرت إحدى يديه صدغه وقبضت على رسغي بشدَّة، لحدَّ أنني خَشِيتُ أن يحطِّمه.

"اغفر لي أرجوك"، قال.

"لا يوجد شيء لأغفره".

ثم عاد ريموس، وصبَّ الصبغة في فمه. لعَقها نيكولاي بشراهة. سرعان ما ذَوَّت عيناه أكثر، ثم انغلقتا. تراخى في مقعده.

وقفنا أنا وريموس وجهًا لوجه بجوار صديقنا لبضع دقائق، ثم رفع ريموس وسادة وأسند رأس نيكولاي المُتهدِّل. تلكَّأت يده على خدِّ صديقه، كإمالة حُبٍّ لم أرَ مثلها من الرجل قطُّ.

ابتسم ريموس بحزن. "من الجيّد أنك هنا يا موسى"، قال.

عانقته. كان جسده مُتَشَنِّجًا، غير متجاوب مع لمستي، لكن يده على ذراعي لم تُفلتني لبضع ثواني. فيما يفعل، مسح دموعًا من عينيه وأشاح بنظره، وكأنه يشعر بالعار. قدَّته إلى المنضدة الصغيرة المتهالكة. جلس على مقعدٍ وأخذتُ الآخر.

لدقائق طويلة لم يتحدَّث كلانا.

"خمسة وأربعون عامًا"، بدأ ريموس في الحديث بغتة. "يَصُغَب تخيِّل ذلك بالكاد. قضى أكثر من خمسة وأربعين عامًا في ذلك الدير، وطوال كل تلك الأعوام تقريبًا كان يتحدَّث عن الرحيل. كانت معجزة أنهم قَبِلوه حتَّى- ذلك الطفل الذي تُرِكَ أمام كنيستهم ذات ليلة. أبدًا لم يكن الدير ملجأ أيتام، ومع ذلك، من أجل نيكولاي، وضعوا استثناءً.

عندما قابلته أوّل مرّة كان عملاق الهيثة بالفعل. كان الراهب المبتدئ الوحيد الذي لم يرفض التحدّث معي. وجدتُ تشوّقه للعالم الأوسع لا يُقاوم، لا بُدّ أننا تحدّثنا عن رؤية ذلك العالم كل يوم تقريبًا طوال ثلاثين عامًا. ثلاثين عامًا! ودائمًا، في النهاية، كنا نبقي بسببي: كُتبي وحاجتي للهدوء. أبدًا لم نغادر المدينة. وعندما غادرنا أخيرًا، وذهبنا إلى روما، كل يوم، من أول يوم، أردتُ دومًا أن نعود، رغم أنني أحببت كل دقيقة هناك. يا الله، كنتُ في غاية السعادة في الفاتيكان! لكنني كنت أقول له كل يوم، 'نيكولاي، لا بُدّ أن نعود للوطن، كنت أقول. 'أريد أن نعود إلى الوطن!''

وضع ريموس يدًا أمام فمه. أخذَ نفسًا عميقًا قبل أن يتابع.

"تري، أبدًا لم أستوعب وضعنا. كنتُ في غاية الحماقة. فقط عندما رفضوا استقبالنا في ميلك كان أن أدركتُ الأمر بغتة: لقد بقينا في ذلك الدير من أجله، ليس من أجلي. ذلك اليوم، فيما نسير هابطين إلى الدانوب بعد أن رفضوا استقبالنا، استولى عليّ الرعب. 'نيكولاي، لا بُدّ أن نعود!' هتفت. 'لِنَعُدْ إلى الجبال. ديرًا ما سيقبلنا!' كنتُ على استعداد للذهاب إلى أيّ مكان، إلى أيّ مكان مُتَعَفِّن يدعو نفسه ديرًا. بلا كتب؟ لم أبال. كنتُ لأعيش معه في كهفٍ منعزل. 'سنجد ديرًا آخر، قلت. 'لا يستطيع شتاوداخ أن يكتب إلى كل الأديرة'. 'هراء، أجابني. 'ألا ترى؟ لقد أرسلنا الرّبُّ إلى قيينا! نحن أحرار! أحرار أخيرًا!'" موسى، هذه الكلمات كانت كاللعنة بالنسبة لي، كعقوبة مُنزلة."

استغرقَ ريموس في الصمت لبضع ثوانٍ. نظرَ إليّ في عينيّ. ربما كانت المرة الأولى في حياتي التي أطلّعتُ فيها بعمقٍ هكذا إلى عينيّه. بدت الدموع غريبةً للغاية على ذلك الوجه المُتجهّم. "جعلني أخسر إيماني بالرّبِّ يا موسى"، همس، مُتحنينًا أقرب. "تلك القداسة ذاتها التي عبدته من أجلها منذ اليوم الأول للقائنا، عندما كنتُ في الخامسة

عشرة -ودفع أبي أموالاً ليُحبَس ابنه ناقص النُمو بقيَّة عمره في الدير-  
ثم استدَّعت تلك القداسة ذاتها الشيطانَ إلى هذه المدينة. قتل رجلاً.  
لا تخبره. لن يتذكَّر. رجلاً كان قد نعتَ عاهرةً بالعاهرة، ثم بصقَ في  
وجهها. طرحَ نيكولاى هذا الرجل في الشارع. ركلة واحدة كان كل ما  
يحتاجه لكسر عنقه. هلَّل الجميع وجلبوا له الشراب فيما جررتُ أنا  
الجثة إلى النهر.

"لقد أحبُّوه. احتسى شمبانيا الدوقات وشنايس الفلاحين. لم نحتج  
إلى أموال. كانت لديه ابتسامته وضحكته. 'القديس بيندكت وذئبه'!  
كانوا يهتفون من نوافذ القصور، ومهما كان الوقت متأخراً، كنا نضطرُّ  
للتوقف لاحتساء الشراب. كثيراً ما كنَّا نبيت ليلتنا من أجل أغنية.  
الرجال والنساء. الأمراء والعاشرات. لقيَ حُباً منهم جميعاً.

عندما ظهرت القروح، صارَ ميثًا في أعينهم بغتةً. أرسلَ إليه واحدٌ  
من المريدين بطبيب، ملأ جسده بالزئبق حتَّى لم يُعد قادراً على  
الأكل لشهر. نسيه الباقون، حتَّى عندما طرقَ على أبوابهم. في النهاية،  
أقامَ هنا فحسب، ولم يخرج قط. يُحدِّق في كل قرحة جديدة لساعاتٍ  
ويراقبها تظهر. يراقب جمالها يخبو، يحدِّق في مرآته لساعات كل يوم.

ثم ذات يوم، بعد عامٍ من هذا، اختفت القروح. ورغم أنه صارَ  
قبيح الوجه، انطلق يصرخ في الشوارع، ويقتحم الحفلات وبصيح، 'لقد  
شُفيت!' لكنه لم يُشف. بدأت عيناه في الإعتام وازدادتا حساسيةً تجاه  
أوهى ضوء. ثم ظهرت التورُّمات -على ذراعيه وعلى عنقه- ومعها  
جاءت الآلام. أستيظظ ليلاً لأسمعه يئنُّ. بدأت أنفه في التهذُّل، بدَّت  
عظامها وكأنها تتحلَّل، وكأن بمقدوره أن يحملها في أصابعه".

استدارَ رموس، وتطلَّع كلانا إلى صديقنا النائم. بدا المقعد الكبير ذو  
المسندَيْن وكأنه مقعد أطفال؛ انسَدَّت ذراعا العملاق على المسندَيْن،  
وتفلطَّحت ركبته. كانت الوسادة قد انزاحت، وسقطَ رأسه للأمام.

"وكننت أنت وحيدًا تمامًا"، قلت.

أومأ ريموس. "لكن أليس هذا ما تُقَتُّ إليه دومًا؟ أنا وهو وحدنا؟ في كهفنا الوحيد؟ ربما نلنا ما نستحقُّه حقًّا".

## (8)

عندما يصفو الجو ولا يعود لجواداني أي تسلية أخرى، كان يأمرني بالدخول إلى عربته ويأمر حوذيّه بأخذنا إلى غابات براتر أو إلى مُتنزّه ملكي آخر كان مسموحًا له بدخوله، ثم نقود لساعات على طول الطُرق التي شيّدها الإمبراطور لرحلات صيده. كنت أمقت تلك الأيام؛ ذلك أنها كانت تحرمني فرصة التّسكّع في الشوارع المحيطة بقصر ريشر. فيما نمضي بالعربة، دائمًا ما كنت أخشى أنه في هذا اليوم بالذات، من بين كل الأيام، ستختار محبوبتي اتّخاذ بضعة خطوات في الشارع.

لكن في واحدة من تلك الظواهر، عميقًا في غابات براتر، بتسليتي الوحيدة متمثّلة في نداءات الطيور على الأشجار وعجلات العربة على الحصى، قرّرتُ أن أثبت لسيدي أنني أيضًا، لديّ عقل. أنني، أيضًا، لديّ قلبٌ مُتقد. سأثير مسألةً في غاية الأهمية لكلينا. سألتُ جواداني "سنيور، مَن أخصاك؟".

حبستُ أنفاسي، منتظرًا ردّة فعله. أغلق عينيه وهزّ رأسه ببطء.

"شقيقي *Mio fratello*"، قال، "هذا هو السؤال الوحيد الذي يجب ألاّ تسأله أبدًا لموزيكو".

اعتذرتُ وأغلقت فمي.

لكنه ابتسم بعدها. "أنا آسف. كيف لك أن تعرف قواعد كهذه؟ أنت، من بين كل الناس، تستحقّ إجابة. وسأمنحك إيّاها: أخصتني إيطاليا".

تخيّلْتُ جيشًا من الرابوتشين يزحف عبر الأراضي الإيطالية تحت قيادة ملك شيطاني ما يحتاج على رأسه. لكن لم يكن هذا ما يعنيه سيّدي. رفع إصبعًا.

"شقيقي *Mio fratello*، المخصّيون قدماء قدّم السكاكين التي تشقّهم - لا توجد ثقافة تخلو من هذه البربرية- وأمثالنا أنا وأنت من طبقة فريدة بين المخصّين. تفكّر: في مصر القديمة، واليونان وروما، في الهند، وفي الأراضي الإسلامية، طالما كان شقّي الإخصاء إهانة. أن تُشقّ يعني أن تنحدر من طبقة الرجال إلى شيءٍ أقل، شيءٍ بسيط، شيءٍ مُروّض".

"في لندن"، تابع، "روى لي رجلٌ ذات مرة حكاية عن الطواشيّ الصينيين، الذي يتألّفون من طبقةٍ من الخدّم في تلك الأراضي. بعد انتهاء العملية، يتلقّى هؤلاء الصبيان أعضاءهم منقوعةً في الخلّ في جرّةٍ من الفخار. يحتفظون بهذه الجرّة معهم دائمًا. يضعونها على رفٍّ. يدعونها *Pao* عندما يتوقون إلى ترقية، أو تغييرٍ في الوظيفة، يجلبون هذه الـ *Pao* معهم إلى ربّ عملهم الجديد، الذي يرفع الغطاء ويفحص ما فقده الرجل، وكأنه دليل على شخصيته".

ابتلعتُ ريقِي، شدتُ يَاقَتِي. ضحك جواداني. "هل يصيبك هذا بالاشمئزاز؟" سأل. "لماذا قد يصيبك بالاشمئزاز؟".

"هل يجب عليهم... أن يحتفظوا به"، همست. "في جرة؟".

"نعم"، قال. "في شراب روحي. أعتقد أنهم يغيرون السائل مرّة كل عام حتى لا يغيّم. يُفترض أن يُرى الشيء بوضوح".  
"أرجوك لا تتحدّث عن هذا".

ضحك بخفوت. "حسنًا"، قال. "لا مزيد من الـ *Pao* المُخلّلة. سأخبرك بدلًا من ذلك عن اليونان وروما، هاتان الحضارتان الشهيرتان. هناك كانوا يشقُّون الصبيان كتشذيب الشجيرات؛ خمسون صبيًا - أو أكثر - كل مرّة، رغم أن عشرين من كل دفعة يموتون بسبب جروحهم. 'شقّ حتى البطن' كان يسمُّون العملية؛ لا يبقى سوى ثقبٍ صغير. كان هذا التشويه يرؤّضهم، هكذا فكّروا؛ ولهذا كانوا النوع الأكثر رواجًا من العبيد. لا يعملون في حفر الحُفَر أو غسل الأرضيات. يرتدون ملابس مُذهّبة، وتُصقل أجسادهم بالزيت، يطعمون سادتهم، يصبّون النبيذ، ويدلّكون الظهور الهرمة. كانت أجسادهم أوعيةً يستمتع بها سادتهم. ربما كان نيرون السيد الأكثر بشاعةً من بينهم. كان لديه صبيّ عبد، سبوروس، أحبّه أكثر من بقية العبيد. طفل بريء، جميل. أمر الجراح بأن يقطع كل أثر لعضو سبوروس الرجولي، وبعدما شَفِيَ الصبي، ألبسه نيرون وشاحًا عرانسياً وتزوَّج الطواشي الصغير. ثم أفقده عذريته على الفراش الإمبراطوري".

الآن كنتُ أنتفّس بالكاد. كنت أدرك أن صبيانًا كثيرين عانوا مصيرًا بشعًا كمصري، لكنني أدركت الآن أن كثيرين عانوا مصيرًا أسوأ... أسوأ بكثير جدًّا.

"هلاً توقّفنا لوهلة"، سألت بضعف. "أودُّ أن أمتشّي قليلًا".

"لكن هذا لا شيء"، استمرّ سيدي في حديثه الساحج، صوته الثابت وكأنه يُسمّرني في المقعد. "نيرون وسبوروس(ه). مسألة لطيفة للغاية في الحقيقة، عندما يتأمل المرء في الأمثلة الأخرى. اقرأ إنجيل متى. هذا



الحواريُّ يُبْجَلُ النبلاء من 'الخصيان الذين خصوا أنفسهم' <sup>(1)</sup>. يا إلهي! يختلف الأمر كثيراً بين أن تجعل آخر يقوم بالشَّقِّ، على أن تقوم به بنفسك. وكم من أناسٍ شَرَّحوا أنفسهم بالخناجر اقتداءً بحكمة متى؟ الآلاف. أحياناً، متصوِّفون، حمقى. قرأتُ ذات مرة عن طقوس انتشائي: في (يوم الدَّم)، يحتشد الرجال على جبل، ومعاً، مقيمين صلواتهم لإله عطوفٍ حنونٍ ما، يشوِّهون أنفسهم بشظايا آنية فخارية مكسورة".

فتحتُ الباب ليدخل بعض الهواء، رغم أن العربية ما زالت تتقافز قُدماً. نقرَ مطرٌ خفيف على حذائي، لكن الهواء كان كقماشة باردة، رطبة على جبينني المتَّقد.

ضحكٌ جواداني وجذبَ خصلةً من شعري، وكأنه شقيقٌ أكبر. "شقيقي *Mio fratello*، لا تفكّر في الأمر كثيراً، ألا ترى؟ هؤلاء البائسون المحطّمون لا علاقة لهم بنا. نحن طبقة مختلفة؛ ما جعلهم عبيداً مهانين جعلنا آلهةً مُبجَلين. حتّى أنت، وإن لم تكن ثرياً، أو معروفاً لأيّ أحد. أبداً لن يُجبرك أحد على إظهار ما فقدته. أبداً لن تفقد احترامك أمام ربّ عملك. أبداً لن يأمرك أحد بالاستلقاء على وجهك على فراشٍ. لقد اختفى أملك منذ سنين، لن تموت بسبب جرحك".

تناول يدي في يده ورفعها عاليّاً في الضوء. "انظر يا شقيقي *mio fratello*، انظر إلى ما منحك هذا الشَّقِّ. لا يوجد رجل بهاتين اليدين الجميلتين. وهذه الأصابع البديعة! وانظر إلى هذا". لامسَ خدّه ذاته، المطلي بشكل خفيف لزيادة توهُّجه الطبيعي. "لا يوجد رجل له جلدٌ رائق كهذا؛ البثور هي محنة غير المخصّين وحدهم. وإلى ذلك كله، انظر كم هم قصار القامة وكم ننتصب نحن عاليّاً". وضع يديه

(1) الآية كاملة: «لأنه يوجد خصيان وُلدوا هكذا من بطون أمهاتهم ويوجد حصارٍ خصاهم الناس ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السماوات من استطاع أن يقبل فليقبل»، إنجيل متى (19:12). (المترجم)

على صدره، المنتفخ تحت المعطف الموشى. "هل يوجد رجل له صدر كهذا؟ رثتي بضعف حجم أفضل مُغنٍّ غير مخصّي في العالم. عليّ أن أشكر الشقّ القاسي على هذا أيضًا. كان سحر الشقّ هو ما جعل أضلاعنا تنمو طويلًا هكذا. وهناك المزيد: أعظم كنوزنا يستلقي مختفيًا حتّى نغني". رفع إصبعًا وحدّق إليّ، وكأنه يتحدّاني على تخمين إلى أين يشير. ثم أشار أخيرًا إلى منتصف عنقه. "لديهم ذلك الشيء النائي القبيح، تفاحة آدم *la pomme d'Adam*، يبرز من حلقهم. ومُجرّد أن تفكّر أن صوتههم يبدأ من ذلك البروز الأعوج! غير صالح للغناء كآلة كمان بعنق مُتشطّ". دَلَّك عنقه وكأنه يُدَلِّك ظَهْر قِطْعة. "على النقيض من ذلك، تظُلُّ غُلب أصواتنا مُعلّقة، تتدَلّى حيث وضعها الرّبُّ".

"ألا ترى!" هتف. قبض على ذراعي. "غناؤنا يجعلنا مختلفين للغاية عن أولئك المخصّيين في العصور الأخرى. تعرّضوا للشقّ لأنهم كانوا فقراء، أو جميلين، أو تعيسين الحظ. شقّوني، في صباي؛ لأنني كنت أغني كعندليب؛ ولهذا، فالآن، هنا في فيينا، يطلبون منّي أن أكون أورفيوس (هم)! طالما غنّيت أورلاندو، وسليمان ويوليوس قيصر. هؤلاء كالآلهة بين البشر! لستُ خادمهم. بل أنا بطلهم. أنا ملاكهم. أنا الذي يحلمون به عندما يستغرقون في النوم في الليل. أوه، وكم يقعون في حُبّي بمنتهى السهولة! الحب بين امرأة ورجل طبيعي مسألة مُملة في أفضل الأحوال، وقدرة ومُخزية في أسوأها. لكن عندما أكون بصحبته، تتحوّل رغباتهم إلى شلالٍ دافق. لا يوجد خوف لكتبها؛ لن يُحبَل بأطفال هذه الليلة، لن يحدث زواج بالإجبار، لا عارٌ دائم. يدركون أن ذكرى لذّتهم ستكون نقيّة في الصباح، بلا ندم. الرّبُّ لا يرفض أن يشارك ملاك في أحلامهم الشبقة. ولهذا لا أمثّل أورفيوس فحسب، لكن باخوس (النشوة) أيضًا. أحيانًا ما يسخر أزواجهن الأغبياء منّي -أسمعهم يقولون إن سيفي لا يستطيع الطعن- لكن هم الحمقى

حقًا. فتلك النغزة المندفعة من تجويف أحواضهم، والتي يحسبونها  
أعظم مآثرهم، يمكن استبدالها، واستيلادها، وتجويدها".

ابتسم جواداني بتكلف، وكأنه تذكّر مثلاً حديث العهد على مصدر  
افتخاره. حدّق إلى خارج النافذة حتّى تلاشت ابتسامته، ثم استدار إلى.  
"ماذا كان سؤالك؟ آها، نعم: مَن أخصاني. أخبرتك أن إيطاليا هي مَن  
جعلتني ما أنا عليه. لا أستطيع لوم أبي فحسب، ولا فرقة المهرّجين  
buffo التي باعني لها، ولا الحلاق الذي دفعوا له لشقي. بالتأكيد،  
أتمنّى أن يحترق كل هؤلاء في الجحيم، لكن ذلك لن يكون سوى  
تحويل لا يذكر، سواء لي، أو لك، أو لآلاف من الصبيان الآخرين الذي  
يُشَقُّون كل عام في الأراضي الإيطالية. شقيقي *Mio fratello*، لقد شَقَّقنا  
بسبب جمال أصواتنا. شَقَّقنا لأنه في كل ليلة في كل مدينة إيطالية،  
تغنّي الملائكة على خشبة المسرح ويعود كل رجلٍ لديه ابن إلى بيته  
يُفكّر، هل يستطيع ابني أن يكون ملاكًا أيضًا؟".

كان الهواء البارد قد أنعشني من خَدَري، ورفعتُ عينيّ مجددًا  
إلى سيدي. كان هذا الوجه الأملس ثابت الجأش، كما هو دومًا على  
خشبة المسرح، لكنني كنت سمعتُ رعشة خافتة في صوته. تطلّع الآن  
إلى خارج النافذة وكأنه لم يَعد يتحدث إليّ، بل إلى نفسه. "كثيرًا ما  
أسأل نفسي"، قال، "فيما أنحني احترامًا للمُصَفِّقين، كم صبيّ تسبّبْتُ  
في إخصائه الليلة بصوتي؟".

## (9)

عندما طلبتُ من ريموس تعليمي الإيطالية، استقبل طلبي بجديّة فاجأتني. بدأنا في الاستذكار لساعتين، في كل يوم أستطيع فيه التخلّص من جواداني. كان ريموس مُعلّم لغة أكثر تطلُّبًا مما كان أولرتش في الغناء؛ كان يرى عبر الكلمات والجمل بنية أكثر غموضًا مما يستوعبه عقلي، فيها تتصل اللغات المختلفة ببساطة رياضية. مع ذلك فإن التجميعات التي تبني اللغة ليست الكلمات، بل الأصوات، وهنا كانت موهبتي: كنتُ أتعرفُ على الأصوات الأساسية على الفور، ورغم أن دانتني كان ما يزال بعد أسبوعين يفتقد لأي معنى مترابط، بدأتُ، فيما أتلوّه، في استيعاب تجميعات متناثرة من المعنى: ملكٌ يرقد في النفايات؛ ثور صقليٌّ يخور؛ آلاف الوجوه الأرجوانية المُختنقة. "إيطاليّته صارت أفضل من إيطاليّتك يا ريموس"، مازحنا نيكولاي من مقعده.

"لا فائدة من اللكنة"، أجابه ريموس، "إذا لم يعرف ماذا يقول".

"لا أفهم ما يقوله على الإطلاق أيضًا"، قال نيكولاي من الظلال؛  
ذلك أننا أوقدنا شمعة واحدة بسبب عينيه، "لكن ما يقرؤه جميل.  
شيء ما عن الحب العميق؟".

"خلاعة وشيق"، قال ريموس بوضوح. "تأوهات، دموع، انتحابات.  
يتعذب هنا من ارتكب خطايا الجسد. بلا انقطاع في الألم ولا أمل في  
الاستراحة"<sup>(1)</sup>.

"كم نحن محظوظون بوجودك معنا يا ريموس"، أجاب نيكولاي.  
"وإلا توهمنا جميعًا الحب النقي في الشهوة الوضيعة".  
"استمر في القراءة يا موسى. لا تدعه يُشتتكَ".

"هل يوجد أي حب صادق في هذا الكتاب العفن؟" سأله نيكولاي.  
"بكل صوره وأشكاله"، أفحمه ريموس. "قلوب مكسورة، عاطفة لا  
ترتوي، توهمات مستحيلة".

"اجلبوا كتابًا آخر"، قال نيكولاي بازدراء. "أريد الحب هنا والآن.  
دانتي ميّت. الجحيم بعيد للغاية. ألا يستطيع أحدكما إخباري بشيء  
يمكنني تذوّقه بالكاد؟".  
"اقرأ يا موسى".

فتحتُ الكتاب مُجدّدًا، لكن يداي كانتا ترتجفان. أخبرهما الآن!  
احكِ لهما عنها! أردتُ بشدّة أن أفعل ذلك، لكنني لم أستطع. سيسخران  
منّي، أعرف، لكنني كنتُ خائفًا أيضًا من قراءة الذهول في أعينهم.  
أنت؟ واقع في الحب؟ أنت؟

لن يقولوا ذلك صراحةً، لكن ستقولهُ أعينهما.

\* \* \*

(1) تصرّف في الأبيات (34-43) من الكوميديا الإلهية لدانتي. الجحيم، النشيد الخامس (المترجم)

ذات مساء، عندما لم يكن لدى مسرح بيرج مسرحيات، أو أوبرات، أو باليه في برنامجها، أقنعت تاسو بمغادرة كهفه والانضمام إلينا في سبتليرج. أسرع ورأي عبر الشوارع، ماكثًا في الظلال، وكأنه يخشى أن ينقضَّ عليه صقرٌ من السماء ويختطفه.

عندما قدتُ الرجل الضئيل صاعدين الدُّرج ثم إلى ردهة الاستقبال المُعتمة، توقَّفت على العتبة وتفتحَّصَّ الغرفة كرجل يحكم ما إذا كانت السفينة التي يوشك على الصعود إلى ظهرها ستغرق أم لا. حيَّانا ريموس وقدَّم يده لتاسو، لكن عامل المسرح لم يصافحها. حدَّق وراء ريموس في الشكل البشري الهائل القابع في المقعد.

"رجلان فحسب،" سأل تاسو، "وحدهما؟".

"لا يوجد سوانا نحن الاثنين"، أجابه ريموس.

"بلا نساء؟".

"كلا".

حملتُ تاسو في ريموس. اختلجت أنفه.

نادى نيكولاي دون أن يستدير. "موسى، هذا هو الرجل الضئيل الذي أخبرتنا أنك ستجلبه للقائنا ذات يوم؟".

"نعم"، قلتُ بارتباك. "هذا هو تاسو. من المسرح".

"ادخل"، هتف نيكولاي. "ادخل! هل حقيقي أنك تعرف الإمبراطورة؟ احكِ لنا عن بناتها!".

رفعَ تاسو بصره إلى ريموس، وأشارَ بإبهامه إلى نيكولاي. "ما خطب زوجك؟".

"إنه ليس زوجي"، قال ريموس بغضب. أبدًا لم أرَ وجهه يَحمرُّ هكذا. "إنه مريض".

"مريض في رأسه"، قال تاسو، ثم خطا متجاوزاً ريموس إلى الغرفة.

"موسى"، قال نيكولاي، "أحبُّ هذا الرجل الذي يشبه الفئران".

جلسَ تاسو بجوار نيكولاي، في مقعد ريموس.

"هذا يستحق احتفالاً!" قال نيكولاي. "موسى، غنِّ لنا! لا، لا، انتظر... شيئاً ما لتهيئة المزاج أولاً. ريموس، اذهب إلى الأسفل وأخبر السيد كوست أننا نريد بعضاً من ذلك الشيء حالك السواد".

ظهرَ ريموس مُجدِّداً بعد بضع دقائق وهو يحمل بحذرٍ أربعة أكواب من سائل أسود، يتصاعد منه البخار، كبحار القطران في جحيم دانتي.

"سُكِّر"، أمرنا نيكولاي. "هذا هو السُّرُّ لتستطيع ابتلاعه".

أذبنَا بضعة مكعبات في كل كوب. حبسَ تاسو أنفه وهو يحتسيه. لم أتمكن من ابتلاعه إلَّا بعد مضاعفة السُّكَّر؛ بما يكفي لتحويله إلى كُدْرة حلوة. بعد هضمه، لم يستغرق الأمر سوى دقيقة ليظهر تأثير السحر. صارت الغرفة المعتمدة تنبض الآن. ظننتُ أنني لن أحتاج إلى النوم مُجدِّداً أبداً. ضحكَ تاسو خلسةً.

أخذ نيكولاي في هزَّ رأسه وكأن نحلة طنانة تتزُّ داخله.

"غنِّ لنا يا موسى"، قال ريموس. ابتسمتُ؛ ذلك أنه لم يطلب مني قطُّ في كل الأعوام التي عرفته فيها، لم يطلب أن أغني، لكن الآن، بهذا الشراب ينبض في أوردتي، ثقْتُ بشدة إلى إخراج الجلجلات.

وقفتُ أمامهم وأمطرْتُ أصدقائي الثلاثة بالأغنيات. اضطلعَ نيكولاي وأغلق عينيه. أخذَ تاسو في أرجحة قدميه، المتدليتين بعيداً عن الأرض. استندَ ريموس على الحائط، مؤرجحاً قدمًا مع الموسيقى، بدموعٍ نشوانيةٍ في عينيه.

## (10)

حلّ سبتمبر أخيراً، وحلّت معه ليلة حفّال الكونتيسة ريشر. البسني جواداني رداءً بقطيفة حمراء وأسود ذهبية تزار على صدري. «لماذا أنت متوتّر هكذا؟» سألني مُعلّمي فيما نُقعقع عبر ليل فيينا في عربته. «لن يطلبوا منك الغناء». كان وجهه هادئاً، وملابسه مضبوطة.

«لست متوتّراً»، قلت. أدركتُ زراً في معطفي. انتثرَ خارجاً من مكانه في يدي.

هزّ رأسه. «فقط حاول ألا تكون مُملّاً»، قال. «الصيد، يا شقيقي *mio fratello*، الصيد هو كل شيء».

عبرنا البوابة إلى الفناء الخارجي، وفتحَ غول آل ريشر ذاته -الذي كان، منذ شهرين لا أكثر، قد رماني في الشارع، ووعدني بتعطيم وجهي إن رأيَ مُجدّداً- الباب لعربتنا. كنتُ في غاية الخوف منه لحدّ أنني



تَعَثَّرْتُ عَلَى الدَّرَجِ وَسَقَطْتُ. أَمْسَكَنِي بِيَدِهِ ذَوَاتِي الْقَفَّازِينَ الْأَبْيَضِينَ. رَفَعَنِي، وَاقْتَرَبَ وَجْهَانَا بِشِدَّةٍ كَوَجْهِهِ الْعَشَّاقِ. الْإِدْرَاكِ. الصَّدْمَةُ. كَتَمَ ذَلِكَ. "سَيِّدِي"، كَانَ كُلُّ مَا قَالَهُ، ثُمَّ أَوْقَفَنِي عَلَى قَدَمَيَّ مُجَدِّدًا.

قَادَنِي جَوَادَانِي إِلَى دَاخِلِ الْقَصْرِ، الَّذِي كَانَ مَنْزِلَ آلِ دُوفْتِ فِي سَانَتِ غَالِ بِالْمُقَارَنَةِ بِهِ كَمَسْكَنِ الْإِنْسَانِ الْكَهْفِ: أَرْضِيَّاتٍ مِنْ خَشَبِ الْجُوزِ، حَوَائِطُ مُغَطَّاةٌ بِالْحَرِيرِ الْأَحْمَرِ، كُلُّ إِطَارِ بَابٍ وَمَنْضِدَةٍ بِزَحَارِفِ ذَهَبِيَّةٍ. فِي بَهْوِ الْإِسْتِقْبَالِ، يَقُودُ دَرَجٌ مَهُولٌ إِلَى الطَّوَابِقِ الْعُلْيَا مِنَ الْمَنْزِلِ. تَلَكَّأْتُ هُنَاكَ، مُتَسَمِّعًا إِلَى الْأَصْوَاتِ الَّتِي أَتَوَّقُ إِلَى سَمَاعِهَا، لَكِنْ جَوَادَانِي جَذَبَنِي مِنْ كُمِّي.

دَلَفْتُ إِلَى قَاعَةِ الرِّقْصِ. اصْطَدَمْتُ بِهِ عِنْدَمَا تَوَقَّفَ لِلانْحِنَاءِ. "يَا أَحْمَقَ"، هَسَهَسَ عِبرَ ابْتِسَامَتِهِ فِيمَا الْجَمِيعُ يَسْتَدِيرُ لِرَانَا. ابْتَسَمْتُ وَانْحَنَيْتُ قَلِيلًا حَتَّى الْخَصْرِ، وَكَأَنَّنِي أَعَانِي مِنْ أَلَمٍ فِي الْمَعْدَةِ. ثُمَّ بَدَأَ هُوَ رَقْصَتَهُ؛ النِّسَاءُ يَتَضَاكِكُنَ فِيمَا يُقْبَلُ أَيَادِيهِنَّ، وَالرِّجَالُ يَتَوَرَّدُونَ خَجَلًا وَيَزْدَرِدُونَ رِيقَهُمْ عِنْدَمَا يَغْمَزُ لَهُمْ.

انْطَلَقْتُ مُتَعَثِّرًا عِبرَ الْقَاعَةِ، مُتَدَاغًا وَمَنْعَطًا كَكَلْبٍ يَغْرُقُ فِي نَبْعٍ. جَاهَدْتُ لِسَمَاعِ كُلِّ شَيْءٍ. كَعُوبِ الرِّجَالِ تُطْقِطِقُ عَلَى الْأَرْضِ الْخَشَبِيَّةِ الصَّلْبَةِ. الْمُقَدِّمَاتُ الْبَيَاضُ لِأَحْذِيَةِ النِّسَاءِ تُحْفَحَفُ عَلَى الْحَشَايَا الْمُكَشَّكَشَةِ لِأَرْدِيَّتِهِمْ. "لَا أَطِيقُ زِيَارَةَ ضِيَعَتِي"، قَالَ وَاحِدٌ مِنَ الْأُمَرَاءِ. "بَعِيدَةٌ كُلُّ الْبُعْدِ عَنْ مَا يَهُمُّ حَقًّا." "الْفَحْمُ يَتَحَوَّلُ إِلَى بَخَارٍ"، قَالَ آخَرُ شَارِحًا. "أَمِ الْبَخَارُ إِلَى فَحْمٍ؟" تَعَثَّرْتُ إِلَى دَائِرَةٍ مِنَ الْوُجُوهِ الْمُتَغَضَّنَةِ، نَخَرُوا وَأَسْلَمُونِي إِلَى مَجْمُوعَاتٍ مِنَ السَيِّدَاتِ ذَوَاتِ وَجُوهِ مَظْلِيَّةٍ. "لَا أَفْهَمُ"، قَالَتْ إِحْدَاهُنَّ. "فِي الرِّيفِ لَدَيْهِمُ الْحَقُولُ وَالْمَنَازِلُ وَالْمِيَاهُ لِتَنْظِيفِ أَطْفَالِهِمْ، لَكِنْهُمْ يَصْرُونَ جَمِيعًا عَلَى الْعَيْشِ هُنَا." ثُمَّ، عَلَى مَبْعَدَةٍ، كَانَتْ بَضْعَةُ فَتَيَاتٍ يَبْدِينَ إِعْجَابَهُنَّ بِرَجُلٍ رُسَمَ دُوقًا حَدِيثًا. "يَقُولُ أَبِي إِنَّ اللَّقْبَ كُلَّهُ ثَرَوَةٌ"، هَمَسَتْ إِحْدَاهُنَّ،

فيما لعقت الأخريات شفاههن. "أوه، كم أحبُّ أن أكون زوجة دوق".  
لمحَّت الكونتيسة ريشر تنطلق عبر الزحام؛ نظراتٌ مُتحرِّقة تمضي في  
إثرها. رفع رجلٌ مِمداييات على صدره يده وخطا مُتخبِّطًا في إثرها.  
"أوه، سيدي الكونتيسة"، قال. "هل لي بدقيقة من...".

توتَّرت أذناي لسماع الصوت، أو الضحكة، أو التنهيدة التي تتماشى  
مع تلك المُخزَّنة في المُعترَل العزيز من عقلي. لم أسمعها. اصطدمتُ  
بحائط مرتين، وظللت هناك كأنسان آلي، حتَّى أخذتني فائدة ما من  
ذراعي وقادتني عائدةً بي إلى سيدي. ابتسمَ وشكرها، ثم تذرَّ في  
وجهي لأنصرف بعيدًا.

وحينها، كانت هناك.

واقع الأمر، وجَدَتها عيناى أولاً: شعرها مربوطٌ عل شكل تاج.  
حملتُ عبر قاعة الرقص، عبر كل تلك الشعور الملساء والموسلين  
المُكشَّكش والمعاطف المُكْدَّسة بالنياشين الذهبية التي منحتها  
الإمبراطورة، وكل هذا يُدوِّم كضباب شفاف، عديم الحياة. اشتدَّت  
أذناي لالتقاط أصواتها العزيزة، لكنها كانت تقف في صمت بين  
مجموعة من الرجال على رأس دَرَج، في رواقٍ يُطلُّ على قاعة الرقص.  
قبَضت يدُ مرصعة بالمجوهرات على ذراعي. "أنت صاحب بعض  
الشيء"، قالت المرأة، ناغزةً أنفها في وجهي. "هل أنت مريض؟ تناول  
رشفةً من النبيذ". تركتها تضع الكأس على شفتيّ واحتسبتُ النبيذ،  
ثم دفعتُ ذراعها بعيدًا واتَّخذتُ خطواتٍ مُتعرِّةً نحو الدَرَج وكأنني  
أسير على الجليد.

كانت أماليا تضوي بين هؤلاء الرجال كقطعة فحم متوهَّجة  
مدفونٌ نصفها في رماد منطفيئ. كانوا يتجادلون، يلوِّحون بأيديهم،  
يُومئون بعنف، ورغم أنها كانت تُحدِّق فيما وراءهم، غير مبالية،  
كانت هي مَنْ يتحدثون إليها، كانت هي مَنْ يتوقون للوصول

إليها بكلماتهم. "أوه، تعالي"، قال رجل بدين. "تعالي. لا بُدَّ أن تأتي".  
 أوماً آخر وكأن هذه أعظم حكمة سمعها في حياتنا. يوجد بيننا أحدٌ  
 حيٌّ! قالت تحدياتهم الجائعة. كانت هي تبثسم بتأدُّب، بكتفيها  
 متراجعتين، وكأنها تقف لثَرَسَم في بورترية. ورداؤها الأبيض، مربوطاً  
 أسفل الصدر بعقدة بنفسجية، يخفي كل انحناءتها. كانت هي حقاً،  
 ومع ذلك شيءٌ ما في غاية الاختلاف. لم أستطع تبيُّنه. تحدّئي! صليتُ،  
 دعيني أسمعك تضحكين!

انسللتُ صاعداً الدَّرَج، مخفياً أصواتي كما كنت أفعل وأنا أتسلَّل  
 إلى منازل سانت غال في أواخر الليل. كان عنقها طويلاً للغاية. تلك  
 اللطخة تحت أذنيها، حيث ينتهي شعرها المشبوك في سهمٍ من  
 الرغب الفضي، الناعم، كانت أكثر ما أحبُّ وضع أذني عليه.

درتُ من خلفها، ولوهلة وقفتُ على بُعد إنشأت فحسب منها.  
 سمعتُ أنفاسها: الانسحاب عميقاً داخل أنفها، انفراج شفيتها، الزفير  
 الدافئ عبر فمها، الرداء الناعم على جلدها فيما كتفاها تصعدان  
 وتهبطان.

ثم خَطَّت هي ورجل شاب من المجموعة هابطين الدَّرَج. وضع  
 يداً عبر ظهرها لتوجيهها: أنطون ريش، أدركتُ، ووجدتُ نفسي  
 أعجب بحاجبيه المُشدَّبين، ببياض أسنانه. كان رجلاً بالضبط قَدَر ما  
 أخشى: متأنقاً وطويلاً. أضفى عليه جبينه النافر وعيناه الغائرتان  
 وسامةً، لكنه كان ناعساً بعض الشيء، وكأن خطواته المتهادية تتَّجه  
 به نحو الفراش. لبضع دقائق تعقَّبتُهما خلسةً، وتوالفت أذناي على  
 كل صوتٍ يصدرانه. عندما يقابل أنطون ضيقاً، كان يمدُّ يده وكأنه  
 يبحث عن مكان لإراحتها فحسب. عندما يتحدث إليه أحد، كان  
 يُبدي إيماءات متتابعة تجعله ينحني أقرب وأقرب إلى فم المتحدث  
 حتى يبدو على استعداد للارتقاء بين ذراعيه. ثم يعتدل مُجدداً، فقط

عندما يكون مستعدًا للتحدث بدوره، وهو ما يفعله ببطء، بنبرة أرسقراطية. "لقد سمعتُ الكثير عنك من أمي. كم هو لطيف أن أتعرّف إليك أخيرًا"، قال لأحد الضباط. "مُدْهَش ما تقوله"، لرجل أعمال. "حسب ما أفهم، فيينا نحتاج إلى مزيدٍ من الرجال أمثالك".

كان يهمس أحيانًا في أذن أماليا. "لا يوجد رجل في هذه القاعة يحظى بزوجةٍ تفوقك جمالًا"، قال. "تعرفين، الجميع يقولون هذا". "هل أقام أيُّ أحد من قبل حفلة كهذا؟ من أجلك أنتِ فحسب"، قال بعد برهة، "ومن أجلي أيضًا، بالطبع". تركت نفسها تُقاد بيده وكأنها مُسرَّمة. ورغم مجاهدي لسماع صوتها، لم تتحدّث أماليا قط؛ عندما تقابل ضيقًا جديدًا، كانت ثنانيا وجهها تلين بشكل طفيف، ثم تعود بسرعة إلى بورترية الصبر الخمول.

تناولتُ كأس شمبانيا ورفعتُه أمامي؛ شجيرة رفيعة لأختبئ خلفها. خطوطٌ إلى بضع خطوات منها. لوَحْتُ بالكأس جيئةً وذهابًا أمامي وثبُتُ عينيَّ عليها. كان زوجها مستغرقًا في الحديث؛ لهذا لم ينظر في اتجاهي، لكنني نجحتُ أخيرًا في جذب انتباهها. تلاقى أعيننا للمرة الأولى منذ كنّا أطفالًا. اشتعلت الدماء في عروقي.

كانت عيناها خاويتين. لم تتعرّف إليّ. مجرد غريب يقف أمامها.

لكن هذا أنا! أوشكتُ على الصراخ. حبيبكِ لليالٍ كثيرة! لكن لو كنتُ فعلت هذا لخسرتها مُجددًا. عوضًا عن هذا، ابتسمتُ. لوَحْتُ بيدي. أومأتُ برأسي. تورّد وجهها واستدارت مُبتعدةً.

"ليست هذه يا أحرق". كان مُعلّمي بجواري بغتةً، هامسًا في أذني. "هذه محجوزة لسادة الصيد. أولًا، لا أمل لديك. امرأة كهذه لن تتحدّث معك حتّى. ثانيًا، غمغم، "إذا ملحت امرأة ريشر كيف تنظر عيناك إلى جواهرها، ستنتزعهما من محجريهما".

رجوتُ من سيدي أن يُقدِّمني إليها على الأقل، لكنه هزَّ رأسه وطقطقَ بلسانه. "لا بُدَّ أن أقول، على أقل تقدير، عيناك جميلتان. وهي حقًّا أبهى فريسة في القاعة. لكن انس الأمر. ليست لك". ابتسم جواداني مُجدِّدًا إلى أماليا. "رغم أنه ربما، عندما يحين الوقت، سأريك كيف تُنجز الأمر. لكن ليس الآن. الآن هو وقت الضرب في مكان آخر".

خطا مُندفعًا عبر القاعة، وكان انسلاله ثابتًا العزم كافيًا للإعلان عن نيَّته أمام الحاضرين. سكتوا جميعًا واحتشدوا حول البيانو القيثاري في نهاية قاعة الرقص. ظهرَ جلوك بنفسه وجلس إلى لوحة المفاتيح.

امتلأت قاعة الرقص بأصوات تبديل الأقدام، وحفيف الأردية فيما يتكاثف الجمهور، بهتافات خافتة تقول "جواداني! سيغني!". أغلقتُ عينيَّ لوهلة؛ لحجب كل ذلك عن أذني. بالنسبة لي، لم يكن هناك سوى إنسانة واحدة في قاعة الرقص تلك، وكانت صامنة.

فيما يبدأ جواداني أغنية (أرميدا التي لا ترحم *Armida dispietata!*) من أوبرا *Rinaldo*، غادرتُ الدَّرج وانضممتُ إلى الحشد. اندفعتُ عبرهم. ضغطتُ بمرفقيَّ على ظهور السيدات، وقفتُ أمام الجنرالات المتقوسين، جذبتُ الأكمام. كان هؤلاء البشر بالنسبة لي كالأشجار في الغابة.

ثم صرْتُ وراءها مُجدِّدًا، قريبًا منها للغاية لدرجة أنه كان بمقدوري تقبيل أسفل عنقها. وقفَ زوجها -الذي كان بنفس طولي تقريبًا- بجوارها، لكنهما لم يتلامسا. أغلقتُ عينيَّ. في عنقها، في التجاويف الناعمة تحت فكَّها، سمعتُ الصدى الهامس لغناء جواداني. احتجتُ إلى كامل تركيزي لأقبض على الصوت، ثم تشبَّثتُ به، من أجلها.

\* \* \*

لكن حينها لم أستطع منع نفسي. كان صوت جواداني في غاية الضعف. تلاعبَ بذلك الجسد بخرقٍ؛ ولهذا فتحت حلقي مقدار شعرة؛ أفلت أوهى صوت، لم يسمعه أحدٌ وسط الموسيقى. لكن ذلك الصوت الخافت احتواها. لامس العضلات الطويلة، الضيقة على ظهر ذراعيها، تحرّك ذراعاها برفقٍ إلى الخارج، كجناحين يستيقظان. تنهّدت للمرة الأولى تلك الليلة، تعمّقت أنفاسها، وسمعتُ أنها كانت قد استيقظت على أغنية جواداني. أفلتها لتسمعها. جلجلَ حسدها.

وحينها، بدأت في البكاء. أفلتت جهشةً مع زفيرها. رغم أنها ضغطت بإبهامها على شفثيها، لم تستطع كتم الأنة الخافتة، التي قبضت على قلبي وخنقته. تحرّر الحزن المختزن داخلها -انتثر حسدها قليلاً- بفعل الموسيقى التي ترنّ عبر جسدينا. ثم لم تستطع تحمّل المزيد. اندفعت عبر الحشد وانطلقت خارجةً من القاعة، وقد بانَ عرجها الآن.

تطلّعتُ إلى جواداني. رآها الطواشيّ العظيم تهرع، وابتسمَ فيما يغني؛ ذلك أنه كان جعلَ ألف امرأة أخرى تبكي أيضاً، وها هو، فُكّر، قد امتلكَ روحاً جديدة.

شاهدَ أنطون أيضاً زوجته ترحل، وبعد أن اختفت، استدارَ وحطّت تحديقته على وجهي. ربما بدوّث مذعوراً؛ لأنه ابتسم بحنو، وكأنه يقول، أوه حسناً، هناك حزن بحق في هذا العالم. لكنك وأنا، على الأقل، راضيان.

انتهزْتُ الفرصة. تراجعْتُ، واندفعت عبر الزحام.  
تبعْتُها.



## (11)

كنتُ ذلك الشبح المُدرَّب جيّدًا. أنفاسي تيارات هادئة من الهواء. أنصتُ إلى الأقدام المتدفّعة، لكن المنزل كان خاويًا؛ حتّى الخدم كانوا ينصتون إلى جواداني يغنّي. وصلتُ إلى بهو المدخل، رفعتُ بصري إلى الدّرج المهيّب. سمعتُ خطواتها غير المستوية بعيدًا في الأعلى، فبدأتُ في ارتقاء الدّرج. كتمّ السجاد السميك كل خطوة. لم يصرّ الدرايزين. حولي، هسهست المصابيح. عند الطابق الأول، توقّفتُ. كانت هناك غرف كثيرة للغاية في المنزل، تكفي لجيش من آل ريشر. بورترهات عتيقة كانت تتدلّى على كل حائط، وشعرتُ بأعين آل ريشر الأموات تراقبني.

في الطابق العلوي أغلقتُ عينيّ. سمعتُ نحيبًا مكتومًا على يساري. بعد بضع خطوات، انعطفتُ الرواق. رأيتُ جناحًا طويلًا، وأدركتُ أنه لا بُدّ كان حيث يعيش أنطون وأماليا.



كان الباب الأخير مواربًا، واندفعت ناحيته كرجل ظمآن ناحية نبع. سأحتويها في ذراعي! لكنني أجبرت نفسي على إبطاء الخطوات؛ كان الخدم يصعدون الدّرج بالفعل خابطين بأقدامهم؛ انتهت المعزوفة القصيرة. أجمني التعقل: لا أستطيع إجفاليها؛ صرخة واحدة ستدمر كل خططي. انسللت بخفة إلى غرفتها.

كانت مستقبلية على فراشها، بيدها على وجهها، ورداؤها مسفوح عبر جسدها.

توقفت عند العتبة. أدركت على الفور ما الذي تغير فيها: شكل جسدها. كان رداء المولسين الرقيق يستلقي منبسطًا عليها الآن، ورأيت أن بطنها كانت متكورة، حيث كانت مستوية فيما مضى.

استولت عليّ حرارة مباغته؛ ذلك أنه كان هناك الكثير جدًا لأستوعبه في لحظة واحدة: الطفل الذي ينمو في داخلها، الفعل الذي كان خلقه، وما يُثله من أسرة مستقبلية. جسدك لن يسمح لك أن تكون أبًا، قال رئيس الدير قبل سنواتٍ طويلة، وهنا والآن، يتجسد الدليل على عجز أممي، بما لا يدع مجالاً للشك. لثوانٍ طويلة لم أستطع التنفس. كانت تبكي بعنف في يديها، والحزن يفيض منها، وشيئًا فشيئًا انتصرت أذناي على عيني. تذكرت تلك المرأة الصامتة في قاعة الرقص، لا مبالية كجرس مكتوم. هذه الدموع كانت من أجلي! دفعني هذا لأتخذ خطوةً أخرى إلى داخل الغرفة. فتحت ذراعي. لكنني حي! كنت سأهتف.

لكنني كنت تأخرت كثيرًا. سمعت خطوات أنطون البطيئة يصعد الدّرج. كان يصفرّ لحنًا لهاندل بإيقاع نشار. لا ينبغي أن يجدني هنا. تراجعت بسرعة إلى الرّواق وانسللت عبر الباب التالي، بالضبط فيما صفيره ينعطف عند الزاوية.

\* \* \*

لم يؤدّ الباب إلى مَخرج، بل إلى غرفةٍ أخرى. كانت مظلمة، لكنني استطعتُ تبيّنُ أنني في غرفة أطفال. بحثتُ باهتياج عن مخرجٍ آخر، بمعدتي تزد، لكنني لاحظتُ أن الباب الآخر الوحيد يتصل بغرفة أماليا.

"يا له من مُغزٍّ!" سمعتُ أنطون يهتف من الجانب الآخر من الباب. "صوتٌ كشعاع الشمس في الصيف!"

سمعتُ حفيفَ ثقلبها على الفراش، وتيقّنتُ أنها كانت تمسح الدموع عن ذلك الوجه الجميل.

"تشرين بتوعك مُجدّدًا، أليس كذلك؟" قال.

"لا حاجة بك إلى أن تقلق."

"الموسيقى؟" سألتها مُتشكّكًا. "هل يمكن أن تكون الموسيقى حقًّا؟"

"أخبرتكَ... لا حاجة بك أن تقلق."

خطوتُ ببطء إلى الباب وتلصّصتُ عبر ثقب المفتاح. كان أنطون يقف في منتصف الغرفة، وكان أمامه خطأ لا يُسمح له بتجاوزه: هوّة. هز رأسه. "حقًّا، هذا أمرٌ عليك أن تتجاوزه."

"لن أتجاوزه"، قال، بانفعال. "أخبرتكَ بذلك من قبل."

"أماليا، لا تكوني حمقاء"، قال موبّخًا. "لا أحد يكره الموسيقى الجميلة".

"لا يمكنك تغييرني".

تصلّبت عيناها، وومضت ابتسامةً عبر وجهه. أوه، بدا أنه يقول، أنال كل ما أريده. سترين.

"حسنًا"، قال. "لن أحاول تغيير الأمر. اكرهي أيّ صوتٍ تسمعيه إذا شئت. لكن أماليا، حقًا، عليك أن تكون عقلانية. لا يمكن للمرء أن يستمتع بحياته دائمًا. هناك مسؤوليات".

سمعتُ صوتَ ترحلها على الفراش. هل تجلس مُعتدلة الظهر الآن؟ "أنطون، عندما انتزعنتي من منزل أبي"، قالت، "هل تتذكّر ماذا قلتُ؟" أيّ شيء تريدونه. في فيينا ستكونين حرةً".

"وأنتِ حرةٌ حقًا"، قال، مُبتسمًا ما يزال، لكن غضبه لم يكن بعيدًا عن السطح. "هل أمتنع عنك أيّ شيء؟".

"تحرمني حرية التّسكّع في المدينة. أن أستقلّ عربةً بمفردي".

"أماليا، حقًا! أنتِ سيّدة راقية من آل ريش. لستِ في قرية جبلية في سويسرا. انظري حولك! أمتحك كل ما تتوقّين إليه. تلك العربة التي تتذمّر من هنا لا تقلّ فخامةً عن عربة أيّ أميرة. هذا المنزل، هذه الملابس! جايتانو جواداني يغني من أجلك. وأكثر من هذا. في ذلك العرض الافتتاحي ستجلسين أمامهم جميعًا، فيما هم...".

"عن ماذا تتحدّث؟ أيّ عرض افتتاحي؟".

جفّل أنطون. لقد أخطأ في الحديث.

"أجبنني". طقطقَ الفراش فيما تقف.

"أورفيوس الجديد، بالطبع". قال مُثرثرًا. "بالتأكيد سمعت عنه شيئًا".

"لكننا لا نستطيع الذهاب". كانت صوتها فاترًا، خائفًا.

"ولمَ لا؟". ابتسامة رقيقة، بريئة.

"لأننا سنرحل".

مكتبة

t.me/soramnqraa

هَزَّ أَنْطُونُ رَأْسَهُ، وَابْتَسَامَتَهُ الْمُتَعَالِيَةَ تَتَّعِ أَكْثَرُ وَأَكْثَرُ. "أَمَالِيَا"، قَالَ.

"وَعَدْتَنِي أَنَّنَا سَنَرْحَلُ عَنْ قَبِيلِنَا!" هَتَفَتْ بِعَنْفٍ مَفَاجِئٍ. اتَّخَذَتْ بَضْعَ خَطَوَاتٍ نَاحِيَتَهُ، دَالِفَةً إِلَى مَجَالِ رُؤْيَتِي. كَانَتْ عَيْنَاهَا مَا تَزَالَانِ حَمْرَاوَيْنِ مِنَ الدَّمُوعِ، لَكِنِ الْغَضَبُ كَانَ الْإِنْفِعَالَ الْمُسَيِّطَرَ الْآنَ. تَرَاجَعَ خَطْوَةٌ صَغِيرَةً لِلْخَلْفِ. "لَسْتُ فِي حَالَةٍ تَسْمَحُ بِالسَّفَرِ".

"أَنْطُونُ! لِهَذَا أَرَدْتُ السَّفَرَ قَبْلَ شَهْرٍ!" قَبَضَتْ يَدَاهَا عَلَى رَدَائِهَا وَكَأَنَهَا تَرِيدُ تَمْزِيْقَهُ.

"عَلَى أَيِّ، فَاتِ الْأَوَانِ الْآنَ". حَاوَلَ أَنْ يَتَنَاوَلَ يَدَيْهَا، لَكِنَهَا دَفَعَتْهُ بَعِيدًا.

"لَمْ يَفُتْ!" لَوْهَلِي تَوَثَّرَ وَجْهَهَا وَقَاوَمَتِ الدَّمُوعُ. "لَا بُدَّ أَنْ أُخْرَجَ مِنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الطِّفْلُ". أَشَارَتْ بِإَصْبَعٍ أَتْهَامِيَّةٍ فِي وَجْهِهِ. "وَعَدْتَنِي أَنَّنَا سَنَنْقُضِي الشِّتَاءَ فِي الرِّيفِ".

"لَكِنِ أُمِّي...".

"الْلعنة عَلَى أُمِّكَ!".

"أَمَالِيَا!" قَبَضَ عَلَى ذِرَاعِهَا وَهَزَّهَا بِعَنْفٍ. رَفَعَ يَدَهُ الْآخَرَى إِلَى أُذُنِهِ، وَكَأَنَّهُ عَلَى وَشَكِّ أَنْ يَضْرِبَهَا.

أَمْسَكَتُ بِمَقْبِضِ الْبَابِ. إِذَا جَرَوْ، فَكَّرْتُ.

لَكِنَهَا نَظَرَتْ فَحَسَبَ إِلَى يَدِهِ الْمُنْتَصِبَةِ. كَانَتْ عَيْنَاهَا جَلِيدًا.

ارْتَجَفَ جَسَدُهُ مِنَ الْغَضَبِ. أَفْلَتَهَا. لَكِنَهَا لَمْ تَرَاجِعْ، بَلْ ظَلَّتْ تُحَدِّقُ فِي عَيْنَيْهِ.

"لَا يُمْكِنُ أَنْ نَرْحَلَ فَحَسَبَ بَعْدُ"، قَالَ بِأَقْصَى مَا يَسْتَطِيعُ مِنْ هَدُوءٍ. "تَرُغِبُ أُمِّي فِي بَقَائِنَا مَعَهَا لِبَضْعَةِ أَصَابِعِ أُخْرَى...".

تلقّظت أماليا بكل كلمة بوضوح. "لن أكون بقرّتها السمينّة لأشارك في...".

"أماليا، لم تعود في سانت غال"، قال مُوبُخًا. "هذه فيينا. أنبّ واحدة من آل ريش. لا بُدّ أن تستوعبي وضعك. عائلة ريش سيكون لها وريث. هذا شيء جليّ للغاية في جسدك، وفي العرض الافتتاحي ستجلس الإمبراطورة قُبالة مقصورتنا. لا يمكنك لوم أمي على القَدَر الذي اخترته بالفعل".

بدت هذه الكلمات وكأنها تضربها بقسوة. ذابّ الجليد في عينيها إلى دموع.

"لا"، قالت بهدوء، فيما تهزّ رأسها بحزن، وتعضّ على شفتها. "لا، لا أستطيع. ليس أمامي سوى الرّبّ لألومه على ذلك".

"إذا كنتِ تعيسة يا أماليا"، قال باستياء، "فابحثي داخل قلبك عن السبب".

"أعرف تمامًا لماذا أنا تعيسة"، قالت، وأدارت كتفها إليه، وظهرها إليّ. راقبها بامتعاض. لكن حينها سيطر على نفسه، وتناول يدها.

"وعدتُ أمي أننا سنحضر العرض الافتتاحي بعد ثلاثة أسابيع".

انتزعت يدها. "لم يكن ينبغي أن تعدها. تعرف أن هذا عذاب بالنسبة لي. لن أذهب".

"لا بُدّ أن تذهبي"، قال. "إذا أغضبتها، فلن تسمح لنا بالرحيل أبدًا".

استدارت إليه، ببعض الرعب في عينيها الآن. "تسمح لنا بالرحيل؟ هل تتحكّم في حياتنا؟".

"أظهري بعض الاحترام!" استمرًا في التحديق لبعضهما البعض، ومُجددًا، كان هو مَنْ أرخى تحديقته. حدَّق بغضبٍ في الحائط. تمعَّنت فيه. أخيرًا، هرَّت رأسها برفقٍ من جانب إلى آخر.

"إذا وافقتُ على الذهاب"، قالت بحذر، "يمكننا الرحيل في اليوم التالي مباشرة؟".

"نعم، بالطبع"، قال بسرعة.

"إذا حُزِمَت أغراضنا"، قالت، "وتهيأ كل شيء للرحيل، سأذهب إلى العرض الافتتاحي، رغم أنني سأكره كل لحظة. لكن إذا شعرتُ أنني لا أستطيع الثقة في وعدك، سأشتكي من التقلُّصات". خطت ناحية فراشها، عارجةً. عندما حدَّقت عيناه في فخذَيْها المنبعَجَيْن، رأيتُ مجددًا ذلك الأشمئزاز على وجهه.

"حسنًا"، قال بفتور. "أمل أنك تدركين الآن أنه لم يكن هناك سبب للتحدُّث معي بهذه النبرة العنيفة".

سمعتها تهمس حينها، "أتمنى جدًّا ألا يكون أبو طفلي نعجة".

"ماذا كان هذا؟".

"لا شيء. يمكنك المغادرة الآن". لوَّحت بيدها لإبعاده.

"مغادرتك؟ لقد جئتُ لإحضارك. انتهت الحفلة الموسيقية. يمكنك العودة". لم يكن هناك أثر لتلك الابتسامة المتعالية على وجهه.

"لا أريد أن أعود"، قالت.

"لا بُدَّ لك".

استدارت للحملقة فيه مُجددًا، لكنها بدت مُتعبة الآن. "سألحق بك سريعًا"، قالت.

"سأنتظر".

وقد انتظر حقًا، حتَّى نظَّفت وجهها من الدموع والغضب. تناول ذراعها برفق في ذراعهِ وقادها للخروج من الباب، وكأنها عمياء وكأنه عيناها.

عندما عدتُ إلى الطابق السفلي، قبضَ جواداني على ذراعي فور أن دلفتُ إلى قاعة الرقص. "أين كنت؟ هناك سيدتان تنتظران في العربة"، همسَ في أذني. "سأعلمك الكثير الليلة". جذبني إلى الهواء في الخارج.

لكن فور أن أصبحنا في العربة، وضعني على المقعد المقابل له، بحيث أتمكن من رؤيته بين السيدتين المشرقتين. حملت واحدة من المرأتين بعينين جائعتين فيما يُمسد على فخذ الأخرى. قبل المرأة الجائعة على خدّها لتهدئتها؛ مما أثار الأخرى وجعلها تتسلَّق جِجره. دفعها لإنزالها. "الصبر"، ألخ. "هل هذا يليق بأميرة؟".

عندما وصلنا إلى منزله، انحنى للأمام وهمسَ في أذني، "هاتان الاثنتان ستعاركان كالقطط الليلة. تسكع بالعربة قليلًا. عُد عندما يطلع النهار".

\* \* \*

طوال ساعة قادَ بي الحوذيُّ عبر المدينة، وتفكَّرتُ في إخفاقي. هل ستتاح لي فرصة أخرى أبدًا؟ لعنتُ نفسي على بُطني في التَّصرُّف. وعاهدتُ نفسي أنني أبدًا لن أشكَّ في حبِّ أماليا مُجدِّدًا.

لكن حتَّى فيما أزداد وهنًا ويأسًا تجاه فرصة استعادتها، كان هناك لهيبٌ ما يتصاعد شيئًا فشيئًا داخلي، حتَّى وجدتُ نفسي أبتسم.

طفل! سيكون لديها طفل!

في البداية شعرتُ تجاه هذا بوخزٍ في أعماقِ أعماق عاري، لكن، مع تراجع ذلك الوخز، بدت هذه الحياة القادمة كباشرة أمل.

أتمنى ألا يكون أبو طفلي نعجة، قالت حينها.

في النهاية، أمرتُ الحوذي أن يأخذني إلى سبيتلبرج. أقلتُني حتى بيرجاسه، قبل أن يقول إنه لا يريد كسر عجالات العربية على الشارع المليء بالحفر. ترجلتُ وبدأتُ في السير من هناك.

في الصباح الباكر، كانت السماء ما تزال رمادية. والشوارع القذرة صامتة كما سمعتها دومًا. لم تكن هناك سيداتٌ يُغوين من نوافذ الحانات المتداعية. في مقهاه، استغرق السيد كوست في النوم على مقعد طويل. لم أوقفه فيما أنسلُ صاعدًا الدَّرَج.

نزيل واحد في سبيتلبرج كان مستيقظًا: نيكولاي جالسًا في مقعده أمام نافذة مفتوحة. جلسْتُ بجواره، وحدقنا معًا في بيرجاسه وعبر المدينة. كانت أحجار الشارع القليلة المُتبقيّة تبرز من الأرض كأَسنان قديمة، ملتوية. في الحانات، حفنة مصابيح ما زالت موقدة، وعلى نوافذها يتراكم السَّناج كالجليد.

"أحبُّ أن أجلس هنا وأتنفَّس الهواء"، قال نيكولاي، "قبل أن تطلع الشمس وتؤذي عينيّ. لم تتبقَّ سوى بضع دقائق أخرى. ثم سأغلق الستائر طوال النهار".

لم أقل أيَّ شيء؛ لذلك سألني مُتحقِّقًا، "هل كنتَ في الخارج حتَّى وقت متأخر أم أنك استيقظت مبكرًا؟".

"في الخارج حتَّى وقت متأخر".

"جواداني يأخذك إلى حفلاته؟".

أومأتُ. خرج كلبان من الظلال وأخذَا ينغزان في جُزرِ المخلفات المتعفّنة في الشارع. جلسنا لبضعة دقائق أخرى قبل أن أجد الشجاعة للتحديث.

"نيكولاي، هل تتذكّر عندما أخبرتني أن الحبَّ هو التقاء نصفين؟".



هزُّ نيكولاي كتفَيْه استهانةً. أضفى الضوء الرقيق للشمس الصاعدة على وجهه المنتفخ مزيدًا من الرخاوة، وكأنه قالبٌ من شمعٍ دافئ. "هل قلتُ ذلك؟ أعتقد أنه بمقدوري. ربما قلتُ أشياء أكثر حماسةً طوال هذه السنين"، قال للنافذة المفتوحة. "على أيِّ حال، سيكون بديعًا لو كان حقيقيًا. الحب مثل التقاء القفل والمفتاح! لا يا موسى. أيُّ رجل يقول هذا ليس سوى أحمق. وجدتُ نصفي الآخر قبل عقود، وانظر كيف آلمته. كان ينبغي أن أتركه وحيدًا".

فتح أحدهم بابًا في واحدة من الحانات وترنَّح مُتَّجِّهاً إلى المدينة. كانت في السماء الرمادية الآن لطخاتٌ من الوردِي على طول سطحها، كلمعان الزيت على بركة من الوحل.

"نيكولاي"، قلتُ. "أنا واقع في الحب".

عندما نظرَ إليَّ، بعينيه الكابيتَيْنِ تضيقان في محاولةٍ لرؤية وجهي، كان هناك ذلك الاندهاش الذي خشيتُ أن أراه على وجهه. منِّي أنا، لم يتوقَّع قطُّ اعتراقًا كهذا. لكن ذلك الاندهاش لم يؤلمني كما توقَّعتُ، لأنه مع المفاجأة كانت البهجة الصافية أيضًا.

"واقع في الحب!" قال.

وهكذا أخبرته بكل شيء: عن تلك الفتاة كريمة النَّسَب وأمها المحتضرة، عن المرأة الشابة التي تسلَّلت إلى الدير، عن ليالينا في غرفة العليَّة. أخبرته أنها لم تعرف وجهي، بل صوتي فحسب، أنها دعنتني أورفيوس(ها). حكيتُ له أيضًا عن الأحمق الذي كتَّبه، وكيف أنني أضعتُ فرصتي، وكيف تزوَّجت من أنطون ريشر العظيم من فيينا. كيف ستلد طفلًا قريبًا. أخبرته كيف تظنُّ أنني ميّت، وكيف تحبُّني ما تزال.

"لكن أمامك الآن فرصة أخرى!" قال، وكان أمله في غاية الاتِّقاد، لحدِّ أنه ألهبَ أُملي. "بمقدور أورفيوس إنقاذ يوريديس(ته)!".

بوجه يعلوه العار، أخبرته عن إخفاقي في الحفلة، وكيف أنني خشيتُ ألا أستطيع اقتحام ذلك السجن الذي يُدعى منزلاً مُجدِّداً، حيث يحبسونها. وكيف أنها، قريباً، سترحل إلى الريف.

"إذن فعلينا ألا نضيّع لحظةً أخرى. سندلف إلى ذلك المنزل حتّى لو اضطررنا إلى هدم جدرانهِ!"

شكرته على تشجيعه، رغم أنني كنت أعرف أنهم وحدهم الحمقى سيحاولون تجربة ما يقوله. لكن واثنتي فكرة أخيرة. "ستكون في العرض الافتتاحي للأوبرا بعد ثلاثة أسابيع. إذا استطعتُ أن أتحايل بطريقةٍ ما لإبصال رسالة إليها، بمقدوري إخبارها أن تتسلّل إلى الخارج. ربما نستطيع أن نهرب". ارتعش صوتي فيما أخبر صديقي بأمالي. هل سيراهها حمقاء؟

"ستسرقها في الأوبرا!" هتف، ونظرَ بتمعّن شديد في الفجر وكأنه رأى رؤيةً لنا نحن الاثنين في التدويمات الوردية للسماء.

تعاظمت الاستثارة داخلي، كقرع طبول يتزايد شيئاً فشيئاً. سأكون أورفيوس(ها) وأختطفها خفيةً! لكنني قمعتُ قلبي. "نيكولاي"، قلت. "الحذر ذو أهمية قصوى. إذا راوَدَت الكونتيسة ريشر شكوك حيال أيّ شيء، فربما لا أراها مُجدِّداً أبداً".

"الحذر؟" قال. تفكّر قليلاً. "ربما علينا أن نطلب نصيحة ريموس".

ساعدتُ نيكولاي في شقّ طريقه إلى غرفة ريموس. فراشٌ ضيق كان يشغل معظم المساحة، فيما تشغل أكوامٌ من الكتب ما تبقى. تعرّض نيكولاي فوقها، وأوشك على السقوط فوق الفراش، وعند صرّ إطار الفراش، جفّل ريموس مستيقظاً في اللحظة المناسبة بالكاد لتجنّب الانسحاق تحت نيكولاي، الذي رفرق كسمكة هائلة تحاول الانقلاب عائدةً إلى التبع. عندما تموضع أخيراً على الفراش، تحسّس بحثاً عن

قميص ريموس. هزّ الرجل الأصغر حجماً. "ريموس، استيقظ! موسى واقع في الحب! في الحب! استيقظ!".

"أنا مستيقظ"، قال ريموس، دافعاً يديّ نيكولاي بعيداً عن حلقه. "تولّيت ذلك".

"إذن فانهض وارقص! إنه حقيقي؛ وهي واقعة في حبّه أيضاً! داوماً طوال سنين على التلاقي سرّاً في غرفة عِلْيّة وكان يغني لها حتى تبكي. إنها جميلة كأميرة، وأفضل ما في الأمر أنها هنا، في قُبينا! متزوّجة بـرجل أثيم. علينا أن نُنقذها ونلّم شملهما". كاد أن يُغمى على نيكولاي من الانتشاء.

"إنه... ليس أثيمًا بالضبط"، غمغمتُ.

"أوه، وكدتُ أنسى الجزء الأكثر رومانسية"، أضاف نيكولاي. كانت يداه قد تركتا ريموس المبهوت ما يزال، وامتدّتا إلى الفراغ من حوله، في محاولة لاقتناص شمسٍ بعيدة ما. "إنها لا تعرف وجهه".

"لا تعرف وجهه؟" سأل ريموس.

"كانت ترتدي عِصابة على عينيها".

"عِصابة؟ لماذا؟" استدار ريموس إليّ، واحمرّ عنقي.

"لا يهم لماذا"، قال نيكولاي. "المهم أنها تعرف صوته، تعرفه أفضل ممّا يعرف العشّاق وجوه عشّاقهم. كل ما يحتاجه هو أن يتحدث... أو يُغني! وحينها سيستعيدنها وسيمكنهما الهروب!".

لوّح نيكولاي بذراعه وحاول أن يشير إلى هروينا البعيد. أسقط مصباح ريموس المطفأ. تهشّم الزجاج على الأرض.

"هلاً توقّفت عن الحركة!" هتف ريموس.

"كيف لي أن...".

"وَكُنْ هَادئًا! أريد أن أتحدث إلى موسى". تَطَلَّعَ إِلَى رِيمُوسَ بِتَجَهُمٍ.  
"هل ما يقوله صحيح؟".

"ليس رجلًا أثيمًا، أنطون ذاك". قَلْتُ. "الباقى حقيقى في مُعظمه.  
إنها لا تحبُّه. هذا ما أعرفه".

"وأنت متيقن أنها تحبك؟" سألني. "موسى، هذه مسألة خطيرة.  
هل ستخون زوجها وعائلتها حقًا؟".

انتظرَ كلاهما إجابتي. لحظة كانت كل ما أحجاجة لأراجع تاريخ  
حبنا بالأصوات. "أنا مُتَيَقِّنٌ"، قلت. صَفَّقَ نيكولاى بيديه، ورِيمُوسَ  
نفسه ابتسم.

"إذن فسأكتب رسالة"، قال.

"رسالة؟" سأل نيكولاى. "لكن ريموس، كتابتك رتيبة للغاية".

"هذا لا يهم"، قال. "الأمر بسيط. ستنقل الرسالة الحقائق فحسب.  
موسى حيٌّ. وهو، أيضًا، سيحضر الأوبرا. عليها أن تتسلل خارجةً في  
لحظة بعينها".

"عندما يتطَلَّع أورفيوس في عينيَّ يوريديس!" همسَ نيكولاى.

"أو في أي لحظة أخرى"، قال ريموس. "لن يُحدث ذلك فرقًا".

"لن يحدث فرقًا"، وبَّخه نيكولاى. "ريموس، ضيَّعت وقتك على كل  
هذه الكتب التي قرأتها". وابتسمَ نيكولاى مع المزحة. لكنَّ وجهه  
أظلمَ بغتةً. "لكن ريموس، هناك مشكلة في حُطَّتِكَ. شيئًا أغفلته.  
كيف ستصل الرسالة إليها؟".

أومأ ريموس إليَّ إيماءة العارف.

"سيضعها موسى في يديها بنفسه".

"أنا؟".

"نعم"، قال ريموس. "أنت تلميذ جواداني، رسوله. أنت وحدك يمكنه الولوج إلى أيِّ مقصورة في الأوبرا. يمكنك تسليم خطاب إلى الإمبراطورة. ستُخبر أيُّ شخص يسألك أنك تحمل خطابًا إلى السيدة من الفنان المبدع ذاته. سيظنون أنها أثارت إعجابه فيما يقف على خشبة المسرح".

"ريموس"، قال نيكولاي، "هذا عبقرى!".

ابتسم ريموس بزهو.

وهكذا رُسِمَت خُطتنا، ولم يتبقَّ أمامي سوى انتظار العرض الافتتاحي.

## (12)

قابلتُ إلهة الحبِّ لأول مرة ذات ظهيرة فيما تاسو وجلوك يحاولان تعليمها الطيران. فيما ندلف أنا ومُعَلِّمي إلى المسرح، كانت لوسيا كلافارو البدينة تقف في منتصف خشبة المسرح بجناحين مُنَمَّيْن مُتَبَتِّين في ظهرها. «يا إلهي»، غمغم جواداني. «ألا يدركون أن الدُّبَّ بجناحين يظل دُبًّا؟».

"لكنك ضئيل جدًّا"، قالت لتاسو، بعد أن رَبطها في حبال الرفع، "سُئِسقي...".

أطلقت صرخة سوبرانو مُجلجلة فيما تاسو يُحرِّر الوزن لرفعها إلى السماء. تَارجَحَت عبر خشبة المسرح.

"لا تتلوي!" هتفَ تاسو.

"أنزلني!" صرَّخت.

جذب ناسو حبلاً آخر وتقوّست هي، صارخةً وخابطةً بقدميها،  
عائدةً عبر خشبة المسرح.

"أنزِلْها"، قال جلوك لتاسو. "تبدو كحشرة أكثر من كونها إلهة  
للحب. سنضعها على قاعدة".

كانت عروس أورفيوس، ماريانا بيانتشي، هزيلة وشاحبة، بصوتٍ  
بديعٍ سرعان ما أفاض الدموع في عينيّ. طوال حياتي نادراً للغاية ما  
سمعتُ امرأة تُغني، وتيقّنتُ بغتةً أن أمي كانت لتُغني هكذا. أثناء  
البروفات كل ظهيرة، كنتُ أجلس مع تاسو، أو في جانب المسرح في  
انتظار حضور مُعلّمي. كانت إيطاليّتي جيدة الآن بما يكفي، وإيطاليّة  
كالزابيجي بسيطة بما يكفي، لدرجة أنه بعد الأسبوع الأول من  
البروفات لم أعد أفهم القصة فحسب، بل صار بمقدوري الغناء بجوار  
جواداني بصوتٍ خافت. تبيّنتُ الجمال والنواقص في صوته.

"سيدي"، قلتُ بحذرٍ شديد ذات أمسية في طريقنا للعودة إلى  
منزله، "يا له من شرفٍ أن أسمعك تُغني".

انحنى بلا مبالاة من مقعده.

"أتساءل إن كان بمقدوري، ربما، أن أسألك سؤالاً".

رفعَ جبينه.

"كان الفصلان الأولان رائعتين بحق، ألا تظنّ أن الفصل الثالث كان...  
كان... أكثر ممّا ينبغي؟".

"كان (ماذا) أكثر ممّا ينبغي؟" قال باندفاع.

بحثتُ عن الكلمة المناسبة لوصف ما أعنيه. "عاليًا... أكثر ممّا  
ينبغي؟".

"عاليًا أكثر ممّا ينبغي؟" استدارَ، وجعلني الوميض المهتاج في عينيه  
أترجع لألتصق بالباب.

"ليس عاليًا أكثر مما ينبغي، على وجه الدقة"، تراجعت. "لكن... لكن عاليًا فحسب. لديك أجمل صوت سمعتُ قطُّ يا سيدي، لكن، حسنًا، ربما إذا كبحتَ لجام صوتك في مواضع بعينها، فإن جهازة صوتك المحدودة ستكون أكثر إقناعًا".

"جهازة صوت محدودة؟" حلق جواداني إليَّ وكأنه يشهد دودة مُقرَّزة تزحف خارجة من أنفي.  
"حسنًا، وفير جدًا. لكن...".

انحنى للأمام. أدركتُ أنه كان يرتعش من أعماقه. "كيف تجرؤ! أنت!" هتف. "أنت لا تفقه شيئًا! لا تفقه شيئًا!".  
"أنا آسف"، لوحتُ بيدي، على أمل صد هجومه. "لم يكن ينبغي أن...".

رفعه غضبه عن مقعده بحيث صار يعلوني بجسده. "لا تعرف عن الأوبرا أكثر من الأمراء الحمقى في تلك الحفلات. أنت مجرد مُغني جوقة شقٍّ من أجل متعة منحرفة لأحدهم. طواشيُّ مُدُل لأحدهم فرًّا هاربًا". أخذ بضعة أنفاس عميقة. عندما تحدث، كان صوته المخملي يتماوج من الغضب. "أبدًا"، اقترب وجهه من وجهي بشدة، لدرجة أنني ظننتُ أنه سيعضني- "أبدًا لا تخبرني مجددًا بما تراه".

\* \* \*

لم أفعل قطُّ، لكن لاحقًا، كثيرون جدًا سيفعلون. سيعود إلى لندن، ورغم أنهم في البداية سيحتفون به كابنٍ منتصر وقد عاد، إلا أن صوته سيفشل في أن يكون ذلك الصوت الذي طالما حَلُمُوا به. فرًّا إلى "بادوا" وإلى العزلة، حيث مات مُعدمًا، بعد أن تفرقت ثروته بين المخصيين البائسين الذين أحاطوا به كتلاميذ. كانت بهجته الوحيدة،



في أعوامه الأخيرة، تقديم عرض عرائس منفرد بشكل منتظم لأوبرا جلوك العظيمة، سيتذكّرهُ الناس ذلك العرض لاحقًا كمُنجزه الأفضل. حتمًا قرأت الكثير عن العرض الافتتاحي لهذه الأوبرا. في غضون أسابيع فحسب صارت أوروبا كلها تتحدّث عن نجاح جواداني وجلوك. لكن عليّ أخيب أملك: لم يكن شيءٌ من هذا حقيقيًا. لم تكن كل الحكايات زائفة فحسب -لأنه في تلك الليلة الشهيرة في أكتوبر 1762 تتابعت الأحداث على خلاف الراوية الرسمية- بل كانت زائفة بشكل مُضاعف؛ لأن تلك الليلة لم تكن -في واقع الأمر- عرضًا افتتاحيًا على الإطلاق. انعقدَ العرض الافتتاحي الحقيقي قبلها بعدة أيام. لم تكن الإمبراطورة حاضرةً، ولا حتّى المؤلف الموسيقي. في واقع الأمر، كان المكان الذي انعقد فيه العرض ردهةً ضيقةً في سبيلبرج. لم يضمّ الجمهور الرسمي سوى ثلاثة: عامل مسرح قزم لا يعرف أيّ إيطاليّة، كان يظنّ، قبل شهرين فحسب، أن أورفيوس نوع من الأزهار؛ وراهب سابق مُصاب بالزُهري؛ وذئب مولع بالكتسب يعرف اثنتي عشرة نسخة من حكاية أورفيوس، وبمقدوره سرد أعمال أوفيد وفيرجيل بأيّ لغة تشاء.

جلبتُ أربعة أكواب من السحر الأسود. أدركتُ مقعد نيكولاي ناحية خشبة المسرح المرتجلة التي صنعتها على المدفأة الفارغة. طلبتُ من ريموس إغلاق كتابه، ثم أخبرتُ تاسو أن أورفيوس كان أعظم موسيقي عرفته البشرية، وأنه عاش منذ زمن طويل جدًّا، جدًّا، لكنني سأعيده إلى الحياة تلك الليلة. شرحتُ له أن زوجتي المحبوبة، يوريديس، ميّنة. "إذن ما المغزى؟" قال تاسو. "لماذا لا تُغنّي عن شيءٍ آخر؟".

هزّ نيكولاي رأسه. بدأتُ الغناء.

لم يكن أعظم أداء في حياتي. لم تعزف الأوركسترا ولم تُردّد الجوقة إلّا في رأسي، وبالتالي سمعَ جمهوري لحظات طويلة من الصمت. عندما

بدأت، في الحقيقة، رفعت قبضتي أمام قلبي ولم أتحرك - كما كنت أرى جواداني يفعل على خشبة مسرحة - طوال الدقائق الأربع من افتتاحية الجوقة. لم يسمع جمهوري سوى صيحاتي الثلاثة *Euridice*! التي غنيتها، كما كان جلوك قد أرشد جواداني، "وكان أحدهم يقطع بمنشار عبر عظامك". تخشب نيكولاي مع كل صيحة، واتسعت عينا تاسو عن آخرهما.

كانت ليلة دافئة، والنوافذ مفتوحة. عبر الهواء تسربت إلينا هتافات أطفال مُتقطعة، سباب سكارى، إغواءات عذبة، وآهات لدّة، لتذكّرني أنه في ذلك المكان لا يحتاج أحدٌ إلى إخفاء أصواته. يتوق صوتي إلى أن يختلط بكل الأصوات الأخرى فحسب. لكن من سيكثر ليُنصت؟

لكنني كنتُ مخطئًا: فيما أغني للعملاق والذئب والقزم في ردهة الاستقبال تلك، مُناديًا على عروسي الميّتة، ترّكت العائلات مناضدها المزدحمة وحطت نحو نوافذها، في محاولة للتعرف على هوية ذلك النائح. توقّف الأطفال في الشوارع عن لعبهم. أنزل الرجال جعّتهم ورفعوا أبصارهم إلى السماء. أيقظت هذه الصيحات على محبوبتي كل قلبٍ في ذلك الحيّ.

لم أدرك حينها أن أحدًا يسمعي خارج المسكن. في مسرح عقلي، غادرت الجوقة خشبة المسرح، وصرتُ أنا، أورفيوس، أقف هناك وحيدًا. كانت يوريديس قد انتزعت مني بقسوةٍ إلى موتٍ بلا يقظة. غيبتُ عاليًا من أجلها. ثم، مع تصاعد موسيقى الأوركسترا، شعرتُ بحزني يتحوّل إلى غضبٍ أنقى مما عرفتُ قط. أبغضتُ تلك الآلهة الجشعة لما سرقته مني.

تخذرت يداي فيما أغني. عندما فتحتُ عينيّ مُجدّدًا، كان تاسو ينكمش في مقعده تحت بطش صوتي. جلبتُ لعناتي الأكواب الفارغة

المستقرّة على المنضدة. في الطابق السفلي، في المقهى، كان الرجال قد توقّفوا عن السّجلات.

انتهيت من غنائي، ولهتُ طالبًا الهواء. صقّ نيكولاي بيديه المنتفتحتين. هزّ رموس رأسه في اندهاش. تطلّع تاسو من أحدهما إلى الآخر؛ ضمّ قبضتيه وفتحهما.

"لا أستطيع أن أغني الثنائيات بمفردي"، قلتُ. ضاقّ جبين تاسو وكأنه يشتمّ خديعة. "لكنني سأخبركم بما تغفلون عنه"، تابعتُ. "حزني كبير للغاية لحدّ أن چوبيتر (كبير الآلهة) قد أشفق عليّ. أرسل بأمور، إلهة الحب، لتخبرني أنني إذا استطعتُ استرضاء ربّات الانتقام (Furies) في العالم السفلي بغنائي، فرّما أستطيع استعادة يوريديس (تي) مُجدّدًا".

ضغطَ تاسو براحتيه معًا وتطلّع إلى رموس، الذي كان خبيرًا في هذه الأشياء. عندما أومأ رموس بتأكيد، نخرَ تاسو.

"كنت أعرف أنها ليست ميّنة حقًا!" قال.

"إنها كذلك"، قلت. "لكن بمقدوري إنقاذها!".

"حسنًا"، قال. "أنا مُستعدّ". قبضَ على ذراعَي مقعده وكأنه يخشى أن أيّا ما سيأتي سيطرحه عن مقعده.

"لكن هناك شرط"، قلت.

تجمّد وجه تاسو. "شرط؟" كرّر.

"نعم، تقول أمور إنه فور أن أستعيدها، لا أستطيع النظر إليها حتّى نغادر الكهوف بعد نهر ستيكس (الجحيمي)".

"لكن لماذا؟".

"هذه مشيئة الآلهة".

"لكن هذا ليس عدلاً؟".

"الآلهة ليست عادلة".

"لكنك ستستعيدها، أليس كذلك؟".

"عليك أن تُنصت".

"إذن فلنبداً على الفور!" قَالَ مُزْمَجراً.

غَنَيْتُ. وفي عقلي، هبطتُ إلى الكهوف الجحيمية. تراقصت ربّات انتقام أنجيولينى (Angiolini) حولي. رَجَوْتُهَا أَنْ تعطف عليّ، لكنها تكاثرت وتصايحت لإبعادي. لم تستطع إخافتي؛ ذلك أن جحيمها لم يكن شيئاً بالمقارنة بجحيم الوحدة داخل قلبي. غَنَيْتُ من أجلها؛ لن تَكُنْ بهذه القسوة فقط لو علمتُ أعماق حبي.

كان وجه نيكولاي مُخَضَّباً. مسح الدموع بظهر يده المتكوّرة. في الخارج، كان الشارع هادئاً أيضاً؛ حشدٌ قد تجمّع حول نافذتنا. تصايح الحوذيون لأنّ عرياتهم لا تستطيع المُضَيّ، وتدافع الرجال للاقترب من النافذة. أخيراً، على خشبة المسرح، توقّفت ربّات الانتقام عن رقصاتها. تراجع الشياطين، مذهولين من وجود حُبّ كهذا في الجحيم. سمحوا لي بالعبور.

انحسرت بوابات العالم السفلي مفتوحةً.

توقّفت. كان هناك صمتٌ في الردهة. ابتلعَ ريموس ريقه، ومسحَ نيكولاي جبينه بكمّته. مضغ تاسو شفته. لم أدعهم ينتظرون. بدأتُ في تلك الأغنية التي كانت أغوتني إلى مرقص جواداني قبل شهرين. غادرتُ الكهوف المظلمة، الملتهبة إلى الحقول الفردوسية الدافئة، الساطعة. كانت السماء صافية، وملاً الأمل قلبي، وفي عقلي، سمعتُ النغمات المنعشة لمزمار جلوك.

كانت أغنيتي دثارًا دافئًا أضعه على أصدقائي. أردتُ طمأننتهم  
كما طمأننتني الموسيقى. أردتُهم أن يشعروا بالأمل الذي كان في قلبي.  
زَمَ تاسو شفتيه، وأغلقَ نيكولاي عينيه وكأنه يتنعم في دفء صوتي.  
انبسطَ جبين ريموس، وارتخت عيناه. أبدًا لم أره وسيما هكذا.

في الخارج كان الليل صامتًا. ستُغيّر هذه الأغنية من حال الشارع؛  
لن أستطيع السير فيه أبدًا دون تحديق الناس، دون همساتهم. إنه  
مَن غنّى في تلك الليلة الخريفية. جعلنا نتوقّف ونُنصت. بتُّ فينا  
العرشة. جعلَ أمّي تبتسم. جعلَ أبي السقيم يغادر فراشه وينصت  
عند النافذة. إنه أورفيوس (نا)! كم كان جلوك ليبغضني، بعد أن أرقّت  
عبقريته على آذانٍ ساذجة كهذه.

ثم هناك كانت هي، في عقلي، ظلُّ شكلها البشري. مددتُ ذراعي،  
لكن فور أن خطّت إلى الضوء -قبل أن أرى وجهها- استدرتُ مبتعدًا؛  
ذلك أنني لم أستطع النظر إليها، وإلاّ ستموت مُجددًا.

عندما انتهيتُ من الأغنية، صارت أنفاس نيكولاي أمواجًا لطيفة؛  
ظَلَّت عيناه مُغلقتين. ربما كان نائمًا. مالَ تاسو مُقترّبًا. "هل عادت؟"  
همسَ. لم يرغب في تعكير صفو الليل.

"نعم"، قلتُ. رفعتُ يدي. "أحملها هنا. إنها حيّة مُجددًا، لكنني  
لا أستطيع النظر إليها، وإلاّ ستموت".

تنشق تاسو بعدة.

"إنها لا تفهم"، قلت. "تظنُّ أنني لم أعد أحبّها. هذا مؤلم جدًا.  
تغنّي وتقول أنها تُفضّل الموت على أن تعيش دون حبّي. إنه كالخنجر  
في قلبي. أودُّ لو أخبرها أن الآلهة تمنعني من النظر إلى عينيها. لا يوجد  
موضع آخر أودُّ أن أنظر إليه. لكنني لا أستطيع قول كلمة واحدة  
حول عهدي، وإلاّ سيُنكث، وستموت هي مُجددًا".

"غَنِّ ما تَبَقَّى بالألمانية"، قال تاسو. "لا أطيق انتظار الترجمة".

"تاسو"، قلتُ برفق. "لن نلأثم الموسيقى".

أشارَ ريموس إلى تاسو ليجلس على ذراع مقعده. قال إنه سيهمس بالترجمة في أذنه.

أغلقتُ عينيَّ. لعقتُ ألسنة النار الجُدران. أمسكتُ بيدها في يدي، لكنها ما زالت نائيةً عنيَّ. أسرعِي! أسرعِي! كان علينا أن نهرب من هذه الكهوف الشنيعة، لنعود إلى النور، حتَّى أستطيع رؤية وجهها. سيقتلنا هذا المكان. لكن الحزن كان قد أصابها بالوهن. انهارت على ركبتيها وتوسَّلت إليَّ أن أنظر في عينيها.

طقطقتُ حواسي. سأجنُّ إذا لم ينتهِ هذا العذاب! تؤثر صوتي من الرعب. شعرتُ بأوتار عضلاتي تنتفخ في عنقي.

فتحتُ عينيَّ. في ردهة الاستقبال، همست شفتا ريموس في أذن تاسو. اتَّسعت عينا نيكولاي وثبَّتا على وجهي. لم يكن أمامي خيار! لم أعد أتحمَّل وطأة آلامها!

نقضتُ وعدي. نظرتُ في عينيها، وللحظة واحدة أدركت يوريديس أنني أحبُّها. لكن عندها تحقَّقت مشيئة جوبيتر: ماتت.

حدَّقَ تاسو عند قدميَّ، حيث رأى يوريديس، ميَّنة على الأرض. رفع بصره إلى وجهي في ذهول، عيناه الصغيرتان جوهرتان لامعتان، مصقولتان بدموعه. سكَّنت المدينة في الخارج، لكنني صرْتُ واعيًّا الآن بالأنفاس الكثيرة. أدركتُ أن هناك أعينًا تُحملك وراء النافذة، يحدوها الأمل أن الأغنية لم تنتهِ بعد.

بدأت وتريات جلوك في العزف مُجدِّدًا في رأسي؛ أبدًا لم أشعر بالأنغام الأولى للمقطع (ماذا أفعل بدونك يا يوريديس *Che farò senza Euridice*) بكل هذا الحزن.

جلجلتُ. كنتُ جرسًا مصبوبًا من الحديد.

انحنى تاسو للأمام من مقعده، بعد أن لم يَعد مباليًا بسماع ترجمة ريموس. بكى نيكولاي في يديه. جلس ريموس مُنتصبًا، بعينه مُغلقتين. في الشوارع كان هناك الكثير من البكاء. تشبَّت الأطفال بأمهاتهم. مالت العاهرات على عتبات نوافذهن، مُجاهدات ليرين وجهي؛ ذلك أنه كان هناك أمل في هذه الأغنية. وإذا استطاع أورفيوس، في حزنه، أن يستدعي هذا الأمل، فهم أيضًا سيقدرّون. وفيما أغني، ضمُّوا قبضاتهم وانخرطوا في البكاء.

عندما انتهيت، استندتُ إلى الحائط.

"هل انتهت؟" همس تاسو.

هزرتُ رأسي، لكنني لم أستطع التحدُّث. بالطبع لم تنته، وددتُ أن أقول. لكن هذا كان كثيرًا جدًّا. تذكَّرتُ أن يوريديس (تي) نائمة ليس بعيدًا عني. لم أستطع التَّنَفُّس. بدأت رأسي في الدوران. وحينها سقطتُ على ركبتي. كان آخر ما رأيته نيكولاي، عملاقًا، بعينين مُغلقتين، وابتسامة هادئة على وجهه، وكأنه رأى ملاكًا لتوه.

ثم تركتُ نفسي تهوي في الظلام.

\* \* \*

كان تاسو بطلي المُنقِذ. اندفعَ من مقعد ريموس وأمسك بي قبل أن يصطدم صدغي بالمدفأة. وضع رأسي برفق في حجره ومسّد جبيني. فيما أستفيق، سمعته يسأل ريموس، "هل هذا كل شيء؟ هل انتهى الأمر؟".

"نعم"، قال ريموس. "فقدَ أورفيوس يوريديس مُجددًا وللأبد. بحسب فيرجيل، سينوح لشهورٍ طويلة، شاديًا بمراثيٍ بديعة، لدرجة أن كل حيوانات الغابة ستهرع لسماعه. لكن هذا سيُغضب نساء أزمرا،

اللواتي لا يؤمنن بحب كهذا. سيمزقنه إلى شظايا. وفيما يطفو رأسه المقتطوع عبر نهر هيبروس، سيهتف باسم يوريديس".

تنهّد تاسو. "لكن كيف لهذا أن يحدث؟" سأل. "لقد أحبّها بشدة".

"لا يهم"، قال ريموس. "الآلهة ليست في غاية الرحمة".

"هذا غير حقيقي!" لهثت. "لقد سمع حبه!".

ثبّتني تاسو، خشية أن أغشى مُجددًا، لكنه ابتسم ابتسامة عريضة لريموس. "أنا على يقين أن الأمر لن ينتهي هكذا!".

هزّ ريموس كتفيه استهانةً. "لكن هكذا ينتهي الأمر"، قال. "بالطبع هناك روايات أخرى. في رواية أوفيد، كانت نساء تراقيا من مزقن جسده".

"لا"، قلتُ. جاهدتُ للوقوف على يد تاسو المُعترضة. "أنا على يقين. يحاول أورفيوس قتل نفسه، لكن أمور تتدخل، بتأثير من مريثة أورفيوس، ثم تُعيد أمور يوريديس إلى الحياة وتأخذهما إلى معبد الحب، حيث تنتهي القصة! برقصة باليه".

تألّقت عينا تاسو. "نعم، المعبد!"، قال. "ستارة المسرح الأخيرة! هذا حقيقي. لقد رأيتها!".

هزّ ريموس كتفيه. "إذن فقد غير كالأبجي وجلوك القصة"، قال.

"وما المشكلة في ذلك؟" سأل تاسو. نفخَ غاضبًا، وبقيت شفته السفلى متدلّية في تحدٍّ للرجل المتعلّم.

"القصة عمرها أكثر من ألفي عام"، قال ريموس. "واحدة من أقدم الأساطير. لا معنى لها إذا دأومت الآلهة على منح أورفيوس فرصة بعد أخرى. وإلا ستصير رحيمة إلى حدّ العبث".



كان وجه تاسو غاضبًا. "أنت لا تؤمن بالحبِّ فحسب". غررَ إصبعًا قصيرةً في ريموس.

ابتسمَ ريموس بحنوٍ. هزَّ كتفيه وكان على وشك الإجابة، لكنه لم يجد الفرصة؛ لأنه في تلك اللحظة تحدّث نيكولاي. "أؤمن بالحبِّ"، قال. ظننتُ أن العملاق كان غافياً، لكنه استقام في مقعده، باديًا أقوى ممَّا رأيته قط منذ وصولي إلى فيينا. "ولأثبت ذلك..."، تابع، "سأحضر العرض الافتتاحي".

بدا لهيب الشمعة وكأنه يتوهج وينير ابتسامته.

"العرض الافتتاحي؟" غمغمَ ريموس. "ماذا تقصد بال...".

"نعم!" قلتُ ونهضتُ واقفًا، دائخًا ما زلتُ من نوبة إغمائي، وخطوتُ إلى مقعد نيكولاي. "لا بُدَّ أن تكون -أنت- من بين كل البشر تستحقُّ أن تكون في ذلك الحشد". "ست..."، لكنني توقفتُ بغتةً، مُدرِّكًا حينها فقط العقبات الكثيرة. لم تتلاش ابتسامة نيكولاي. "لكن... لكن كيف ستحتمل عيناك الضوء؟".

"سنضع شوالاً على رأسي وتقودني مستعرضًا إِيَّاي عبر الشوارع كالخاطئ الذي كنته"، قال. "لكن في المسرح، حيث سأجلس، سيكون ظلامًا".

هزَّ ريموس رأسه. "لا. الضوء ينتشر في أرجاء المسرح"، قال. "حتى نرى جميعنا الإمبراطورة".

"لا يوجد ضوء في كل مكان"، قال نيكولاي. "ليس تحت خشبة المسرح".

نهَضَ تاسو مُندفعًا. "لا"، قال. "لا، لا يُسمَح بهذا". لوَحَ بيديه، نابشًا في الهواء. "ستقطع الإمبراطورة رأسي".

"لا تقلق بشأن رأسك"، قال نيكولاي بابتسامة. "إنه قلبك ما نريد!"

اندفعت تحديقة تاسو من نيكولاي، إلى رموس، ثم إليّ. تطلّع إلى الباب؛ مَهَرَبَه. عَضَّ شَفَتَه، ثُمَّ تَطَلَّعَ مُجَدِّدًا إِلَى الْبَقْعَةِ حَيْثُ كُنْتُ أَغْنِي، وَأَشْرَقَ وَجْهَهُ.

"لكن عليكم أن تعدوني ألا تلمسوا شيئًا"، حذَّره.

"يمكنك ربط يديّ خلف ظهري"، قال نيكولاي. "لا أحتاج إلى شيء سوى أذنيّ. هذا، عزيزي تاسو، ما أعدك به."



## (13)

وقع الأمر في الخامس من أكتوبر، 1762، قبل أربعين سنة تقريبًا من الآن إذا أحصينا دورات الشمس، لكن أطول من ذلك بكثير على أيّ مقياس آخر. كان نابليون الضئيل ما يزال يحتاج إلى سبعة أعوام حتى يتهياً ليُولد، وثلاثين عامًا أخرى ليغزو فرنسا. في تلك السنة كان روبسبيار وإرهابه ييكيان في مهدهما في كاليه فريدريك العظيم كان فريدريك فحسب. أمريكا كانت مكانًا بعيدًا ينمو فيه القطن، لكن بلا أمة تُسبب الحَرْج لجورج الثالث بالثورات. باخ وفيفالدي كانا ما يزالان أبطالنا. أبدًا لم يكن أحدٌ قد سمعَ عن بيتهوفن؛ لم يكن حيًا بعد. موتسارت الصغير كان في السادسة؛ يُسرع، في تلك الليلة على بُعد عشرة أميال فحسب من حيث تتكشف هذه القصة، نحو المدينة الإمبراطورية ليعزف على كمانه الصغير أمام الإمبراطورة. اليوم، أماديوس ميّت منذ خمسة عشر عامًا بالفعل، رغم أنه سيفوقنا عمرًا جميعًا.

كان العام 1762 عامًا يغصُّ بالحالمين رغم أيِّ شيء. وواحد من أكثر الحالمين إخلاصًا كان يحمل شوالاً على رأسه في تلك الأمسية من أكتوبر. كان يُحشَرُ بقدميه أولاً في مزلق فحم، الذي لم يكن، رغم أنه كان ربما أوسع مزلق فحم في الإمبراطورية، عريضاً بما يكفي لهذا الحالم، الضخم كدُب. دفعه صديقه بعنفٍ دفعَ الكثير من المارّة المتأنقين للتوقُّف في دعر. ثم كان هناك تمزُّق في الملابس وفرقة قوية، وانزلق حالمنا إلى المزلق.

\* \* \*

تركْتُ صديقِي في كهف تاسو وهرعتُ عائداً إلى المسرح. كان سيدي قد أرسلني لجلب النبيذ وسيوْبُخني إذا تلكَّأتُ أكثر. كان البهو الصغير ممتلئاً عن آخره، لحدُّ أن الأصوات المُدممة كان تهزُّ الأرض. انقسم المدخل. على جانب يتدافع عامة الشعب. يلوحون بتذاكرهم كالأعلام؛ ذلك أن تلك التذاكر -التي تسمح لهم فحسب بالتحديق من الشُرَافات العالية أو الجلوس على المقاعد الطويلة القاسية في المؤخِّرة- تمنحهم فرصة أن يتنَفَّسوا نفس الهواء الذي تنفَّسه الإمبراطورة، وأن يُشاهدوا معها، وأن يُشاهدوا مع مَنْ شوهد معها. انتظر هؤلاء الرجال، بصحبة زوجاتهم، من المحامين، والكتبة، والأطباء، والحرفيين البسطاء، بفارغ الصبر، فيما على الجانب الآخر، يتهادى تيارٌ من النبلاء، وجوهمهم معروفة للجميع، عبر المدخل.

كنتُ أعرفهم جيّداً الآن. كان هناك صاحب السعادة الدوق هيرستين وبناته الثماني، جميعهن حمقى، بسيطات العقل، ويسعى الكثيرون للزواج منهن. وراءهم، كان السفير الإسباني، الدوق أجيليار، في مزاج نكد بوضوح؛ ذلك أنه وافقَ عل مشاركة مقصورته مع أمير جالزين المُضجر من روسيا. الجنرال براون كان في بروسيا يحتضر من الغنغرينا، لكن زوجته كانت هنا، بابتسامةٍ على وجهها. فيما

الدوق جرونداكير شتارمبيرج العجوز في انتظار ابن أو حفيد ليقوده إلى مقصورتته؛ ذلك أنه لم يعد يستطيع الوصول إليها بمفرده. رغم أن الدوقة هاتسفيِلدا وصلت في واحدة من أفخم العربات، إنها لم تتمكن من دفع الأربعمئة جولدن لمقصورتها هذا الموسم، ولهذا دلّفت وراء الأميرة لوبكوفيتز، الذي أخذتها الشفقة وترك الدوقة البدينة تجلس وراء أطول أبنائها. بين مسيرة الموسلين الخوخيّ والباروكات المُغرّة كان أيضًا أولئك، أمثال الهير بوتون بعروسه الطفلة فائقة الجمال، الذين لا يحملون أيّ ألقاب؛ لم يكثرث بوتون قطّ بشراء لقب.

اندفعت عبر البهو حاملاً نبذ جواداني أمامي في يدٍ، ويدي الأخرى تصدّ الأميرات بعيدًا. كانت هناك دانتلا، وأهداب، والتماعات كثير من النياشين. شعرتُ بالغثيان مع تمايل كل ذلك. أغلقتُ عينيّ للحظة واحدة فحسب. شعرتُ بالنبذ يتناثر على رِسغي.

تلكّأت الحشود في الأروقة خارج مقصوراتهم. يتررون، ويتفاركون بين بعضهم البعض في المساحة الضيقة. التصقّت بالحائط، محاولاً ألاّ ألامس الأردية الواسعة بركبتي الخرقاء. مزيدٌ من النبذ انسكب عبر الحافة، أو يا إلهي، لطخة دامية على مؤخرة أرملة! أخيراً، اجتزّت المقصورة الأخيرة ووصلتُ إلى باب خشبة المسرح.

هنا، وجدتُ مزيدًا من الاستثارة. في نهاية ملعب الكرة السابق كانت هناك مساحة صغيرة لكل أشكال الماكينات السريّة التي تعمل وراء خشبة المسرح. اندفع الموسيقيون بالآتهم محمولّة على أكتافهم، كجنود يحملون البنادق. ملأ عمال المسرح التابعون لتاسو المصابيح بالزيت، وزيّتوا أخاديد الجناح. كنسوا خشبة المسرح لمرةٍ أخيرة؛ لأنه إذا تعثّر جواداني وسقط، فحتمًا سيُطعمهم للدّبة في حديقة حيوان الإمبراطورة. لطّخت (ربّات الانتقام) وجوههن بالملكياج الأسود. أخرج

تاسو رأسه عاليًا عبر الكمبوشة وصاح، "إذا لمَسَ أيُّ منكم مشاهد كواليو، فسأقضم أصابعكم القذرة!".

جلَلَت سنيورا كلافارو بالنغمات المتسارعة في حجرة ملابسها المزدحمة، وفي حجرة سنيورا بيانشتي، رأيتُ عبر الباب ذي الشقوق، يوريديس تتلطَّخ بطلاء أبيض حتَّى تبدو ميّنة كما ينبغي في المشهد الأول من الأوبرا. كنتُ سكبتُ نصف النبيذ حينها، ودافعت عمّا تبقى كما كنتُ لأدافع عن دمائي.

كانت لدى جواداني الحجرة الوحيدة الأكبر من خزانة ملابس. طرقتُ الباب ودلفتُ، رغم أنه لم يُجب. كان أيُّ إنسان يجرؤ على الدخول عُرضَةً للسباب، لكنه أرادني هنا؛ الطريقة التي تطلَّع بها إليَّ أنبأتني بهذا. جلسَ بظهره إليَّ ونظر إليَّ في مرآته. صُعِقتُ من الانعكاس، جفناه مُلتقَّان برفق، وتجاعيده مُنعمَةٌ بالدهان، ولأنه بدا أصغر بعشر سنوات. لوهلة، ظننتُ أنني أطلَّع إلى نفسي في المرأة. لكنه تحدَّث، ولم يكن صوتي. "هل نضبَ النبيذ من الإمبراطورية؟".

هزرتُ رأسي وناولته الكأس. أخذَ رشفةً ووضعها جانبًا. نظرَ إلى المرأة. كان جلوك قد مضى في خطته؛ لم يكن هناك ريش طاووس، ولا دانتلا من الذهب، ولا باروكات. ارتدى أورفيوس مجرد غلالة بيضاء بسيطة، مفتوحةً عند صدره المنتفخ.

وقفتُ بجواره. حدَّق في نفسه فيما يتنشَّق عبر منخريه المُتقدِّين، ثم أغلَقَ عينيه وشكَّلَ فمه على شكل دائرة ضيقة، زافرًا وكأنه ينفخ برفق لإطفاء شمعته. عليه أن يدع حزنه يتعاضم، أخبرني، إذا أرادَ أن يجعلنا ندرك القصة عبر صوته.

وخزنتي أصابع أقدامي داخل حذائي.

"سنيور"، سألتُ أخيراً، عاجزاً عن الوقوف لحظةً أخرى. "هل تحتاج إليّ؟".

"هل لديك مكان آخر لتذهب إليه؟".

"لا"، قلت. "لا أرغب في إزعاجك، هذا كل ما في الأمر. هل أنتظر في الخارج؟".

لم يُجب، لكنني كنتُ أدرك أنه أبداً لن يعترف بحاجته إليّ بجواره. "حسناً جداً"، قال.

خطوتُ إلى الخارج وأوشكتُ على الاصطدام بحاملي نعش جنازة يوريديس الأربعة. تفاديتهم وقبضتُ على صبي مهزول -بدا أنه يهرع من مكانٍ لآخر بلا شيء يفعله- وأمرته بأن يقف خارج باب جواداني ويصيح في كهف تاسو إذا نادى المُغني في طلبي.

"ولماذا قد أفعل ذلك؟" قال الصبي. رغم أنني أعلوه طويلاً، رفع إليّ بصره شزراً وكأنني أقصر منه.

فتشّيتُ في جيوبي. فارغة. وعدته بعشرين قرشاً. أوماً واتخذَ موقعه، وغطستُ أنا في كمبوشة مفتوحة.

تحت خشبة المسرح، في كهف تاسو، كان نيكولاي يضطجع على فراش تاسو النقال. ابتسمتُ لأنه بدا مستريحاً عليه، رغم أنه سحقه إلى اثنتي عشرة قطعة. وريموس يجلس بجواره على الأرض، مُستنداً على الموقد الحديدي البارد. انزلقَ تاسو في أرجاء غرفته المظلمة، فاحصاً الحبال، ومُزَيّناً كُتَل البكرات. ثم نهضَ مندفعاً ورفعَ رأسه عبر كمبوشة ليصيح في العمال الكسالى ليضيئوا المصابيح، ثم تدلّى من هناك، جسداً بلا رأس، مُنتفضاً في رعب فيما يوشكون على إحراق الستارة. لم يبدُ على نيكولاي أنه لاحظَ انشغال الرجل الضئيل؛ أرادَ أن يعرف كل حبل، وكل كمبوشة.



"وماذا عن بكرة السَّحب في المقدمة؟" سأل. "هل ترفع رداء الإمبراطورة، حتَّى نرى جميعنا ثُورتها؟".

"هذه رافعة مصابيح المسرح!" زمجرَ تاسو، مُتَعَضًّا من جهل نيكولاي.

"وذلك الحبل؟" قال نيكولاي، مُضَيِّقًا عينيه في ضوء المصباح الخافت.

"يُشغِّل الكمبوشة الوسطى!".

"مُدْهَشَةٌ"، قال نيكولاي لريموس، "معلوماته".

نظرَ ريموس إلى نيكولاي بارتياح. "لا تلمس شيئًا!" همسَ، حتَّى لا يسمع تاسو.

رفعَ نيكولاي يديه. لم يُصرَّ تاسو، في نهاية الأمر، على ربطهما. "أنا بريء براءة الإمبراطورة".

كنتُ في غاية السعادة لرؤية نيكولاي يتألق. احتضنته فيما أزحف مُتَخَطِّيًا إِيَّاه.

"إلى أين أنت ذاهب؟" سأل.

"لأرى"، قلت من فوق كتفي. "لأرى!".

قبل بضعة أيَّام، اكتشفتُ شقًّا صغيرًا كان تاسو يستخدمه للتلصُّص على جلوك. زحفتُ إليه وحدَّقْتُ من خلاله. أبدًا لم أرَ حشدًا بديعًا هكذا. في "حظيرة الثيران"، حشدٌ من أرقى الرجال في العالم يتبادلون الحديث بصوتٍ عالٍ. لا بُدَّ أن الجالسين في المقصورات سمعوا كل كلمة، وهو ما كان، بالطبع، الغاية من الصخب. فوقهم، طنطنَّت الثُّرَيَّا المُنْقَلَة بالشموع برنين أصواتٍ كثيرة جدًا.

على يساري كانت المقصورة الملكية، وراء الأوركسترا مباشرة. كانت مميزة تلك الليلة بمظلة قرمزية، وكأنهم يتوقعون سقوط رذاذ من المطر في المسرح. في المنتصف، ناهدة ومتوردة، كان تجلس المرأة العظيمة، الإمبراطورة والأم لستة عشر طفلاً. التمتع خداهما وكأن أحدهم قد صفعهما لتوه. بجوارها، كان الإمبراطور-بأنفه منتفخاً، وفمه رفيعاً وضيقاً- شكلاً بشرياً شاحباً، كاييّا. أحاطت بهما هالة من أطفالهما. لكنني لم أكن عند هذا الشق لأنظر إلى الإمبراطورة.

مئات الأعين كانت تحملق إلى الأسفل من مقصورة *Le Paradis* المزدوجة، وكأنها تُفكر في القفز. ربما كانوا ليخاطروا بالإصابة، لكن السقوط على دوقه كان يعني نفياً أبدياً من المسرح. بحث أذناي في جميع أصوات المسرح. لا بد أنها هنا، لا بد.

بدأت الأوركسترا في موالفة الآلات بفوضى نشاز. كانت المقصورات تمتلئ شيئاً فشيئاً. في معظمها يجلس ستة: ثلاثة على الحاجر، وثلاثة خلفهم (كان التنسيق ضرورياً لرؤية خشبة المسرح من الصف الثاني!) وقف الأبناء والبنات من الفائزين وراء أشقائهم الأكبر سناً. كان هناك مصباح يشتعل في كل تجويف؛ لذلك بدت كل مقصورة وكأنه خشبة مسرح في حد ذاتها.

ثم، قبالة الإمبراطورة على الطابق الثاني، دلفا. كانا قريبين للغاية لحدّ أنني تبيّنت الأوتار المُرَهفة في عنق الكونتيسة ريشر فيما تقود الكونت ريشر إلى الداخل. ثم دلفت أماليا قبل أنطون؛ وحلّق قلبي عاليًا! إنها هنا! تبعهما أربعة آخرون من سلالة ريشر، لكنّ عيني لم تريا سوى أماليا، غضة ومتوهّجة، أجمل مثال كان بمقدور الكونتيسة ريشر استعراضه، مهما أنجبت من أطفال هي نفسها. مُنحت أماليا شرف الجلوس في المقعد الثالث في الصف الأمامي من مقصورة العائلة.

جلس أنطوان وراءها. وضع يداً على كتفها وابتمس كأنه يقول، ترين؟  
ترين أنني على حق؟

كنت متيقناً أنها ستكون ملكي مُجدداً قريباً. عندما ينظر أورفيوس  
في عينيّ يوريديس، ستكون أمور رحيمه بنا كما هي رحيمه مع  
هذين العشيقيّن الأسطوريّين على خشبة المسرح.

\* \* \*

ثم صاح القنفذ -الذي طلبتُ منه الوقوف والمراقبة خارج باب  
سيدي- في الكهف، "جواداني ينادي على صبيّه!" كان البائس الضئيل  
يقف أعلى الكمبوشة، بيده ممدودة لتلقّي مكافأته. ابتمست وأخبرته  
أنني سأدفع له غداً. تجهّم وجندلني فيما أمر به.

تقدّمتُ متعزّراً إلى باب جواداني فور أن فتحه. كان يرتدي معطفه  
على كتفيه، ووجهه هادئ. "أنا جاهز"، قال.

أوماً، لكنني لم أكن متأكداً ممّا ينبغي فعله. استدرتُ إلى حشد  
العُمال الواقفين في إعجابٍ ذاهل بالمُعْثي. "إنه جاهز"، قلت.

للمرّة الأولى في حياتي، انصاع العالم لكلماتي على الفور. ثم خبت  
الحماسة. اندفعت "رَبّات الانتقام"، وكانهن خفافيش عملاقة، للاختباء  
في الاستراحات على الجناحين. اتّخذ العُمال مواضعهم وسَكَنوا تماماً.  
هرَعَت الجوقة إلى خشبة المسرح. تسلّقت يوريديس نعشها وصارت  
ميّنة. وراء ستارة المسرح، كان كل شيء صامتاً فيما يخطو جايتانو  
جواداني إلى خشبة المسرح.

تبعته. شعرتُ بخطواتي ثقيلة للغاية، لحدّ أنني تأكّدتُ أن  
الإمبراطورة نفسها ستسمعها. كان لغط الجمهور وراء الستار كجيشٍ  
غازٍ ينتظر وراء بوابة المدينة- رجاءً، انتظروا حتّى أهرب! وقف

جواداني في منتصف خشبة المسرح. صالِبَ قبضتيه على صدره. كان الحزن مرسومًا على وجهه.  
أومأ إليّ.

ماذا ينبغي أن أفعل؟ تطلّعتُ إلى يساري، إلى يمين. حملقَ في كل عامل وكل مُغنّي جوقة، لكن تحدياتهم الخاوية لم تساعدني في شيء. افعلها، قالت التحديات. الجميع ينتظر أن تقوم بهمتك.

ماذا أفعل؟ أغادر؟ أختلس النظر عبر الستارة وأخبر جلوك أن الجميع مُستعدّ؟ لم يخبرني أحدٌ بأي شيء! أبدًا لم أحضر أوبرا من قبل! ثم أدركتُ الأمر: معطفه. كان ذلك معطف جواداني وليس أورفيوس. أخذته وكأنني أزيل دثارًا عن رضيع نائم.

هرعتُ خارجًا من خشبة المسرح عندما بدأ التصفيق. نقرَ جلوك مرتين لجذب الانتباه ثم بدأت الافتتاحية. لكن جواداني لم يتحرك. كانت رأسه منحنية. كانت المصاييح على حافة خشبة المسرح قد ارتفعت قليلًا لتُوهّا، وأضاءت وجهه بإعتام. وراءه، كانت جوقة النائحين ساكنة كلوحة لجنازة.

انتهت الافتتاحية. افترقت ستارة المسرح.

تحوّلت موسيقى جلوك إلى لحن جنازتي حزين. بجواري، رفع الخملة نعش يورديس وتقدّموا إلى الأمام ببطء. ظلّ جواداني مُنحنيًا حتّى بدأت الجوقة غناءها. ثم ارتفعت رأسه حتّى صارت عيناه في مستوى حُبّه، ميتًا أمامه.

غنّى باسمها.

كنتُ أيقظتُ سبيلتبرج بذلك النداء. فيما يملأ صوته فراغ المسرح، أيقظَ جواداني ألفًا وأربعمئة قلب. لوهلة جلجلَ صداه من كل ركن.

غنى مُجدِّدًا، بصوته أكثر حسرةً، ورثت المقصورات الخشبية والثُرَّيات الكريستالية باسمها، مُخمدة الأقدام المتبدلة والأأيادي المتملمة.

رأيتُ هذا مرَّات كثيرة في البروفات، لكنه الآن صار طقسًا سحريًّا؛ هذا الحشد المُجتمِع، بعطورهم من الورد والياسمين؛ هذه المرأة الميَّنة المُمدَّدة على نعشها؛ الحرارة الخائقة للمصاييح وألف وأربعمئة جسد؛ صوت جواداني أكثر إشراقًا ممَّا سمعته من قبل قطّ. كل هذا استحضَرَ العاشقَيْن الخالدين إلى الحياة. التمعت الدموع على وجهي ووجوه أخرى كثيرة فيما أورفيوس يُغني مرثيته، فيما جوبيتر يسمع نداءه ويرسل بأمور إليه. سرعان ما اختلطت أصوات جواداني وكلافارو في قعر المسرح. تماوج قلبي. سيستعيدها! سيُنقذ يوريديس من الموت.

عندما انغلق الستار، هرعتُ إلى جواداني بالمعطف، لكن هزَّ رأسه. انفجر المسرح بالتصفيق. أربع مرَّات خطا جواداني عبر الستار لينحني بالتحية لجمهوره. استمرُّوا في التصفيق، لكنه خطا عائداً إلى حجرة ملابسه.

أطلَّ رأس تاسو من إحدى الكمبوشات، وعندما انغلق باب المُغني، وثبَّ عامل المسرح إلى العمل. سمعتُ التفاف كُتل البكرات، وصرير دوران المحور، وشدَّ الحبال، وكأنه بفعل السحر، انزلقت أطر الجناح إلى مسارتها. سقطت الستارة الخلفية. تحرَّك الزجاج المصبوغ بالأحمر أمام المصاييح، مُحوِّلاً خشبة المسرح إلى أحمر مُرتعش. كان ذلك هو الكهف وراء نهر ستيكس، حيث سيروُّض أورفيوس "رَبَّات الانتقام".

شرع جلوك في الفصل الثاني.

رَقَّصَت "رَبَّات الانتقام" سوداوات الوجوه. طقطقت كواحلهن فيما ينتفضن ويتلوَّين. ثم تجمَّدن بفعل قيثار؛ ذلك أن الأمل والحب كانا مُحَرَّمين في كهفهنَّ. أطلقن اللعنات والسباب على الرجل الذي

جرؤً على جلب الجَمال إلى العالم السفلي. غَنَيْنَ أعلى ليهزمن قيثار أروفيوس. انفتحَ باب جواداني فيما يصدح القيثار مُجدِّداً. هزَّ كتفيه ل طرح المعطف، دون أن يلمحني حتَّى، وتقدَّم إلى خشبة المسرح. حاولتُ أن ألتقط المعطف، لكنه سقطَ على الأرض.

رقصت "رَبَّات الانتقام" حول أروفيوس، مُحاولاتٍ إخافته وإبعاده.

لكنه وقفَ بهدوء: شجرةٌ راسخة وسط عاصفةٍ من فروع خافقة. لا يعرف حُبُّه ما هو الخوف، وصوته الغارق في الوحدة أقوى من الجوقة. تكاثفَ الهواء في المسرح عندما صدحَ، وأدرك الجمهور أنه لا فرصة لتلك الشياطين أمام عنفوان أروفيوس. ازدادت أصوات الرَبَّات ضعفاً، ورقصاتهن هدوءاً. سمحن له بالمرور، وراقبنه مُتهيباتٍ فيما يختفي في الظلال.

غادرَ جواداني خشبة المسرح، وكنتُ هناك لاستقباله.

\* \* \*

انغلقت الستائر للحظة فحسب. لفَّ تاسو بكرته وأرعى الستارة الخلفية. اختفت أطر الجناح الحمراء القائمة، وحلَّت محلها سماء في غاية الزُرقة. ارتدَّ الزجاج المصبوغ بالأحمر. عندما افتُرقت ستارة المسرح مُجدِّداً، كان تاسو قد جلب الجَنَّة إلى الإمبراطورية.

أبهجَ باليه أنجيولينى أعين الجمهور. وقفَ جواداني بجواري في الجناح، برأسه مُنحني وكأنه نائم. ارتفعَ كتفاه العريضتان وانخفضتا. انتهى الباليه، واحتشدت الجوقة لرؤية دخول البطل.

عندما ملأت أنغام المزمار الأولى المسرح كشعاع من الشمس، تهادى جايتانو جواداني عائداً إلى خشبة المسرح. توقَّفَ أروفيوس بالضبط في نفس البقعة على الخشبة حيث كان بدأ أوبرا مأساته.

صار يتضخَّم الآن مع كل نَفَس. أدرك الجمهور أن شيئًا كان يحدث داخله. جلسوا مائلين للأمام، تواقين لمشاركة بهجته.

انسابت أغنية الآريا من حلقه النفيس، تخذّر جسدي بدفئها. تناميتُ، للأعلى وللخارج، فيما يملؤني الترقُّب، لكنني كنتُ حذرًا ألا أُصدر أيَّ صوتٍ فيما أهبط إلى كهف تاسو. كان الرجال الثلاثة مستلقين بجوار بعضهم البعض على الأرض، مُحملقين في السقف وكأنهم قادرون، عبر الخشب القائم، على رؤية التدويمات الذهبية لصوت جواداني تتفشَّى عبر خشبة المسرح. حقًا، كان صوت سيدي -ضعيفًا للغاية على الانفعالات المتفجِّرة- مناسبًا لسَكينة هذه الأغنية.

زحفتُ تحت شبكة الحبال إلى شقِّ التلصُّص. التمتع وجه جلوك بالعرق فيما يتجلَّى في إبداعه. وراه، في "حظيرة الثيران"، كانوا يحملقون في أورفيوس بوجوهٍ مُسترخية، دون أن تطرف أعينهم. جلسَت العائلة الملكية بسكونٍ شديد، لحدِّ أنني ربما كنتُ أنظر إلى بورترية. لم يكن هناك أيُّ نَفَس أو حركة من *Le Paradis*، لا شيء سوى وميض الأعين النَّدِيَّة.

أماليا! قَبَضَت على الحاجز أمامها وجلست مُعتدلةً، مشدودةً. آلَمَتْها الموسيقى. عَضَّت شفتها، ذلك أن ألف وجه سيستدير حتمًا لو فقدت كِنَّة الكونتيسة ريشر هدوءها. مسحت دمعَةً بيد ذات قَفَّاز أبيض، ثم ضغطت بمفصل إصبع على ذقنها المُرتعش.

وضع أنطون يدًا على كتف زوجته. تخشَّبت. تنشَّقت بضعة أنفاس. أَخَذَت أصابعه في أصابعها، لكن فقط طويلًا بما يكفي ليرفع يده على كتفها ويُقلِّته. سحب أنطون ذراعه وانصبَّ بتركيزه مُجدِّدًا على خشبة المسرح.

أبدت الكونتيسة ريشر نظرةً مستاءة، لكن بدا أن أماليا لم تلاحظها. كانت تنظر بخواء إلى المقصورات عبر المسرح، بأنفاسٍ قصيرة وثابتة حتى انتهى جواداني من غنائه.

قريبًا ستُجَبِّين الموسيقى من جديد، همستُ، وزحفتُ مبتعدًا عن شقِّ التلصُّص.

\* \* \*

انحنى جواداني تحيةً للجمهور وخطا إلى حجرة ملابسه. حان وقت تسليم الرسالة، لكن المُغَنِّي كان قد ترك الباب مواربًا خلفه. بترددٍ كبير تَبَعْتُهُ.

"سنيورا كلافارو تُغَنِّي كبقرة"، قال. لم تكن هناك أي حقيقة في عبارته هذه؛ لأنها غنَّت بشكلٍ بديع. لكنني أومأت. ارتشفَ رشفةً من النبيذ.

اندفع جلوك مُقْتَحِمًا الغرفة. ابتسم المؤلف الموسيقى إليّ وبدأ وكأنه يودُّ معانقتي، ثم أدرك أنني لستُ مَنْ يبحث عنه. دفعني جانبًا ليخطو إلى جواداني.

"يا له من نجاح!" هتف جلوك.

أومأ جواداني.

"انتظر حتى يسمعوا الفصل الثالث! سيحيا أورفيوس من جديد!" لمَحَت عينا جلوك كأس جواداني. "هل تسمح؟" سأَل، ودون انتظار إجابة، اجترَع ما تَبَقَّى من نبيذ جواداني. صُلِّيتُ ألا يرسلني لجلب المزيد. "سأذهب إلى مقصورة الكونت"، قال المؤلف الموسيقى.

"أرسل بتحياتي إلى جلالتهَا"، أجاب جواداني.



اختفى جلوك ليتحدث مع الكونت دوراتسو، الذي كانت مقصودته متاخمةً لمقصورة الإمبراطورة. انسلت ناحية الباب. "سأكون في الخارج"، قلت. "إذا احتجت إلي".

"لا"، قال. "ابق. أغلق الباب".

فعلت، مُتمنيًا لو كنتُ على الجانب الآخر، ثم عدتُ للوقوف بجوار سيدي. تمعن في المرأة.

مدَّ يده بغتةً ووضعها على كتفي. أدركتُ أنه يقصد أن أضع يدي على كتفه. ضغطتُ بيدي على كتفه.

"من الخير أننا وجدنا بعضنا البعض"، قال. "هذا العالم ليس مكانًا عطوفًا، وعلى الأخص علينا".

علينا؟ فكرتُ. لكننا لسنا متساويين.

"شقيقي *Mio fratello*"، تابع. "أنا آسف إذا كنتُ أذيتك تلك الليلة. كان اندفاعًا من جانبي. في جهلك، ظننتُ أن بمقدورك مساعدتي. أنا واثق أنك لن ترتكب ذلك الخطأ مجددًا. أدرك ذلك الآن؛ ولهذا أنا نادم على كلماتي. ترى، عرفتُ تلاميذًا كثيرًا في الماضي. في النهاية، غادروني، أو أبعدتهم بنفسي. أبدًا لم أجد تلميذًا واحدًا بمقدوري الثقة فيه بالكامل. حتى وجدتك. أنت مختلف".

كانت يدي تتعرق. دعني أغادر!

"عاجلاً أم آجلاً، جميعهم تحوّلوا إلى ذئاب. أراودوا ما لدي. أنت مختلف. لا تريد شيئًا سوى سماعي أغني. أليس كذلك؟ هل هناك أي شيء آخر تتوقُّ إليه؟ أخبرني فحسب وسأمنحك إياه".

"لا شيء"، قلت. لن تراني مجددًا أبدًا بعد الليلة.

ابتسم واعتصرَ يدي برفق. "هذا ما ظننته. تُدرك أن بمقدورك الوثوق بي أيضًا. لن أهجرِكَ أبدًا. عندما أرحل عن فيينا، سترافقني. سنظلُّ المُعلِّم والتلميذ للأبد".

غمغمتُ بتشكُّرٍ، وابتسم بلُطف. "والآن غادرتي". قال. "لا بُدَّ أن أعود إلى أورفيوس. قبل أن ينتهي هذا الفصل الختامي، ستعرف فيينا أن أورفيوس صار حيًّا مُجددًا".

خطوتُ متراجعًا بهدوء، كمُرِّيَّةٍ عن طفلٍ نائم خشيَّةٍ إيقاظه، لكن عندما أغلقتُ بابَه، اندفعتُ إلى أقرب كمبوشة. "الرسالة!" صحتُ في الظلام. "الرسالة!"

كان نيكولاي قد أصرَّ على حملها، قائلاً إنه يرغب في إبهاج قلبه مُجددًا بحبِّ حرون كحُبِّنا. عندما صحتُ تحت خشبة المسرح، استردَّ ريموس قصاصة الورق ومزَّرها إلى الأعلى. لم تَعُد ذات مَظهرٍ مَلِكِيٍّ الآن، بعد أن تغصَّنت عند إحدى الزوايا، وبدا أن قبضة نيكولاي المتعَرِّقة قد لطَّخت الختم الشمعي، الذي وضعه ريموس قبل عدة ساعات. لكن هذا لم يهَمَّ. طرْتُ خارجًا إلى الرواق ولم ألقِ بألَّا لشكوكي.

بدا أن نصف فيينا يحتشد في الأروقة. أربعة دوقات وأمير واحد على الأقل سُبُونِي مُدافعتهم بمرفقي في أحشائهم الوافرة قبل أن أصل حتَّى إلى الدَّرَج. سمعتُ اجتراحات النبيذ وكأنَّ الألسنة تتدلَّى في أذني. نجحتُ أخيرًا في الوصول إلى مقصورة آل ريشر. كان الباب مفتوحًا، ورجال كثيرون يتقاتلون لإقحام رؤوسهم إلى الداخل، في محاولة لمشاركة الحفل مع واحدة من أعظم عائلات فيينا.

"معذرة"، قلت، مُزِيحًا رَجُلًا كانت رأسه يتدلَّى قُرب مِرْفَقي. قاومني الرجل التالي، حتَّى عندما دسْتُ على قدمه. جذبتُ ذيل معطفه. وعندما استدارَ ليواجهني، انسللتُ من جانبه.

"رسالة إلى أماليا" - كتمتُ اسمها السابق - "ريشر".

كان هناك صمتٌ مُحرج، وأدركتُ أنني صرختُ بذلك بصوت عالٍ بعض الشيء. تورَّد وجهي. استدارت الرؤوس ليس في المقصورة فحسب، لكن حتى في الجانب الآخر من المسرح. انقضَّ عليَّ القمر البارد لوجه الكونتيسة ريشر. استدارت أماليا أيضًا، وتسارع قلبي. حملت إلي؛ فهذا الصوت ذكَّرها بصوت تعرفه.

"من جايتانو جواداني"، قلت، بأهدأ ما أستطيع. استقرَّت عينا أماليا عليَّ للحظة أخرى، لكن تحديقتهما المتوسِّلة ازدادت قتامة؛ خدعتها عيناها. أشاحت بنظرها فيما يدُ تمسح دمعاً.

تجهَّمت الكونتيسة ريشر، وكذلك كل إنسان داخل مدى السمع.

"أعطيها لي"، قالت الأم الكبيرة. مدَّت ثلاث أصابع بيضاء، مشدودة كمخالب طير.

"طُلبَ مِنِّي أن أضعها في يد السيدة وحدها"، قلت، كما أرشدني ريموس.

غمغم أحدهم بشيء ما عن وقاحة الطواشي.

"دعيها تستلمها"، قال الكونت ريشر المهيب، دون أن ينظر إليَّ. "إنه إعجابٌ غير مؤذٍ. أيُّا كان، فالرجل جندي بلا سيف".

أثارَ هذا الضحك في أرجاء المقصورة. حتَّى الكونتيسة ريشر ابتسمت بتحفظ. تطلَّعوا جميعهم إلى أماليا، التي ظلَّت يداها في حجرها. كان ظهرها ناحيتي ما يزال، ورأسها قد استدار نصف استدارة فحسب.

"عزيزتي"، همس أنطون في أذنها، "لا يمكنكِ رفضها. تقبَّلي الأمر كتشريفٍ. أثرت إعجابه من على خشبة المسرح".

هزَّت رأسها. "لا أريدها"، قالت.

قبل أن أتمكَّن من الاعتراض، قبض أنطون على الرسالة. عبثً بالختم ومزقه، وبدأ في فُضَّ الورقة.

"لا"، قلتُ بلا جدوى من الباب. رؤيا خاطفة: أثبتُ عليه وأمزق...

لكنها استدارت واختطفَت الرسالة. "ليس من حقِّك أن تقرأها"، قالت. أثار هذا ضحكةً مكبوتةً أخرى من الكونت ريشر، ثم من المحيطين به بحذر.

فتحت أماليا الخطاب وبدأت في القراءة بصمت. كنتُ قرأته عشرات المرات ذلك اليوم وأعرف كلمة فيه: عزيزتي أماليا،

من المهم للغاية ألا تُبدي أيَّ دهشةٍ ممَّا ستقرئينه الآن. أنا حيٌّ. موسا(ك). ما زلتُ أحبك، وقد جئتُ لآخذك بعيدًا، إذا كنتِ ما تزالين تحملين حبًّا لي. عندما ينظر أورفيوس في عينيَّ يوريديس، اختلقي أيَّ عذر وتسللي خارجةً، سأكون في انتظارك خارج المسرح. أخبرهم أنك تجدين هذا الخطاب مثيرًا للاشمئزاز. أعيديه إليَّ.

موسى

راقبتُ عينيها تتفحصان الورقة. كان أداؤها مذهلاً. ذلك النسيج الذي طالما أخفق في إخفاء المشاعر المضطربة تحته لم يُظهر الآن سوى الارتباك، ثم ومضة من الازدراء. ثم الضيق. نظرت بغضبٍ إليَّ. "ما معنى هذا؟" سألت. لم أكن ممثلًا قديرًا مثلها، لكنني نجحتُ في هزُّ كتفيَّ استهانةً.

ثم، لرعبي الشديد، أبعدت الخطاب وأظهرته لجميع مَنْ في المقصورة.

كانت الورقة فارغة. تناول أنطون الخطاب من يديها وتفحصَ جانبيها. لم يكن هناك شيء مختبئ على سطحها المدهن.

"فسّر هذا"، أمرني الكونت ريشر.

"انظروا إلى وجهه"، قال أنطون. "أبيض كالجليب. طواشي جواداني  
مصدوم مثلنا".

لمحتُ حرجًا غاضبًا على وجه أماليا قبل أن تشيح بوجهها. ربّت  
زوجها على كتفها.

"اخرج"، أمرتني الكونتيسة ريشر. ثم دُفعتُ بعيدًا بأيادٍ متحمّسة،  
فاقد الحياة كدميةٍ من ورق.

## (14)

غطست تحت خشبة المسرح فور أن اتخذ جلوك مكانه للفصل الثالث. كان ريموس في انتظار الأخبار، لكن عندما رأى وجهي الشاحب، أدرك أن الأمر لم ينجح.

«كانت فارغة»، قلت. «مسحت الكلمات».

"ماذا؟" هتف ريموس، خابطاً جبينه بقبضته. أخبرته بما حدث بالضبط، معجزة الورقة الفارغة.

"لكن هذا مستحيل"، همس ريموس، فيما تبدأ الأوركسترا عزفها.

"لا بد أنك استخدمت حبراً سحرياً"، وبّخه نيكولاي.

"استخدمت نفس الحبر الذي أستخدمه دائماً"، قال ريموس. "كيف حدث هذا؟".

"ابق في الأسفل"، أخبرني نيكولاي. تناول يدي. "سنفكر في خطة أخرى. ما زال لدينا وقت. في أسوأ الأحوال، مع انتهاء الأوبرا، سنرسل بريموس لتوصيل رسالة أخرى".

اتسعت عينا ريموس في رعب.

"اهدؤوا"، قال نيكولاي لنا. "ستخبرنا الموسيقى بما يتوجب علينا فعله".

\* \* \*

في الفصل الثالث، كان العاشقان بمفردهما في كهوف ستيكس. يدها في يده؛ عيناه تتفاديان خطر وجهها. لم تكن هناك "ربّات انتقام"، ولا جوقة، ولا راقصات. الكرمات تتشابك من أجل العاشقين. الصخور متناثرة في الأنحاء. أضواء المسرح المعتمدة والمومضة تُلقِي بظلال متنافرة. الجمهور ينصت ويصلي أن يجد أورفيوس القوة ليهرب من مصيره.

أنا، أيضًا، صليت لمصري. وتساءلت، هل سيكون حقًا الفقد والإخفاق فحسب؟ ها هي انسلت من يديّ مُجددًا، وإذا لم أجد طريقةً لأكشف عن نفسي، سترحل غداً. هل أمضي في إثرها؟ بالطبع سأفعل. سأمضي في إثرها حتى لو كان هذا يعني مُطاربتها للأبد، كحاج يُطارَد الأفق.

وقف العاشقان على خشبة المسرح فوقنا. سطعت الشقوق في ألواح الأرضية بشظايا ذهبية، وشدا أورفيوس بأن على يورديس أن تسرع. سألته لماذا لا يُعانقها. إلى ماذا صارَ جمالها الساحر؟ ماذا حدثَ لُحُبهما.

لكن أورفيوس لم يستطع الإجابة، حتى مع معرفة الجمهور أنه على استعداد لاقتحام ألف جحيم لإنقاذها.

جلسَ تاسو على مقعده كتمثال، متأملًا في لهيب المصباح المُنمّم. كانت الحبال كشبكة العنكبوت حول رأسه. لا يرفع بصره إلا عندما يمرُّ أورفيوس ويوريديس فوقه، وكأنه رجلٌ سمعَ فأرًا في سقف منزله. أغلقتُ عينيّ. رُئتُ أجساد الكمان مع صوت يوريديس، الذي كان رائقًا وقويًا، رغم أنها تفتقد الرغبة لرفع قدمها حتّى. وبين الجمهور، توالفت أجسادٌ كثيرة مع صوت جواداني، وهكذا، رغم أنه يغني دوره فقط، كان الانطباع السائد أن كثيرين يهتممون معه. لو كانت لجلوك أذنان لسمع هذا، كان ليعلق جمهوره كالأجراس من السقف، حتّى يستولي جمال موسيقاه على كل خليّة في أجسادهم.

على المسرح، كانت يوريديس تتوسّل إلى أورفيوس لينظر إليها، ولو للحظة واحدة. كان غناؤها متعاليًا وثاقبًا؛ شعرتُ به في الجلد الناعم وراء أذنيّ، كدغدغة ريشة. لأورفيوس، كانت هذه الصيحات كخناجر حادة تطعن في ظهره. عزمته تتصدّع. رأيّتهم يتدربون على هذا مرّات كثيرة؛ لهذا كنت أدرك أن يوريديس تقف وراءه مباشرة. واجه الجمهور، بعينين مُغلقتين.

فيما العاشقان يُغنيان -هي تتوسّل إليه، وهو يهتف في الآلهة- بدأ صوت جواداني يفقد مثاليته. لم يعد قادرًا على دفع مزيدٍ من الألم في هذه الأنغام. حاول أن يُغني أعلى، لكنه لم يستطع، وهكذا سمعتُ صوته وقد بدأ يفقد تعاضّماته وانحساراته المنسابة. لم يعد يملك سوى تعاضّم مُصطنع. سمعتُ خبطةً بالقرب من مقدمة المسرح. سقطت يوريديس على ركبتيها. لم تعد قادرة على اتّخاذ خطوة أخرى. إذا لم يكن يحبّها، فعليه أن يتركها وراءه في هذا الكهف المريع.

لم يعد قادرًا على تحمّل امتناعه عنها. كيف أمكنَ للآلهة أن تطلب شيئًا بهذه القسوة؟ لكنه سينظر في عينيها.



استدرتُ إلى نيكولاي، متوقِّعاً أن أراه يبكي من الموسيقى، لكن لدهشتي، لم يكن هناك حزنٌ في عينيه. كان مستنداً على مرفق واحد ويُحدِّق بتمعُّن تحت خشبة المسرح. ظننتُ أنني رأيت ومضة ابتسامة على وجهه. كانت عيناه غائمتين، لكنه كان مُستغرقاً في الموسيقى، وكأنه يجاهد ليفهم كل كلمة يشدو بها العاشقان.

نادى أورفيوس على زوجته الحبيبة حتَّى يتمكن من معانقتها ربما، وحينها بالضبط تحطَّمت إرادته أخيراً.

نهض نيكولاي. تأوُّه من المجهود، واستدار ريموس، قلقاً. لكن نيكولاي لم يكن متألِّماً. مدَّ يده إلى معطفه وسحب ورقة مطوية. كانت مطابقة تقريباً للرسالة التي منحني إيَّاهَا من قبل. ناولها لي. "موسى"، قال. "أنا آسف. لقد خدعتك".

كانت هذه الرسالة مطوية بعناية، وختمها الأزرق مستدير بشكل متقن؛ تماماً كما صنعه ريموس. فضضتها. هنا كان الخطاب الذي انتويت إيصاله. رفعتُ بصري إلى عيني نيكولاي الضبايئتين. لماذا خانني صديقي؟ كانت هناك ابتسامة غريبة على وجهه.

"موسى"، همس. "ألا ترى؟ حُبُّ مثل حُبِّك لا يليق بالورق. ليس مع بهاء صوتك".

ارتعشتُ. لم أدرك ما يعنيه. ابتسم. فوقنا كانت ألواح الأرضية تصرُّ فيما يوريديس تخطو لتعانق حبيبها. بدأ أورفيوس في إدارة رأسه. خطا العاشقان إلى بعضهما البعض.

شرع نيكولاي في الزحف عبر الكهف.

"نيكولاي!" همس ريموس. لكن لم يبدُ أن نيكولاي سمعه.

تعانق أورفيوس ويوريديس. رأت في عينيه أنه يحبُّها. دافا النعيم للحظة واحدة، ثم ماتت بين ذراعيه.

غرق المسرح في الصمت، بعد أن قتل أورفيوس يوريديس (ته). لم يتنفس أحد. لم يتحرك أحد. لم هناك شيء يبعث على الأمل.

\* \* \*

لكن تحت خشبة المسرح، في وهج المصباح الخافت، كان نيكولاي يزحف عبر كهف تاسو، ناخرًا عند كل حركة. تبعه ريموس، محاولًا الإمساك بقدميه، محاولًا إيقاف "الأمل" قبل أن يُفسد هذه الأهمية، قبل أن يُغضب الإمبراطورة، قبل أن يُودي بهم إلى الطرد من هذه المدينة تمامًا كما طردهم "الغضب" من سانت غال. أدرك تاسو، أيضًا، أن شيئًا ليس على ما يرام. اهتزت يداه أمام صدره. هرع إلى جانب العملاق وهسهس، "توقّف!".

لم أستطع التحرك. كنت ذاهلاً. أيّ مصير كان نيكولاي يحلم به لي؟ وضع أورفيوس زوجته الميئة على خشبة المسرح ووقف فوقها. لم تعترف الأوركسترا. كانت تنتظر حتى يغني القائد.

حملق نيكولاي لأعلى في خشبة المسرح. ناظرًا، مُنصتًا. طقطقة. كان جواداني يخطو للخلف، بعيدًا عن جثمان عروسه الميئة. زحف نيكولاي معه، بوجهه على بُعد إنشات أسفل خطوات جواداني. تنشق نيكولاي. أمسك ريموس بقدم نيكولاي بكلتا يديه، وضغط تاسو على كتفي نيكولاي. لكن نيكولاي، بوجهه مرفوعًا إلى الخطوات المُنقطعة فوقه، كان أقوى منهما مُجتمعين.

توقّف جواداني عن تراجعه في منتصف خشبة المسرح، ليبدأ أعظم أغنية في هذه الأوبرا...

ثم وثب نيكولاي، ساحبًا ريموس وتاسو معه وكأنهما وشاحان مربوطان بعنقه. امتدّت يده ناحية حبل. قبضت أصابعه عليه. جذبه.

انفتحت الكمبوشة تحت قدم أورفيوس.

سقط جابتانو جواداني بعنف إلى ما تحت خشبة المسرح، وسرعان ما جثم نيكولاي فوقه قبل أن يتمكن المغني من الصراخ. ثبته جواداني على الأرض، ووضع يداً ضخمة على فمه. ثم استدار إلى. اختلجت رأسه لأعلى؛ ناحية التجويف المربع في السماء فوقه، الذي كان ضوء المسرح المغبر ينساب عبره.

ضيّق عينيه المعطوبتين؛ ذلك أن الضوء قد آذاهما، وقال، "أرجوك، يا موسى. أرجوك. اتل رسالتك".

## (15)

لم أستطع التَّحرُّك.

أين؟ فكَّرتُ. هناك في الأعلى؟

ثم تطلَّع ريموس إلى صديقه العملاق -رفيقه لثلاثين عامًا- وهزَّ رأسه. أبدى استهانةً. كان الأمر قد تجاوز الحدَّ بالفعل. لم يعد هناك وقتٌ لتغيير أيِّ شيء.

كان ذئبًا ضاربًا. اندفع ناحيتي وانتزع معطفي وياقتي. مزَّق قميصي من مُقدِّمته حتى صار يشبه غلالة أورفيوس. لم أجد وقتًا للتفكير فيما يرفعني ناحية الكمبوشة.

"أطفئ المصابيح"، همس لتاسو. وثب تاسو، الذي لم يتحرك منذ سقوط الطواشيِّ العظيم، إلى عمود السحب عند سماع الأمر، كبخارٍ في عاصفة ينصاع لأوامر قبطانه.

أَقْعَيْتُ تَحْتَ الْكَمْبُوشَةِ. شَابَكَ رَيْمُوسُ بَيْنَ يَدَيْهِ عِنْدَ خَصْرِهِ.  
ابْتَسَمَ نِيكُولَايَ، بِالْدمُوعِ تَمَلًّا عَيْنِيهِ، وَرَاحَتَهُ مَا تَزَالُ تُغَطِّي وَجْهَ  
جَوَادَانِي الْمُرْتَعِبِ. أَوَمَا رَيْمُوسَ. "أَسْرِعْ يَا مُوسَى"، هَمَسَ.

بَدَأْتُ أَنَّنِي لَا أَحْتَاجُ سِوَى إِلَى خُطْوَةٍ صَغِيرَةٍ لِأَضَعُ قَدَمِي عَلَى يَدَيِ  
رَيْمُوسَ، وَهَكَذَا فَعَلْتُ. أَمْسَكْتُ بِحَافَةِ أَرْضِيَةِ الْمَسْرَحِ. فَكَّرْتُ، مَا زَالُ  
بِإِمَّاكَانِي الْعُودَةِ. لَكِنْ رَيْمُوسَ... يَا لَهَا مِنْ قُوَّةٍ لَدَيْكَ!  
زَمَجَرُ، وَرَفَعَنِي. سَقَطَ الْمَسْرَحُ مِنْ حَوْلِي. اتَّخَذْتُ خُطْوَةً.

كُنْتُ عَلَى خَشْبَةِ الْمَسْرَحِ.

عِنْدَ قَدَمِي، جَثْمَانِ حَبِيبَةِ إِنْسَانٍ آخَرَ. أَمَامِي، أَلْفُ وَأَرْبَعُمِائَةِ  
رُوحٍ مِنَ الْأَعْيُنِ. تَمَايَلْتُ بِرَفْقٍ مِنْ جَانِبِي إِلَى آخَرٍ. اسْتَغْرَقَ الْمَسْرَحُ فِي  
الصَمْتِ.

هَلْ لَاحِظُوا؟ هَلْ رَأَوْا بَطْلَهُمْ يَسْقُطُ؟ هَلْ أَدْرَكُوا أَنَّهُ عَادَ إِلَيْهِمْ  
أَطْوَلَ، وَأَكْثَرَ شَبَابًا، وَأَكْثَرَ اسْتَغْرَاقًا فِي الْحُبِّ؟ كَانَ تَاسُو قَدْ أَخْفَضَ  
مَصَابِيحَ الْأَرْضِيَةِ، وَبِهَذَا أَصْبَحَتْ مُضَاءٌ مِنَ الْجَانِبِ فَقَطْ. عِنْدَمَا  
تَطَلَّعْتُ إِلَى بَحْرِ الْأَعْيُنِ أَمَامِي، لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ شَيْءٌ أَوْ غَضَبٌ. بَلْ حَدَّقُوا  
بِأَعْيُنِ طِفُولِيَةِ مُنْتَشِيَةٍ. كَانَتْ الْأَعْيُنُ تَقُولُ، أَوْ رَفِيُوسُ! غَنِّ لَنَا! غَنِّ!  
أَلْقَيْتُ نَظْرَةً خَاطِفَةً عَلَى الْإِمْبْرَاطُورَةِ. كَانَتْ تُحَدِّقُ وَكَأَنَّهُا تَعْرِفُنِي  
جَيِّدًا. ضَيَّقَ جُلُوكَ عَيْنِيهِ، غَيْرَ مُتَيَقِّنٍ مِمَّا يَرَاهُ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَتْ يَدَاهُ  
الْمَرْفُوعَتَانِ فِي مَوْضِعَهُمَا؛ جَاهِزَتَيْنِ لِقِيَادَةِ الْأُورُكْسْتَرَا فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي  
يَبْدَأُ فِيهَا أَوْ رَفِيُوسُ فِي الْغَنَاءِ.

ثُمَّ وَجَدْتُ أَمَالِيَا. نَظَرْنَا إِلَى عَيْنَيَّ بَعْضُنَا الْبَعْضَ، لَكِنَّا لَمْ تَعْرِفْ  
عَلَيَّ. لَمْ تَبْدُ أَنَّهَا تَنْتَفِّسُ. كَانَتْ تَمَثَّالًا.

شَكَّلْتُ شَفَتَيَّ كَدَائِرَةِ ضَيْقَةٍ وَزَفَرْتُ. فِي أَذُنِي، كَانَ الصَّوْتُ كَالْإِعْصَارِ  
فِي الْمَسْرَحِ الصَّامِتِ. نَفَخْتُ حَتَّى تَهَدَّأْتُ كَتَفَايَ فَوْقَ رِثَتِي. ثُمَّ ارْتَدَّتْ

أضلاعي العملاقة. فتحتُ فمي على اتساعه وانسابَ الهواء عبر حلقِي. ازدددتُ طولًا وعرضًا. اندفعَ الهواء إلى رثتي، ممزقًا العضلات بين ضلوعي.  
غنيت.

»Ahimè! Dove trascorsi! Ove mi spinse un delirio d'amor!«

«واحسرتها! ماذا فعلت؟ إلى أين قادني جنون الحب!«.

بدا ذلك كهمسٍ بالكاد، لكن صوتي فاضَ على المسرح. تنشَّق جلوك وباعدَ مُختلجًا بين يديه المرتفعتين. على وجهه، حلت الصدمة محل الشك. انفرجت شفتا الإمبراطورة المزمومتان. بذلَ كلٌّ من في المسرح من وضعه قليلًا في اندهاش. البعض اعتدلَ في جلسته. آخرون ارتخوا، وكأن دعامةً قد أزيلت. قبضت أيايَ على الحواجز. كشطت كعوبَ الأرضية. في *Le Paradis*، تناولَ أربعمئة عنق ليقترَب من السقف.

تركت يدا أُماليا الحاجز وأمسكت بخديها. داخلها، هبَّت عاصفة مُباغطة. كانت الإنسان الوحيد في ذلك الجمهور الذي سمع ذلك الصوت من قبل. مع الأنغام الأولى، قالت لنفسها إنها لا بُدَّ خُدعة قاسية، من خيالها الأحمق، المُترقب، لكن كل تلك الجدران ارتجبت. طرقت بعينيها لطرَد الدموع، وعندما تطلَّعت إليَّ مُجددًا بعينين صافيتين، وحدقتُ إليها بدوري، أدركت أن هذا الموزيكو المائل على خشبة المسرح كان موسا (ها) - واستوعبت كل شيء.

كان جلوك تردّد لوهلة، بيديه مرفوعتين ما تزالان. حملقَ إليَّ. اتسَّعت عيناه؛ ذلك أن شبحًا كان يقف أمامه. سمعَ جلوك الموسيقى التي كتبها، تُغنى كما في أحلامه.

\* \* \*

في لحظةٍ عادَ جلوك مُجدِّداً المايسترو العظيم. يداه تشقان الهواء. الأوركسترا تنصاع، وأقواس الكمانات تضرب على أوتارها. شعرْتُ بصوتها في صدري. عندما غُيِّبُ الآن كان صوتي عملاقاً. يرتدُّ عن الجدران ويعود من كل ركنٍ. يتمايل جلوك للخلف وكأن رياحاً تهبُّ. عيناه مُغلقتان.

ثم كانت هناك استراح... صمت. بدت يدا جلوك المرتفعتان وكأنهما تتحكَّمان ليست فقط في الأوركسترا، لكن في كل شخص في المسرح. إبهاماه، يضغطان على سبَّابتيَّه، يمسكان بكل نفس. عندما يبسط أصابعه مفترقةً، تهذَّل ألف وأربعمائة كتف. وحين يشبُّ على قدميه ويرفع يديَّه عاليًا قَدْر ما يستطيع، يتَّسع ألف وأربعمائة زوجٍ من الرئات، ذراعاً جلوك تشقان الهواء.

أشعرُ أنني عارٍ على خشبة المسرح، لكنني أريد أن ترى أماليا كل ثنية في وجهي. شفتا الإمبراطورة ما تزالان مُنفرجتين، وكأنها عطشى. أبدأُ في مرثية أورفيوس العظيمة كما كان ليُغنيها جواداني؛ كل نغمةٍ مشقوقة بسكَّينٍ حاد.

أعينٌ كثيرة تنغلق. أجسادٌ تتلوَّى برفق. عطشى لحزن أورفيوس النقي. بدت الإمبراطورة عاجزة عن التنفُّس. فمها مفتوح على اتِّساعه. الدموع تحتشد في عينيها. تتعاضم موسيقياي، ويتراجع كثيرون برؤوسهم فيما يتمايلون ليشعروا بأغنيتي عبر أجسادهم. عينا جلوك منغلقتان. ذراعاه تهويان كالأجنحة. لكنه لم يفقد السيطرة. حركاته دقيقة. موسيقيُّوه يستجيبون لكل حركة منه بتركيزٍ شديد وكأنه مشعوذٌ يخضعهم بسحره. أنا، أيضاً، تركتُ نفسي أنقاد لإيقاع حركاته. إنه سيّد هذه الموسيقى.

أُغني.

يدا أماليا تقبضان على الحاجز. تنحني للأمام وتضغط ببطنها  
المتكورة على الخشب، الذي يرنُّ بصوتي.  
ثم ينتهي كل شيء. تتفشَّى همهمةٌ في المسرح؛ صوتي يهمس في  
كل صدرٍ ما يزال. تتوقَّف الأوركسترا عن العزف. يفتح جلوك عينيه  
وينظر بإشراق مُجدِّدًا إلى الشبح الذي استدعاه إلى الحياة.  
أخطو متراجعًا وأسقط.





## (16)

في الكهف، كان نيكولاي يحمل جواداني المصدوم كالرضيع في ذراعيه. وضعه على الرافعة وهمس بإيطالية مُتكسرة أنه حان وقت الغناء مُجدِّداً، لم يلاحظ أحدَ شيئاً، ولهذا بمقدور جواداني أن يسترخي؛ ما يزال بطل الليلة. ثم منحه نيكولاي صفعتين قاسيتين.

«كل شيء على ما يرام *Tutto bene*!» قال نيكولاي. جذبَ تاسو حبلاً، وارتفعت الرافعة. صعدَ جايتانو جواداني عائداً إلى خشبة المسرح.

\* \* \*

انزلتُ خارجاً من مزلق الفحم وهرعتُ إلى مدخل المسرح. هذه المرة، لن أفقدها. أمسكتُ بالباب الثقيل وفي عقلي رؤيا جميلة لأماليا تنتظرني هناك في بهو المدخل، بذراعيها مفردتَيْن مُعانقتي... لكن الباب تطوَّح مفتوحاً واصطدمَ بوجهي.

أَسْقَطَنِي أَرْضًا عَلَى الدَّرَجِ الْقَصِيرِ. اسْتَلْقَيْتُ فِي الشَّارِعِ، مُحَدِّقًا فِي سَمَاءِ اللَّيْلِ.

كَانَتْ لَثَلَقِي بِنَفْسِهَا عَلَيَّ، لَكِنْ حَالَتَهَا مَنَعَهَا، وَلِهَذَا ارْتَفَقَتِ الدَّرَجُ بِصُعُوبَةٍ حَتَّى تَتِمَّكَّنَ مِنَ الْجَثُومِ بِجَوَارِي. ثُمَّ قَبَّلَتْنِي وَتَطَلَّعَتْ، أَخِيرًا، عَمِيقًا فِي عَيْنَيَّ.

سَاعَدَتْنِي عَلَى الْوُقُوفِ. لَوْهَلَةَ تَشَبَّهْنَا بِبَعْضِنَا الْبَعْضَ.

"أَنْتَ حَيٌّ!" قَالَتْ.

"نَعَمْ!"

"أَنْتَ حَيٌّ!" قَالَتْ مُجَدِّدًا، وَدَدْنَا لَوْ نَسْتَمِرُّ هَكَذَا فَحَسَبَ، بِيَدَيْهَا تُرْبَتٌ عَلَى كُلِّ إِنْسٍ فِي جَسَدِي تَسْتَطِيعُ الْوُصُولَ إِلَيْهِ، وَذِرَاعَايَ يَقْبِضَانِ عَلَى جَسَدِهَا الدَّافِئِ قَرِيبًا مِنْ جَسَدِي، وَكَأَنَّهَا ضَفِيرَةٌ مَجْدُولَةٌ.

"أَنْتَ حَيٌّ!" قَالَتْ ثَالِثَةً، وَدَمُوعُهَا تَلَوُّثٌ قَمِيصِي بِخُطُوطٍ شَفَافَةٍ.

"أَنَا آسَفٌ..." بِدَأْتُ الْقَوْلَ، لَكِنِّهَا هَزَّتْ رَأْسَهَا وَوَضَعَتْ إصْبَعًا عَلَى شَفَتَيَّ.

"مُوسَى"، قَالَتْ، "لَا وَقْتُ لَدِينَا عَلَيْنَا أَنْ نَسْرَعَ. إِنَّهُمْ... إِنَّهَا..." تَنَاوَلَتْ يَدَيَّ وَجَذَبَتْنِي إِلَى الْمِيدَانِ، عَيْنَاهَا تَبْحَثَانِ عَنْ عَرَبَةٍ لِلَاخْتِبَاءِ فِيهَا. تَرَكْتُ نَفْسِي أُسْحَبَ فِيمَا أَلْقَى نَظْرَةً وَاحِدَةً أَخِيرَةً مِنْ فَوْقَ كَتْفِي عَلَى ذَلِكَ الْمَسْرَحِ.

سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ الدَّخْلِ، كَانْدِفَاعَةٌ نَهْرٍ.

كَانُوا يَصْفُقُونَ. الْإِمْبَرَاطُورَةُ وَالْإِمْبَرَاطُورُ، الدُّوْقَاتُ، الْأَمْرَاءُ، وَكُلُّ مَنْ فِي الْمَقْصُورَاتِ، كَانُوا يَهْلُلُونَ لَصَوْتِي. مَعَ انْحِنَاءَاتِهِ لَتْحِيَةِ الْجُمْهُورِ، كَانَ جَايْتَانُو جَوَادَانِي يَحْصِدُ الثَّنَاءَ عَلَيَّ. تَسَلَّلْتُ ابْتِسَامَةً إِلَى وَجْهِهِ فِيمَا أَخْطُو بَعْمَاءٍ فِي إِثْرِ أَمَالِيَا. صَاحَ صَوْتُ مَدْوٍ، "عَاشَتِ السُّكَّيْنُ! السُّكَّيْنُ"

المباركة!" (Erviva il coltello! Il Benedetto coltello) وتعظم الصخب،  
وقد اجتمعت الهتافات الآن مع هزيم التصفيق.  
سمعته أماليا أيضًا. توقفتنا.

واقفًا وحدي معها في ذلك الميدان الخاوي، انحنيتُ أول انحناءة في  
مسيرتي احترامًا للجمهور فيما تضحك هي وتُصَفِّق لي. داخل المسرح،  
لم ينقطع التصفيق؛ ولهذا انحنيتُ مرةً تلو الأخرى، لأعلى ولأسفل،  
كلعبةٍ تتدلَّى من خيط. ثم تناوَلت يدي مُجدِّدًا. تعال! وأطلقنا  
سيقاننا للرياح.

\* \* \*

ارتقينا عربةً وأسرعنا إلى قصر ريش. فيما يختفي أورفيوس  
ويورديدس في معبد الحب على خشبة المسرح، ويغادر أنطون  
مقصورته لبحث عن زوجته (التي همست له أنها تشعر بتوَعُّك  
وتودُّ التَّمشِّي في الأروقة قليلًا)، أخبرتني أماليا، "أخفِ وجهك". مررنا  
بالغول إلى داخل فناء آل ريش.

"لكن لماذا هنا؟" سألتها. "أرجوك، أيُّ مكانٍ إلَّا هنا".  
"ستري"، أجابتنِي.

غادَرتِ العربة وَخَطَّتْ إلى المنزل وكأن كل شيء على ما يرام. فتح  
واحد من الحُرَّاس الباب لها ونظَرَ إلى الخارج. سحبَتِ الستارة مُجدِّدًا  
لإخفاء وجهي. لكن متأخرًا جدًّا؟ هل لمَحَ وجهي؟

سمعتُ ضوضاء، اختلستُ نظرةً من النافذة الأخرى لأرى الغول  
نفسه يتمعَّن في عربتنا. يا إلهي، فكَّرت. إذا رأى وجهي سيضيع كل  
شيء. ستطاردنا (الكونتيسة) حتى تمسك بنا.

"هل يوجد أحد في الداخل؟" سأل الغول الحودِي.

"نعم"، غمغمَ الحوذِيّ. "چنتلمان".

"چنتلمان؟" هل أنت متأكّد؟".

"هل أنا متأكّد؟ ألا أعرف مَنْ يستقلُّ عربتي؟".

"مَنْ هو؟".

"لم أَرَهُ. الظلام حالك".

اقتربَ الغول من الباب. تمعّن فيه. تنفّسَ خمس مرات، وكل زفير  
كثورٍ على وشك الاندفاع. ثم طرقَ مرتين، كل ضربةٍ كمطرقة.

"مَنْ هناك؟" سأل.

أوصدَتُ الباب، بأهدأ ما أستطيع.

"افتح هذا الباب!" انثنى الباب فيما يجذبه.

"احذرا! هذا باي!" قال الحوذِيّ.

"سأحطم نافذتك إذا لم يفتح الباب على الفور".

انكمشتُ في الزاوية. انثنى الباب مُجدِّداً، أنثُ المفصلات.

"ماذا تفعل؟" صاحت أماليا من بعيد.

"سيدتي"، قال الغول بصرامة، "أودُّ أن أعرف مَنْ يوجد داخل هذه  
العربة. أين السيد أنطون ريشر؟".

سمعتُ خطواتها تعبر الفناء ببطء. عندما اختلستُ نظرة بين  
الستائر، كانت تقف قريبةً جداً منه، لحدّ أن بطنها المتكور لامسٌ  
فخذيّه. كانت ترتدي الآن عباءة ثقيلة على كتفيها.

"أنت أيّها البهيمة عديمة الاحترام"، قالت. نغزته في صدره، وتراجع  
خطوتين. "في هذه العربة يجلس رجل عجوز فاضل شوّهته الحرب؛  
بالطبع لن يُري وجهه لفلاح ساذج مثلك. وأين أنطون؟ سأخبرك

بذلك. إنه ينتظرنا في منزل الكونت ناداستي، يزداد غضبًا في كل دقيقة نُبقينا فيها متأخرين".

رفعَتْ مغلاق الباب فورَ أن مدَّت يدها لفتح الباب. جلسنا ساكنين كجُثث حتَّى أفلت بنا الحوذيُّ من البوابة. ثم زفرَ كلانا أنفاسه.

"أتمنى أن تحرق كل فستان اشترته لي"، قالت أماليا. "ثم تطلق اللعنات على اسمي".

وضَعَتْ صندوقًا صغيرًا، مزخرفًا في حجرِي؛ ربما يحوي إنجيلًا صغيرًا. فتحته.

عشرة أكوام، كلُّ منها يحوي عشرين عملة ذهبية من فئة العشرة جولدن، بمجموع ألفي جولدن. فغرْتُ فاهي. أبدًا لم أمسك بجولدن واحد حتَّى في يدي.

"في يومي الأخير في سانت غال"، قالت. "دلفَ أبي إلى غرفتي. ظننتُ أنه في غاية السعادة لزواجي، لكنه أخذَ يخطو بعصبية جيئةً وذهابًا. عندما سألتُه ما الأمر، وضع هذا في يدي. "تحسبًا"، قال، "ليوم ما تودَّين فيه العودة إلى الوطن"، ثم أضاف، بدافع من اللباقة، "أعني لزيارتنا". ألفا جولدن من أجل زيارة!".

أغلقتُ الصندوق.

"هذا يكفي"، قالت، "لأني مكان نتمنى الهروب إليه. لكن علينا أن نسرع. عندما تعود (الكونتيسة) وتسمع أنني لستُ هناك، لن يصدِّقوا أنني تُهت أو حُطِفْتُ. لن يبحثوا عن زوجة وابنة. سيتعقَّبون خائنةً".

انطلقنا عبر قُبينا طوال ساعتين، مُتفكرين في خيارتنا للهروب. غيرنا العربات مرَّتين؛ حتَّى نتأكد أنه لا يمكن تعقُّبنا.

"الطرق المؤدية من فيينا لن تكون آمنة"، قلت. "الكونت ريشر لديه جواسيس في كل اتجاه. من الأفضل أن نختبئ لبعض الوقت ونجهز بعض وسائل التنكر".

وافقتُها. سيكون من الصعب على سيدة حامل -مثيرة للأنظار كاماليا- أن تتنكر في نُزل البلدات المحيطة، ولا تستطيع النوم في عربة. إذا حاولنا الهرب من المدينة، لن يستغرق الأمر سوى يوم واحد حتى نقع في يد ذلك الغول.

أخبرتها أنني أعرف أين بمقدورنا أن نختبئ.

\* \* \*

"إنه صغير جداً"، قلت فيما عربتنا تجوب أكوام المخلفات في شارع بيرجاسه في سبيتلبرج. "والهواء قد يكون خانقاً بعض الشيء. إنه صاخب. لكن الحوائط مُصمتة. الأثاث بالٍ، لكنه مريح".

"أوه، موسى"، قالت، "قلت لك، لا أبالي".

"لن يكون الأمر كما اعتدت"، قلتُ، مُتفكراً في ثروات قصر ريشر وآل دوفت.

"ما أنا معتادة عليه هو ساحة تراقبني ليلاً ونهاراً. ما أنا معتادة عليه هو زوج بلا إرادة. السبب الوحيد لحلمي هو أنها طلبت ذلك".

تقافزت العربة فيما تدهس حجارة شارع مُخلخلة، أو كلب ربما. عندما قال الحوذي إنه لن يمضي أكثر من هذا، عرضتُ عليه دفع الضعف. جلبنا إلى باب المقهى.

"ها هو"، قلتُ، شاعراً بالهوان عندما رأيت كيف يبدو المبنى ضئيلاً الآن. كان له أن يكون قطعة ديكور على خشبة مسرح تاسو. أخفضت أماليا قلنسوة عباها على جبينها. حملتُ صندوق النقود في يدي فيما أساعدها بالأخرى على الخروج من العربة. كانت قوية،

لكن ظهرها كان مُتَقَرَّحًا من ساعات الجلوس على المقاعد القاسية في المقصورة والعربة، وصارَ عَرَجُها أكثر وضوحًا فيما نَعَبَرُ الشارع المليء بالحُفَر إلى الباب.

كان الوقت قد تجاوزَ منتصف الليل الآن -ساعةُ المحرّمات في هذا الحي- ولهذا حدّق المارة في الأرض بدلًا من التطلّع إلى وجوهنا. كان المقهى فارغًا تقريبًا. أربعة رجال، متورّدين من الشراب، يحتسون دواءهم المُرّ، القادم، يحدّقون في أماليا وكأنها رؤيا فانتازية استحضرها شرابهم. نظرَ السيد كوست المُوسوس في حذائه، واثقًا أنه لا يفترض به رؤية هذه السيدة الأنيقة تدخل مقهاه.

ارتقينا الدّرج إلى مسكن صديقِي. اندفع ريموس ناهضًا من مقعده. جاهدَ نيكولاي للوقوف على قدميه. نظرتُ إليهما بإشراق، وملاً الارتياح وجهيهما.

"حمدًا للرّب"، قال ريموس، كأُمّ قتلها الخوف. ضمّ يديه أمام صدره عندما ظهرتُ على عتبة الباب، رغم أن ابتسامته تلاشت إلى إماءة تحيّة عصبية فيما تدلف أماليا ورائي وتُنزل قلنسوتها.

لكن ابتسامة نيكولاي تعاظمت عندما تبيّنت عيناه الضعيفتان ظلًا أنثويًا. "مرحبًا في معبد الحب!" هتف. شحب وجه ريموس بظُلّ آخر، فيما احمرّ وجهي في حَرَج. وحدها أماليا ابتسمت. ثم نظرت بتمعّن في ريموس.

"يا إلهي!" قالت. "إنه ذلك الراهب الذئبي!"

"مرحبًا، آنسة دوفت". انحنى.

"في الحقيقة، يدعونني السيدة ريشر الآن"، قالت. "لكن الليلة أودُّ أن أدعى بدوفت مُجدّدًا".



"في هذا المنزل يمكنك اختيار أي اسم تحببته"، قال نيكولاي، وتناول يدها في يديه الضخمتين، وكأنه يريد تدفئتها.

"أصدقائي"، قلتُ. "هل لنا أن نبقى هنا لبعض الوقت؟".

رفع نيكولاي يد أماليا إلى خدّه. "قَدَّرَ ما تحبَّان!" هتَفَ.

"شكرًا"، قالت وابتسمت. تطلَّعت في أرجاء الغرفة البالية. لارتياحي، لم يَبْدُ على وجهها أيُّ امتعاض.

"لماذا لا تأخذان غرفة ريموس"، قال نيكولاي بفروسية. "يمكنه الانزواء هنا مع كتبه".

"لا أريد أن أكون عبثًا عليكم"، قالت أماليا.

"لستِ عبثًا بأيِّ شكل"، قال ريموس.

"لن يستمرَّ الأمر طويلاً"، قلتُ.

"أصلي للرَّبِّ أن يستمرَّ طويلاً!" قال نيكولاي.

"سنذهب إلى فينيسيا!" قلتُ بغتة.

"إلى فينيسيا؟" قال نيكولاي، واتَّسعت عيناه.

"سيغنِّي موسى في الأوبرا"، قالت أماليا.

"نعم!" هتَفَ نيكولاي. "في تياترو سان بينديتو!"

"وأنتما الاثنان أيضًا"، قلتُ. "لا بُدَّ أن تأتيا معنا!"

ضمَّ نيكولاي يديه المتورمتين تحت ذقنه. تدفَّقت الدموع في عينيه. "فينيسيا! حلمي يتحقَّق! بالطبع سنصحبكما!"

لم يتحدث ريموس لوهلة. كان وجهه كسحابةٍ تعجب شعاع شمس مُستقبلنا. "ريموس"، قال نيكولاي، "لا تكن مُضجِرًا هكذا".

مكتبة  
t.me/soramnqraa

"نيكولاي لا يستطيع السفر إلى فينيسيا"، قال ريموس لأماليا. "إنه مريض".

"ذهبْتُ إلى المسرح الليلة!" كانت ابتسامة نيكولاي مُكابرَّةً وعنيدة. "يمكنك وضع شِوال على رأسي بحيث أتجنَّب الشمس".

"نيكولاي، فينيسيا على بعد أربعمئة ميل من هنا، عبر جبال الألب. لا يمكنك امتطاء حصان. على أيِّ حال، لا تملك أيَّة أموال لرحلة كهذه".

"نعم، لدينا!" قلتُ. أخذتُ الصندوق من تحت ذراعي وفتحتُ الغطاء. التمتعَ الذهب في ضوء الشمعة.

"يا إلهي"، همسَ ريموس.

"ما هذا؟" سأل نيكولاي، محاولاً تثبيت عينيه على الذهب. "هل هو حريق؟".

"موسى وأماليا لديهما ثروة"، أخبره ريموس. "مالٌ أكثر مما لمسَتْ طوال حياتك".

شهقَ نيكولاي.

"سنشتري عربة"، قلتُ. "سنشيّد لنيكولاي فراشاً داخلها".

"تري، نحن في حاجةٍ إليكما"، أوضحت أماليا. "هنا في النمسا، أنتما الستار الذي يخفيكما. وفي إيطاليا، لن يصدق أحد أن موسى زوجي".

"سأكون زوجك!" قال نيكولاي.

تورّد وجه أماليا.

"نُفكر"، قلتُ، "أن يكون ريموس أباهما. وزوجُها، سنقول، بعيدٌ في الحرب".

"بمقدوري أن أكون عمُّها إذن".

"فكرنا أنك قد تكون مريضاً"، قالت أماليا. ثم نظرت إلى رموس.  
"مريض يرعاه أبي".

"مريض ثري، إذن"، قال نيكولاي.

"مريض ثري"، أكدت.

ثم سمعنا صوت خطوات على الدُرج. نظرَ رموس ناحية الباب،  
وانسحبت الدماء من وجهه. مدَّ نيكولاي ذراعاً طويلة وقادني أنا  
وأماليا إلى خلف ظهره، ليواجه الخطر الصاعد على الدُرج بنفسه.

لكنني ابتسمتُ فحسب: سَمِعَتُ أذناي أكثر ممَّا سمعت أذانهم.  
عندما انفتح الباب أخيراً، وتخشَّب نيكولاي للأمام في وضعية الهجوم،  
لم يكن الغازي يصل إلَّا إلى خصره بالكاد.

كان وجهه تاسو مُحمرّاً وغارقاً في العرق من الركض عبر المدينة.  
فركَّ كُفَّيه في ارتياح عندما رآني.

"جواداني يبحث عنك!" قال تاسو بين أنفاسه اللاهثة. "وثب من  
بين الظلال فيما أكنس المسرح. أمسك بي من حلقي. قال إن دوراتسو  
سيطردي من المسرح!"

"ماذا ستفعل؟" سألتُ.

ابتسمَ الرجل الضئيل وهزَّ رأسه. "ركلته في قصبة ساقه وسخرت  
من تهديداته"، قال متباهياً. "سمعتُ دوراتسو نفسه يهتُّ جواداني.  
وقال الناظر إن ما غُنِّيَّه كان أعظم أغنية غُنِّيَّت على الإطلاق في  
مسرح الإمبراطورة. يظنُّون أنه مَن كان يُعْنِي؛ لهذا لا يستطيع جواداني  
أن ينطلق بكلمة! لكنه سألني أين تختبئ. أحبته أنك تلميذه؛ ينبغي  
أن يعرف أين أنت".

"أشكر"، قلت.

"وسأركله مُجدِّداً غداً"، تفاخرَ تاسو.

أخذت أماليا ذراعي وغطت خارجة من خلف نيكولاي. جفل تاسو. "لكن هذا يعني أن كليتنا ينبغي أن يظل مُختبئًا حتى نتمكن من مغادرة المدينة"، قالت لي.

"تاسو"، قلت. "هذه أماليا".

تطَلَّعَ إليها الرجل الضئيل من رأسها إلى قدميها. عندما سقطت عيناه على بطنها المتكور أطلقَ صفيراً مع نفحة من الهواء. لم تكن أخبرناه بشيءٍ عن خطتنا، وصارَ الآن يستدير ناحية كل واحدٍ منَّا بنظرة غضب لم أرها قط على وجهه الصغير. خشيتُ لوهلة أن ينطلق بنفسه لبحث عن جواداني والكونتيسة ريشر.

طَوَّحَ بالباب لإغلاقه وراءه؛ فقعَّ على إطاره المتهالك. هزَّ تاسو رأسه ناحية كلِّ من أصدقائه ثم خطا إلى جانب أماليا وأمسك برسغها. كان رأسه يصل إلى مرفقها بالكاد. رفع ذراعها، ممسكاً بها في كلتا يديه فوق رأسه -كنادل يحمل صحيفة- وقادها أولاً ناحية الباب، ثم التفَّ حول نيكولاي، ومرَّ بكومة كتب، بين كأسَي قهوة مقلوبين، وحول بقعة داكنة على السجادة، حتَّى وصل بها إلى أمام نيكولاي. ثم استدارَ إليها. لم نتحرَّك. تجهَّم. "تعالَ إلى هنا"، قال مُشاكساً. "الآن حالاً". أشارَ إلى الأرضية بجوارها. عندما خطوتُ إليه، ساعدني على إجلاسها ببطء، بحذرٍ، لترتاح في المقعد. نزعَ حذاءها وأمرني، "دلك قدميها".

\*\*\*

أوماً تاسو فيما أقدم له موجراً وأسباباً لكل ما كان قادنا إلى وضعنا الحالي ولكل ما سيأتي. انخفضَ رأس الرجل الضئيل فيما نتحدَّث؛ ولهذا عندما انتهينا، بدا كأنه كان نائمًا. استغرقنا في الصمت لوهلة، ذاهلين.

كانت أماليا مَن أدرك الأمر. "تاسو، هل ستأتي أيضًا؟".

رفع بصره إليها. "ربما"، قال.

"لكن تاسو"، قلت، "لن تترك المسرح بالطبع!".

أبدى استهانةً. "هناك مسارح أخرى".

"هناك حقًا!" قال نيكولاي، فاردًا ذراعيه. طأطأ ريموس عندما لامست أصابع نيكولاي أذنه. "وسنحتاج إلى شخصٍ ما لقيادة عربتنا! تاسو، هل تستطيع الضرب بالسوط؟".

"الأحصنة عنيقة، بهائم غبية"، قال. "لكنني أعرف كيف أُسيِّسُها".

وهكذا اتفقنا. سنبقى في سيبيلبرج لشهر أو شهرين - بما يكفي فحسب ليولد الرضيع - ثم ننتكز كمريضٍ وحاشيته، سنسافر معًا عبر جبال الألب إلى فينيسيا. نظفنا غرفة ريموس الصندوقية من الكتب والغبار؛ حتَّى تجد أماليا الراحة فيها. كان الفجر قد حلَّ تقريبًا عندما استلقيتُ بجوارها على الفراش وأخذنا في التحديق في عيني بعضنا البعض.

"أنت حيٌ"، همست للمرة المائة تلك الليلة. أجزت يدها عبر شعري ومعتت في كل ثنية في وجهي. "عندما أحلم بك، كنتُ أضطُرُّ إلى الحلم بذلك الصبي الضئيل، أو حتَّى بظله. من حقِّي أن أغضب: كذبت عليَّ لسنوات، أنت أيُّها الأحمق".

"لكنني..." أوْشكتُ على القول، ورغم أنها منحتني الوقت للتحدُّث، عجزتُ عن إيجاد الكلمات المناسبة لتسمية عُذري، أو القوة للنطق به. عندما أشحت بعيني أخيرًا شاعرًا بالإحراج، ابتسمت وجذبت وجهي إلى وجهها.

استغرقنا في النوم أخيرًا. غتُّ بجوارها في الفراش الضيق حتَّى تقلبتُ ساقطًا إلى الأرض، حيث كان دثارٌ في انتظاري. هكذا كان الأمر

كل ليلة. لم يكن في الغرفة أية زخرفة باستثناء نافذة واحدة صغيرة؛ لذلك في اليوم التالي علّق نيكولاي صليباً أعلى الفراش، وظهر ناسو بستائر حريرية، كان صنعها من بقايا الأزياء التي أخذها من المسرح. كان ريموس ينام على الأريكة، بشخيره يبقينا جميعاً مستيقظين، لكننا لا نعتز؛ لأنه فيما نستلقي مستيقظين، كنّا نحلم بمستقبلنا القينيسي السعيد: النوارس تتصايح فوق القنوات، والجناديل تصطدم بالأرصفة، وصدى الأوبرا يملأ الهواء.



## (17)

وجدَ ريموس وتاسو حنطورًا باليًا مُتَعَفِّيًا وراءَ واحدةٍ من حانات سبتليرج المُتَهَدِّمة. ذهبْتُ معهما لمعاينته، وأصابني إحباطٌ شديد من حالته البائسة: عجلة واحدة فقط كانت مستديرة، لطخات من الطلاء المُتَقَشِّر، بلا زجاج في النوافذ.

«سنحتاج إلى الذهب حتَّى نصل إلى فينيسيا فقط»، أشارَ ريموس. «بعدها سيغني موسى. لماذا لا نشترى شيئًا... سليمًا أكثر؟».

«شيئًا أحدث؟» اقترحت.

رفع تاسو بصره إليّ، ثم إلى ريموس. هزَّ رأسه. ثم أخذَ في تطويع الباب جيئةً وذهابًا على مفصلته الوحيدة المُتَبَقِّيَّة. عوى كُغْنِي سوبرانو مخمور. «لا»، قال. «سنأخذ هذه العربة»، قال. «اذهب وادفع الثمن».



كان تاسو عبقرئاً. لم نكن أنا وريموس سوى مُساعديه الحمقى فيما يُشيد على الهيكل، الثابت بعض الشيء، أكثر عربة طبيب إقناعاً شُيِّدت قطً. عندما انتهينا، كانت هائلة ومظلمة، بنوافذ صغيرة عليها ستائر رمادية. في الداخل، رُكِّبنا فراشاً كبيراً على نوابض من أجل نيكولاي، وفراشاً بستانر لأماليا ورضيعها، وستة خطاطيف للأراجيح، في حال لم نجد حانةً في أيّ ليلة على طول رحلتنا. ثبتت تاسو موقداً صغيراً في الأرض وحفر ثقباً في السقف لوضع مدخنة. رغم كتلة العربة الكبيرة، كانت الركوبة على نوابضها الرفيعة الجديدة سلسة وكأنها على فراشٍ بريش. طليثُ العجلات الكبيرة بالأسود والذهبي.

عندما امتطى تاسو موقعه، ألمَحَ ريموس إلى توهّم عجيب: ظهر الرجل الضئيل بالحجم الطبيعي وبَدَت العربة العجيبة أكبر بمقدار الضعف من أعظم عربة لدى الإمبراطورة.

اشترينا أكبر أربعة خيول رمادية مُروّضة استطعنا إيجادها، ووضّعناها في الحانة مع العربة إلى أن نتهياً للرحيل. مُعْتَصراً عينيه في مقعده، رسمَ نيكولاي لافتةً تقول: «الدكتور: ريموس مونش: احذروا من الأمراض الرهيبة». علّقنا اللافتة على باب العربة.

اشترينا ملابس فلاحين لأماليا: ولوّثناها بالفحم؛ حتى لا تثير الشكوك. في الصباحات الباكرة، عندما لا نخشى كثيراً أن يرانا أحد، كانت أماليا ترتدي عباءتها ثم نمشي في الأنحاء لتتنفّس الهواء المتجدّد. كنْتُ أقودها عبر أكوام الكرب المتعفّن. ونتحدّث عن مستقبلنا: عن إيطاليا ومُدنها؛ عن باريس وإنجلترا البعيدة؛ عن أعظم دور الأوبرا في العالم، التي كنا ننطق أسماءها فيما بيننا كتعاويذ سحرية: تياترو سان كارلو، تياترو ديلا بيرجولا، تياترو سان بينديتو، تياترو كابرانكا، تياترو كمونالي، تياترو ريجيو، كونفنت جاردن، دي هوفوبر. كان الأطفال رفقتنا الوحيدة في الشارع. وفور أن تطلع الشمس كانوا

يتسلّقون نوافذ المنازل المهجورة، يتقافزون عبر الأزقة، تهشّم أمهاتهم بعيدًا عن الأبواب. كان الأطفال الأكبر يقطرون بسلاسل أشقائهم الأصغر ورائهم. فيما يتسابق الأطفال حولنا، كنتُ أجد نفسي أتفحص كل وجه مبتسم. هل سيكون طفلنا مثله؟ أم مثلها؟

أخبرتني أماليا ذات يوم أنها تودُّ الانطلاق في رحلة قصيرة إلى المدينة لشراء هدية لنيكولاي. في اليوم السابق، كانت اقترضت شريط من الكتان المرقّم الذي يستخدمه تاسو لقياس الأطوال وربطته حول رأس نيكولاي، مُخرِبَةً بالأرقام على قصاصة ورق. حَزَمْتُ شَعْرَهَا للخلف بوشاح ولطّخت وجهها بالرماد حتى صارت تبدو كخادمة مُشعّنة، ومررنا عبر بوابة السور إلى سوق السمك حيثُ أخبرتني أن أنتظر في العربة.

اختفت في متجر، بلافتة تقول «عدسات Linsen». هَبَّت رائحة السمك العفنة في الهواء البارد وأصابتني بالغثيان. تطلّعت عبر الشارع يمينا ويسارًا بحثًا عن غول الكونتيسة ريشر أو جاسوس آخر ما ربما يسرق مني حَبِي مُجَدَّدًا. دفعَ رجل عجوز بعربةٍ تصرُّ مُحمّلة بأكوام من الصابون المدهّن، فيما صَبِيٌّ مُتَسَخٍ يحمل صحفًا مُتهذّلة في يده ويصيح، "الهِزِمة في سيليسا! الحرب ستنتهي حتمًا!" دلفت امرأةً أخرى إلى متجر العدسات بعباءة سميكة حول أذنيها، واقتنعتُ بغتةً أنها الكونتيسة ريشر نفسها. لكن فور أن استجمعت شجاعتي لمواجهتها، خَطَّت أماليا خارجةً، بخديها الورديّين بادِيَتِي الرضا والفرح. كانت تحمل علبة صغيرة تحت ذراعيها.

في تلك الظهيرة كشفت عن هديتها: زوج من العدسات المستديرة المصفّرة مُعلّقة على إطارات من الأسلاك.

"لا تتحرّك"، قالت لنيكولاي فيما يحاول مدّ يده وتحسّس الأداء الغريبة بيديه الخرقاوين. "دعني أضعها على وجهك".

أصبحت عيناه شكلين بيضاويّين، بشرائط من الجلد الأسود حولهما لحجب الضوء. أبدى نيكولاي اندهاشةً، رغم أنه لم يستطع رؤية شيء في ضوء الردهة المُعتم. نهض واقفاً. فتحت أماليا الستارة. انساب ضوء أواخر ما بعد الظهيرة إلى الداخل، وللمرة الأولى في سنوات طويلة، لم يجفل نيكولاي.

شهِقَ من البهجة ولَوَّحَ بيده أمام وجهه، وكأن العدسات تجعله يُبصر أرواحاً غير مرئية لنا تطير في الهواء. خطا إلى النافذة ووقف هناك كخيال ظلٍّ مهيب، بذراعيه ممدودتين لمعانقة الشمس الدافقة. "إنها معجزة!" هتف.

لم تكن معجزة، بل مجرد هديّة أخرى من العلم، ولم تكن الحل المثالي كذلك. عندما يرتدي العوينات، كان بمقدوره الإبصار جيداً فقط في الظواهر المشمسة كما يُبصر الآخرون في منتصف الليل. "لا، لا"، أجاب على تأكيدات ريموس بأنه يخدعنا. "أستطيع الإبصار بأفضل ما استطعتُ قط. مثل خفاش".

هزّت أماليا كتفيها استهانةً وهمست لي، "إنها زجاج مُغْبَش فحسب. لكن لماذا نخبره؟".

تواثب نيكولاي في أرجاء المسكن وكأنه يرى كل كومة كتب لريموس، كل منضدة، وكل كأس قهوة أو نبيذ، وهكذا عندما يقلبها، وهو ما فعله كثيراً، كان يهتف، "أوه، أخرق للغاية. ينبغي لي أن أكون حذراً مع قدمي السمينة في المستقبل". طلبَ من ريموس أن يرافقه فيما يتنزّه في الحَيِّ. "حتّى الوحوش البشعة"، قال، "لا تخيف أحداً مع صحبة الأطباء باهظي التكلفة".

عندما يتحرك رضيعها، كانت أماليا تضع يدي على جسدها حتّى أشعر بالحركة أنا أيضاً. وعندما يطول صمت الرضيع، وأراها تنغز برفق، على أمل إيقاظ علامةٍ ما على الحياة، كنت أجذب يدها بعيداً

وأضغط بأذني على بطنها. أنصتُ إلى القلب المُنمَّم الذي يخفق أسرع من قلب أمِّه مقدار الضَّعف. ذات يوم، فيما أغنِّي لها صدى القلب، لوب-دوب-لوب-دوب لوب-دوب، أخذت يدي في يديها وجذبتني إلى وجهها حتى تلامَس أنفانا. "موسى"، قالت. "سيدعوك (أي)".

تورَّد وجهي وأشحتُ بنظري، لكن الفكرة سحَرَتني خلسةً. أي، كررتها لنفسي فور أن صرْتُ بمفردي. أي.

منذ ذلك الحين، كل يوم عندما أغنِّي لأماليا كنتُ أغنِّي كذلك لطفلنا في رِجَمِها. تَمَنَّيْتُ في أعماقي أن يخترق صوتي أذنيه المنمَمتين كما اخترق صوتُ أجراس أمي أذني. هل سأقدر أن أكون أبًا لهذا الطفل كما كانت الأجراس لي؟

ذات ليلة، بعد أن تهيَّأنا للنوم، وقفْتُ أمام أماليا في غرفتنا الضيقة. أخذت تَمَعَّنُ فيَّ في ضوء الشمعة: ذراعاي الطويلتان وصدري البارز. في الهواء البارد، اشتدَّت معدتي الملساء إلى ما يشبه قشرة بيض. استقرَّت عيناها للحظة على اللقافة التي أرتديها دائمًا حول وسطي، ثم رمشتا بسرعة على وجهي. لكنني لمحتُ تلك النظرة المُختلِسة، وعندما تلاقَت عيناها، تورَّد وجهها.

فككتُ اللقافة. افشَعَرَّ الجلد الرطب تحتها بفعل الهواء البارد. لم أستطع أن أخفض بصري؛ وإلا فلن أحتمل عاري. لكن أماليا لم تحوَّل بصرها. مدَّت يدها، وعاريًا، بارتياحٍ هائل، ارتقيتُ تحت دثارها. استكانت بين ذراعي.

"أماليا"، قلتُ بغتةً بعد بضعة دقائق.

"ما الأمر يا موسى؟" سمعتُ في حيرتها أنها كانت نائمة.

"لن أدع هذا يحدث له".

"عن ماذا تتحدَّث؟".

"إذا كان صبيًا... ابنتا. لن أدع هذا يحدث له كما حدث لي".

"أوه موسى. لا تكن أحمق. بالطبع لن يحدث".

سرعان ما سمعتُ في أنفاسها المتطاولَة أنها عادت إلى النوم، لكنني بقيتُ مستيقظًا لدقائق طويلة.

سأحميه -أو أحميها، ابنتا أو ابنتنا، أيًا كان- سأحمي ذلك الطفل من الشرِّ الذي حلَّ بي ومن كل الشرور الأخرى التي تتربَّص به في العالم. لكنني أبدًا لن أذكر ذلك الشيء مُجدِّدًا، ولا حتَّى لأماليا: سيكون ميثاقي السَّرِّي: إذا استطعتُ أن أفعلها -أن أكون أبًا لهذا الطفل الذي يكبر في بطنها- فإن عاري بشأن نقيصتي سيتلاشى أخيرًا إلى العدم. ورغم أنني لن أستطيع أبدًا أن أصل ما انقطع، فسأتوقَّف تمامًا عن النواح على كل ما فقدته.

وهكذا حلَّ نوفمبر البارد. بدت أياؤنا هيئَةً ومشرقة؛ نسينا بالكاد أن هناك أيَّ إنسان أو شيء في العالم قد نخافه. نسينا أننا نتشارك مدينةً مع أناس يمقتوننا بشدَّة؛ ذلك أن سبيلبرج كانت ملاذنا، والرجال والنساء الذين يقطنون هذه الشوارع كانوا بعيدين عن حفلات آل ريشر الساهرة وغناء جواداني بُعد الترابِ عن السماء.

## (18)

«شيء ما مختلف يا موسى»، قالت أماليا ذات صباح. كانت قد ازدادت تكوُّراً، وأخمدَ قوامها المنتفخ من رنين جسدها. كان عرجها بادياً حتَّى عندما تُبدِّل قدميها على الأرض ببطء. صارت الآن تقف، ومنامتها الرقيقة تنسدل على بطنها كشلالٍ على صخور. لاحظتُ أن بروز طفلها قد ارتخى.

«هل يؤلم؟» سألتها.

«لا»، قال. وضعت يديها بمحاذاة بطنها. «لا يؤلم على الإطلاق».

لكن تلك الظهيرة، بدأ الألم؛ ألم زاحف، متناقل. سمعته في حدة أنفاسها وهي تتحرك. «أنا بخير»، داومت على إخبارنا عندما نُحدِّق في رعبٍ أخرس. جلسنا أنا وريموس ونيكولاي أمامها في الردهة. سألتها إذا كانت ترغب في بعض الشاي، أو التفاح من تاجر الفواكه، أو أن

يقرأ ريموس عليها من كتبه بصوت عالٍ، أو أن يحكي لها نيكولاي مُجدِّداً كيف كانت حياته في إيطاليا، أو...

"أمسك يدي فحسب ولا تسألني آية أسئلة أخرى"، قالت. لكن حينها امتعض وجهها وكأن أحدهم يهرس بيده في أحشائها. سندت نفسها على المقعد بذراعين ممدودتين ورفعت بطنها، وكأنها تحاول رفع رضيعها ناحية السقف.

حاولتها مساعدتها في رفعه.

"أفلتني!" صرخت بين شهقاتها.

اندفع ريموس ناهضاً وخطاً ناحية الباب. "من الأفضل أن أجلب تاسو"، غمغم، واندفع إلى الخارج بسرعة لم أره يتحرك بمثلها قط.

عندما وصل تاسو، ركض عامل المسرح صاعداً الدَّرج، تاركاً ريموس بعيداً وراءه. كان الرجل الضئيل الأكبر من بين ثلاثة عشر طفلاً؛ والولادة عادةً في أسرته وكأنها صوم الأربعين. ذلك يدا أماليا بكفيه وأخبرها أن أمامها ساعات كثيرة قبل أن تضع مولودها، وأن علينا أن ننتظر قبل أن نرسل في طلب القابلة (Hebamme). "قف بجوارها"، أمرني، "أمسك يدها". فعلتُ كما قال. بدأت الغرفة في الدوران من حولي.

"بحقِّ الرَّبِّ يا موسى"، قال ريموس، "عليك أن تتنفس، وإلا ستفقد وعيك".

فركت أماليا ظهر يدي على خدَّها الحار. "موسى"، قالت، "لا ينبغي أن تقلق. سأكون بخير".

لكنني كنتُ خائفاً حقاً. رفضت أضلاعي التَّمُدُّد، ولم أستطع التنفُّس سوى برفع كتفَيَّ. عضضتُ شفتي حتى دَمِيت. تراخت إحدى رُكبتَيَّ؛ أسندني ريموس إلى مقعد. ثم كانت أماليا تفرك يدي. "هل كل مَنْ على شاكلته بهذه الهشاشة؟" سمعتُ تاسو يهمس لنيكولاي.

"لا، لا"، أجابه نيكولاي مُغمغمًا. "إنه دائمًا هكذا. حتى قبل أن... حسنًا، تعرف. أعتقد أنها طفولته في الجبال ربما... العيش قريبًا جدًا من الشمس".

تمعّن إليّ تاسو وأومأ.

\* \* \*

بعد بضع ساعات، ازدادت آلام أماليا قوة. "أعتقد"، قالت، لاهثة، وعاصرةً عينيها لإغلاقهما، "أنني أودُ الاستلقاء على الفراش".

اندفعنا جميعًا ناهضين، لكن تاسو أومأ لي. "أنت فحسب". ساعدتها على الاستلقاء على الفراش فيما يهبط تاسو الدُرَج مُسرّعًا إلى الشارع ليجلب القابلة.

"غنّ لي يا موسى"، قالت أماليا. ركعتُ بجوارها واخترتُ واحدة من الأغاني المقدّسة التي غنّيتها لأمّها فيما مضى، وصار بمقدوري التنفّس مُجدّدًا بغتة. أغلّقت عينيها، وتحركت أصابع قدميها جيئةً وذهابًا فيما تُعمل صوتي عبر ساقبيها المتورّمتين. تنهّدت فيما يهتزّ الصوت عبر ظهرها ويُرخي أحشاءها. تباطأت أنفاسها، وفتحت عينيها مُجدّدًا وابتنسمت. هذا كل ما أردته في حياتي، قالت نظرتها لي، وفيما أركع هناك في تلك الغرفة الضيقة وكأنني أغني صلاةً، مع قعقعة أكواب القهوة عبر الأرضية البالية والمذاق اللاذع لدخان الخشب على لساني، أدركتُ أيّ هبةٍ تلقّيتُ. ليأتِ المستقبل! فكّرت، مزهوًا، بملؤني الأمل كما كنتُ دومًا.

ثم، وكأنها رأت شبحًا متربّصًا وراء رأسي، اتّسعت عيناها وتقلّص وجهها. فقدَ جسدها صوتي، مثل يدٍ تُسكّت أوتارَ كمان. مدّت يدها تحت انحناءة بطنها ولهتت.



في ثلاثين ثانية انتهى الأمر، لكن التماعات الفتاة الجَزعة التي قابلتها قبل أعوامٍ طويلة كانت أقرب إلى السطح الآن. "أوه، موسى"، قالت، "هذا سيؤلم". وضعتُ منشفة باردة على جبينها، وبحثتُ عن الكلمات لتعزيتها، لكنني كنتُ ضائعًا.

تناولت يدي. "أخشى كثيرًا أن يحمل وجه أنطون"، قالت. "أريد لطفنا أن يكرر على شاكلتك".

كان هذه المرة الأولى التي تلمح فيها لمخاوف كهذه. تناولتُ يدها وقبلتها. "لدي سرٌ"، أخبرتها. "كان عندي أب. كان أشنع رجلٍ عرفته في حياتي. كان قبيحًا. ووضيعةً جدًا. وهكذا، إذا لم ترني ذلك الرجل الشنيع في وجهي، فلا تخافي على هذا الرضيع. لا أستطيع القول إلى ماذا سيصير هذا الطفل، لكنني أعدك، أنه لن يكون مثل أبيه".

اعتصرت يدي، وكنتُ سعيدًا أن أرى أن هذا قد منحها العزاء، حتى وإن جعلتها نوبة الأم التالية تُغلق عينيها بقوة وبطء. عندما انتهت تلك النوبة، انفتح الباب ودلف تاسو بصحبة القابلة. كانت طويلة ونحيلة، بشعر رمادي سلكي. تجهمت عندما رأت الغرفة المزدحمة. لكن هذا كان كل شيء. قابلاتٌ كثيرات (Hebamme) من إنينشتادت كُنَّ ليندهشن ويهرين من هذا المشهد: امرأة بمفردها مع أربعة رجال، أيُّ منهم ليس الأب! لكن هذه المرأة -المتمرسة في شوارع المواخير، والأمهات الأطفال، والنساء المستعدات لقتل الرضيع داخل أرحامهن- لم تطرح أيَّ أسئلة.

ألقت نظرة خاطفةً عليّ، ولا بُدَّ أنها قرأت رعبي بوضوح. أمرت تاسو أن يغلي الماء، ويجلب الملاءات والمناشف، وأن يوفّر لها منضدة لتضع أدواتها عليها. ثم أصدرت أمرًا أخيرًا. "خذ هذا الرجل"، أوامرت في اتجاهي، "إلى خارج هذه الغرفة، ولا تسمح له بالعودة حتى يظهر الطفل".

جاهدت أماليا للاعتدال على الفراش، لكن القابلة أبقتها مُستلقية بالقوة. التقت عينانا. أبدًا لم أر خوفًا كهذا على وجهها.  
"موسى!" قالت.

"سيكون كل شيء على ما يرام"، قلت. بحلقي مشدودًا للغاية لدرجة أنه كان همسًا. "سأكون في الخارج بجوارك".  
وكزني تاسو إلى خارج الغرفة.

أودعني في مقعدٍ، وجلسنا جميعًا في الردهة، مُرتعشين في صمت الغرفة المُعتمة: خَبَطَ باب المقهى بين لحظةٍ وأخرى، الصراخ الحاد المتكرر لطفلٍ في الشارع، صرخات الألم المنتظمة تخترق الباب المُهترئ.  
"الآن لنجلس وننـ..." أوشك ريموس على القول، لكنه توقّف لأنني نهضتُ من مقعدي بغتةً.

سمعتُ وقع الخطوات البطيئة تصعد الدّرج قبل أن يسمعها الآخرون بلحظة. أبدًا لم نستقبل زائرًا من قبل. لا أرغب في زوّار الآن.  
"مَن هذا؟" غمغم تاسو.

"سأصرفهم"، قال ريموس، ناهضًا باندفاع. "لا بُدّ ألا...".

لم يجد وقتًا. أديرَ المقبض، وانفتح الباب. خطأ شكّل بشري طويل مُغطّى بقلنسوة إلى الداخل وأغلق الباب وراءه ببطء. ثم، وكأنه على خشبة مسرح، ببطء شديد، مدّ جابتانو جواداني يديه المثلّيتين لأعلى وأنزل عباءته. تأمّل جمهوره الصغيرة. عندما رأني، ابتسم، كما لو بارتيحاح كبير.

"Mio fratello"، قال.



## (19)

أبداً لم تَبْدُ الرَّدْهة صغيرةً هكذا. أخذت عينا جواداني البرأقتان تتأمل الستائر المَهترئة، والكتب المَغبرة المَكْدَّسة على طول الحوائط، وقطع الأثاث غير المتناسقة، وكأن كل جسم يهمس له بالأسرار حول الرجال القاطنين في هذا المسكن. استدار ناحيتي أخيراً.

"تُخفي نفسك جيداً"، قال. "من حُسن حظِّي أنك تحيط نفسك" - أشار بيده في أنحاء الغرفة - "بأشخاص لافتين للنظر، كانوا في غاية النشاط اليوم". ابتسمَ إلى ناسو. "مَن هي تلك المرأة التي رافقتَها إلى هنا لتوك، هل لي أن أسأل؟" عقدَ الرجل الضئيل ذراعيه وحدثني في الأرض.

كان هناك أنينٌ عالٍ قادم من غرفة أماليا؛ يجيبه الصوت الثابت، العميق للقابلة.

وحده جواداني استدار لينظر إلى باب الغرفة. «سيذهب موسى ليراك»، قال ريموس، «في وقتٍ آخر. أو ربما تزوره أنت. لكننا اليوم لسنا مستعدين لأي زيارة».

«لا، لا»، قال جواداني شارد الذهن، مراقبًا ما يزال غرفة النوم. «زيارة أخرى ليست ضرورية. لن أطيل. أودُ فقط أن أقول وداعًا لتلميذي. ثم سأرحل».

«وداعًا»، قلت.

ابتسم جواداني إليَّ وهزَّ رأسه لسذاجتي. خطا للأمام، حتى وقف داخل دائرتنا. نيكولاي على يساره، ريموس وتاسو على يمينه، وأنا جالس أمامه. «بالطبع، لا أريد أن أغادر»، قال، «دون أن أناقش ما حدث بيننا. أنا على يقين أن عامل المسرح قد أخبرك أن الأغنية التي سرقها قد تركت تأثيرًا هائلًا».

«موسى يُغني أفضل منك بكثير»، قال نيكولاي بغتة. لم يبدُ أن جواداني قد تأثر بهذه الاندفاع، لكنه تمعّن في نيكولاي، وكأنه يلاحظ تشوّهاته لأول مرة. رفع حاجبيه.

«موسى»، قال، مُتأملًا في اسمي هذه المرة الأولى التي يرد على شفتيه، «قبل أن أغادر، قبل أن أدع رجلًا كهذا» -أشارَ براحته إلى نيكولاي- «يُضخّم من طموحاتك، أودُ أن أمنحك بعض النصائح. أغني الأوبرات منذ كنتُ في العاشرة. غنيتُ على خشبات مسارح مُتَعَفِّنة في قرى إيطالية نائية. غنيتُ في كوفنت جاردن. لست أول تلميذ يترك كنفي مُعتقدًا أنه أعظم من المُعلّم. وإلى ماذا صاروا؟ لا أعرف. أبدًا لم أسمع اسم واحد منهم مُجددًا». هزَّ كتفيه استهانةً وتطلّع مُجددًا ناحية باب أماليا. «أعتقد أنهم يغنون في مكان ما. جوقات كنائس قروية، أو يسافرون مع فرق أوبرات الـ *buffa* التهريجية. أعرف كيف يعيشون؛ ذلك أنني عشتُ مثل ذلك يومًا. يغنون على مسارح

صغيرة في الخلاء، ويبتهج الناس لأصواتهم. يجعلون الرجال يكون. ثم ينتهي الحفل. يغادر الجمهور، وفيما يمشون عائدين إلى بيوتهم عبر الشوارع، يضع الرجال، من الجمهور الذي ضحك وبكى على غنائهم، أيديهم على أعضائهم" -نظرَ بتركيزٍ إلى حقوي، ثم أعاد عينيه إلى وجهي- "ويتظاهرون بالغناء كفتيات صغيرات".

هزَّ نيكولاي رأسه بتحدٍّ من مقعده، لكن جواداني لم يكن ينظر إلا إليّ.

تطلَّعتُ في قدمي المُغني.

"موسى"، تابع، "هل تظنُّ أن هؤلاء المُغنين البائسين لا يتمتَّعون بأيِّ موهبة؟ هل لهذا يتعفَّنون في قرى بلا اسم؟ موسى"، نطقَ باسمي بخفوتٍ ورفعَتُ بصري. هزَّ رأسه بحزن. "أوه نعم، لديهم موهبة! لديهم أصواتٌ عظيمة، مثل صوتك وصوتي. بمقدورهم جعل الإمبراطورة تبكي، كما فعلتَ أنت، فقط لو جعلوها تؤمن بهم". ازداد وجهه قتامةً. "لكن لا تظن أنه من قبيل الصدفة أنهم ينامون في العربات فيما أنام أنا في واحدٍ من أرقى منازل قيينا. ليست صدفةً".

بدأت أماليا في الأنين مُجدِّداً، وتوقَّفت جواداني، مُحملًا في الباب وكأنَّ مُعاناتها مُجرَّد سعال قطعَ غناءه على المسرح.

"ليست صدفةً على الإطلاق"، تابع، باهتياجٍ أكبر الآن. "الغناء ليس سوى بوابة الدخول إلى حرفتنا. موسى، أوضحْتُ لك كل هذا من قبل، لكنك لم تنصت. لم تكن لترتكب حماقةً كذلك لو كنتَ فهمت...". توقَّفت عن الحديث، حتَّى يسيطر على الغضب المتنامي في صوته، لكنَّ أذنيَّ قالتا لي أكثر من ذلك؛ كان أيضًا خائفًا من شيءٍ ما في هذه الغرفة. بيدٍ مرتجفة، ربَّت على جيب عباءته. أخذَ نفسًا بطيئًا، عميقًا.

"إنهم لا يمنحوننا الحب من أجل غنائنا"، بدأ مُجدِّداً. اتَّخذ خطوةً أخرى للأمام. "لديك صوتٌ بديعٌ يا موسى...".

"لديه أجمل صوت سمعته في حياتي"، قاطعه نيكولاي، ملوَّحاً بإصبعٍ تكفي لإيقاف جواداني في مشيه.

"صوتٌ بديعٌ"، قال جواداني. أوماً باحترام. "أيُّ فرقة أوبرا تهريجية سيسعدها ضُحكك. شيءٌ طيبٌ"، تطلَّع في أرجاء الغرفة، "أنك تبدو مُتكيفاً للغاية مع ظروف حياتك هذه".

"ارحل أرجوك"، قلت.

"لكن كنتُ سأعلِّمك كيف تكون موزيكو!" أجفلتني القوَّة المبالغتة لكلماته، وكأنه قصدَ ضربي. عندما رفعتُ بصري، رأيتُ أنه يرتجف من الغضب.

بهذوءٍ شديد قلت، "لكن لم تُعلِّمني أيُّ شيء".

"حان وقت رحيلك"، قال ريموس.

استدارَ جواداني بسرعة. "سأغادر عندما يناسبني ذلك!" أغلق عينيه لوهلة. ثم استدارَ ناحيتي وأشارَ بإصبع مُرتجفة. "يظنُّون أنهم سمعوني أغنِّي. لو عرفوا أنه كان أنت، لانفجروا من الضحك. ولطردك جنود الإمبراطورة من المسرح. كان صوتك، لكنه كان أنا مَنْ هتفوا له".

"هراء"، غمغم نيكولاي.

طوَّح جواداني بذراعه وصفع نيكولاي بظهر يده. تركتُ أصابعه الطويلة أربعة خطوط بيضاء على خد نيكولاي وصدغه. تطايَّرت عدسات نيكولاي الجديدة عن وجهه وتحطَّمت على الأرض.

"أنا مَنْ خلقتُ أورفيوس"، زمجرَ جواداني، وارتجفت الرّدهة الصغيرة بفعل صوته. "أعدتُ روحه إلى الحياة! ثم جاء هذا الصبي، هذا الهاوي، وسرق صوته منّي!".

ضيّق نيكولاي عينيه، لكنه لم يجفل من الضوء. ببطء، شرع في محاولة النهوض من مقعده بصعوبة. ارتفع فوق المُغْنِي. تعرّ جواداني للوراء حتى اصطدم بالحائط ثم أخذ في تحسّس عباءته. فيما يقرب نيكولاي منه، أخرج مُسدّساً وصوّبه ناحية العملاق. ضحك نيكولاي وشبّ لأقصى طولٍ له. "هيا"، قال. "تأكّد ألا تخطئ هدفك".

جذبَ ريموس ذراع نيكولاي. "نيكولاي، اجلس".

ارتعش المُسدّس. أبقاه جواداني موجّهاً إلى نيكولاي لكنه استدار إليّ. "أنا أكثر من مُجرّد صوت بكثير، ولست سوى لصٍّ لا غير".  
لوهلة عابرة، شعرتُ بالتعاطف ناحيته. كان على حقٍّ: لقد سرقته. اختلستُ منه ما يحتاجه كل عبقرٍ: الإيمان أن لا أحد في العالم بإمكانه أن يتفوَّق عليه. أمسك بالمُسدّس بارتخاء، بخرق. لن يُطلقه؛ يُريدنا أن ننصت إليه فحسب.

"هل هذا كل ما جئتُ لتقوله؟" سألتُ بحذر.

"جئتُ لأخبرك أن ترحل عن هذه المدينة. لا أريدك هنا".

حينها، انبعثت التّأوهات مُجدّداً. غرزتُ أصابعي في فخذي. اندفع تاسو ناهضاً من مقعده. ثم سكنت أماًلياً مُجدّداً، وارتعش المُسدّس بعنفٍ أكبر في يد جواداني. تقافزت عيناه من كل رجلٍ في الغرفة إلى الذي يليه. استوعب أخيراً بشكل باتٍّ معنى هذه الصرخات. كان يبحث عن الأب.



"سنرحل عن فيينا"، قلت. محاولاً التحدُّث رغماً عني لتشتيته،  
لكن صوتي كان همساً ذاوياً.  
"متى؟" قال.  
"قريباً جداً".

أوماً، لكنه كان ذاهلاً. انسحبت الدماء من وجهه. "يا إلهي"،  
همس. "لا يمكن أن يكون".

"اخرج!" صرَّ نيكولاي، مُجاهداً للإفلات من قبضة ريموس ناحية  
المُسَدَّس، الذي كان يرتعش الآن أكثر وأكثر.

تراجَعَ جواداني. "هل هذا حقيقي؟" غمغم. "هل هي فتاة ريشر؟".  
لم يُجب أيُّ منّا. تجمَّد نيكولاي في انقضاضته.

"هرَبْتَ معك؟" سألني. كانت شفثاه المُحمرَّتَان وعيناه الثاقبتان  
هي اللون الوحيد في وجهه.

وحينها صرخت أماليا. كان هناك ألم مريع في صوتها لدرجة أنني  
نهضتُ مندفعاً وهرعتُ نحو الباب، لكن ريموس أمسك بذراعي  
وأوقفني.

عندما خَبْتُ صرختها، كان جواداني يقف عند الباب المؤدي إلى  
الدُّرَج. "ملعونون جميعكم"، قال، ثم فرَّ هارباً.

وحده نيكولاي أبدى ردّة فعل. لكنه لم يُعَد الرجل الذي هرَّعَ  
عبر الدير نحو غرفة أولرتش قبل أعوام طويلة. قعقعَ هابطاً الدُّرَج.  
خطونا أنا وريموس وتاسو إلى النافذة. رأينا المُعْنِي ينطلق إلى الشارع  
ويختفي وسط الزحام. استغرق الأمر بضعة ثوانٍ قبل أن يتبعه  
نيكولاي، وعندما اندفعَ إلى أشعة شمس الظهيرة، دون عدساته، صرَّ  
وغررَ أصابعه في عينيه. بجواري، لهتَ ريموس فيما نراقب نيكولاي  
يقبض على رأسه ويسقط على ركبتيه في الشارع من تحتنا.

## (20)

وقفتُ عند باب أماليا فيما الآخرون يساعدون نيكولاي لصعود الدُرَج. وضعوه في مقعده. "لا!" هتَفَ، ضاغطًا بكعْبَي راحتيه على صدغيه. "لا، لا، لا!". جلبَ ريموس نبيذه المخلوط بصبغة الأفيون، لكن نيكولاي ضربَ الكأس بعنفٍ، وتحطَّم إلى شظايا على الأرض.

"هل سيخبرها؟ هل ستأتي امرأة ريشر؟" همسَ تاسو لريموس، معتقدًا أنني لا أسمعهم.

"أعتقد أنها ستأتي".

"لماذا؟" سأل. "إنه ليس طفلها".

"إذا كان صبيًا، فسيكون أكبر ابن لأكثر أبنائها: كونت ريشر ذات يوم. وسيكون وريث آل دوفت كذلك. ستحاول انتزاعه".

"لكننا لن نسمح لها"، قال تاسو.

لم يُجب ريموس. خطا إليّ، وواضعًا يديه على كتفيّ، قادني إلى مقعد. كان نيكولاي يُطلق أنفاسًا منتظمة، في محاولة لإخراج الألم من رأسه.

"ريموس"، قلت. "ماذا سنفعل؟".

"لا أعرف".

"إذا حاولت انتزاع الطفل"، قال نيكولاي، "سأقتلها".

\* \* \*

وقد جاءت حقًا، بعد ساعة، ولم تأت بمفردها.

كان الظلام يزداد حلكةً في الخارج. جاءت في عربتها بصحبة أربعة جنود. «تنحّ!» هتفوا. «تنحّ، أيّها الخسيس!» خبطوا بهراواتهم على راحاتهم ولوّحوا بها في الهواء ناحية أيّ شخص يُبطئ في إفساح الطريق لجيادهم. راقبهم تاسو من النافذة. طقطقت نوابض العربة فيما تجاهد في السير على الحُفر وأكوام المخلفات في الشارع. ثم حلّ الصمت، باستثناء نخير الجياد الفحول الأربعة.

«انفتح باب العربة»، همس تاسو. «أحدهم يخرج منها».

سمعتُ وَقَعَ حذائها على الدرجات الضيقة لعربتها وحفيف ردائها فيما ترفعه عن الشارع القذر. تقدّمتها الخطوات الثقيلة لجندي، فأنحّا باب المقهى. «إلى الخارج يا خنازير»، صرخ. «سيدة تودُ الدخول». صرّت المقاعد الطويلة بالأرضية. ارتدى زبائن معافهم بصعوبة. تحطّمت ثلاثة أكواب قهوة على أحجار الأرضية. أسرع الرجال خارجين إلى الشارع.

سمعنا جميعًا وقع الخطوات: الأحذية الثقيلة لاثنتين من الجنود، طقطقة كعبيّ الكونتيسة ريشر، وخطوات مُتخبطة أخرى لم أتعرف عليها. ارتقوا الدّرج. ارتدّ الباب مفتوحًا ليصطدم بالحائط. أحصى

واحد من الجنود، بيده على سيفه، الموجودين في الغرفة بسرعة، لكنه سرعان ما رأى فينا عدوًا مثيرًا للشفقة. وازنَ نيكولاي رأسه بين إصبعين. وقفَ تاسو مهزومًا بجوار النافذة. تطلَّع ريموس إلى يديه في حيرة.

عندما خطت الكونتيسة ريشر إلى الغرفة، بحفيف عباءتها وردائها الساطعين حول بابنا المائل، ونقرات أصابع قدمها على أرضنا الصَّارَة، وكل شعرة في رأسها مربوطة بنظام مُحكم؛ أدركنا حقًا كما كنَّا حمقى. وراءها دلفَ الجندي الثالث، ثم امرأة بدينة، شاحبة -مُمرضة- كانت مطأطئة الرأس ككلب صيدٍ خنوع يُجرُّ بحبل.

حملقت الكونتيسة ريشر إليَّ بعينين هائجتين. «هل ما يقوله الطواشيُّ صحيح؟» سألتني. «هل هي هنا؟» خطت للأمام، وانسحقت شظايا عدسات نيكولاي تحت حذائها. «أجيني»، قالت.

هزرتُ رأسي، لكن في تلك اللحظة سمعنا أنينًا، تحوُّل إلى صرخةٍ، وكأن أحدهم يغرز سكينًا في بطن محبوبتي. اتَّسعت عينا المُمرضة، وتجمَّدتُ، بالصوت يُمزق داخل رأسي.

كانت تعبيرات وجه الكونتيسة ريشر خاوية. انتظرت حتَّى يخمد الصراخ. «حسنًا جدًّا»، قالت. «سأرى بنفسي أيَّ مخلوق بائس يُطلق هذا الضجيج». خطت حول نيكولاي مُتجهَّةً إلى باب أماليا.

حالَ ريموس دونها. كان أطولَ منها، وفي تلك اللحظة بدَّت أكثر هشاشةً بمِرتين. «لا»، قال. رفعَ يديه عاليًا. "تنح"، قالت.

"لا حاجة بكِ للدخول إلى الغرفة. تعرفين أنها مَن تبحثين عنها، لكنها لا تحتمل ارتياحًا أكثر ممَّا هي فيه الآن."

تفحّصت وجهه، لكنها لم تمضِ في طريقها. عرضَ عليها مقعدًا. لوّحت لإبعاده. "سأقف حتّى يولد. حينها سأستطيع مغادرة هذا المكان القذر".

"لن نسمح لكِ بأخذه"، زمجرَ صوت نيكولاي العميق، وراحته ما زالتا تضغطان على صدغيه. كانت عيناه مُغلقتين.

استدارت الكونتيسة ريشر لمواجهة نيكولاي في مقعده "لن تسمحوا لي؟".

لم يقل نيكولاي شيئًا، لكنني كنتُ خائفًا أن تُحطّم يدها المرتعشتان رأسه.

تجهّمت الكونتيسة ريشر، نظرت في أرجاء الغرفة. هزّت رأسها وتنشّقت. "باستطاعتي إلقاء القبض عليكم في التّو واللحظة. أربعتكم جميعًا". ابتسمت ببرود. "لا أحتاج إلى أسمائكم حتّى. باستطاعتي إرسالكم إلى حبل المشنقة على اختطافكم لها، قبل أن تشرق الشمس غدً". حدّقت في تاسو، ورغم أنه أجابها بتحديقة مماثلة، إلّا أنه كان يرتعش. "هل جميعكم بهذه الحماقة؟ هل كان في نيّتكم حقًا سرقة هذا الطفل وتربيته هنا، في هذا الكوخ؟ لماذا؟ لأنّ" -أشارت إلى باب غرفة النوم وأطلقت كلماتها باهتياج- "تلك الفتاة الماجنة أخبرتكم أنها تريد هذا؟".

لا بُدّ أن جواداني قد أخبرها أن توجّه غضبها إليّ؛ ذلك أنها كانت تنظر لي باهتياج. تمّيتُ لو كنتُ أحمل سكينًا. كنت لأقتلها.

تابعت: "لا حقّ لها في أن تختار ما سيحدث لذلك الطفل. سيكون واحدًا من آل ريشر". تطلّعت إليّ من رأسي إلى قدميّ. هزّت رأسها. أمرت الجنود أن يحرسوا باب غرفة أماليا. "اجلس"، أمرت ريموس.

انصاعَ لأمرها.

افترست كل واحد منا بنظراتها على التناوب: أطراف تاسو المتقرّمة، وجه نيكولاي المشوّه، ريموس القبيح. ثم أنا. "طواشي"، هسهست. "من أجلك هجرت منزلنا؟ هجرت ابني؟" ابتسمت بقسوة. "أوه، أمل أن يكون لديك صوت جميل حقًا. بعد عشرين عامًا، عندما تصير هي بائسة ووحيدة، أمل أن تمنعها ذكرى صوتك الباهتة بعض العزاء".

لم أجب. شعرت بتحديقتها كإصبع باردة على وجهي، يتحسّس بحثًا عن كل علامة على عجز.

"سأمنحك خيارًا إذن"، تابعت. استدارت ولوحت بيدها بازدراء. "سننتظر حتى يولد الرضيع. سأخذه. ستعتني به مربّيني بالشكل اللائق لمكانته. سأرسل بعربة للأم. ثم سأرسلها إلى حيث أحب. سيُعتنى بها، لكنها ستكون بعيدة جدًا عن أي مكان يمكنها فيه الإضرار بمستقبل حفيدي بسلوكها المخزي. وأنتم، أربعتكم، سترحلون عن قيينا. لا أرغب أن يعرف أحد أن ورثتي قد وُلد في...". تطلّعت في أرجاء الغرفة، وكأنها تبحث عن أبشع الكلمات الممكنة، لكنها تنهّدت أخيرًا وقالت، "سبيتلبرج". تابعت. "إذا رفعتم يدا لإيقافي، أو إذا سمعتم مجددًا عنكم في هذه المدينة، فلن يكون أمامي خيار. ستموتون".

لم نتحدّث، لكن فيما الصرخات من غرفة أماليا تنطلق مجددًا، صرخت قلوبنا أيضًا. نظرتُ إلى أصدقائي. أومأ لي نيكولاي بما أعرفه بالفعل: أنه على استعداد ليموت على أن يترك هذه المرأة تفعل ما تريده. تاسو أيضًا، واقفًا ما يزال في الركن، بدا مُستعدًا لعُضّها وخربشتها. حتى عنق ريموس كان متورّدًا.

ارتعشت يداي على جانبيّ. صليتُ أن تصمد ركبتاي. "لا يمكنك انتزاع هذا الطفل من أمه"، قلت. كان همسًا. "لن نسمح لك".

حدّقت إليّ وكأنّها تظنّ أنّني في غاية الوهن لدرجة أنّها لا تحتاج سوى إلى تحديقة لطرحي أرضاً. "من الرجال"، قالت أخيراً، "أتوقّع الحماقة. كنتُ آمل أنهم انتزعوها منك مع رجولتك".

ثم انفتَحَ باب غرفة أماليا. أطلّبت القابلة برأسها. اختفت تعبيرات وجهها الهادئة. تشابَكَ شَعْرُها، ورغم أنّها أخفت يديها وراء إطار الباب، إلّا أنّ شريط الدم عبر جبينها أنبأ عن السبب. تطلّعت إلى الغرفة المزدحمة.

"لا بدّ أن تُحضر طبيباً"، قالت اعتباطاً لئلاّ أحد.

نهضَ تاسو، لكن الكونتيسة ريشر رفعت يدها. "ستحصل على أفضل طبيب في قيينا". خطت إلى النافذة وصرخت بالأوامر إلى حوذيّها في الأسفل لجلب طبيب آل ريشر.

## (21)

عندما وصل الطبيب، كان الليل قد حلَّ. أوقدَ ريموس شمعةً، وأعطى القابلة مصباحًا. كان الطبيب رجلًا ضئيلاً، عُصابياً، ودلفَ إلى الغرفة كفأرٍ خائف، عيناه تتواثبان بحثاً عن علامات الخطر. كان يُمسك بحقيبة سوداء وكأنها درع. حدّد مكان الكونتيسة ريشر في الضوء المُعتم -وكانه اكتشف مُعترلاً يمكنه الاختباء فيه- وانحنى قليلاً، مُتقدماً بتعثرٍ ليقف بجوارها، مُتيقناً أن قذارة هذه الغرفة لن تتجمّع كثيراً حول شخصها.

تشاوَرَ قليلاً مع القابلة، وسمعتَ الكونتيسة ريشر تهمس له، «أنقذ الطفل يا دكتور. بأيّ ثمن». جفَلَ للحظة تجاه هذه النصيحة الخطيرة، لكنه أوماً بثبات، وخطا إلى باب أماليا، رافعاً يديه وكأنه سيطرق الباب، ثم راجع نفسه وخطا إلى الداخل. تبعته القابلة وأغلقت الباب.

\* \* \*



يمنحها شيئاً لتهدئتها. تتلاشى صرخاتها، وأتساءل إن كانت تصرخ داخل رأسها كما فعلت تحت مشرط الجراح قبل عشرة أعوام. "تبثيها إلى الفراش"، يُرشد الطبيب القابلة.

تاسو متقوقع في الركن، يُحدّق في الأرض. عينا نيكولاي مغلفتان، لكنني أعرف أنه ليس نائمًا. ريموس يضع مرفقه في يدي، والأخرى على وجهه، وكأنه غارق في التفكير. أنا على يقين أننا جميعًا نُفكر، لقد فشلنا. الكونتيسة ريشر تعقد ذراعيها المرصعتين بالمجوهرات على صدرها. ينقضي ما يبدو أنه ساعات ولا تتحرك هي. لا تنفعل بتاتاً عندما تتأوّه أماليا.

سأموت قبل أن ينتزعوا ذلك الطفل من أمه.

الطبيب يصيح باستعجال مُلح، ونرفع جميعًا أبصارنا، حتى الكونتيسة ريشر، تبدو وقد جفلت حقًا للمرة الأولى. نحاول أن نرى عبر خشب الباب.

كان الهواء خانقًا للغاية على أن نتنفس.

\* \* \*

ثم، نعيب غراب. الآخرون عاجزون عن التفريق بين الصوت القادم من تأوهات أماليا وأوامر الطبيب، لكنني أسمع كل نغمة. إنه صوت رثتين منمنمتين تنبسطان. تجترعان هواء ودماء ومياه الرحم. يحبسان أول نفس، ليستا واثقتين ماذا تفعلان به، وثم، أول عواء: أغنية الحياة. يرفع أصدقاوي الثلاثة أبصارهم. الرضيع.

وأسمع الآن، بلا شك، أنه صبي. ابنتا.

نقف.

يذوي عواؤه. ينتهي بثلاث شهقات آه! آه! آه! ثم يبكي مُجددًا. يا له من رعب بارد هذا العالم! أذناي تبتهجان بكل صرخة يبيدها

كهاوية تنفتح في مركز عالمنا -أنصت! أنصت!- فهناك مزيدٌ من الأصوات أتوق إليها، وما زالت غائبة.

عاجز عن الكلام. عاجز عن الحركة. يستمرُّ العام في الدوران بدوني. كتفا تاسو مُنحنيان للأمام، ومرفقاه للخارج. كل شعرة على عنقه المُشعر منتصبه. في عيني رموس هناك غضب. نيكولاي يُضيق عينيه. يرمش. ترتفع قبضته.

الرضيع يبكي طلبًا لأمه.

أحدثي ضجيجًا حتّى أسمعهُ!

عاجزٌ عن التَّنَفُّس. أترنّج. يمرُّ بي ظلُّ رموس. يتشاجر مع الكونتيسة ريشر، والجنود يقبضون على سيوفهم. يُصَفِّر أحدهم، والآخرون، اللذان يحرسان باب المقهى الأمامي، يخبطان بأقدامهم صاعدين الدّرج. يُرَبّتون على الهراوات الناعمة في أيديهم.

"لسنا خائفين منكم!" يجار نيكولاي.

لا! حاولتُ أن أقول. لا! ألا تسمعون؟ لقد فشلنا بالفعل!

يقف الطبيب عند باب أماليا. شعره ووجهه مُزَيَّتان بالعرق. يافته محلولة. الدماء متناثرة على وجهه، وعلى صدره، تُغَطِّي ذراعيه حتّى مرفقيه، وكأنه أغطسهما في نهر دام. يحمل ذلك الطفل الصارخ. القابلة تُضيء مصباحًا فوق كتف الطبيب. الطفل المبتلّ يلتمع، باكياً، ثم يتجمّد في اختناقٍ صامت طلبًا للهواء، مُحَدِّقًا في السقف. تمتدّ يده ويرتعش، يعاود البكاء.

"أنقذتُ الصبي"، يقول الطبيب. "لكنني لم أستطع إنقاذ الأم".

\*\*\*

كانت أذناي قد سمعتا هذه الحقيقة بالفعل، وصارت تخرق جسدي الآن بكل قوة. يُمسك بي ريموس فيما أترنح. لا أستطيع جذب الهواء لرتتي. أغرق في الهواء. عاجز عن التحرك، لكن العالم لا يتوقف معي. نيكولاي يصرخ، والجنود يضربونه بهراواتهم، ثم يركلونه بأحذيتهم الثقيلة.

الرضيع يبكي! الكونتيسة ريشر قبّلتني، الطفل بيننا، لكنها تُشيع بوجهها بعيداً، مُشمّزة من الدماء. المُمرضة تَلْفُ الطفل الصارخ في قطعة قماش وتضمّه إلى صدرها. ثم انتهى الأمر: رحلوا.

تاسو يركع بجوار نيكولاي. العملاق يئنّ من الألم. القابلة ما تزال تحمل المصباح كتمثال، فيما ريموس يخطو معي إلى فراشها.

أماليا مُغطاة بملاءة. النصف العلوي منها أبيض، والأسفل يلتصع بالأحمر. ريموس يجذبه لأسفل حتّى نرى وجهها. كان مثاليّاً، بلا دماء على الإطلاق. قد يظنّها الناظر أنها نائمة، لكنني أسمع أنها ليست كذلك؛ لأنها لا تتنفس، وهذا الصمت هو حقّاً أصدخ صوت سمعته في حياتي. يَهْزُ كل جزء منّي، وأوشك على التشظّي إلى ألف قطعة لو لم يمسكني ريموس بقوةٍ ويعانقني كابن.

## (22)

عندما ماتت أمها، امتلأت تلك الكنيسة المثالية بألفِ نَفْسٍ. غُتَّتْ جوقة كاملة. رُئِيتْ حجارة الكنيسة من أجلها. أزهار كثيرة جداً وُضِعَتْ أمام قبرها حتى بدا أنه يستقر على فراشٍ من الأزهار.

دُفِنَتْ أُمالياً في المقبرة المزدحمة بالأموات وراء كنيسة القديس ميخائيل في سبيلبرج. الحشائش تنمو بدلاً من الأزهار. المُعْتَرِشَاتُ تخنق أشجار السنديان المُغْضَّنة. شواهد القبور تستقرُّ مقلوبةً على القبور، كما لو أنها تمنع الجثث من الهروب إلى مكانٍ أفضل.

في اليوم الذي دفنَّها فيه، تساقطَ المطر البارد بشدَّةٍ لدرجة أن تابوتها الخشبي البسيط طفا في القبر إلى أن ألقينا عليه التراب لتثبيتته. تلا القسُّ الشاب تبريكاته على عَجَلٍ واستدارَ ليرحل، وكان الأمر لينتهي عند هذا، لولا أن بدأ نيكولاي في إنشاد (حَمَلُ الرَّبِّ (Agnus Dei).

كانت المرة الأولى التي أسمعها فيها يُغني منذ سنوات. ارتفع  
صوته الرئان ليغطي على صوت المطر الخافت. أحنيت رأسي حتى  
تساقط القطرات على عنقي وتنساب عبر ظهري في أنهارٍ جليدية.  
اختلط المطر بدموعي. غرقت أقدام تاسو وريموس ببطءٍ في الوحل،  
لكنهما لم يُحرّراها حتى انتهى نيكولاي من الابتهاال.

أسقمني المطر البارد، المختلط بحزني. حلّت بي الحمى، ولعشرة  
أيام استلقيتُ في فراش موت أماليا. كان ريموس قد نظّف الغرفة  
من الدماء، فرك الحوائط والأرضيات وأعمدة الفراش بلا كللٍ، لكنها  
ظلت رغم ذلك في الشقوق بين ألواح الأرضية، تغزوني في أحلامي.  
تمامًا كما كان فعل أولرتش الأعمى، نظّف ريموس مرارًا وتكرارًا، وما  
زلت أسمع أنفاسها. سمعتها تهمس بكلمات الحب. عندما حاولوا  
نقلي إلى غرفة نيكولاي، صرختُ.

جلبوا لي طبيبًا. أنزفني وسقاني أعشابًا مُرة المذاق، لكنني لم  
أتحسّن. ظنّ أصدقائي أنهم على وشك دفني أيضًا. لكن بعد بضعة  
أسابيع اختفت الحمى واختفت معها رائحة الدماء من الغرفة. ما  
زالت أصواتها مُخرّجة عميقًا في ذاكرتي، أحملها في أذني كمُدلاة من  
الفضة بصورتها محفورة داخلها.

استيقظت ذات ليلة على صراخ طفلٍ نهضت من الفراش على  
الفور، واندفعت إلى الردهة، مارًا بريموس النائم وهابطًا الدرج. كنتُ  
في الشارع الجليدي، حافي القدمين، بملابس مُهلهلة، قبل أن أستيقظ  
وتعود إليّ حواسي. كان البكاء قادمًا من منزل بعيد. رأيت نافذة  
مضاءة، وأما تخطو بضرة على كفها. لم يكن الاختلاج النابض في  
قدمي شيئًا بالمقارنة بالألم في قلبي.

أمسيات كثيرة جلسنا صامتين في الردهة؛ يتراكم الجليد على ألواح  
النوافذ ويمحو الليل. حتى ريموس لم يقرأ كتابًا.

"لا بُدَّ أن نستردَّه عنوةً!" هتف نيكولاي بغتة ذات ليلة بغضب. عندما لم نُجب أنا وريموس، تابع، بهدوء أكبر، "كُنَّا لنحبُّه حقًّا، أكثر ممَّا تستطيع الكونتيسة".

"اهدا يا نيكولاي"، حدّره ريموس. نظرَ إليّ وكأنه يخشى أن حديثًا كهذا سيُجلب الحمى عليّ مُجددًا.

"لن أهدأ! لن أهدأ حتّى نفعل ما ينبغي فعله. سأنشئ جيشًا. هؤلاء الناس في الشوارع سيساعدوننا. مائة رجل كل ما نحتاجه". "نيكولاي!"

"ريموس!" هتف بدوره. "هل تنقصك الشجاعة؟".

"توقّف أرجوك"، قلتُ لصديقي. "أشكرك على شجاعتك يا نيكولاي، لكن لا جدوى من الأمر. تعرف أنني أفكّر مثلك، لكن ذلك المنزل قلعة؛ سيهرع جنود الإمبراطورة لنجدتها. ستكون المخاطرة عالية جدًّا، علينا وعلى الطفل".

"لكن لا بُدَّ أن نحاول"، أصرّ.

"لا"، قلتُ بحسم. "لا بُدَّ أن نُصلي من أجل أن نكون سعداء في المصير الذي اختاره الرّبُّ لنا، ولننسى الطفل".

أطلقَ نيكولاي أنفاسه كُدْبٍ غاضب، لكنه لم يتكلّم.

"عليك أن تقسم لي أنك لن تتحدّث عن الأمر مُجددًا أبدًا".

احتشدت الدموع في عينيه. ارتجفت شفتاه.

بذل لي قَسَمَه.

\* \* \*

مضينا وأنا أصدقائي مُتعثّرين في الحياة كمُمثّلين منبوذين محرومين من أيّ نصٍّ مسرحي. ثم، ذات يوم، استقبلنا زائرين. ارتقى الرجلان،

كلاهما بحجم نيكولاي تقريبًا، الدَّرَج واندفعا ناحية الردهة. لم أنهض من الفراش، لكنني سمعتُ كل كلمة. أرسلًا، قالًا لريموس، من جانب ربِّ عملهما، لتذكير "الطواشي السويسري" بتعهده بمغادرة فيينا. سمعتُ طقطقة مقعد نيكولاي فيما ينهض لمواجهةهما، لكن ريموس خطا بسرعة حائلًا بينهما. قال إنه سيوصل الرسالة. "أمامه حتَّى العام الجديد"، قال واحد من الرجلين. "ثم سنضطر إلى ترحيله بأنفسنا". بعد مغادرتهم، دلفَ ريموس إلى غرفتي وكرَّرَ رسالة جواداني. "ربما حان الوقت لرحل"، قال لي. "لنبدأ من جديد".

"ماذا تقصد؟" سألته.

"العربة تنتظرنا"، قال. "يمكننا الرحيل إلى فينيسيا في أيِّ يوم نريده".

"نرحل إلى فينيسيا؟" قلت، مصدومًا. "لقد جهَّزنا تلك العربة من أجلها!".

"موسى، كانت لتحثُّنا على الرحيل".

"لا أبالي"، قلت. "إنها مئة ومدفونة هنا، ولن أفقدها مُجدَّدًا. لن أرحل عن فيينا".

انقضى أسبوعٌ آخر. أثناء النهار، كُنَّا أنا ونيكولاي نجلس في الغرفة المُعتمة. وأحيانًا، في الساعات الأولى من الصباح عندما يعجز كلانا عن النوم، نجلس معًا عند النافذة المفتوحة، بالدُّر على أكتافنا لالتقاء بواكير الشتاء القارس، ونُحدِّق في الشارع الخاوي ناحية المدينة.

كان صديقي يحاول رفع معنوياتي بحكي القصص. "أخبرني راهب"، قال ذات مرة، "أنه في النرويج، ينام الناس طوال الشتاء كالذَّبَّبة. شهورًا متواصلة". في صباحٍ آخر: "يدور القمر بسرعة كبيرة جدًّا حول الأرض، لدرجة أننا إذا وقفنا عليه، سنندفع بعيدًا ونحترق في الشمس". أو: "قابلت رجلًا، هنا في هذا الشارع، يصنع الفساتين للإمبراطورة. كل رداء

يستغرق منه عامًا لصنعه، وترتيبه هي مرة واحدة فقط". أحيانًا ما أنجح في الابتسام بحزن له، لكنني نادرًا ما أتحدث. نجلس في الصمت لساعات. مُجرّد وجوده كان عزاءً لي.

باكرًا ذات صباح، تحدّث نيكولاي بغتة. "موسى، اليوم هو الكريسماس". كانت الليالي طويلة في ذلك الوقت من العام، وهكذا، رغم أن المدينة تستيقظ ببطء، كانت السماء رمادية قائمة ما تزال. أخفت الجليد على حواف النافذ من وهج المصابيح. كان الثلج قد تساقط قبل أسبوع، وعلى سبيل التغيير لم يكن هواء سبيتلبرج ينضح برائحة البول والعفن.

لم أستطع تحديد إذا كان على صواب أو خطأ بشأن التاريخ. لم تكن هناك مظاهر احتفال في الشارع. "طالما كان اليوم المفضّل لي في السنة"، قال حينها. "يا لها من قُدّاسات بديعة كنّا لنُغنيها!" ضحك بحزن. تبلّلت عيناه. "خمسة وأربعين عامًا يا موسى! خمسة وأربعين عامًا قضيتُ كلّ صباح منها في كنيسة. والآن، لخمس سنوات كاملة، لم أنطق بصلاة واحدة".

تطلّعتُ إليه، لكنه هزّ رأسه.

"لا"، قال. "ولا صلاة واحدة".

كان صديقي مغمورًا تحت الدُّثر. لم أتبيّن أين ينتهي جسده وأين يبدأ. هزّ كتفيه استهانةً وارتفعت الكتلة بأكملها وهبطت.

"أريد أن أصلي حقًا"، قال. "ليس الأمر أنني تخلّيت عن الرب. لستُ أيوب، لا أشتكي. أستحقّ كل ما حدث لي وأكثر. بالطبع هناك أشياء بالتأكيد أودّ أن أطلبها من الرب". هزّ كتفيه استهانةً مُجددًا. "لكن إذا كنتُ أتوق لأطلب من الربّ أيّ شيء. فهناك أشياء كثيرة عليّ أن أخبره بها أولًا. من أين أبدأ؟ وهكذا فإن كل كريسماس يحدث



نفس الشيء. أقول لنفسي إنه من الأفضل أن أنتظر أكثر قليلًا، وأن أصلي في عيد الفصح".

"سأذهب إلى الكنيسة معك اليوم"، همست، "إذا أردت".

نظرَ بحميميةٍ إليّ، سعيدًا بسماعي أتحدّث، وأكثر سعادةً أنني أهتم بشأنه. لكنه هزّ رأسه. "لا يا موسى. هذه هي المشكلة. لا أحبّ. ربما السبب الحاسم، بين أسباب كثيرة، هو أنني عندما أجلس على كرسي الاعتراف وأسمع ذلك الصوت يسألني إن كنتُ أذنبت، ينتابني الخوف من وجه شتاوداخ على الجانب الآخر".

اهتاجت الكراهية داخلي عندما سمعت الاسم. كان وقتٌ طويل قد انقضى منذ فُكّرْتُ في رئيس الدير. لكنني أدركتُ في تلك اللحظة أنني لم أعد أخشى سلطته، التي كان من الواضح أن نيكولاى لم يتخلّص منها تمامًا. "ربما لست مستعدًا لنيل الغفران بعد"، ألمحت.

"ربما"، شرعَ في القول. "لكن لو كنتُ مستعدًا، فهل أتوق إليه كثيرًا؟ يقول ريموس...".

لكنني رفعتُ يدي؛ ذلك أنني سمعتُ شيئًا. همسًا في الليل.

"ما الأمر؟" سألني.

"أنصت"، قلت. انحنيتُ للأمام، وجاءنا الهمس مُجدّدًا، أعلى بخمسين ضعفًا. كل أذن في المدينة تسمع الجلجلة الآن.

\* \* \*

نادتني إلى قيينا فيما مضى، والآن تناديني مُجدّدًا. فُرع ذلك الجرس العظيم عبر المدينة واستدعى المؤمنين إلى قُدّاس الكريسماس. من مسافةٍ كهذه، كان الصوت هائلًا. غطّى نيكولاى أذنيه، رغم أنه ابتسم بابتهاج على وقع الاهتزاز المارّ عبر جسده.

صدَحَ ذلك الجرس العملاق بمليون نغمة، وتداخَلت تلك مع مليون نغمة أخرى. مثل قوس قزح، وهو الضوء مُخلَّجًا إلى كل ألوان العالم، كانت تلك كل أصوات العالم. سمعتُ أجراس أمِّي وتنهَّدات بهجة أماليا، وهزَّتني وتلاشت في طين الأرض المتجمِّد، ثم صارت معي مُجدِّدًا، محفوظةً للأبد في تلك الجلجلة. وجدتُ نفسي أبكي بين يديّ. بكيتُ على رحيلها، وبكيتُ على الأحلام التي فقدتها، وعلى الصبي الذي كان ليصير ابني.

حتمًا سمعَ الجلجلة هو أيضًا، في قصره تحت الجرس مباشرة. تمَنَّيتُ أن يستطيع سماعها كما فعلت، لكن الأغلب أن هذا الصوت كان مُرعبًا له كالرعد. مَنْ هناك ليُطمئنَه؟ مَنْ يحمي أذنيه ويضمُّه إلى صدره؟ ليس أباه، ليست جدُّته؛ كانت تلك المُرِيبة كل ما لديه. تخيلتُ تلك المرأة الضئيلة التي كانت مُنكمشة وراء الكونتيسة ريشر هنا في ردهتنا. كيف ستُغطِّي أذنيها وتحمي أذنيّ صبيّي في نفس الوقت؟

استدعى هذا رؤيا في عقلي: أحمله، أضغط بإحدى أذنيه على صدري، أحمي الأخرى براحتي. أضمه بشدَّة وأهدده. أغني بخفوت، ورغم أنه لا يستطيع سماع صوتي مع تلك الجلجلة، إلّا أن غنائي يهدئ أطرافه المشدودة. كانت هذه الرؤيا حقيقة للغاية، لدرجة أنني وجدتُ نفسي أضُمُّ الدثار بذراعيّ. شعرتُ بدفع جسده. شعرتُ بتضخُّم أنفاسه.

ثم أخفضتُ بصري ورأيتُ أن ذراعيّ خاويتان. ملأني الندم بحدَّة، لدرجة أنني نهضت واقفًا ونظرت إلى خارج النافذة، نحو الصباح الأسود، المُجلجل.

أدركتُ أيَّ سعادةٍ فقدتُ، وفي تلك اللحظة، أدركتُ أن بمقدوري استعادة جزءٍ منها مُجدِّدًا.



## (23)

كان المؤلف الموسيقي تشيفالير كريستوف فيليبالد جلوك نائمًا عندما تسلَّل الشبح إلى غرفة نومه. خطا ببطء إلى جانب فراشه وسعل. لم يستيقظ المايسترو. "هاللو!" قال الشبح. "استيقظ!" لم يتحرك جلوك أيضًا؛ ولهذا هزَّ الشبح ذراعه.

انفتحت عينا جلوك بغتة. جفَلَ في فزع. "مَن هناك؟" سأل. "أوقِدْ شمعةً".

مالَ جلوك إلى المنضدة بجوار فراشه وفعلَ كما قيل له. أضيءَ وجه الشبح، شهق. "أورفيوس!" قال. "أوما أورفيوس ببطء.

"هل ستُعْني مُجدِّدًا؟" سأل. "هل ستُعْني من أجلي مُجدِّدًا؟".

بدا أورفيوس وكأنه يتفكر في هذا لوهلة. "لا يمكنني القول"، قال. "لست أنا مَنْ يُقرّر".

"مَنْ يُقرّر إذن؟" أراح جلوك الغطاء ونهض خارجاً من الفراش. "مَنْ يُقرّر؟" خطا الشبح للخلف فيما يتقدم جلوك. "ال... الموسيقى"، أجابه الشبح. "الموسيقى هي مَنْ تُقرّر".

أوما جلوك. "نعم"، قال. "نعم، بالطبع". تناول المؤلف الموسيقي يد أورفيوس في يديه. لبرهة ضغط بها على جبينه في ابتهال. "أورفيوس"، همس، "لكن لماذا جئت إلي الليلة؟".

"الموسيقى"، قال الشبح، وكأنه يتلو رسالة محفورة في ذاكرته، "باركتك بنعمتها. والآن عليك أن تفعل شيئاً في المقابل". وحينها أخبر أورفيوس جلوك بما عليه أن يفعله، ثم استيقظ واضع الألحان من أحلامه على وقع جرس رنان.

\* \* \*

استغرق مئتي الأمر سبعة أيام لترتيب كل شيء. أخبرت أصدقائي بالدور الذي عليهم أن يلعبوه، وبالخطر الذي ينتظرهم. "ربما تقطع الإمبراطورة رؤوسنا"، قال نيكولاي. شحب تاسو عندما سمع كلمات نيكولاي، فخبطه العملاق على ظهره، مُدحرجاً إياه بضع خطوات على الأرض. ودّعنا السيد كوست وأخبرناه أن بمقدوره البحث عن مستأجرين آخرين. كان ريموس قد استبدل عدسات نيكولاي التي تشظت. اشتريت سكيناً قصيراً، قال الحداد إنها أمضى سكين يمكنني إيجادها في قيينا، ووضعتها في حزامي، وقطعة كبيرة من شمع النحل الناعم، وبطانة من الصوف، وياردة من قماش الموسلين، قطعتها إلى أشرطة.

جلب لي تاسو الموقد الحديدي الصغير الذي كان يستخدمه في الليالي الباردة تحت خشبة المسرح. جمع كل متعلقاته في صرة، ثم عاد من أجل أمسية أخيرة في المسرح. كان جواداني يُغني أورفيوس مُجدِّداً.

في أواخر تلك الليلة، سمعنا تاسو يهرع صاعداً الدَّرج. اندفع إلى الردهة، مُبتسماً بخبث. "الآن لا أستطيع العودة أبداً!" أغلق الباب بعنف وراءه. عندما سألتُه ماذا يقصد، أسرع أولاً إلى المدفأة؛ خشبة المسرح التي غُيِّت عليها حفلاتي قبل شهور. زحف جيئةً وذهاباً كلص منازل. حلق في السقف. "راقبتُ قدميه عبر الشقوق فوقِي"، حكى في همسٍ مكرر، "لكنني أنصتُ أيضاً. انتظرتُ حتَّى صار يُغني عالياً وصادحاً، وحينها" -جذب تاسو خطاً وهمياً- "جذبتُ الحبل. تحوَّل غناؤه إلى صرخات. سقط!".

"لكن حينها"، اكتسب وجه تاسو شحوباً وتجهُّماً، "كدتُ أن أموت". أوماً ثلاث مرَّات: إيماءة لكلِّ منَّا. "تري، جواداني كان يتوقَّع هذا. لا بُدَّ أنه حلَّم به كل ليلة. كانت صرخته كهتاف المعارك! هبط على الأرض كقط. سحب سكيناً من قميصه، وحتَّى قبل أن يتمكن من رؤيتي في الظلام طعنَ الهواء". وخرَّ تاسو ما على يساره، ويمينه، قاتلاً نصف دزينة من الرجال. "كان ليقتلنا جميعاً!".

هزَّ كتفيه استهانةً. "لكنني كنتُ سريعاً جداً على أن يمسك بي. أمسكتُ بحبل، وحررتُ ثقلاً مُوازِئاً، سقط وراء رأسه مباشرةً. ركلتُ السُّكَّين من يده. ابتسمتُ ولوحت له من المزلق. "لن تنجو بحياتك هذه الليلة"، زمجر، وحاول أن يتسلَّق عائداً إلى خشبة المسرح، لكنه لم يستطع، تخبَّط هناك كفأرٍ يغرق ويتشبَّث بجذادة خشب طافية، حتَّى جاء عاملان ورفعاه لأعلى. ضحكا عليه! ضحك المسرح بأكمله على جواداني!".

ضحكنا نحن أيضًا وهتفنا للبطل تاسو، لكن ريموس أوقفنا وأوضح لنا أن جواداني ربما كان جادًا في تهديده. "من الأفضل أن تُخفوا العربّة حتّى نستعد"، نصحنّا. "سيأتي للبحث عن تاسو هنا". اتّسعت عينّا تاسو في رعبٍ، اختفى كالنفّار.

كما اقترح علينا ريموس، قضى تاسو هذين اليومين الأخيرين في تجهيز عربتنا وقافلة الخيول. حاول أن يُعلّمنا قيادتها، لكنني وجدتُ هذا بصعوبة الشعوذة. عندما قدّرتُ أخيرًا أننا مُستعدّون، ملأتُ بيتنا الجديد بأغراضنا. في النهاية، بمساعدة نيكولاي، رفعنا موقد تاسو إلى سطح العربّة، وأحكمتُ ربطه.

غادرنا مسكننا للمرة الأخيرة في منتصف الليل، في الثلاثين من ديسمبر، عام 1762، قبل الموعد الذي حدّده جواداني بيوم واحد. استغرقَ منّا الأمر ساعة تقريبًا للنزول بالعربّة على الشارع الجليدي، المليء بالحفر. جلسَ تاسو في موقعه وسائسَ الخيول ببطء، مُحاذرًا بشدّة ألا تنفلق العجلات. وصلنا إلى منحدر خفيف ورأينا قمرًا مكتملاً يسطع على الجليد الشاسع. قعقت هذه الطبقة من الجليد فيما غمرُ فوقها، وكأنّ الطين من تحتها يهتاج في نومه. قُدنا عبر بوابة السور ثم إلى المدينة. كانت الشوارع خاوية، والنوافذ مظلمة، المدينة نائمة، تمامًا كما خطّطت.

توجّه تاسو بالعربّة إلى قصر ريشر، وعندما وصلت، انحنيتُ إلى خارج باب العربّة وهمستُ إليه بأين سنقف بالضبط. استدرتُ إلى صديقي. "مُستعدّان؟" أومأ، وانطلقنا.

سرنا عائدين نحو كاتدرائية القديس ستيفن، وبرجها الأسود السامق في السماء. أمسكنا أنا وريموس بذراعَي نيكولاي حتّى لا يسقط على ركامات الجليد. سرعان ما وصلنا إلى الكاتدرائية وانسللنا إلى الداخل. توقّفنا عند المدخل. كان صحن الكنيسة الكهفيّ مضاءً بوهج الشموع

التي كان ضوؤها بالكاد يُدقُّ الأعمدة المتشعبة للسقف. لم نرَ أحدًا، لكنني سمعتُ صرير مقعد في الكنيسة، ووقع خطوات خافتة على الحجر، وأدركتُ أننا لسنا وحدنا. ضيقُ نيكولاي عينيه ناحية المذبح وكان شيئًا شيطانيًا يختبئ وراءه.

همستُ لتاسو أن يتبعني. أريته أيَّ باب أودُّ فتحه. أسرع الرجل الضئيل إليه عبر الظلال. أنصتُ إلى طقطقة المعدن فيما يعبث في القفل. ثم سمعتُ الصرير المبهج للمفصلات.

ارتقينا الدُرج ببطء. زحفَ نيكولاي على أربع في المقدمة، وفور أن أدركنا أننا خارج مدى سمع القابعين في صحن الكنيسة، قال بين أنفاسه المتثاقلة، "أشعر بوطأة... ذنوبي... تتخفَّف مع كل درجة". صليتُ في سرِّي ألا يتدحرج لأسفل ويقتلنا جميعًا.

وصلنا أخيرًا إلى آخر الدُرج، واسترحنا لبضع دقائق. أوقدتُ شمعةً. مسحَ نيكولاي جبينه بكمِّ معطفه المُهترئ. ضيقَ عينيه إلى حبال الأجراس الستة عشر المتدلية من ست عشرة فتحةً في السقف.

"إذا كان هذا الجرس يحتاج لستة عشر رجلًا لقرعه، كيف سنفعل ذلك نحن الثلاثة؟ تُبالغ في تقدير مقاس خصري إذا كنت تظنُّ أنني أساوي أربعة عشر رجلًا".

"لا"، قلت، منتصبًا وسائرًا إلى واحد من الحبال. "ليس بالضرورة ستة عشر. إنها مسألة توقيت فحسب. ولا حتَّى ستة عشر رجلًا يمكنهم رفعه، لكن ثلاثة بمقدورهم هزّه. يمكننا جعله يتأرجح".

أمسكتُ بواحد من الحبل بيد واحدة وجذبتُ بقوة. لا بُدَّ أن الحبل معقوف بالسقف لأنني لم أشعر سوى أنني زحزحته قليلًا. لكنني أنصتُ. هذه الحبال الستة عشر تمرُّ عبر ست عشرة فتحة في السقف، ثم عبر ست عشرة بكرة، ثم إلى جديلة واحدة، تلتفُّ حول عجلة الجرس. أصدرت تلك البكرات أوهى صرير ممكن. تأرجح



البوميرين بمقدار شعرة. أنصتُ الآن لصرير ثانٍ -العلامة بأن حركة الجرس قد تعاظمت وانعكست- وعندما سمعته، جذبْتُ مُجَدِّدًا. كان الصرير أعلى هذه المرة. كررتُ العملية -ثم مُجَدِّدًا، ومُجَدِّدًا ومُجَدِّدًا- مانحًا الجبل جذبات حادة ومتناسقة زمنيًا، وشيئًا فشيئًا شعرتُ بالعطيّة.

"إنها تتحرك!" قال تاسو. أشارَ إلى الجبال.

كانت تتحرك حقًا. كل الجبال الستة عشر أحنّت ذبولها برفق على الأرض في تناسق تام.

"سيستغرق بعض الوقت"، قلت، "قبل أن يتأرجح بتناقلٍ يكفي لقرعه. لكن هذا حسن. أمامي الكثير لأفعله".

وضعَ ريموس يده على جبلٍ آخر. عندما شعر به يسقط في يده، جذبته ناحيته. "أستطيع الشعور به"، قال. أجرى إبهامه على طول الأنسجة المَهترنة وكان الجبل مخلوق غرائبي لم يقرأ عنه قط في أيِّ من كتبه.

"استمرّ في جذبهِ"، قلت، وتركْتُ جبلي.

أخرجتُ شمع النحل والصوف والموسلين من الجراب، وبدأتُ بأذني نيكولاى. ملأتُ التجاويف بالشمع الطري، ثم غطيتُها بالصوف. لففتُ الموسلين حول رأسه عدة مرات لتثبيت غطاء الصوف في مكانه. سرعان ما بدا كجندي شوّهته الحرب، هاربًا من عملية جراحية. "هل تستطيع سماعي؟" سألته.

"هل بدأ قرع الأجراس؟" صاح عاليًا لحدّ أن ريموس جفل. شكرتُ الربَّ أننا معزولون في أعلى برجٍ في المدينة؛ لم يكن لأحدٍ أن يسمع صياحنا.

"تاسو، أنت التالي!" قلت. نهض نيكولاي واقفاً وأمسك بأقرب الحبال إليه. جذبته بكل قوته، لكن بتوقيت خاطئ.  
"لا!" صرخ ريموس. "الآن!"

سرعان ما أصبحا يجذبان بتناغم، وتراقصت حبال الجرس. انتهيت من أذنيّ تاسو وشرعتُ في أذنيّ ريموس.  
"ثم سأتعامل مع أذنك"، قال ريموس.  
"ليس ضرورياً"، أجبته.  
"ماذا تعني؟" سأل. "ستُصاب بالصَّم!"

لم يكن لديّ وقتٌ للشرح. "أمي"، قلت، "كانت جرساً". بدا مرتبكاً، ثم سددتُ أذنه الثانية، ولم يعد بمقدورنا التحدّث. فيما يأخذ ريموس موضعه، خطر لي أنه ربما ينبغي مراجعة خُطّتي معهم لمرة أخيرة. لكن الآن، كانت أُرْجَحُ الجرس كافية لرفع تاسو عن الأرض. كان ريموس يجلس مع كل جذبة ثم ينهض عندما ينعكس الجرس ويسحبه لأعلى. كان نيكولاي يجذب الحبل من فوق رأسه إلى خصره. كم من الوقت قبل أن يصدح الجرس؟ وإلى ذلك، كم أمامنا من وقتٍ قبل أن يصل أحدهم لإيقافنا؟ لا بُدَّ أن يكون التوقيت مضبوطاً. لكن قبل أن أغادر، بقي شيء واحد: شيء أقسمتُ على إنجازه.

هرعتُ صاعداً الدَّرَج، اقتحمتُ الظلام. تحسّستُ طريقي حتّى وصلت إلى برج الجرس. كان القمر يسطع على الجوانب المفتوحة، مُلقياً بظلالٍ حادة على حوافّ الجرس فيما يتأرجح، ثم زحفت تحته. أطلق اهتزازاه الخافت الساكن بريحٍ باردة على وجهي. قدّرتُ عشر دقائق قبل أن يضرب.

تناولتُ السُّكّين من حزامي وقطعتُ اللقافة الجلدية حول المدقّة، التي يضعونها لإخفات الرنين المهلول. انتزعْتُ جذاذات الجلد ولفائف

البطانة الصوفية. كان مجهودًا بطيئًا، لكن بعد بضعة دقائق نجحت في إزالتها بالكامل. الليلة سيصدح الجرس كما خُلِق ليصدح.

\* \* \*

أسرعتُ نازلاً الدّرج. "استمروا في الجذب!" صحتُ فيما أندفع مارًا بأصدقائي، كلّ منهم يعلو ويهبط برفق، لكنهم لم يسمعوني. هبطتُ دَرَجَ البرج في دوّامات، ولحُسن الحظ وصلتُ إلى صحن الكنيسة قبل أن يُغشى عليّ. أطفأتُ شمعتي. انسللتُ عبر الكنيسة وهربتُ إلى الليل.

عندما وصلتُ إلى منتصف الميدان، سمعتُ طنطنةً في غاية الخفوت، لكنها ملأتني ببهجةٍ عارمةٍ لدرجة أنني توقفتُ. أغلقتُ عينيّ. خفقَ الليل بالدّويّ. تركّبه يهزّني من رأسي إلى أصابع قدمي. تلاشى معه كل خوفٍ باقٍ.

"نعم!" صحتُ عاليًا لأصدقائي. "ها أنتم تفعلونها!"

كانوا يفعلونها حقًا! كانوا يقرعون أكبر وأصخب جرس في الإمبراطورية، ذلك الجرس الذي يدقُّ الآن كخطوات أقدام على السماء. بوم! بوم! بوم! ملأت الجلجلة حتّى الصمت بين كل ضربةٍ وأخرى، وكل أذن في فيينا لا بُدَّ سمعته الآن. نهضَ الجنود في فُرُشهم فزعين، مُعتقدين أن الجيش البروسي يتقدّم ناحية فيينا. استيقظت الإمبراطورة واستدعت وزيرها. صرخَ الأطفال في كل منزل، مستيقظين بذعرٍ من أحلامهم. نبحت الكلاب في اتجاه السماء. خلخلت الارتعاشات الجليدَ والثلج من على الأسقف. شرخَ الرّتيقُّ النوافذ في قلب المدينة، وبعيدًا حتّى القصر الإمبراطوري. الجميع كان يعرف هذا الصوت، لكنه بالتأكيد، فكّروا، لم يُجلجل بهذا الصخب منذ خمسين عامًا.

ركضتُ خارجًا من الميدان.

مع ارتقائي العربية، فككْتُ أربطة الموقد في الأعلى. جاهدتُ لرفعه على كتفي. ومَضَت بضع نوافذ في قصر ريش، لكن النافذة الأقرب للعربة ما زالت مظلمة. أدَّيتُ صلاة خاطفةً للرب. ترنَّحت للخلف، تعثَّرتُ للأمام، وألقيت بالموقد عبر النافذة.

صوت تحطُّم هادر. خبط الموقد الهابط الأرض ككرة مدفع، وصلصل وجلجل الزجاج المتحطِّم عبر الغرفة المظلمة، ثم صليْتُ أن تكون أذناي الأذنين الوحيدتين التي كان بمقدورها تمييز الأصوات وسط هذا الدوي.

من موقعي على سقف العربة، تطلَّعتُ يمينًا ويسارًا عبر الشارع، وتأكدتُ أن الغول لم يُطلِّ بوجهه من بوابته، وحينها، وكأنها باب، خطوتُ عبر النافذة.

اكتشفتُ أن نقطة سقوطي كانت أقرب ممَّا ينبغي، وسرعان ما وجدتُ نفسي غارقًا في الزجاج المكسور. لكن بعد لحظة نهضتُ مُجدِّدًا، بلا وقت للتفكير في الجروح والخدوش. نفضتُ عني شظايا الزجاج ككلبي ينفض عنه الماء.

ترأى لي أنني هبطتُ فيما يشبه المكتبة. حشرتُ الموقد تحت مكتبٍ وانسللتُ نحو الباب وأنصتُ. لكن حينها فحسب، نَضَبَ حظي. وسط الدويِّ الهائل، تبيَّنتُ وقع خطوات، ثم في رعب، لاحظتُ اهتزاز مقبض الباب وهو يستدير. كانت حساباتي كلها خاطئة! لقد سمعني أحدهم! بالكاد كان لديَّ وقتٌ للاندفاع إلى وراء الباب عندما انفتح وخطت الكونتيسة ريش نفسها إلى الداخل.

\*\*\*

مكتبة

t.me/soramnqraa

وضعت يديها على أذنيها، فتجمّع كُما منامتها الحريية حول  
كتفيها. اندهشتُ من بروز كوعيهما. حدّقت في النافذة المُحطّمة.  
"ذلك الجرس الملعون"، غمغمت، واستدارت مُبتعدةً.

ربما لم تسمعني رغم كل شيء. بدا أنها تُفتّش في واحد من الرفوف.  
لم أتحرك.

وجَدّت ما تبحث عنها، وبحركة سريعة، أفلتت أذنًا، وتناولت  
شيئًا من الرفِّ، ووضعتَه في جُمجُمَتها.

بالطبع! أدركتُ. إنها تعيش تحت الأجراس مباشرة. كانت فحسب  
من شاكلة البشر الذين يملكون وسيلةً ما لحجب الصوت. عندما  
استدارت عائدةً إلى الباب، كنتُ أقف هناك ما أزال، على أمل أن  
تظنّ ظليّ مجرد تمثال منسي أو ما شابه. لكنها، بالطبع، لم تكن من  
نوع النساء الذي ينسى أيّ شيء. حملقت إليّ في ضوء القمر المُعتم.  
مُجاهدةً لتبيّن وجهي. تراجعت مُجفلةً.

اندفعتُ ناحيتها. صرخت، لكن حتّى وإن كان زوجها مستلقيًا في  
الجانب الآخر من الحائط، لم يكن بمقدوره سماعها.

اتّسعت عيناها. "أنت!" قالت، رغم أنني أشكُّ أنها سمعت نفسها  
وسط الضجيج.

"أنت!" هتفتُ بدوري. فردتُ ذراعيّ الطويلتين ورفعتهما ناحيتها.  
انقضّت عليّ.

خمشت عنقي وحاولت انتزاع عينيّ بخناجر أظافرها المطلية.  
عويّت وحاولت إبعادها، لكنها كانت لبوّة؛ لا شيء سوى مخالف  
وزنير.

مع كل جلبة للجرس ضاعفت من ضراوتها. ثم شددت شعري بيدٍ وحاولت بالأحرى تحطيم عنقي. لم أستطع التنفس. لم تستطع سماعي وأنا أنزُر، لكنني سمعتها تهدر في أذني.

أخرجتُ سَكِّينِي ولوَحْتُ بها في وجهها. أخطأتُها، لكنها لمَحَت النصل يلتمح في ضوء القمر وتراجعت، مُفلتةً عنقي. التصقت بالحائط. أشرتُ بالسُّكِّين المرتعشة إلى صدرها ولهتتُ طالبًا الهواء. كنتُ اشتريتُ السُّكِّين من أجل الجرس فحسب. لم أرغب في تلوين معدنها بدمائها الشيطانية.

كان هناك صندوقٌ على الأرض بدا وكأنه رافقٌ جنرالاً من النبلاء في حملةٍ عسكرية ذات أهمية. فكُرتُ أنه مناسب لإخفاء الكونتيسة حتَّى يهدأ الجرس وأختفي. أشرتُ لها بالسُّكِّين أن تخطو إلى داخله، وهو ما فعلته، لكن مع نظرتها الخاطفة الأخيرة، شعرتُ برجفة؛ ذلك أن عينيها أخبرتاني أنني لن أحيَا حتَّى اللقاء القادم. أوصدتُ قفل الصندوق، وانطلقتُ لإكمال مهمَّتي.

كان القصر يغصُّ بالحياة. لحسن الحظ، احتاج الجميع إلى كلتا يديه لحماية أذنيه، ولهذا لم يكن آل ريشر وخدمهم سوى ظلال خرقاء في الأروقة المُعتمة. بدا وكأن الدويَّ قد ازداد صخبًا في الحقيقة. تخيلتُ أصدقائي الثلاثة يتواثبون إلى السقف ويهبطون برفق مُجدِّدًا. توخَّرتُ قدماي فيما المنزل يرتعش تحتهما.

سمعت أذناي كل خطوةٍ، وكل صوتٍ يلعن الجرس المشؤوم، وأخيرًا كان هناك الصوت الذي جئتُ من أجله: بكاء رضيع. انسللتُ مارًا بالظلال البشرية فيما أرتقي الدُرَج، نحو البكاء، عبر الرواق الذي يؤدي إلى جناح أنطون. هناك أوشكتُ على الاصطدام بظلٍّ آخر، وعندما دمدتُ، "ذلك الجرس اللعين!" سمعتُ أنه كان أنطون ريشر نفسه.

لكنه كان أصمَّ على أن يسمع ابنه الباكي، رغم أن الصرخات تأتي من باب لا يبعد عنه عشر خطوات. هرَّعَ مارًا عبر الرواق ناحية الدَّرج، باحثًا بلا شكَّ عن أمِّه. افترشتُ الحائط فيما الخطوات تختفي عبر الدَّرج. ثمَّ أسرعتُ عبر الرواق واندفعتُ إلى غرفة نوم الطفل.

## (24)

تلك المُرِّيَّة الشفوق، والرضيع: أربع آذان تحتاج إلى حماية، ويدان فقط تعرفان كيف تفعل ذلك. انفطرَ قلبي من المشهد. كانت المرأة تستلقي على الأرض الخشبية العارية، مُلتَقَّةً حول نفسها وكأنها سقطت عبر الدَّرَج. من النافذة الوحيدة، كان نصلٌ من ضوء القمر يفصل بينهما. الرضيع يستلقي على صدر المُرِّيَّة، بأذنٍ تضغطُ على صدرها. كانت تضع يدها اليمنى على أذن الطفل الخارجية، ولم تبتق لها سوى يدها اليسرى. رأسها منحني على كتفها اليسرى، وذراعها اليسرى مُلتَقَّةً حول رأسها لتصل إلى أذنها اليمنى.

ربما كان هذا لينجح، لكن الطفل تلوَّى في يديها، بجسده مُحطَّمًا بفعل الصرخات. اندفعت ناحيتهما واختطفُ الطفل، وضَمَمْتُهُ إلى صدري. بيدٍ حميئةً أذنه المكشوفة، وبالأخرى، سحبتُ قطعة من الشمع من جيبي. سددتُ أذنًا ثم الأخرى فيما يهتاج في ذراعي. احمرَّ وجهه وتوقَّف بكأوه فقط عندما لم يتبقَّ له هواءٌ ليصرخ.



ضممتهُ أكثر إلى صدري الذي يشبه صدور الطيور -ذلك الذي خُلِقَ ليُغْنِي وليس ليحتضن طفلاً- وأمسكتُ رأسه براحتي، بأصابعي الطويلة، الرقيقة، تُرَبِّتُ على جبينه. ما زال الجرس يهزُّ المدينة. بدأت بالغناء للطفل -ابني!- شعرتُ بصوتي داخله. منحه غنائي السكينة تمامًا كما منح جدته في فراش مرضها، وأمّه في ولادته. سرعان ما توقّف بكاؤه، ثم نظرَ في عينيّ.

أعرف هذه الوجه. عينا أمّه ترنوان إليّ. وحينها، فيما أغني، رفرفت هاتان العينان. استغرق في النوم.

كانت المُرِيَّة على الأرض ترتعش، تضغط على أذنيها ما تزال بكل قوتها. رَفَعَت بصرها بامتنان، مُحاولَةً أن تتبيّن مَنْ هَرَعَ إلى نجدتها من خَدَم القصر. عندما خطوتُ مُتقدِّمًا إلى ضوء القمر، لم تَبْدُ متفاجئة أكثر من دهشة جلوك عندما رأى أورفيوس في غرفته. ربما حَلَمْتُ بي هي أيضًا.

"أخشى أنني مضطّرٌّ إلى حبسك في تلك الخزانة"، قلتُ لها، وأشرتُ بوجهي. تمعّنت في حركة شفّتيّ. "لا أريدهم أن يلقوا باللوم عليك. أخبريهم أنك قاومتِ لَصًّا. لا، لم تفهم كلمة، لكنها تركتني أقودها إلى خزانة الملابس، وخَطَّطت إلى داخلها وكأنني أساعدها لركوب عربة في انتظارها. أوصدتُ القفل عليها. لم تصرخ طلبًا للنجدة.

وعندها أصبحتُ وحيدًا مع ابني. هذا الوجه الجميل النائم! ملاكٌ بين ذراعيّ! لكن فيما أحني رأسي للخلف وللأمام، أدركتُ أن الصَّجَّة الطَّنَّانة قد تراجعت. أنصتُ: كل ارتطام هادر كان أخفّت من سابقه. كان هناك تفسير واحد فقط: أحدهم ارتقى ذلك الدَّرج وقبضَ على أصدقائي. ما زال الجرس يرنُّ بفعل قوّته الدافعة؛ ما يعني أنه لم يَعد أمامي سوى بضع دقائق قبل أن يخمد تمامًا، وما زال أمامي الكثير لأفعله.

لَفَفْتُ الطفل في بعض الدُّر من مهده واندفعت عبر الرواق. كان المنزل قد هُذَّأ بشكلٍ ما؛ وجدَّ الجميع موضعًا للجلوس بهدوء والإمساك بأذانهم حتى يتوقَّف الدَّويُّ. لكنني سمعتُ شخصًا فيما أقترَب من آخر الدَّرَج. كان أنطون يقف أمام الباب المؤدي إلى مكتبة الكونتيسة ريشر: الباب إلى مهربي.

"أمِّي!" هتَفَ، وخطا داخلاً إلى الغرفة. رأى النافذة المكسورة. "أمِّي!" هتَفَ مُجدِّدًا. بأذنيه المسدودتين، لا بدَّ أنه سمع صوته وكأنه قادم من نفقٍ طويل.

"أمِّي؟"، صرَخَ مرَّةً أخرى، ليس بعيدًا بأكثر من ثلاث خطوات عن الصندوق، الذي تنبعث منه الآن خبِطاتٌ مُتقطَّعة. ثم هزَّ كفتيه استهانةً وأغلق الباب. استدَارَ ناحية الدَّرَج -فقط لو رفعَ بصره لرآني أُطلُّ عليه من أعلى- لكنه اختارَ الاستمرار في البحث عن أمِّه في الطابق الأدنى. اختفى هابطًا الدَّرَج.

في لحظة، كنتُ في المكتبة، انغلق الباب ورائي. وضعتُ قدمًا على حافة النافذة عندما أُلقيت نظرة على ذلك الصندوق. في عجلتي كنتُ أغلقتُ الإبريم فحسب، لكنني تركتُ القفل مفتوحًا. صَحَحْتُ الخطأ وأُلقيت المفتاح في الشارع المتجمَّد.

ستنقضي ساعات قبل أن يُخرجوا المرأة من الصندوق.

\* \* \*

خطوتُ بحذر إلى العربة في الخارج وارتقيتُ إلى مقعد تاسو، الذي كان الرجل الضئيل قد كيَّفه لنفسه، وليس لموزيكو أطول منه بضعفين. أحكمتُ مسكتي على الليفة الثمينة بذراعٍ، وتناولت اللجام بالذراع الآخر. بحذر، قلتَ لنفسِي، مع الأحصنة أنتِ أحق. أدركتُ

البهائم وكأنها فريقٌ من العجائز المصابات بالروماتيزم. "بطء"، قلتُ للخيول العلية. "لا حاجة إلى الإسراع. أماننا أربعمائة ميل لنقطعها." اصطدمنّا بباب كاتدرائية القديس ستيفن. فيما أوقف العربّة، سمعتُ البوميرين يضرب بالمدقّة العارية للمرة الأخيرة. ما تزال جلجلته تتدلى في الهواء، لكنها لم تعد تؤذي أذان فيينا. هبطتُ، بوريث ريشر مضمومًا بأمان إلى صدري، وخطوتُ إلى الكنيسة.

\* \* \*

كان الأمر كما خشيتُ بالضبط. اختبأتُ وراء عمود واختلستُ النظر لأرى أصدقائي في الأغلال. يحرسهم ستة جنود، فيما رجل آخر، شماس (Kirschner)، يصيح في وجوههم. كانوا قد أزالوا اللفافات من رؤوسهم، رغم أن موسلين نيكولاي كان ما يزال مربوطًا حول عنقه كوشاح. كان الرجال الثلاثة ينتفون الشمع من وقتٍ لآخر من أذانهم. "هل تدركون ماذا فعلتم؟" زمجرَ الشماس. "هذا جرسٌ مقدّس! لقد أيقظتم كل روحٍ في هذه المدينة. الإمبراطورة نفسها! لا بُدَّ أنها تظنُّ أننا تحت الحصار!"

ضيقَ نيكولاي عينيه وحاولَ تبينَ ملامح الرجل.

"ستنالون عقابكم!"

"على استعداد لأفعلها ألف مرة!" قال نيكولاي. رفعَ يديه فوق رأسه وكأنه سيمزّق أغلاله. "لن يحويني سجنٌ أبدًا!"

أخبر رموس صديقه أن يهدأ. "الآن هو الوقت المناسب للمهادنة"، غمغم. "أودُّ أن نُبقي وقتنا في سجن الإمبراطورة إلى الحد الأدنى."

"سنين!" هتف الشماس. "هذا ما يوجد أمامكم. انظروا لما فعلتم!" أشار إلى أرضية الكنيسة، حيث تتناثر الشظايا الصغيرة للزجاج المصبوغ كمليون ياقوتة.

"يمكن إصلاحها"، قال نيكولاي. "بمقدور تاسو إصلاحها في يوم".  
"هل يستطيع إصلاح كل نافذة في فيينا؟" صرخ الشمّاس.  
"أفضل ممّا يستطيع جيشٌ من حماكُم..."

"نيكولاي!" هتفَ ريموس.

أصدرَ الشمّاس أوامره للجنود بأخذهم إلى أبشع سجون الإمبراطورة.  
دفعَ جنديّان نيكولاي نحو الباب، واصطحب جنديّ واحد كلّاً من  
تاسو وريموس. سار جنديان آخران في إثرهم. تسلّلتُ من وراء العمود  
حتى لا يقبضوا عليّ أيضًا.  
أسرع! صليت.

وحينها على الفور، كإجابة لصلاّتي، اندفعَ باب الكنيسة مفتوحًا  
وهرعَ رجلٌ عبره. من تحت معطف طويل، داكن، أطلَّ رداؤه  
الأبيض. تطلّع إلى الجنود وأسراهم. "توقّفوا!" صرح. رفعَ كلتا يديه  
كقائد أوركسترا يطلب الانتباه.

أطاعت العُصبة أمره القوي. حلقَ الشمّاس فيه. شهقَ.  
"تشيغالير!"

"أطلق سراح هؤلاء الرجال!" زأر جلوك وكأنه يتحدّث إلى المذبح  
البعيد. خطا إلى نيكولاي. "أعطني المفتاح!" أمرَ أقرب الجنود إليه.  
أطاعه الرجل، وبدأ جلوك في فكّ الأصفاد.

"لكن تشيغالير!" قال الشمّاس. "ألم تسمع؟ كان هؤلاء من قرع  
الجرس!"

"بالطبع كانوا هم!" هتفَ جلوك، وكأنه لا يزال يتحدّث إلى جمهورٍ  
بعيد. "أنا من أمرت بهذا!"

تحرّر نيكولاي. فركَ رصغيه وحدّق مُتهبِّئًا في المؤلف الموسيقي.

"أنت؟" شهق الشَّمْس.

"هو؟" غمغم نيكولا.

"أنا!" جأز جلوك إلى السماء. شرع في العمل على أصفاد ريموس. فيما لم يكن أحدٌ ينظر، أزلق تأسويده عبر أصفاده ووضعتها بصمت على الأرض. أسرع إلى وراء عمود.

"لكن لماذا؟" سأل الشَّمْس. "لماذا؟".

توقّف جلوك عن عمله. تراءى لي أنه يُمسك بيدي ريموس في يديه، كما ينبغي لعشيق. تطلّع إلى الشَّمْس. "أليس لديك آذان؟ أليس لديك قلب؟".

"بل... بل لديّ"، تلعثم الشَّمْس.

"إذن يا سيدي"، قال جلوك بنبرة توبيخية، "في المرة القادمة التي تسمع فيها الجَمال ينادي في الليل، فأنصحك بأن تُنصت".

## (25)

خرجَ بنا تاسو من هذه المدينة وكان كل شياطين ماضيٍ تطاردنا وتوشك على اللحاق بنا. تقافزَ تُجَار الصباح الباكر من طريقنا فيما نهرع غربًا لنمضي في طريق سالزيرج. لكننا لم نصل سوى إلى هوتيلدورف قبل أن تواجهنا مشكلة. كان الطفل قد بدأ في الصراخ. لم ينفع الغناء هذه المرة. أخبرني تاسو أن أضع إصبعي الصغير في فمه، وهو ما نجح مؤقتًا، لكن ريموس كان أكثر معرفة؛ الرُّضْع يأكلون ما هو أكثر من الأصابع. أمرَ تاسو أن يُوقف العربة. كُنَّا في مكانٍ كئيب. الحانات والمتاجر على طول الطريق الواسع معقولة، لكن المنازل داخل الأزقة كانت مُتهذلة وكأنها مُثقلة بالمياه. كانت الشمس تُشرق. سريعًا سيمضي آل ريشر في إثرنا.

"لكننا لا نستطيع التوقف!" ألححت.

"لا مفر من هذا"، قال ريموس. "تذكّر، أيُّ مَنْ يطاردنا سيبحث عن أربعة رجال مُفتقرين وطفل. لا بُدَّ أن نتصرّف بالثراء الذي نحن

عليه، وأن نُخفي الطفل قَدْر استطاعتنا. صرخاته، وعَجَلَتنا، لن تفعل سوى جذب الانتباه إلينا". مدَّ ريموس يده إلى صندوق ذهب السيد دوفت، الذي كان ما يزال ممتلئًا عن آخره تقريبًا. أخرج قطعة معدنية واحدة، هبطَ من العربة، واختفى في واحدٍ من الأزقة الكثيرة. انقَضَت ثلاثون دقيقة، وبدأ الرضيع في الارتياح في إصبعي. صرَّ حتى احمرَّ وجهه. صرَّ حتى فرَغَت رثاه. انسابت الدموع على خديهِ. راقبته بعجزٍ وملأني الخوف أنني ارتكبتُ خطأ شنيعًا.

ثم أشار تاسو إلى خارج النافذة. كان ريموس يمشي بتثاقل عبر الزقاق. وراءه كان يقعقع شكلٌ بشري مُترهل بذراعين طويلتين تتدليان حتى ركبتيه تقريبًا. غول الكونتيسة ريشر؟

بدا ريموس مبتهجًا، وعندما اقتربا، رأيتُ أن هذه الغوريلا كانت امرأة؛ أغرب عينة بشرية رأيتها في حياتي. كانت طويلة للغاية، ومتكورة في كل المواضع الصحيحة، وفي كثيرٍ من المواضع الخاطئة أيضًا، بخدَّين يتدليان في لفائف من الدهن لأسفل إلى صدرها البارز، وبطنٍ متساقط ناحية ركبتيها.

فتحَ ريموس الباب وأطلت بوجهها المربع إلى داخل العربة. كان ذقنها أكثرَ ذكوريةً من ذقني؛ ولها شعرٌ أسود في مواضع لا ينمو لي فيها شعر. تطلَّعت إلى نيكولاي، وريموس، ثم إليَّ. استأنف الرضيع صراخه، واحمرَّ وجهه، لكن لم يَبْدُ عليها أنها رأت أو سمعت شيئًا منه. وزَّنت عملة السيد دوفت الذهبية في يدها وتمعنَّت فينا مُجدِّدًا، وكأنها تحاول تقرير أيِّ منَّا أثقل.

"ونفس الشيء بعد ثلاثة أشهر؟" سألت ريموس من فوق كتفها.

"نفس الشيء. لكن رجاء أسرع. لا وقت لدينا".

"لا بدُّ أن أجهِّز أدواتي".

"سنشتري أيًا ما تريد في الطريق".

أبدت ابتسامة خبيثة على هذه العرض، ومالت العربية فيما تنحسر بصعوبة عبر الباب. مالت فوقنا، هائلة. كانت يداها ضخمتين ومُتشقّقتين؛ يدا جزّار.

"هل أنت الأب؟" هتفت للتغطية على صرخات الرضيع.

"إنه صبيّ شقيقته"، تطوّع ريموس بالقول.

"لكنه سيدعوني أبي"، قلتُ مندفعًا.

"يمكنه مناداتك بابا"، قالت، "ما دمت ستدفع لي حينما يُستحق السداد".

أومأت أننا سأفعل.

"ناولني إياه". مدّت ذراعيها. رفّس وضربَ بذراعيه فيما أرفعه برفق. اختطفته ورفعته إليها لتفحصه. بكى في وجهها.

"صبي جميل الوجه"، قالت. "ماذا ستسميه؟".

في خِصَمٍ استثارة معاركنا، لم يخطر هذا السؤال على بالي قط. كان الجميع ينظر إليّ الآن. استدار الصبي وبكى ناحيتي أيضًا.

«اسمه نيكولاي»، قلتُ.

صفّق نيكولاي الكبير بيديه مُبهجًا.

«حسنًا نيكولاي»، قالت في وجه الرضيع. «أعتقد أنك ترغب في إفطارك».

هشّت تاسو عن المقعد بنقرة من يدها. أُنْتُ نوابض العربية فيما تنطرح بجسدها الضخم. ثم صعقتنا جميعًا؛ فرقعت إصبع بارعة زرين في قميصها، الذي تحرّر مرفرفًا. بغتة، صرنا جميعًا نُحدّق في صدرٍ منتفخ، وحلمةٍ سميكة كالإصبع.



«أغلقوا أفواهكم»، قالت المريضة المخضلة أمرًا، دافعةً رأس نيكولاي الصغير إلى تلك الرابية الطرية، لكن فكوكنّا كانت في غاية الثقل. هزّت رأسها. «حسنًا، لكن لا تتوقّعوا منّي إخفاء أدوات صنّعتي».

\* \* \*

كان اسم الغوريلا الآنسة شميك. سرعان ما أحكمت سيطرتها على مُستقرّنا، بيدٍ تضغط بنيكولاي الصغير على صدرها، والأخرى تفرك الزيت في صدغي نيكولاي الكبير (كان بمقدور يدها الضخمة تغطية وجهه بأكمله)، كل هذا فيما تصيح بالأوامر إلى تاسو الذي يقود العربة، وتشرح تفاصيل طلباتها لريموس ولي بشأن ما يتوجّب علينا شراؤه في المدينة التالية. بحلول ظهيرة ذلك اليوم الأول، صرنا جميعًا نتفكّر في صمتٍ ما إذا كانت هناك طريقة لطردها من عربتنا. لكن بعد يوم، مع رضيع سعيد، ونيكولاي يشعر بصحةٍ أفضل ممّا عرف في سنوات، وهدوءٍ يكفي ريموس لقراءة كتبه، وأمّيال كثيرة بيننا وبين قيينا، تخلّينا عن كل فكرة بشأن الإطاحة بمليكتنا الجديدة. لم تكن سيّدة راقية، لكن فور أن أدركت أن ثروتنا لا حدود لها، قرّرت أن تعيش كسيّدة راقية. اشترت دهانات وعطورًا. في سالزبرج، طلبت أزياءً وفساتين. ولا بُدَّ أن يتنعم الرضيع بأردية حريرية وقطنية، أصرت، وكل أشكال الأقمطة التي تتناسب مع السوائل والجوامد المتنوعة التي يُطلقها. كانت تأمرنا وكأننا معاونون مستأجرون، ونصاع نحن لكل أمر.

في الواقع، كانت تحكم بيتنا -عربةٌ كانت أم فيلاً- منذ عشية العام الجديد تلك، ولسبع سنواتٍ، حتّى عام 1769، جعلتنا نشترى لها كوخًا يُطلُّ على خليج نابولي. أعتقد أنها ما زالت تعيش هناك، تهرس حبّات العنب بقبضتيها الهائلتين لتحوّل عُصارتها إلى نبيذ.

\* \* \*

وهكذا كانت جماعتنا تتكوّن من ستة أشخاص ونحن نعبر الألب ذلك الشتاء. أسرعنا عبر سألزبرج وإنسبروك ووصلنا إلى معبر برينر الواطئ مع بدء ذوبان الجليد المبكّر بالضبط. وبحلول الربيع، سمعتُ إيطاليّةً على ألسنة مزارعين بلا أسنان وبناتهم ذوات الشعر الأسود والأعين البرّاقة. تردّدت اللغة التي ظننتُ ذات مرّة أنها خلقت للأوبرا فقط كشدو الطيور فيما نعبر بساتين الكستناء. بذلنا الأحصنة مرارًا وتكرارًا، وازدادت الشمس دفنًا كل يوم. كنّا نجلس على سقف العربة فيما تاسو يقود بنا عبر السهل القينيّ، وريموس مُنبطخٌ بكتاب. ينادينا نيكولاي للنظر إلى العجائب التي يزعم أنه يراها بعدساته: حبّات عنب متفخة تنضج في مارس، شذرات ذهب متناثرة على الطريق، طيور بضعف حجم الإنسان تطير أمام الشمس.

أشدو بالأغنيات التي سمعتُ جواداني يتدرّب عليها في منزله، ويتوقّف المزارعون عن حلب أبقارهم لينصتوا فيما تمرُّ بهم. يطاردنا الأطفال في انشدها. وفي وسط كل ذلك، على رأس تلك العربة الهائلة، تجلس الأنسة شميك متصالبة الساقين، كإلهة للخصوبة، بشدي متكور واحد يجفّ في الشمس، والآخر يحتضنه طفل مُسمّن، مُنغمسًا في اجتراع الحليب.

\* \* \*

أتذكّر يومًا، قبل تلك الرحلة عبر جبال الألب بأعوام كثيرة جدًّا، في نيبلمات، وأنا جالسٌ على حافة برج أجراس كنيستنا وأُمّي تفرع الأجراس. أطلّح إلى التفافات طريق أوربي بعيدًا في الأسفل، عبرها يتقدّم رتلٌ من الجنود ببطء. كان اليوم ساكنًا لدرجة أنه بمقدوري سماع قعقة السيوف وهتافات سائقي العربات. لا بُدَّ أنني تناولتُ بعنقي ومِلتُ للأمام قليلًا، غير واعٍ بالحافة، تواقًّا لاستكشاف تلك الكائنات الغرائبية التي تحتشد أمام مُستقرّي. لا أعتقد أنني كنتُ

لأسقط، لكن أمي، رغم استغراقها في أجراس، جفّلت بغتةً بانحنائي البسيط. تزكّت مطارقها وقبّضت على كلتا ذراعيّ، وسحبتني بعيداً عن الحافة. احتضنتني بقوة. بدا وجهها مُرتاعاً لحدّ أنني أشرْتُ إلى الرتل على الطريق وكأنني أقول، أمي، كنتُ أنظر إلى الجنود فحسب. لم تسمع شيئاً بالطبع، لكنها ضيّقت عينيها ورأت المعدن المتلألئ: الثعبان البشري ينزلق عبر الطريق. ثم علا الحزن وجهها. نظرت إلى الجنود ثم إليّ، وكأنها تقول، أوه بُنيّ، أنا في غاية الأسف.

لم تكن لديّ أي فكرة ماذا كانت تعني حينها.

لكن بعد سنوات، جالساً في تلك العربية، بصحبة أصدقائي وابني، وإيطاليا تفتح أمامنا، أدركتُ أخيراً: أنا في غاية الأسف أنني جعلتُ عالمك صغيراً هكذا، أرادت أن تقول لي هذا. وحينها ابتسمتُ على سطح عربتنا، لأنني أدركتُ أنها كانت تتمنّى لي كل هذا.

نيكولاي، بُنيّ، هل عوّضتُك عن كل ما سرقته منك؟ هل يكفي الحبُّ بديلاً للثروة والحظوة التي كانت تنتظرك؟ إرثك المُضاعف؟ عُدّ بذاكرتك إلى كل ماضيك: حياتنا في لندن، نحن الاثنان فحسب. مجدّ عالٍ لدرجة أن الحشود تتألب على عربتنا. ربما تتذكّر أنه كان لديّ غرامياتٌ أخرى، رغم أنها في قلبي لم تكن سوى صدى لغرامي الأول. ألا تُذكّرك رائحة روث الأحصنة بأسفارنا عبر الأراضي الإيطالية في عربتنا السوداء العظيمة؟ في ذلك الوقت، كانت لعربتنا ستائر من الساتان ومفارش من أفخم الأنواع، وعملاتُ الذهب والفضة - ثمرة نجاحي - تتساقط على الأرض في كل مرة تنفض فيها الأنسة شميك دُثُرنا.

بالتأكيد تتذكّر شيئاً ما من أعوام نابولي. كان لديك حينها ثلاثة حجور لتجلس عليها، بالإضافة إلى حجر أبيك. كان لديك مُربيّة، أحببتها كجدة. كان لديك تاسو الضئيل، الذي ستفوقه طويلاً قريباً. كان لديك رموس، تناديه بالعمّ، و تسرق كتبه وتخفيها تحت فراشك.

لكنَّ الرابع، نيكولاي، سَمِيكَ، أنا على ثقة أنك نسيته. اضطررنا إلى تركه وراءنا في فينيسيا. دفنناه تحت حجارة رَصْفٍ في شارع ضيق، كما جرت العادة في المدينة، بلا علامة من أي نوع. كنَّا قضينا ستة أشهر فحسب بعد أن وصلنا إلى تلك المدينة التي طالما حَلَمَ بزيارتها. وجده ريموس مَيِّتًا ذات صباح، بعد أن سقطَ على وجهه في صلاته الراكعة الليلة الفائتة.

أما عن حياتنا في فينيسيا، فحتَّى وإن لم تتذكَّر الكثير، فأنت تعرفها جيدًا، من ناحية لأننا تحدَّثنا عنها سويًّا ومن ناحية لأنها تُشكِّل جوهر الأسطورة. يسجِّل التاريخ وَقَعَ خطوات أبطالها، وفي أواخر عام 1763، في ليلة ظهوري الأول على تياترو سان بينديتو، صرْتُ بطلًا. كل سِجَلٍ لصوتي يحكي كيف أذهلتُ الجمهور في فينيسيا، فيما تحكي المجلَّدات الأضخم عنك أيضًا في ذراعيَّ فيما النساء الجميلات يُطِرُنَا ببتلات الأزهار من مقصوراتهن. منذ ذلك الربيع، سُجِّلَت حياتي من قبل كثيرين آخرين وهي سِجَلات ليس لي أن أحكيها. لكنني احتفظتُ بسرٍّ واحد آخر.

في ذلك الربيع بعد فرارنا من فيينا، انطلقَ تاسو بعربتنا حتَّى أوشكنا، لو لَوَّحَ بسوطه مرَّةً واحدة أخرى، على السقوط في البحر. ثم هبطنا جميعًا من مجاثمنا: تاسو الضئيل، نيكولاي العملاق، ريموس القبيح، المُربِّيَّة الغوريلا، الموزيكو، ورضيعه. لم يخطر على بال أحد أن يخبرني أن فينيسيا جزيرة، وهو ما كان سببًا كافيًا لي لأختار وجهةً أخرى. ارتجفتُ وقلت إنني لن أضع قدمي على المعدِّيَّة. أمسكني نيكولاي والأنسة شميكَ أرضًا فيما وضعَ ريموس عصا بة على عينيَّ. ورغم ذلك، فيما أستلقي على ظهر المركب، تمنيتُ لو كان لديَّ شوال من الحنطة لأعانقه.

وحينها وصلنا. أذهلتنا القصور الغارقة في البحر. أمسك ريموس  
بمرفق نيكولاي حتى لا يتعثّر ويسقط في الماء المُنْتِن. تهادينا عبر الأزقة  
الضيقة واشترينا للآنسة شميك كل ما تاقت إليه من ملابس وعطور  
وحُلّٰي. في بياتزا سان ماركو عويّت في بهجةٍ عندما رأيت السفن في  
قناة دي سان ماركو. حدّق نيكولاي عاليًا في ظلّ كاتدرائية سان ماركو  
البازيليكا. أومأ لي ثم خطا إلى الكاتدرائية كجندي مُستعدّ لمواجهة  
عدو يفوقه عُدةً وعتادًا. احتشد الباعة الجائلون حول الآنسة شميك.  
ربّتت وشمّت وتذوّقت كل شيء عرضوه عليها. أنفقت الكثير من  
ذهبنا. شرّد تاسو إلى المياه وحدّق بعيدًا إلى السفن في البحر. وحده  
ريموس بقي معنا. كان يتسمّم إليّ.

"هل ستنظرننا هنا بالضبط؟" سأله.

"بالطبع"، أجابني.

ثم صرنا أنا وأنت بمفردنا. حملتُك عبر أزقة ضيقة لم تر الشمس  
قط، على جسور توقّفنا عليها حتى تُحدّق في الجندولات تنساب من  
تحتنا. سألتُ كل مَنْ صادفته، أين المسرح (Dov' è il teatro)؟ ثم  
أشاروا لي، وصرنا إلى حيث أشاروا، لكن عندما شهقت وقبضت بيدك  
على عمود من ضوء الشمس يتلألأ على نوافذ قصر وفي ذا جراند  
كنال، أخذنا ذلك الاتجاه. ضعنا مرارًا وتكرارًا، لكن كل عابر ساعدنا  
للُمضي قدمًا، حتى وصلنا أخيرًا إلى المسرح المنشود، تياترو سان  
بينيدتو، الذي طالما همستُ به أنا وأُمك لبعضنا البعض. كان الوقت  
في أوائل الظهرية، والميدان الصغير خاوٍ، رغم أنني سمعتُ البروفات  
تأتي من داخل المسرح. كان للمبنى واجهة عظيمة بأعمدة نصف  
غارقة في الجدار وثلاثة أبواب مزدوجة من البلوط المصقول. جلسْتُ  
على الدُرج ووضعتك على ركبتي.

"نيكولاي"، قلت. "نحن هنا".

تطلّعت إلى فمي وتقاظرت على ركبتَي.

"أتمنّى لو كانت معنا هنا، لكنها ليست معنا. سأفعل ما قالت إنني ينبغي أن أفعله. سأطرق على تلك الأبواب حتى تفتح ويسمحوا لي بالغناء. سيجعلوننا أثرياء، وسيعرف الجميع اسمي. هذا ما قالت إنه سيحدث، وأنا على يقين أنها مُحِقَّة. نيكولاي، لا يمكن أن نتحدّث عنها مُجدِّداً أبداً. كل ما حدث يجب أن يظَلَّ سرّاً. لا يمكن أن نسمح لأحد أن يربط بين ذلك الطواشِيّ البائس في قُبينا بالمولوزيكو الذي سأصيره. لا ينبغي أن يعرف أحدٌ أنك ابنٌ مسروق. لا أريدهم أن ينتزعوك مِنِّي.

تطلّعت من شفتيّ إلى عينيّ، الممتلئتين بالدموع. لم تفهم كلمةً ممّا قلْتُ. لكنك أدركت أنني حزين، وبدأت شفتك السفلى تنثني. نهضتُ، وخطونا جيئةً وذهاباً عبر الميدان الفارغ. وضعْتُك على كتفي. عانقتك بقوة، وتركتُ العالم ينتظر صوقي عشر دقائق أخرى؛ ذلك أنه، في تلك اللحظة، غنيتُ لك وحدك يا بُنيّ.



## تنويه المؤلف

في البداية، ألهمتني أصواتٌ حقيقية: زوجتي تشدو بأغنية من أروفيوس جلوك؛ دويٌّ حادٌ، رنّان، من برج كنيسةِ البَيَّةِ صغيرة؛ قعقعة أجراس أبقار سويسرية، سَجَلٌ لأناشيد قروسطية حبيسة دير سانت غال. مع البحث الذي تلا ذلك، انطلقتُ في وضع سياق تاريخي دقيق لأطلق فيه شخصياتي الخيالية.

تم حلُّ دير سانت غال، بإيعازٍ من نابليون، في عام 1805؛ ممّا جعل رئيس الدير كويلستن جاجر فون شتاوداخ (1701-1767) رئيس الدير الثالث قبل الأخير. أشرفَ رئيس الدير كويلستن على التطويرات الباروكية المذهلة لهذا الدير الذي يبلغ عمره الألف عام، واشتملَ هذا على إنشاء كنيسة سانت غال، المُدرجة الآن في مواقع اليونسكو للتراث العالمي.

للتحقُّق من جغرافيا فيينا في القرن الثامن عشر، اعتمدتُ على كتاب «خريطة لقلب مدينة فيينا *Vogeschauplan der Wiener*



"Innenstadt" (1785) لجوزيف دانييل فون هوبر. مع بداية القرن التاسع عشر، هُدمَت حانات سبيتلبرج المتهالكة سيئة السمعة في معظمها، لكن ما أتصور الآن أنه كان منزل نيكولاي وريموس في شارع بورجاسه ما زال موجودًا حتّى يومنا هذا، والطابق الأرضي ما يزال مقهىً بديعًا حقًا. يستند قصر آل ريشر على قصر فورست فون كليري؛ ومنزل جواداني، على بناء أكثر تواضعًا قرب البوابة الاسكتلندية. لا يوجد أيُّ منهما اليوم. الكثير من أوبرات جلوك وموتسارت وبيتهوفن عُرضت لأول مرة في مسرح بيرج قبل هدمه في 1888. تستند تفاصيل آليات المسرح وخشبة المسرح السفلية لتاسو على المسرح الباروكي المرّم بشكل مُذهل في شيسكي كروملوف.

عُرِضَت "أورفيوس ويوريديس *Orfeo ed Euridice*" لأول مرة في 5 أكتوبر، 1762، والأحداث التي أدّت إليها، بما في ذلك العرض التمهيدي في 6 أغسطس، 1762 (الذي قُدِّم في منزل كالزابيجي وليس في منزل جواداني)، سُجِّلَت في اليوميات الدقيقة للكونت كارل كينزيندورف. لا يوجد سوى مُراجعتين، هزيلَتَيْن للغاية، للعرض الافتتاحي، في عدديّ "يوميات فيينا *Wienerisches Diarium*" اللذين نُشرا بعد العرض، بتاريخَي 6 و13 أكتوبر. لم تذكر أيُّ من المُراجعتين أسماء المؤدّين. وضعتُ قائمة "موسى" للنبلاء الذين حضروا العرض الافتتاحي من سجلات اشتراك مسرح بيرج.

رحلَ جلوك نفسه عن فيينا إلى باريس عام 1774، وهناك أعاد كتابة مسرحيته "أورفيوس"، مُغيّرًا البطل من مؤدّ طواشي، ميتزو-سوبرانو، إلى صوت تينور. عادَ جايتانو جواداني إلى لندن في 1767، لكنه أخفق في الحفاظ على مستواه المعروف، فرحلَ بعد سنتين بعد أن خسر شعبيته. انتهى به الأمر في بادوا، حيث عُرف بغنائه عروض العرائس السولو المقتبسة من "أورفيوس" جلوك. ماتَ مُفلِسًا في 1792، بعد أن تخلّى عن ثروته لتلاميذه الكثيرين.

تمَّ صبُّ جرس البوميرين في عام 1705 من 208 مدافع تركيّة، وبقيَ حتّى عام 1944، عندما دُمّر في حريق أشعله ناهبو الحروب. ثم أُذِيبَ، وأعيد صبّه وتعليقه في عام 1957. يُقرَع كل عام للاحتفال بالعام الجديد. ويشاهد النمساويون الجرس المتأرجح على التلفزيون الوطني.

في وقتٍ ما من عام 1750، جلبَ الكونت كارل إيوجين طبيّين إيطاليّين إلى شتوتغارت لغرض إخفاء الصبيان؛ وبهذا فإن بلاط الدوق كان المكانَ المعروفَ الوحيد للإخفاء المُنظَّم شمال الألب. في إيطاليا، استمرَّ إخفاء الصبيان لدور أوبرا أوروبا طوال القرن التاسع عشر، رغم أن العصر الذهبي للموزيكو انقضى مع تزايد تفضيل الأوبرات الرومانسية لصوت التينور. غنّى الموزيكو الأخير، أليساندرو موريشي، في الجوقة الباباوية حتّى عام 1913.

في مواضع قليلة للغاية، عندما تتعارض قصتي مع التاريخ، تنتصر القصة الخيالية. لم تنتهِ معظم أعمال كنيسة شتاوداخ الرهيبة إلّا في عام 1766، متأخراً جدّاً على إخفاء موسى من أجل أوبرا جلوك. بدأ لي تحريك الإنشاءات بضع سنوات للوراء ذنباً هيئاً، في مقابل فرصة مزامنة البناء البديع مع أوبرا جلوك المذهلة، وكلاهما، بعد مُضيّ أكثر من مائتي عام، ما يزالان رموزاً خالدة على ذلك العصر.

مكتبة

t.me/soramnqraa



## شكر وعرفان

أنا في غاية الامتنان لألكسندرا مينديس-ديس على الساعات الطويلة التي قضتها في القراءة والتعليقات، على بُعد محيط وستّ مناطق زمنية. أدينُ لبريدجيت توماس لإضافاتها وتحسيناتها القيّمة جدًّا في اللغة والأسلوب. والشكر للكتاب في ثين رافت، بازل، على تشجيعهم لسنوات.

إلى دان لازار في رايرتس هاوس، أشكرك على منحك الرواية حياة جديدة، وعلى جعلها أفضل كثيرًا. الشكر أيضًا لستيثن بار على آرائه العظيمة. في سارة نايت، وجدتُ مُحَرِّرةً مذهلة، أبقاني حماسها الذي بلا حدود ماضيًا قديمًا. ممتنٌ لشاي أريهارت، كيرا والتون، كارين شولز، ليندا كابلان، أنسلي روسنر، سارة بريفوجل، هيثر لازار، باي بيرج، كاتي وايزرايت، راشيل بيركوفيتس، جيل فلاكسمان، وكريستين كوبراش؛ على دعمهم وعملهم الدؤوب. أشكركم دومنيكو سبوزاتو

وزملائي الآخرين في مينفيرا شولين بازل، وفرانس جشتيتز، وإرنست  
زوشلنج، والقساوسة في كاتدرائية القديس ستيقن.  
أمي وأبي، بالطبع لم يكن لي أن أبدأ حتى دون دعمكم وإرشادكم.  
ريبيكا وسام، أشكركما على حبكم. وأخيراً، بالطبع، محيط من  
التشكرات لدومينيك؛ بدونك لم يكن الكتاب لوجود.

## نبذة عن المؤلف

ولدَ ريتشارد هارقل في نيو هامبشاير، في الولايات المتحدة الأمريكية، ودرسَ الأدب الإنجليزي في جامعة دورهام. يعيش الآن في بازل، سويسرا، مع زوجته وابنيه. "الأجراس" هي روايته الأولى، وتُرجمت إلى أكثر من 15 لغة.



## نبذة عن المترجم

عماد منصور، 1983 -

مُترجم وروائي من مواليد القاهرة، حاصل على ليسانس آداب قسم لغة إنجليزية من جامعة القاهرة، ترجمَ العديد من المقالات النقدية والسينمائية في دورياتٍ مثل: مجلة "عالم الكتاب"، و"مجلة الفيلم". صدرت له رواية "تحت السَّمع والبَصَر" عام 2014، وترجمة "يوميات كافكا" عام 2019، وعن دار المحروسة صدرت له ترجماتٌ مثل: "ألواح موسى" لتوماس مان، والترجمة العربية الأولى لرواية "ماتيلدا" لماري شيلي، و"الرجل الذي كان الخميس" لـجي كيه تشسترتون، و"طفل فيلا" لدالين ماتي، و"ليليث" لجورج ماكدونالد، نابليون في نوتنج هيل لـجي كيه تشسترتون.



# الأجراس

في آخر أضواء المساء الوردية، رأيتُ زوجة الرسّام في البورتريه، كان يستلقي ساكناً على الأرض حيث كانت أماليا قد ألقتَه في غضبها، احتضنتُ قاشة الرسم إلى صدري وتذكّرت حينها أن الرسّام في حزنه، قد رسمَ بورتريهاً لها بدمائه. فقط لو أستطيع سكب دمائي في أغنية!

بين العاطفة والشجاعة، الموهبة والكفاح، الحب والغيرة، تندفق بعذوبة حكاية رائعة عن مغني الأوبرا الشهير موسى فروون الذي يمتلك على نحو فريد موهبة في أذنيه وجمالاً في صوته ومأساة في حكايته.

telegram @soramnqraa

عشمان ستور كرم هشام  
تصميم الغلاف:

المحررة

ISBN 978-977-313-984-1



9 789773 139841

